السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ وَعُلُومُهَا

دراسة تحليلية للسنة النبوية وعلومها فى أعظم عصور التدوين
ودفاع عن السنة ورد لشبهات المستشرقين وأعداء الاسلام

دكتور أحمد عمر هاشم

عميد كلية أصول الدين
جامعة الأزهر
(بالزقازيق)

الناشر
مكتبة غريب
٣٥١ شارع كامل صدقى (الفجالة)
تليفون : ٩٠٢١٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد

فإن للسنة النبوية المطهرة مكانتها فى الاسلام ، ومنزلتها الهامة فى الدين فهى المصدر الثانى للتشريع الاسلامى بعد القرآن الكريم .

بل إنها تستقل بالتشريع فى بعض الأحكام، على رأى البعض ولذا عُنى العلماء بالسنة النبوية وتدوينها وتصنيفها وشرحها سلفا وخلفا ، كما عنوا بعلومها ومناهجها ، وقواعدها ، والدفاع عنها ضد مطاعن أعدائها قديما وحديثا ، ورد ما أثاره المستشرقون من شبهات وأباطيل .

وفى كل جيل من الأجيال ، وفى كل زمان يظهر هذا النوع من أهل الباطل ممن فى قلبه زيغ ، أو ممن أصيب بالغرور العقلى ، فراح يحكم عقله فى بعض الأحاديث الصحيحة ، ويزعم أنها لا تتمشى مع العقل جاهلا ، أو متجاهلا ، ان الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى !!

وبعض هؤلاء يرى فى نفسه كأنه أعلم من البخارى ومسلم ، وأن كِتَابَيْهما اشتملا على الأحاديث الضعيفة ، وخطورة هذا الفكر البشرى الجديد أنه يفتح الباب للطعن فى أصح كتب الحديث التى تلقتها الأمة بالقبول ، وبالتالى يمهد للطعن فى السنة كلها !!

لذا تجىء هذه الطبعة الثانية من كتابنا : « السنة النبوية وعلومها » لتحمل الرد على هؤلاء وغيرهم ، مشتملة على بعض التنقيحات .

أسأل الله تعالى أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وصلى الله على صاحب السنة المطهرة سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ؟

المؤلف

أ د. أحمد عمر هاشم

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين ، صاحب السنة المطهرة ، المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعـــد

فان للسنة النبوية الشريفة منزلتها فى الدين ، ومكانتها فى الاسلام فهى المصـدر الثانى للتشريع الاسلامى بعد القرآن الكريم ، وهى حجة فى اثبات الأحكام .

ولقد وضح الله تعالى أن رسوله عليه الصلاة والسلام هو المبين لما أنزل من القرآن فقال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » .

وأمر الله تعالى المؤمنين أن يعملوا بما جاءهم به الرسول ﷺ وأن ينتهوا عما نهاهم عنه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

ولما كان للسنة النبوية هذه المكانة ، وتلك الأهمية العظمى ، فقد وقف رجال السنة أنفسهم على حمايتها وصيانة اعظم تراث فى الوجود ، وكان جهادهم كجهاد الرابضين على خطوط الدفاع الأمامية ، يصونون الثغور ، وينـافحون عن الـوطن ، بل ان المحـدثين بجهادهم فى سبيل عقيدتهم ، ودفاعهم عنها كانوا اعظم أثرا وتأثيرا ، بما بذلوه من جهود تذكر فتشكر .

هذا والأمة الاسلامية اليوم بحاجة الى إبراز الجوانب الاسلامية الجديرة بالبحث والتحليل ، لتتلاقى مع التوسع فى شتى المجالات الاجتماعية والتـربويـة والاقتصاديـة وغيرها .

وفى هذا الكتاب ، دراسة تحليلية للسنة النبوية وعلومها فى أعظم وأزهى عصور التدوين ، وهو القرن الثالث الهجرى الذى أطلق عليه العلماء أنه العصر الذهبى لتدوين الحديث ، حيث أشرقت فيه كتب السنة وعلى رأسها مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وأشرقت الكتب الستة التى لم تدع من صحيح الحديث سوى النزر اليسير ، وهى صحيح البخارى وصحيح مسلم وجامع الترمذى ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن ابن ماجه . . . وغير ذلك من المدونات الحديثية .

وفى هذا العصر الموصول بسابقه ولاحقه تم استقلال الحديث عن غيره من أقوال الصحابة والتابعين ، وقامت نهضة علمية شاملة تجاوبت أصداؤها فى مشارق الأرض ومغاربها .

وفى هذا الكتاب عرض لجهود أئمة الحديث النبوى فى تدوين السنة وحفاظهم عليها ، وابتكارهم فى سبيل ذلك أعظم علم عرف فى تحقيق الأخبار وتوثيقها وهو علم مصطلح الحديث ، حيث وزنوا كل خبر جاءهم بأدق طرق النقد التى لا تعرف الدنيا لها مثيلا ، ولم تظفر أمة من الأمم بما ظفرت به هذه الأمة من الاسناد الصحيح المتصل .

ولما كانت بعض الكتابات الحديثة المغرضة ، قد تناولت السنة النبوية ، وظهرت دعاوى رخيصة تدعو الى الاكتفاء بالقرآن كما صنع أعداء السنة قديما ، فقد رأيت أن أعرض لهذه الشبهات وأفندها وأرد عليها وأوضح جهود أئمة الحديث فى مقاومة الوضاعين واعداء السنة ، وكيف ان المحدثين نهضوا بتدوين السنة ، وحصروا الرجال الثقات ، بل ان بعضهم قام بحصر الرجال الضعفاء والأحاديث الضعيفة والموضوعة ليعرفها المسلمون ويحذروها ، ونتج عن تدوين السنة تسهيل مهمة الفقه الاسلامى ، فبعد أن كان الفقيه يبحث عن الحديث الصحيح ليستنبط منه الحكم أو يعرف به تفسير الآية من القرآن ، أو ليستدل به على مسألة من المسائل ، أصبح يجده دون عناء مدونا فى تلك الكتب .

كما عرضت لمناهج أئمة الحديث ووازنت بينها ، وترجمت لحياة أصحابها ، أولئك الأبرار الذين نذروا حياتهم لخدمة سنة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام .

والله اسأل أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به المسلمين ، وأن يغفر لى ولوالدى ولسائر المسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدكتور أحمد عمر هاشم

تمهيد

الحمد لله الذى انزل القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وأعد فيه لكل شىء موعظة وتبيانا ، وجعل السنة النبوية له شرحا وبيانا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فقد بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا محمدا صلوات الله وسلامه عليه الى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وجعل رسالته عامة فى الزمان وفى المكان وخاتمة لجميع الرسالات ، قال تعالى : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السماوات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »(١) .

وضمانا لعموم الرسالة وخلودها أنزل الله تعالى دستوره السماوى ، ليحقق العدل الإلهى فى الحياة ، وليكون هدى للمتقين ، حاملا أسس الرسالة العامة الخالدة وأسباب السعادة فى الدنيا والآخرة ، وقد تكفل الله تعالى بحفظه ، قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »(٢) . وأمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام ان يتبع ما انزل اليه ، وعصمه من الناس ، قال تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين »(٣) . كما عصمه أيضا من الخطأ والهوى « وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحى يوحى * علمه شديد القوى »(٤) ، وذلك ليقوم بمهمته الشريفة ويبلغ رسالة ربه ويبين للناس ما نزل اليهم ، فان عقول الناس لا يمكنها فهم جميع ما ورد فى القرآن الكريم ، وانما هم فى حاجة الى توضيح المبهم ، وتفصيل المجمل وتقييد المطلق وتخصيص العام ، وهذا هو البيان المقصود بقوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون »(٥)

---

(١) سورة الاعراف آية « ١٨٥ » .

(٢) سورة الحجر آية « ٩ » .

(٣) سورة المائدة آية « ٦٧ » .

(٤) سورة النجم الآيات « ٣ - ٥ » .

(٥) سورة النحل آية « ٤٤ » .

وقوله تعالى « وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »[٦] . ولذا كانت السنة النبوية تمثل المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم .

ولما كانت السنة النبوية مبينة للقرآن الكريم ، وحجة فى اثبات الاحكام ومصدرا ثانيا فى التشريع فقد وضحت منزلتها الجليلة فى الدين ، وكانت من الأهمية بمكان بحيث يجدر بالباحثين أن يتناولوها بالدراسة والبحث .

وقد تناول كثير من الكتاب دراسة السنة قبل التدوين ، ومكانتها فى التشريع ، أو دراسة شخصية من أعلام المحدثين ، أو التأريخ للسنة فى جميع أدوارها . أما دراسة السنة فى القرن الثالث الهجرى افرادا بالتأليف ، فلم يحظ هذا الطور ببحثه متكاملا على حدة ، وإضافة الى ذلك فقد برزت لدىَّ بعض اسباب لاختيار هذا الموضوع :

أولا : دعت الحال فى القرن الثالث الهجرى الى ضرورة عمل جديد فى التدوين يهدف الى خدمة السنة وتخليصها مما اختلط بها ، وتمييز صحيح الحديث من سقيمه وتيسير الافادة منه .

ثانيا : كان القرن الثالث أزهى القرون بتدوين السنة حيث لقيت فيه عناية كبرى فى الرواية والدراية ومناهج التصنيف وفهم النصوص ، وقام فيه أول عمل للتدوين يهدف الى جمع أحاديث الاقطار المختلفة ، وتمثل ذلك أولا فى مسند الامام أحمد بن حنبل الذى يعتبر أول جامع لاحاديث الامصار ثم أشرقت بعده الكتب الستة التى لم تدع من صحيح الحديث سوى النزر اليسير .

ثالثا : وبتتبعى لمناهج المحدثين فى هذا القرن وجدتها وكأنها سلسلة متصلة الحلقات كل منهج يسلم لما بعده ، فمنهج أصحاب المسانيد يقوم على تدوين الأحاديث التى رواها كل صحابى على حدة وتجريدها من أقوال الصحابة والتابعين ، الا أنهم لم يميزوا الصحيح من غيره فجاء بعدهم البخارى ومسلم فتم افراد الصحيح بالتدوين ثم قام بجوار ذلك منهج آخر تم فيه جمع بعض الاحاديث التى قد يوهم ظاهرها التناقض ووفقوا بينها ودافعوا عنها كما هو الحال فى كتاب « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة ، ثم تفرع عن هذه المناهج طرق اخرى كانت بمثابة جداول متدفقة بجوار هذه البحور . وأصبحت هذه

---

(٦) سورة النحل آية « ٦٤ » .

المناهج متحدة الهدف فى صيانة الشريعة الاسلامية ونشرها ، ومجتمعة فى ظاهرة حرص جميع المصنفين برغم اختلاف مناهجهم عليها وهى أن يدونوا الأحاديث باسانيدها الصحيحة المتصلة الى رسول الله ﷺ ، وساعدهم ذلك على التمييز بين الصحيح وغيره ، وبذلوا فى سبيل الاسناد الصحيح المتصل جهودا لا مثيل لها ، ولذا قيل : ان الاسناد من خصائص هذه الأمة .

وقد تناولت فى هذا الكتاب تدوين السنة فى القرن الثالث الهجرى ، وليس هدفنا من دراسة السنة فى هذا القرن أو دراسة مناهج تدوينها فيه ، الاشادة بماضينا المزدهر ، وتراثنا الخالد فحسب ، وانما هدفنا الدفاع عن السنة ضد المطاعن التى أثيرت حولها فى القديم والحديث ، وتوضيح مناهج التدوين مع الموازنة بينها ، وبيان أثرها فى العصور المتأخرة . أما عن رجال السنة الامناء المتقنين فقد بينت نشأتهم ، وحياتهم العلمية ، وابرزت وسائل التكوين العلمى بالنسبة لهم ، عن طريق الشيوخ الذين اخذوا منهم ورووا عنهم ، وعن طريق ما قاموا به من رحلات علمية استهدفوا بها التبحر فى العلم ، والزيادة منه ، فكان لهذه الرحلات اثرها فى معرفة علماء كل مصر بما وصل اليه سائر الامصار .

كما بينت ما كان لهم آنئذ من وسائل النشر العلمى المتمثلة فى التدوين وتكوين التلاميذ الذى يعتبر من الأعمال العلمية الهامة ، هذا بجانب تأليف المصنفات ، والكتب الخالدة التى دونوا فيها السنة النبوية ، أما ما اتصفوا به من صفات الذكاء والحفظ والاتقان والسماحة والكرم والعزة والزهد ، وما الى ذلك من الصفات الظاهرة فقد وضحت منها ما تدعو اليه الحاجة فى بيان جهودهم وإدراك جمال الباطن ونقائه واتصالهم بالله ، فلم يكونوا على جانب هذه المكارم الا بشدة اتصالهم بالله ، حتى جمعوا بين العلم والعمل .

وهكذا وقف رجال السنة أنفسهم على حماية الشريعة الاسلامية وصيانتها وتبليغها فكان جهادهم كجهاد الرابضين على خطوط الدفاع الأمامية يصونون الثغور وينافحون عن الوطن ، بل ان المحدثين بجهادهم فى سبيل العقيدة ودفاعهم عنها كانوا أروع أثرا وأعظم . ومن ناحية اخرى : فقد كانوا امتدادا لرحمة الله تعالى التى تداركت هذه الأمة ، وتمثلت اولا فى الرسول ﷺ المبعوث رحمة للعالمين ثم تمثلت من بعده فى ورثة تراثه من رجال السنة الابرار .

هذا ونحن فى مرحلة حاسمة من مراحل البناء والتكوين بحاجة الى ابراز الجوانب الاسلامية الجديرة بالبحث والتحليل ، لتتلاقى مع التوسع المدنى فى السياسة والتربية والاجتماع لهذا كله اقدمت على هذا البحث بروح الغيور على دينه المحب لسنة نبيه ﷺ .

« وجاء الكتاب فى مدخل ، وأربعة أبواب ، وخاتمة » .

أما المدخل : فيشتمل على :

١ - التعريف بالسنة .
٢ - منزلتها فى الدين .
٣ - الاطوار التى مرت بها فى القرنين الاول والثانى .

الباب الأول : الحالة السياسية والفكرية فى القرن الثالث الهجرى .
وفيه فصلان :
الفصل الأول : ويشتمل على ثلاثة بحوث :
١ - الحالة السياسية وأثرها فى تقدم العلوم .
٢ - النزاع بين المتكلمين والمحدثين .
٣ - اثر النزاع بين المعتزلة واهل الحديث .
الفصل الثانى : ويشتمل على بحثين :
١ - الوضع وأسبابه فى القرن الثالث الهجرى .
٢ - مقاومة المحدثين للوضاعين .

الباب الثانى : تدوين الحديث فى القرن الثالث وفيه فصلان :
الفصل الاول : ويشتمل على بحثين :
١ - مناهج تدوين الحديث .
٢ - التدوين على المسانيد .
الفصل الثانى : ويشتمل على بحثين :
١ - الصحيحان والمقارنة بينهما .
٢ - السنن الأربعة .

الباب الثالث : الجهود المتممة لأعمال علماء القرن الثالث وفيه فصلان :
الفصل الأول : نهضة بعض العلماء بتدوين الحديث .
الفصل الثانى : وفيه بحثان :
١ - بعض العلوم التى صاحبت تدوين الحديث .
٢ - مصنفات اخرى فى الحديث صاحبت تدوين السنة .

الباب الرابع : أثر علماء القرن الثالث فى العصور المتأخرة : ويشتمل على ما يأتى :
١ - مقارنة بين جهود علماء القرن الثالث وجهود من بعدهم من القرون المتأخرة .
٢ - اثر رواية السنة فى العلوم الاخرى .

الخاتمـــة :
وتشتمل على نتائج البحث .
والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يتقبله قبولا حسنا ويكتب لنا التوفيق ، ويجعلنا ممن تشرفوا بخدمة السنة النبوية على صاحبها سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام .

مدخل

ويشتمل على أربعة بحوث :

١ ـ تعريف السنة
٢ ـ منزلة السنة فى الدين وبيانها للقرآن .
٣ ـ حجية السنة .
٤ ـ الاطوار التى مرت بها السنة فى القرنين الاول والثانى .

تعريف السنة لغة واصطلاحا

السنة فى اللغة :

تطلق السنة فى اللغة بعدة اطلاقات ، فتطلق ويراد بها الوجه لصقالته وملاسته ، وقيل دائرته ، وقيل الصورة ، وقيل الجبهة والجبينان ، وكله من الصقالة والأسالة ، ووجه مسنون : مخروط أسيل كأنه قد سن عنه اللحم ، وسنة الوجه دوائره ، وسنة الوجه صورته ، قال ذو الرمة :

تريك سنة وجه غير مقرفة .. ملساء ليس بها خال ولا ندب

ومثله للأعشى :

كريما شمائله من بنى .. معاوية الاكرمين السنن

والسنة : الصورة وما أقبل عليك من الوجه ، وقيل : سنة الخد صفحته [7] أهـ .

وقال الأزهرى : السنة الطريقة المحمودة المستقيمة ، ولذلك قيل : فلان من أهل السنة ، معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة ، والسنة الطبيعة وبه يفسر بعضهم قول الاعشى السابق .

كريما شمائله من بنى .. معاوية الاكرمين السنن [8]

وقد سبق بيان أن بعضهم فسر السنن فى هذا البيت بالوجوه ، أما رأى البعض الآخر فمعناها الطبيعة .

« وقال الراغب » سنة النبى ﷺ طريقته التى كان يتحراها ، وسنة الله عز وجل قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته [9] . والسنة السيرة حسنة كانت أو قبيحة قال خالد بن عتبة الهذلى :

---

(٧) لسان العرب حـ ١٣ ص ٢٢٤ ط بيروت .

(٨) تاج العروس حـ ٩ ص ٣٤٤ ط بيروت .

(٩) المرجع السابق .

، فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها .. فأول راض سنة من يسيرها

وفى الكتاب العزيز : « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا »[١٠] قال الزجاج : سنة الأولين أنهم عاينوا العذاب ، وسننتها سنا واستننتها : سرتها ، وسننت لكم سنة فاتبعوها ، وفى الحديث : « من سن سنة حسنة فله اجرها وأجر من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة »[١١] ، يريد من عملها ليقتدى به فيها ، وكل من ابدأ أمرا عمل به قوم بعده قيل هو الذى سنه .

وقد تكرر ذكر السنة وما تصرف منها والأصل فيها الطريقة والسيرة وإذا اطلقت فى الشرع فانما يراد بها ما أمر به النبى ﷺ ونهى عنه وندب اليه قولا وفعلا ، ولهذا يقال فى أدلة الشرح الكتاب والسنة أى القرآن والحديث[١٢] . أ هـ .

وقد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة بمعنى العادة المستمرة والطريقة المتبعة فقال تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن »[١٣] وقال عز وجل : « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا »[١٤] وقال تعالى : « سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »[١٥] .

تعريف السنة فى الشرع : ظهرت للسنة تعريفات مختلفة فى لسان أهل الشرع ، وكان هذا حسب اختلاف الاغراض التى اتجه اليها العلماء من ابحاثهم ، فبعد ان تشعبت

---

(١٠) سورة الكهف آية « ٥٥ » .

(١١) وروى الامام مسلم عن المنذر بن جرير عن ابيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سن فى الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » صحيح مسلم جـ ٢ ص ٧٠٥ ، وأخرجه الترمذى بلفظ من سن سنة خير فاتبع عليها فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منقوص من أجورهم شيئا ومن سنة سنة شر فاتبع عليها كان عليه وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منقوص من أوزارهم شيئا » الترمذى جـ ٤ ص ١٤٩ وقال حديث حسن وأخرجه الامام أحمد بنحوه فى مسنده جـ ١ ص ١٩٣ الساعاتى وأخرجه الدرامى جـ ١ ص ١٠٧ .

(١٢) لسان العرب جـ ١٣ ص ٢٢٥ ط بيروت .

(١٣) سورة آل عمران آية « ١٣٧ » .

(١٤) سورة الاسراء آية « ٧٧ » .

(١٥) سورة الفتح آية « ٢٣ » .

العلوم التى تبحث فى السنة برزت هذه التعريفات محددة الغرض فى كل اتجاه ؛ « فعلماء أصول الفقه عنوا بالبحث عن الأدلة الشرعية ، وعلماء الحديث عنوا بنقل ما أضيف الى النبى ﷺ ، وعلماء الفقه عنوا بالبحث عن الاحكام الشرعية من فرض وواجب ومندوب وحرام ومكروه ، والمتصدرون للوعظ والارشاد عنوا بكل ما أمر به الشرع أو نهى عنه »[١٦]

أما علماء الاصول : فعرفوا السنة بأنها هى كل ما روى عن النبى ﷺ مما ليس قرآنا من أقوال أو افعال أو تقريرات مما يصلح ان يكون دليلا لحكم شرعى .

وبعض الأصوليين أطلق لفظ السنة على ما عمل به أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه سواء كان ذلك فى القرآن أو مأثورا عن الرسول عليه الصلاة والسلام أو اجتهد فيه الصحابة كجمع المصحف وتدوين الدواوين .

وأما علماء الفقه : فعرفوا السنة بأنها : هى ما ثبت عن النبى ﷺ من غير افتراض ولا وجوب فهى عندهم صفة شرعية للفعل المطلوب طلبا غير جازم ، ولا يعاقب على تركه « وتطلق على ما يقابل البدعة كقولهم : فلان من أهل السنة »[١٧] « أ . هـ » .

السنة فى لسان علماء الوعظ والارشاد : هى المقابلة للبدعة ، فيقال عندهم : فلان على سنة اذا عمل على وفق ما عمل عليه النبى ﷺ سواء كان ذلك مما نص عليه فى الكتاب العزيز أو لا ، ويقال : فلان على بدعة اذا عمل على خلاف ذلك .

السنة فى اصطلاح المحدثين : هى أقوال النبى ﷺ وافعاله وصفاته وسيره ومغازيه وبعض اخباره ، وقصر بعض العلماء التعريف على (أقوال النبى ﷺ وافعاله وأحواله)[١٨] ، وهو يشتمل على ما سبق ، لأن الاحوال تتضمن اخلاقه الكريمة ، وصفاته العظيمة وتتضمن افعاله الحسنة ، وقال بعض العلماء هى « ما أضيف الى النبى ﷺ قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة »[١٩] . والتعريفان متقاربان . ويتفق كل منهما فى أن السنة النبوية فى اصطلاح علماء الحديث النبوى هى أقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأفعاله وتقريراته وصفاته الخُلقية والخَلقية ، فيدخل فى هذا معظم ما يذكر فى سيرته كوقت ميلاده ومكانه وتحنثه فى غار حراء ، وغير ذلك مما يذكر قبل البعثة أو بعدها .

---

(١٦) الحديث والمحدثون ص ١ .

(١٧) ارشاد الفحول ص ٣١ .

(١٨) تدريب الراوى ص ٥ .

(١٩) قواعد التحديث ص ٦١ .

شبهة وتشكيك

١ - الشبهة : زعم بعض الباحثين أن المسلمين أخذوا كلمة « سنة » من كلمة « مشناه » العبرية التى اطلقها اليهود على مجموعة الروايات الاسرائيلية ، واعتبروها شرحا للتوراة ومرجعا لهم فى تعريف احكامها وأن المسلمين عربوها بكلمة سنة واطلقوها على مجموعة الروايات المحمدية ، واعتمدوها لاحكام دينهم كما فعل اليهود .

الرد على ذلك : والحق ان هذا زعم خاطىء ، وفرية زائفة وذلك لما يأتى :

أولا : لأن علماء الاسلام الاوائل انما استعملوا هذه الكلمة فى الصدر الاول فيما استعملها القرآن الكريم ، والرسول ﷺ وهى الطريقة العملية المتبعة فى الدين وهى تشمل الاقوال والافعال التى يطبقها الرسول ﷺ واصحابه على ضوء فهمهم القرآن الكريم وما أوحاه الله تعالى الى رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثانيا : ان كلمة السنة عند المسلمين اذا أطلقت على ما أضيف الى الرسول ﷺ فانما تعنى ماروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه . وليس ما أثر عن العلماء الذين فسروا القرآن على نحو ما حصل فى كلمة « مشناه » . ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يروى عنه إلا وحى ، « وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى » .

ثالثا : كانت الروايات الاسرائيلية عند اليهود تحل محل التوراة ، وتعتبر المرجع فى احكامهم بخلاف كلمة السنة ، فانها عند المسلمين فى المرتبة الثانية بعد القرآن ، فهم لا يتجهون اليها الا اذا لم يجدوا فى القرآن نصا واضحا فهم يتجهون حينئذ الى السنة لمعرفة دلالة القرآن أو لمعرفة الحكم .

رابعا : ان كلمة السنة موجودة فى اللغة العربية ومعروفة عند العرب من قديم واستعملوها فى لغتهم ونطق بها كتابهم الكريم .

قال فضيلة الشيخ محمود شلتوت رحمه الله تعالى : « على أن هناك ما يقطع فى المسألة من جهة أخرى وهو أن الكلمة عرفت عند العرب قديما ، واستعملها القرآن مضافة الى الله والى الرسل ، ومضافة الى الأمم فلم يأخذها علماء الاصول من كلمة « مشناه » العبرية ،

وانما اخذوها من صميم لغتهم وصريح كتابهم . نعم رأوا أن مجموعة ما أثر عن النبى ﷺ من أقوال وأفعال وتقرير ، هو الطريق الوحيد لتصوير الطريقة العملية التى درج عليها الرسول ﷺ وأصحابه فأطلقوا كلمة « سنة » على هذه المجموعة ، وجعلوها فى المرتبة الثانية من المصادر التشريعية ، فكيف يصح أنهم اقتبسوها من العبرية ؟ وكيف يصح أن يقال : أن صنيعهم كصنيعهم[٢٠] . أ هـ .

٢ ـ **التشكيك** : زعم بعض المنكرين للسنة القولية التى جاءت بطريق الآحاد أن السنة المتبعة هى الفعلية دون القولية ، محتجين بـأنها وردت فى القرآن الكـريم وبعض الاحاديث متفقة مع المعنى اللغوى (ولأن اطلاق كلمة السنة على أقوال الرسول ﷺ لم يكن معهودا فى عصره ، ولا فى عصر أصحابه ، وانما هو اصطلاح مستحـدث ولذلـك فهم يردون الاقوال ويعتمدون بالافعـال باعتبـار أن الرسـول ﷺ دعا الى التمسـك بالسنـة وإطلاقها فى عهده كان على الافعال لا الأقوال)[٢١]

الرد على ذلك : والحق ان العرب كما اطلقوا كلمة السنة فى لسانهم على الطريقة والسيرة اطلقوها كذلك على البيان ، قال ابن منـظور . (سنها الله للنـاس بينها)[٢٢] ومعلوم أن البيان أعم من الفعل ، لأنه يكون بالقول أو بالفعل ، أو بالتقرير ، وقد فوض الله سبحانه نبيه عليه الصلاة والسلام فى بيان كتابه العزيز قال تعالى : « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نـزل اليهم »[٢٣] . وهو عليه الصلاة والسلام كما يبين بالفعل يبين بالقول والاقـرار . وأيضا فـان اطلاق كلمـة السنـة عـلى الافعـال يستلزم شمـولهـا لـلاقـوال والتقريرات ، لأن الفعل ما هو الا طريقة متبعة فى الدين تتجه على اساس من قول الرسول ﷺ وفعله وتقريره .

وخلاصة القول : ان اطلاق السنة فى لسان العرب على البيـان ، الذى يشمـل القول والفعل والتقرير يرد ما أثير من دعوى أن المراد بالسنة الفـعل دون القول بل إنه لا يتصور أن يكون هناك فعل أو طريقة متبعة دون توجيه من قول الرسول ﷺ أو تقريره أو نحو ذلك .

---

(٢٠) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ٥٠٦ .

(٢١) السنة النبوية ومكانتها فى التشريع للاستاذ عباس متولى حمادة ص ١٧ .

(٢٢) لسان العرب ١٧ : ٨٩ .

(٢٣) سورة النحل ٤٤ .

أنواع السنة

وتنقسم السنة بحسب حقيقتها على ما ذكره المحدثون الى ثلاثة أقسام : سنة قولية وسنة فعلية وسنة تقريرية (٢٤) .

١ ـ **القسم الأول** : السنة القولية وهى أكثر أنواع السنة ومثالها : ما روى عن مجاهد أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال « لا وصية لوارث »(٢٥) ومثال السنة القولية أيضا قول الرسول ﷺ : « أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم »(٢٦) .

٢ ـ **القسم الثانى** : السنة الفعلية « وهى أفعاله ﷺ التى رواها الصحابة عنه مثل أدائه الصلوات الخمس باركانها وسننها وهيئاتها ، وأدائه مناسك الحج والصوم والزكاة وغير ذلك من أعماله الشريفة ﷺ . ومن أمثلة السنة الفعلية ما أخبر به الصحابة وأمهات المؤمنين عن أعمال الرسول ﷺ واحواله ، مثال ذلك : ما روى عن عطاء بن يسار أن رجلا قبل امرأته وهو صائم فوجد من ذلك وجدا شديدا فأرسل امرأته تسأل عن ذلك فدخلت على أم سلمة أم المؤمنين ، فأخبرتها فقالت أم سلمة : « أن رسول الله يقبل وهو صائم » ، فرجعت المرأة الى زوجها فأخبرته ، فزاده ذلك شرا ، وقال : لسنا مثل رسول الله يحل الله لرسوله ما شاء فرجعت المرأة الى أم سلمة فوجدت رسول الله عندها ، فقال رسول الله ﷺ « ما بال هذه المرأة » فأخبرته أم سلمة ، فقال « الا أخبرتها أنى أفعل ذلك » ؟ فقالت أم سلمة : اخبرتها فذهبت الى زوجها فاخبرته فزاده ذلك شرا وقال :

---

(٢٤) أصول الفقه : الاستاذ / محمد أبو زهرة ص ١٠٥ .

(٢٥) رواه الشافعى فى الأم ٤ : ٢٧ ، ورواه الترمذى ٢ : ١٦ ط بولاق ، ٣ : ١٨٩ من شرح المباركفورى عن طريق اسماعيل بن عياش قال الترمذى : وهو حديث حسن صحيح ، فتح البارى جـ ٥ ص ٢٧٨ ، ومسند احمد ٥ : ٢٦٧ ، أبو داود ٣ : ٧٣ ، وابن ماجه ٢ : ٨٣ كلهم من طريق اسماعيل بن عياش ، قال الامام احمد : ما رواه اسماعيل بن عياش عن الشاميين صحيح ، وقال ابن حجر فى الفتح : وهذا من روايته عن شرحبيل بن مسلم وهو شامى ثقة فالاسناد صحيح لا مطعن فيه ورواه النسائى ٢ : ١٢٨ من طريق قتادة باختلاف يسير والدارمى ٢ : ٣٠١ تحقيق السيد عبدالله يمانى .

(٢٦) رواه ابن ماجه من حديث جابر جـ ٣ ص ٣ ، والحاكم فى المستدرك جـ ٢ ص ٤ وصححه على شرط مسلم ونقله المنذرى فى الترغيب ٣ . ٧ وذكر تصحيح الحاكم له .

لسنا مثل رسول الله ، يحل الله لرسوله ما شاء فغضب رسول الله ثم قال : « والله انى لأتقاكم لله ولأعلمكم بحدوده »[٢٧] .

٣ ـ **القسم الثالث** : « السنة التقريرية وهى ما أقره الرسول ﷺ مما رآه من بعض أصحابه ، فعلا كان أو قولا ، بأن يقع ذلك فى حضرته فلا ينكره ، بأن يسكت عنه ، أو يوافق عليه مظهرا استحسانه وتأييده ، فيعد ذلك اقرارا ، من ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه خرج رجلان فى سفر وليس معهما ماء فحضرت الصلاة فتيمما صعيدا طيبا ، فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الآخر ثم أتيا رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك له فقال للذى لم يعد : « أصبت السنة » وقال للآخر : (لك الأجر مرتين)[٢٨] .

---

(٢٧) الموطأ ص ١٢٤ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، وقال الزرقانى فى شرح الموطأ جـ ٢ ص ٩٢ : « وصله عبد الرزاق باسناد صحيح عن عطاء عن رجل من الانصار » ، ورواه الشيخان : فتح البارى جـ ٤ ص ١٣١ ، ومسلم فى صحيحه جـ ١ ص ٣٠٥ من حديث عمر بن أبى سلمة ، وأخرجه الامام أحمد فى المسند بنحوه جـ ٥ ص ٤٣ ، وفى مجمع الزوائد جـ ٣ ص ١٦٦ قال الهيثمى « ورجاله رجال الصحيح » ، وأخرجه الدارمى جـ ١ ص ٣٤٥ بنحوه تحقيق السيد عبد الله يمانى .

(٢٨) رواه أبو داود عن ابى سعيد الخدرى جـ ١ ص ٩٣ بتحقيق الاستاذ / محمد محيى الدين ، وسبل السلام جـ ١ ص ٩٧ ورواه النسائى .

النسبة بين السنة ، والحديث ، والخبر ، والحديث القدسى

سبق بيان أن المراد بالسنة هنا ما أراده المحدثون ، وهى مرادفة للحديث عند جمهورهم وهذا هو الذى سنسير عليه فى جميع بحوثنا من هذا الكتاب .

وأما الخبر: فهو عند علماء هذا الفن مرادف للحديث «فيطلقان على المرفوع وعلى الموقوف ، وعلى المقطوع . وقيل : الحديث ما جاء عن النبى ﷺ ، والخبر ما جاء عن غيره ، ومن ثم قيل لمن يشتغل بالسنة محدث وبالتواريخ ونحوها أخبارى(٢٩) ، وقيل بينهما عموم وخصوص مطلق ، فكل ـ حديث خبر ولا عكس » وقد يسمى المحدثون المرفوع والموقوف من الأخبار أثرا إلا أن فقهاء خراسان يسمون الموقوف بالأثر والمرفوع بالخبر(٣٠) .

وأما الحديث القدسى فهو كل قول أضافه الرسول ﷺ الى الله عز وجل ، ويسمى حديثا لأن الرسول ﷺ يحكيه ويرويه عن ربه كما تروى الأحاديث ، ونسبته الى القدس بمعنى الطهارة والتنزيه ، ونسب الى الله لأنه صدر عنه تعالى :

وللعلماء فى الأحاديث القدسية رأيان :

الرأى الأول : أنها من كلام الله تعالى وليس للنبى ﷺ الا حكايتها عن ربه سبحانه وذلك لأنها أضيفت الى الله فقيل عنها قدسية وإلٰهية وأنها اشتملت على ضمائر التكلم الخاصة به تعالى ، كقوله : (يا عبادى . . .) ، وانها تروى عن الله تعالى متجاوزا بها النبى ﷺ فتارة يقول الراوى : « قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه) وتارة يقول : (قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله ﷺ) والمعنى فيهما واحد .

والرأى الثانى : (أنها من قوله ﷺ ولفظه كالأحاديث النبوية وممن قال ذلك أبو البقاء وعبارته : (ان القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلى ، وأما الحديث القدسى فهو ما كان لفظه من عند الرسول ومعناه من عند الله بالإلهام أو بالمنام) واختار الطيبى (٣١)

---

(٢٩) تدريب الرواى ص ٦ .

(٣٠) المرجع السابق .

(٣١) قواعد التحديث ص ٦٦ .

هذا الرأى أيضا ، وحكمة اضافة الاحاديث القدسية الى الله على هذا الرأى زيادة الاهتمام بها ، والتوجيه الى ما أحتوته من آداب ومعان ومواعظ ومن بيان لعظمة الله تعالى واظهار رحمته .

وأرجح الرأى الثانى ، وهو أنها من قوله ﷺ ولفظه اذ لم ينزل باللفظ من قبل الله تعالى الا القرآن الكريم لتميزه عن بقية أنواع الوحى بأنه معجز من أوجه كثيرة منها إعجازه اللفظى والبيانى ، فلا تصح روايته بالمعنى ، لأنه معجزة خالدة على مر الزمان محفوظ من التبديل والتغيير قال تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[٣٢] .

وأما رواية الأحاديث القدسية عن الله تعالى واضافتها اليه واشتمالها على ضمائر التكلم الخاصة به سبحانه فهذا على معنى ان الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يقول للرسول ﷺ ، افعل كذا ، وأمر بكذا . . . فيبلغ الرسول ﷺ ذلك ، بألفاظ من عنده ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى ﴾[٣٣] .

الفرق بين الأحاديث القدسية والقرآن :

١ ـ أن الاحاديث القدسية ما كان لفظها من عند النبى ﷺ على رأى البعض ومعناها من عند الله بالإلهام أو بالمنام بوحى جلى أولا ، وأما القرآن فهو ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلى بمعنى : أن ينزل به جبريل عليه السلام بلفظه من عند الله سبحانه فى اليقظة وليس فى المنام ولا بالالهام .

٢ ـ الاحاديث القدسية تصح روايتها بالمعنى أما القرآن فتحرم روايته بالمعنى .

٣ ـ الاحاديث القدسية لا يتعبد بقراءتها أما القرآن فيتعبد بقراءته ويتعين فى الصلاة ، ولا كذلك الاحاديث القدسية .

٤ ـ أن القرآن الكريم معجزة خالدة متواتر اللفظ فى كلماته وحروفه وأساليبه أما الاحاديث القدسية فليس لها هذا التواتر ، وليست بمعجزة .

٥ ـ ان القرآن يحرم على المحدث مسه ، وعلى الجنب تلاوته ومسه بخلاف الاحاديث القدسية .

---

(٣٢) سورة الاسراء آية ٨٨ .

(٣٣) سورة النجم (٣ ـ ٥) .

الفرق بين الحديث القدسى والنبوى :

هو أن الحديث القدسى مقطوع بنزول معناه من عند الله تعالى لما ورد فيه من النص الشرعى على نسبته الى الله بقول الرسول ﷺ . . . « قال الله تعالى كذا . . . » فلذا سمى قدسيا ، أما الحديث النبوى فلم يرد فيه مثل هذا النص لأن منه ما هو « توفيقى » مستنبط بالاجتهاد والرأى من كلام الله والتأمل فى حقائق الكون وهذا ليس كلام الله ، ومنه ما هو « توقيفى » جاء به الوحى الى الرسول ﷺ فبينه للناس بكلامه وهذا القسم وان كان مرجعه الى الله تعالى الملهم والمعلم الا أنه لما كان من قول الرسول ﷺ ووضعه كان حريا ان ينسب اليه ويطلق على القسمين حديثا نبويا وقوفا بالتسمية عند الحد المقطوع به[٣٤] .

---

(٣٤) النبأ العظيم للدكتور / محمد عبد الله دراز طبع مطبعة السعادة ص ١٠ ، ١١ .

منزلة السنة فى الدين

السنة هى الأصل الثانى من أصول الاسلام اجمع فقهاء المسلمين قديما وحديثا من لدن الصحابة رضوان الله عليهم الى يومنا هذا الا من شذ من بعض الطوائف على الاحتجاج بها واعتبارها المصدر الثانى للدين بعد القرآن الكريم فيجب اتباعها وتحرم مخالفتها ، وقد تضافرت الادلة القطعية على ذلك فأوجب الله سبحانه على الناس طاعة رسوله ﷺ وبين انه عليه الصلاة والسلام هو المبين لما أنزل من القرآن ، وذلك بعد أن عصمه من الخطأ والهوى فى كل أمر من الأمور « وما ينطق عن الهوى * إن هو الا وحى يوحى * علمه شديد القوى »[35] كما عصمه من الناس حين أمره بتبليغ ما أنزل اليه قال تعالى « يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين »[36]

فهو إذًا قد مهد لرسوله طريق الدعوة وذلل له مهمة تبليغها فبين سبحانه وتعالى للناس ما يأتى :

أولا : وجوب طاعة الرسول ﷺ

ثانيا : أن الرسول ﷺ هو الذى يبين للناس كتاب ربهم سبحانه وتعالى . وهذان الأمران متلازمان فى اثبات حجية السنة لأن الله تعالى أوجب طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام لأنه مبين للناس ما أنزل اليهم ، قال الشاطبى : (فاذا عمل المكلف وفق البيان أطاع الله فيما أراد واطاع رسوله فى مقتضى بيانه ، ولو عمل على مخالفة البيان عصى الله تعالى فى عمله على مخالفة البيان اذ صار عمله على خلاف ما أراد بكلامه وعصى رسوله فى مقتضى بيانه)[37] .

وسأتناول الحديث عن هذين الأمرين وهما وجوب طاعة الرسول ﷺ وبيان أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى بين للناس ما نزل اليهم :

---

(٣٥) سورة النجم الآيات ٣ ـ ٥ .

(٣٦) المائدة الآية (٦٧) .

(٣٧) الموافقات (٤ : ١٩) .

١ ـ وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم

فرض الله سبحانه وتعالى طاعة رسوله ﷺ ، وورد الأمر بها فى القرآن الكريم على وجوه كثيرة تختلف باختلاف أحوال المخاطبين ومشاربهم ونياتهم ، فمنهم اليهودى الذى يحتاج الى كثرة الأدلة والمنافق الذى يحتاج الى اسلوب التهديد والمؤمن الذى يقبل الأمر ويعرف هداية الله من أقرب طريق . وقد سلكت آيات القرآن الكريم فى بيان ذلك مسلكا مناسبا ونهجت منهجا حكيما :

١ ـ فقد دلت مرة على وجوب طاعة الرسول ، بالأمر بالإيمان بالرسل « وهذا يستلزم وجوب طاعة الرسول ﷺ ، من ذلك قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق إنما المسيح عسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم »(٣٩) . فالأمر بالايمان بالرسل مع الايمان بالله لا يكون الا اذا كان مع الايمان تصديق لما يبلغه الرسل عن الله واذعان وطاعة لهديهم على هذا فرسولنا صلوات الله وسلامه عليه يجب الايمان به للأمر بالايمان بالرسل وطاعته واجبة كطاعتهم التى استلزمها الأمر بالايمان بهم .

٢ ـ ودلت الآيات أيضا على وجوب طاعة الرسول ﷺ باقتران الأمر بالايمان به مع الأمر بالايمان بالله سبحانه قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل)(٤٠) . وقال الله تعالى : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير »(٤١) . وقد اظهر الله تعالى فى هذه الآيات وغيرها مكانة نبيه ﷺ فنص على الايمان به ولم يكتف بالأمر العام السابق رغم دخوله فيه ، وذلك لأن رسالته خاتمة وبعثته عامة فاقتضت الحكمة أن يخص بمزيد عنايته ويفهم من

---

(٣٨) سورة النساء آية ١٧١ .

(٣٩) سورة آل عمران آية ١٧٩ .

(٤٠) سورة النساء آية ١٣٦ .

(٤١) سورة التغابن آية ٨ .

ذلك الأمر بطاعته قال الامام الشافعى رضى الله عنه : (وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل شأنه أن جعله علما لدينه لما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضيلته بما قرن من الايمان برسوله مع الايمان به فقال تبارك وتعالى : (فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد)[٤٢] وقال : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه)[٤٣] فجعل كمال ابتداء الايمان الذى ما سواه تبع له الايمان بالله ثم برسوله)[٤٤] . « أ . هـ . » .

٣ ـ كذلك دلت الآيات على وجوب طاعة الرسول ﷺ بايجاب الله تعالى طاعة الرسل قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) [٤٥] فطاعة الرسل إذاً هى الهدف من إرسالهم ، ورسولنا ﷺ كواحد من الرسل داخل فى مضمون الحكم العام فينطبق عليه الحكم بوجوب طاعته لاسيما والرسل قبله كانت شرائعهم خاصة بطائفة معينة أما رسولنا عليه الصلاة والسلام فشريعته عامة وخاتمة ، لذا كانت طاعته آكد وألزم .

٤ ـ اقتران الأمر بطاعة الرسول بالأمر بطاعة الله تعالى : (قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين)[٤٦] وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر »[٤٧] والناظر الى الآيات الواردة فى وجوب طاعة الرسول ﷺ يرى أن منها ما جاء بالأمر بطاعة الله مقرونا بالأمر بطاعة الرسول بالعطف بالواو كالآية الأولى حيث يفيد ذلك مطلق الاشتراك والجمع بينهما ، أو بطريق العطف بها مع اعادة العامل حيث يفيد ذلك تأكيد عموم الطاعة فى كل ما يصدر عن الرسول ﷺ ومنها ما جاء بتكرار العامل فى شيئين مع العطف على الأخير بدون تكرار العامل كقوله

(٤٢) سورة النساء آية ١٧١ .
(٤٣) سورة النور آية ٦٢ .
(٤٤) الرسالة للامام الشافعى ص ٧٣ .
(٤٥) سورة النساء آية ٦٤ .
(٤٦) سورة آل عمران آية ٣٢ .
(٤٧) سورة النساء آية ٥٩ .

تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) . بدون تكرار العامل فى عطف أولى الأمر . وهذا يدل على أن أولى الأمر ليس لهم طاعة مستقلة ، وليس لهم تشريع خاص يصدر عنهم يخالف الاسلام (وإنما يطاعون فيما شأنه أن يتلوه ويباشروه فى اطار من الدين الذى شرعه الله قرآنا كان أو سنة)[٤٨] فطاعة الرسول إذاً واجبة فى كل ما أتى به سواء كان فى الكتاب الكريم أو ليس فيه .

٥ ـ أمر الله بطاعة الرسول على الانفراد قال الله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)[٤٩] وقال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون)[٥٠] وقال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[٥١] ففى هذه الآيات نص صريح على وجوب طاعة الرسول والتسليم لحكمه واتباعه ، وهذه الطاعة فى حال حياته وبعد وفاته ، ففى حال حياته كان الصحابة يتلقون أحكام الشرع من القرآن الذى أخذوه عن رسولهم ﷺ حيث كان يبين لهم ما أنزل اليهم وحيث كان يبين لهم كثيرا من الأحكام حين تقع لهم الحوادث التى لم ينص عليها فى القرآن فهو اذا كان يطبق لهم الأحكام من حلال أو حرام مما كان مصدره القرآن أو الوحى الذى يوحيه الله له (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم)[٥٢] وقد حث الله على الاستجابة لما يدعو له الرسول ﷺ فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم)[٥٣] ولم يبح الله لمؤمن ولا مؤمنة مخالفة حكم الرسول أو أمره قال تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا)[٥٤] وقد كان المسلمون ملتزمين حدود أمره ونهيه ومتبعين له

---

(٤٨) السنة النبوية ومكانتها فى التشريع ص ٥٨

(٤٩) سورة النساء آية ٦٥ .

(٥٠) سورة النور آية ٥٦ .

(٥١) سورة الحشر آية ٧ .

(٥٢) سورة الأعراف آية ١٥ .

(٥٣) سورة الأنفال آية ٢٤ .

(٥٤) سورة الأحزاب آية ٣٦ .

فى عبادتهم ومعاملاتهم وقد بلغ من طاعتهم للرسول واقتدائهم به أنهم كانوا يفعلون ما يفعل ويتركون ما يترك ولم يجز واحد منهم لنفسه مراجعة الرسول الا اذا كان هناك أمر غريب عن عقولهم فيناقشونه ليعرفوا الحكمة فيه فقط كما لم يجز واحد منهم مراجعته فى أمر (إلا اذا كان فعله أو قوله اجتهادا منه فى أمر دنيوى كما فى غزوة بدر حين راجعه الحباب بن المنذر فى مكان النزول)(٥٥) ومثل هذا انما حدث تطبيقا لمبدأ الشورى فى الاسلام .

واذا كان الحال هكذا فى حياة الرسول ﷺ ، فانه أيضا تجب طاعته واتباع سنته بعد وفاته ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه انتقل الى الرفيق الأعلى بعد ان أطمأن تماما على أنه أرسى معالم الدين وأدى الامانة الإلهية على منهاج الحق ووصى المسلمين أن يطيعوه ويتبعوه بعد وفاته تمسكا بالكتاب والسنة وسيرا على هديهما كما قال ﷺ (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى)(٥٦) وكما وجب على الصحابة بنص القرآن اتباع الرسول وطاعته فى حياته وبعد مماته كما فى الحديث السابق وجب على من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته ، لأن النصوص التى أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته ولا بصحابته دون غيرهم ، ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم وهى أنهم أتباع لرسول أمر الله باتباعه وطاعته (٥٧) لهذا كله تلقى الصحابة السنة النبوية وبلغوها إلى من بعدهم .

---

(٥٥) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٦٦ .

(٥٦) أخرجه الحاكم فى المستدرك وفى جامع بيان العلم وفضله جـ ٢ ص ١٨٠ والموطأ شرح الزرقانى ، والترغيب والترهيب .

(٥٧) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٦٧ .

٢ ـ منزلة السنة من القرآن وبيانها له

تبين من البحث السابق أن طاعة الرسول ﷺ واجبة على المسلمين وأنهم تقبلوا منه السنة كما تقبلوا القرآن مستجيبين لله الذى أمرهم باتباع النبى وطاعته وذلك لأن للرسول ﷺ مهمة هى التبليغ وبيان ما فى القرآن من أحكام وقواعد وغير ذلك فرسالته ليست قاصرة على التبليغ وانما لابد مع التبليغ من البيان وهو الأمر الثانى فى اثبات حجية السنة .

فالقرآن الكريم جاء بالأصول العامة ولم يتعرض للتفاصيل والجزئيات ولم يفرع عليها الا بالقدر الذى يتفق مع تلك الأصول ويكون ثابتا بثبوتها لا يعتريه تغير أو تطور باختلاف الأعراف والبيئات ومرور الأزمان ، لأنه الكتاب الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، اشتمل على العقائد والشرائع وعلى الآداب والاخلاق فكان تبيانا لكل شىء ، وجاءت السنة توافق الكتاب الكريم وتتعرض للتفصيلات والجزئيات ، ففسرت مبهمه وفصلت مجمله وقيدت مطلقه وخصصت عامه وشرحت أحكامه كما أتت السنة كذلك بأحكام لم يرد فى القرآن نص عليها ، وجاءت بهذا متممة ومطبقة لما فى القرآن الكريم فكانت مرتبتها بعد القرآن . (وأيضا فإن السنة إما أن تكون بيانا للكتاب أو زيادة عليه ، فإن كانت بيانا فهى فى الاعتبار بالمرتبة الثانية عن المبين ، فان النص الأصلى أساس والتفسير بناء عليه وإن كانت زيادة فهى غير معتبرة إلا بعد أن لا توجد فى الكتاب وذلك دليل على تقدم اعتبار الكتاب)[٥٨] وكل ما جاء فى السنة النبوية على لسان الرسول ﷺ انما يتبع فيه ما يوحى اليه قال تعالى : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك إن أتبع الا ما يوحى الى)[٥٩] ولهذا جعل الله تعالى طاعة رسوله طاعة له ، وأوجب على المسلمين اتباع بيانه فيما يأمر وينهى قال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله)[٦٠] ، وقال : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[٦١] إذاً

---

(٥٨) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٤٢٤ .
(٥٩) سورة الأنعام آية ٥٠ .
(٦٠) سورة النساء آية ٨٠ .
(٦١) سورة الحشر آية ٧ .

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه حين يبين للناس ما نزل اليهم لا يصدر فى بيانه من تلقاء نفسه وانما يتبع ما يوحى اليه ، وقد امتن الله تعالى على رسوله بأن أنزل عليه الكتاب ليشرح ما جاء فيه ، ويظهر المراد منه فقال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم)[٦٢] . وروى المقدام بن معد يكرب قال : « حرم النبى ﷺ أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلى وغيره ، فقال رسول الله ﷺ : « يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثى فيقول بينى وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وأن ما حرم رسول الله كما حرم الله »[٦٣] .

وينقسم بيان السنة الى أقسام :

أولا : بيان التقرير ، وهو أن تكون السنة موافقة لما جاء به القرآن ومؤكدة له ، ومن ذلك : ما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان »[٦٤] فانه يوافق قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »[٦٥] وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم »[٦٦] وقوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا »[٦٧] .

الثانى : بيان التفسير لما جاء فى القرآن ، وهذا القسم أغلب الأقسام وأكثرها ورودا فمنه بيان المجمل : كالأحاديث التى بينت العبادات وكيفياتها كفريضة الصلاة مثلا فقد فرضها الله تعالى فى القرآن من غير أن يبين أوقاتها وعدد ركعاتها وأركانها وكيفيتها ، فبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه ذلك كله بصلاته وتعليمه الناس وقال : « صلوا كما

---

(٦٢) سورة النحل آية ٤٤ .

(٦٣) رواه الترمذى (٢ : ١١١) وابن ماجه (١ : ٥) والدارمى (١ : ١١٧ تحقيق السيد عبد الله يمانى ورواه الامام أحمد فى المسند ٤ : ١٣٠) وهو حديث صحيح كما قال الترمذى .

(٦٤) فتح البارى جـ ١ ص ٥٥ ، ورواه مسلم من طريق سعد بن عبيدة بتقديم الصوم على الحج جـ ١ ص ١٥٠ ط الشعب ورواه أيضا بتقديم الحج على الصوم ص ١٥١ ورواه الترمذى جـ ٤ ص وقال حديث حسن صحيح ، والمسند جـ ٤ / ٣٦٤ .

(٦٥) سورة البقرة آية ٨٣ .

(٦٦) سورة البقرة آية ١٨٣ .

(٦٧) سورة آل عمران آية ٩٧ .

رأيتمونى أصلى»[٦٨] ومثل ذلك فى الحج والزكاة وغير ذلك من العبادات التى وردت فى القرآن مجملة وفصلتها السنة النبوية . ومن هذا القسم تقييد المطلق : « كالاحاديث التى بينت المراد من اليد فى قوله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما »[٦٩] فوضحت السنة أنها اليد اليمنى وأن القطع من الكوع لا من المرفق[٧٠] . ومن هذا القسم أيضا تخصيص العام ، كالاحاديث التى خصصت الوارث والمورث فى قوله تعالى : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين)[٧١] فخصصت السنة المورث بغير الأنبياء قال ﷺ : (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة)[٧٢] كما خصصت السنة الوارث بغير القاتل ، يقول الرسول ﷺ : (ليس للقاتل شىء وإن لم يكن له وارث فوارثه أقرب الناس إليه ، ولا يرث القاتل شيئا)[٧٣] .

القسم الثالث : أن تكون السنة ناسخة لحكم ثبت بالقرآن على رأى من يجوز نسخ الكتاب بالسنة وهذا مثل حديث (لا وصية لوارث)[٧٤] فهذا الحديث نسخ حكم الوصية للوالدين والاقربين الوارثين الثابت بقوله تعالى « كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين)[٧٥] . « والنسخ من قبيل البيان لأنه بيان انتهاء أمد الحكم ولذلك يطلق عليه بعض علماء الأصول بيان التبديل »[٧٦] .

القسم الرابع : أن تكون السنة دالة على حكم لم يرد فى القرآن وهذا القسم اختلف العلماء فيه : فذهب الجمهور الى أن السنة اثبتت أحكاما جديدة على طريق الاستقلال .

---

(٦٨) أخرجه البخارى جـ١ ، ص ١٢٥ حاشية السندى وأخرجه الدارمى جـ ١ ص ٢٣٠ بتحقيق السيد يمانى ، وأخرجه الامام أحمد ، والنسائى جـ ٢ ص ٥٩ بنحوه والشافعى فى مسند ص ١٩ .

(٦٩) المائدة « ٣٨ » .

(٧٠) الحديث والمحدثون ص ٣٨ .

(٧١) سورة النساء « ١١ » .

(٧٢) فتح البارى جـ ٦ ص ٢٨٩ صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٣٧٨ مسند أحمد جـ ١ ص ٣٣٤ شاكر والموطأ ص ٥٤ .

(٧٣) رواه أبو داود فى سننه (٤ : ٣١٣) من طريق محمد بن راشد باسناد صحيح . ورواه الترمذى (٢ : ١٤) ، سنن ابن ماجه (٢ : ٧٤) .

(٧٤) سبق تخرجه ص ٦ .

(٧٥) سورة البقرة « ١٨٠ » .

(٧٦) الحديث والمحدثون ص ٤٠ .

وذهب صاحب الموافقات وآخرون الى أنها أثبتت احكاما داخلة تحت نصوص القرآن ولو بتأويل . وقال الشافعى رحمه الله فى القسمين الأول والثانى :

(والوجهان يجتمعان ويتفرعان : أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب . والآخر مما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين عن الله معنى ما أراد وهـذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما)[٧٧]، ثم ذكر الامام الشافعى هذا القسم الذى دلت السنة فيه على حكم لم يرد فى القرآن فذكر اختلاف العلماء فيه قال « فمنهم من قال جعل الله له بما افترض من طاعته وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب . ومنهم من قال لم يسن سنة قط الا ولها أصل فى الكتاب كما كانت سنته لتبين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة ، وكذلك ما سن من البيوع وغيرها من الشرائع لأن الله قال : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »[٧٨] وقال : « وأحل الله البيع وحرم الربا »[٧٩] فما احل وحرم فانما بين فيه عن الله كما بين الصلاة) ، ومنهم من قال (بل جاءته به رساله الله فأثبتت سنته بفرض الله ، ومنهم من قال : (القى فى روعه كل مـا سن وسنتـه المحكمـة التى القى فى روعـه عن الله فكـان مـا القى فى روعـه سنته[٨٠] . أ . هـ .

ويتضح من كلام الامام الشافعى السابق أن أصحاب الرأى الأول والثالث والرابع يرون أن السنة تستقل بالتشريع فى بعض الأمور ، أما أصحاب الرأى الثانى فيرون أنها لا تستقل بالتشريع وإنما تدخل أحكامها ضمن نصوص القرآن .

---

(٧٧) الرسالة ص ٩٢ .
(٧٨) سورة النساء « ٢٩ » .
(٧٩) سورة البقرة « ٢٧٥ » .
(٨٠) الرسالة للامام الشافعى ص ٩٣ .

أدلة القائلين بالاستقلال

استدل القائلون باستقلال السنة بالتشريع فى بعض الأمور بأنه قد ورد فى القرآن الكريم ما يوجب طاعة الرسول ﷺ وأتباعه قال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله »[٨١] وقال تعالى : « وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهو »[٨٢] . (فدلت الآيات على وجوب طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر به وينهى عنه) دون تفريق بين السنة المبينة أو المؤكدة أو المستقلة ، وهكذا كل أدلة القرآن تدل على أن ما جاء به الرسول وكل ما أمر به ونهى فهو لاحق فى الحكم بما جاء فى القرآن ، فلابد أن يكون زائدا عليه[٨٣] كما وردت بعض الاحاديث الدالة على وجوب الأخذ بما فى السنة من الأحكام كما يؤخذ ما فى الكتاب مثل قوله ﷺ « يوشك بأحدكم أن يقول هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال أحللناه وما كان فيه من حرام حرمناه ألا من بلغه عنى حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله والذى حدثه »[٨٤] .

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بتبليغ أحكامه من أى طريق سواء كان بالكتاب أو غيره ، وعصمه من الخطأ فلا مانع من استقلال السنة بالتشريع .

وأما قوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم »[٨٥] فلا تفيد الآية قصر مهمة الرسول ﷺ على البيان ، بل يستفاد منها ومن قوله تعالى « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » أن الرسول يبين للناس كتاب ربهم واذا جاوز البيان الى الأحكام التى لم يتعرض لها القرآن فانه حينئذ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، وقد صرح بذلك بعض علماء السلف ، فمن ذلك ما يروى عن عبد الرحمن بن يزيد أنه رأى محرما عليه ثيابه فنهاه فقال : إأتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى ، فقرأ عليه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[٨٦] .

---

(٨١) سورة النساء « ٨٠ » .

(٨٢) سورة الحشر « ٧ » .

(٨٣) الموافقات « ٤ : ١٣ » .

(٨٤) رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر .

(٨٥) سورة النحل « ٤٤ » .

(٨٦) جامع بيان العلم جـ ٢ ص ١٨٩ ، الحديث والمحدثون ص ٤٤ .

أدلة المنكرين للاستقلال

وقد استدل أصحاب هذا الرأى بأن السنة بيان للقرآن ، كما قال تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » . واجابوا عن أدلة القائلين باستقلال السنة بأن الآيات التى تفيد وجوب طاعة الرسول يقصد منها وجوب طاعته فى بيانه وشرحه « ولا يلزم من أفراد الطاعتين تباين المطاع فيه باطلاق فلا دليل فيهـا على أن مـا فى السنة ليس فى الكتاب ، واذا كانت هناك أحكام زائدة فليست زائدة بزيادة شىء ليس فى القرآن بل زيادة الشرح على المشروح »[٨٧] وعلى هذا الرأى تكون الأحكام الواردة فى السنة اشتمل القرآن عليها بطريق الاجمال فصح أن تكون السنة بيانا للقرآن عن طريق الالحاق أو القياس أو استنباط القواعد العامة من الجزئيات ، أما الالحاق فقد ينص القرآن على حل شىء وحرمة شىء آخر ويكون هناك شىء ثالث لم ينص على حكمه وهو آخذ من كل منهما بطرف فيكون ثم مجال للاجتهاد فى إلحاقه بأحدهما فيعطيه النبى ﷺ حكم أحدهما ومثال ذلك : ان الله تعالى أحل صيد البحر فيما أحل من الطيبات وحرم الميتة فيما حرم من الخبائث فدارت ميتة البحر بين الطرفين وأشكل حكمها فقال ﷺ : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »[٨٨] وأما القياس فقد ينص القرآن على حكم شىء فيلحق به الرسول ﷺ ما يشاركه فى العلة قياسا عليه ، ومثال ذلك أن الله تعالى حرم الجمع بين الاختين ثم قال : « واحل لكم ما وراء ذلكم »[٨٩] ثم جاء نهيه ﷺ عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من باب القياس كما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها ولا تنكح الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى »[٩٠] . وأما طريق استنباط القواعد العامة من

---

(٨٧) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٤٣٢ بتصرف يسير .

(٨٨) أخرجه أصحاب السنن : سنن أبى داود بتحقيق محمد محيى الدين جـ ١ ص ٢١ ، والترمذى جـ ١ ص ٤٧ وقال هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الامام مالك فى الموطأ ص ٤٣ ط المجلس الأعلى والدارمى جـ ١ ص ١٥١ كلهم برواية أبى هريرة .

(٨٩) النساء « ٢٤ » .

(٩٠) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٣ ص ٥٦٢ ، الموطـأ ص ١٧٧ ، الأم جـ ٥ ص ٤ ، نيل الاوطار جـ ٦ ص ٢٨٥ سنن ابى داود جـ ٢ ص ٢٢٤ ، جامع الترمذى جـ ٢ ص ٢٩٧ وقال : حديث حسن صحيح ، وابن حبان بزيادة فإنكم إذا فعلتم قطعتم أرحامكم وهو المعنى الذى حرم الجمع بسببه .

نصوص القرآن الجزئية فذلك بأن تأتى نصوص من القرآن فى معان مختلفة لكن يشملها معنى واحد فتأتى السنة بمقتضى ذلك المعنى الواحد فيعلم أنه مأخوذ من مجموع تلك النصوص ، ومثال ذلك قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى . . . »(٩١) فهاتان قاعدتان تؤخذان من الآيات التى تحث على الاخلاص مثل قوله تعالى : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين »(٩٢) وقوله تعالى : « ألا لله الدين الخالص »(٩٣) وقوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »(٩٤) .

ويمكن الجمع بين ما ذهب إليه الفريقان بأن الجميع متفقون على وجود أحكام فى السنة لم ينص عليها فى القرآن ولكن القائلين بأن السنة لا تأتى بأحكام زائدة عما فى القرآن أرادوا أن القرآن اشتمل على جميع الاحكام اجمالا أو تفصيلا فعلى رأيهم أن الأحكام داخلة تحت النصوص بوجه من الوجوه ، وأما القائلون بأنها تأتى بأحكام زائدة فأرادوا بذلك الأحكام التفصيلية التى لم يرد فيها نص صريح فعلى رأيهم أن السنة تستقل بالتشريع لأنها أثبتت أحكاما جديدة ، فكل واحد من الفريقين متفق على وجود أحكام زائدة عما فى القرآن وإنما الخلاف فى مخرجها ، فالخلاف إذاً لفظى لأن النتيجة واحدة وهى وجود أحكام جديدة سواء سمى ذلك استقلالا أم لا(٩٥) .

---

(٩١) فتح البارى جـ١ ص ٩ المسند جـ ٢ ص ٣٠٢ ورواه مسلم جـ ٦ ص ٤٨ والترمذى جـ ٦ ص ٤٨ وهو حديث حسن صحيح .

(٩٢) البينة « ٥ » .

(٩٣) سورة الزمر « ٣ » .

(٩٤) سورة الكهف « ١١٠ » .

(٩٥) الحديث والمحدثون ص ٤٥ السنة ومكانتها فى التشريع ص ٤٣٢ .

وهناك طائفة من الاحاديث النبوية على سبيل العظة ، وتنبيه المكلفين وهدايتهم وخرجت مخرج القصص ، منها ما جاء موافقا ومؤكدا لما فى القرآن ولا يخلو من بعض الشرح كحديث الخضر مع موسى عليه السلام الذى رواه سفيان عن عمرو عن سعيد بن جبير قال : « قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى بنى اسرائيل ؟ فقال ابن عباس : كذب عدو الله ، أخبرنى أبى بن كعب قال : « خطبنا رسول الله . . » وذكر حديث موسى والخضر بشىء يدل على أن موسى صاحب الخضر[٩٦] أ هـ - فهذا الحديث يوافق القصة المذكورة عنها فى سورة الكهف .

ومنها ما ورد على سبيل التوضيح كقوله عليه الصلاة والسلام [٩٧] يدعى نوح فيقال هل بلغت ؟ فيقول نعم بلغت ، فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال من شهودك ؟ فيقول : محمد وأمته ، قال : فيأتى بكم تشهدون أنه قد بلغ فذلك قول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »[٩٨] .

ومنها ما يرد على طريق الاستقلال ومن أمثلته : « حديث جريج العابد وحديث الابرص والاقرع والاعمى » و « حديث الصخرة » فهذه الاحاديث وما فى معناها جاءت لتأكيد المقاصد التى جاء بها القرآن ، وحكمتها تنشيط المكلفين وتنبيه الغافلين[٩٩] .

---

(٩٦) الرسالة للامام الشافعى ص ٤٤٢ ، ورواه البخارى جـ ١ ص ١٩٧ من فتح البارى ، ورواه مسلم جـ ٢ ص ٢٢٧ من طريق سفيان بن عيينة .

(٩٧) اخرجه البخارى والترمذى .

(٩٨) سورة البقرة « ١٤٣ » .

(٩٩) الحديث والمحدثون ص ٤٥ .

حول حجية السنة

من المباحث السابقة تتضح حجية السنة وحيث إن الله تعالى أمر بوجوب طـاعة الرسول ﷺ ، وبين انه الذى يبين للناس ما نزل اليهم ، وقال تعالى : « وأنزلنـا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم »[١٠٠] وقال تعالى : « قل اطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين »[١٠١].

فقد جعل سبحانه التولى عن طاعة الله ، وعن طاعة الرسول كفرا ، لأن من أركان الايمان بالله الايمان بالرسول ﷺ ، والايمان بأن كل ما أتى به صدق . وعن عمران بن حصين أنه قال لرجل : « إنك امرؤ احمق أتجد فى كتاب الله الظهر أربعا لا يجهـر فيها بالقراءة ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجـد ذلك فى كتـاب الله مفسرا ؟ إن كتابُ الله أبهم هذا وأن السنة تفسر ذلك » ومن كل ذلك يتأكد لنا حجية السنة .

رد بعض الشبه والطعون :

١ ـ ذهب بعض اصحاب الآراء الجامحة من الفرق والطوائف الى انكار حجيـة السنة جملة ، متواترة كانت أو آحادا مستندين فى ذلك الى فهمهم السقيم فى مثل قوله تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء »[١٠٢] وقولـه تعالى « مـا فرطنـا فى الكتاب من شىء »[١٠٣] وأصل هذا الرأى الفاسد ـ وهو رد السنة والاقتصار على القرآن ان الزنادقة وطائفة من غلاة الرافضة ذهبوا الى انكار الاحتجاج بالسنة والاقتصار على القرآن[١٠٤] ونسبوا الى الرسول ﷺ انه قال : ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فأنا

---

(١٠٠) سورة النحل « ٤٤ » .
(١٠١) سورة آل عمران « ٣٢ » .
(١٠٢) سورة النحل « ٨٩ » .
(١٠٣) سورة الانعام « ٣٨ »
(١٠٤) مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة

قلته ، وما خالفه فلم أقله[١٠٥] كما استدلوا على عدم حجيتها أيضا : بنهى الرسول ﷺ عن كتابة السنة وأمره بمحو ما كتب منها .

والإجابة عن هذه الشبه تتلخص فيما يأتى :

أولا : أن قوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » فالمراد والله اعلم أن الكتاب يبين أمور الدين بالنص الذى ورد فيه ، أو بالاحالة على السنة التى تولت بيانه ، والا فلو لم يكن الامر كذلك لتناقضت هذه الآية مع قوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

ثانيا : وأما قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » فالكتاب هو اللوح المحفوظ بدليل السياق (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) وعلى تقدير أنه القرآن فالمعنى أنه يحتوى على أمور الدين إما بالنص الصريح وإما ببيان السنة له .

ثالثا : وأما الحديث الذى نسبوه إلى النبى والذى زعموا ـ حسب ادعائهم ـ أنه يفيد ضرورة عرض السنة على الكتاب فقد قال فيه الامام الشافعى رحمه الله تعالى : « ما روى هذا أحد يثبت حديثه فى شىء صغر ولا كبر . . . »[١٠٦] وذكر أئمة الحديث أنه موضوع وضعته الزنادقة قال عبد الرحمن بن مهدى : « الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث وهذه الألفاظ لا تصح عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه ، وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم وقالوا نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شىء ونعتمد على ذلك قالوا فلما عرضناه على كتاب الله وجدناه مخالفا لكتاب الله ، لأنا لم نجد فى كتاب الله أنه لا يقبل من حديث رسول الله ﷺ إلا ما وافق كتاب الله بل وجدنا كتاب الله يطلق التأسى به والأمر بطاعته ويحذر من المخالفة عن أمره جملة على كل حال »[١٠٧] .

رابعا : وأما نهى الرسول ﷺ عن تدوين السنة فلا يدل على عدم حجيتها لأن المصلحة يومئذ تقضى بتضافر كتاب الصحابة ـ وهم قلة ـ على جمع القرآن الكريم وتدوينه وحفظه أولا خشية الضياع وخشية أن يلتبس بغيره على البعض فنهاهم عن تدوين السنة

---

(١٠٥) لم يرد بهذا المعنى حديث صحيح ولا حسن « وفى عون المعبود » (٤ : ٣٢٩) فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث . . إلخ فإنه حديث باطل لا أصل له » .

(١٠٦) الرسالة للامام الشافعى ص ٢٢٥

(١٠٧) جامع بيان العمل وفضله (٢ : ١٩٠) .

حتى لا يكون تدوينها شاغلا لهم عن القرآن أو أن النهى كان بالنسبة لمن يوثق بحفظه .

واخيرا فكيف يترك الاحتجاج بالسنة اقتصارا على القرآن ؟ ولا سبيل الى فهم القرآن إلا عن طريق السنة الصحيحة التى بها يعلم المفسر أسباب النزول والظروف والمناسبات والوقائع الخاصة التى نزلت فيها آيات القرآن الكريم ولا سبيل الى معرفة كل ذلك الا عن طريق السنة الصحيحة .

٢ - الرد على من ينكر الاحتجاج بخبر الواحد :

من الحديث ما هو متواتر ومنه ما هو احاد ، أما الحديث المتواتر فقد عرفه العلماء بأنه (هو ما نقله من يحصل العلم بصدقهم ضرورة بأن يكونوا جميعا لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أول الاسناد الى آخره)[١٠٨] ولذا كان مفيدا للعلم الضرورى وهو الذى يضطر اليه الانسان بحيث لا يمكنه دفعه ، ويجب العمل به من غير بحث عن رجاله ولا يشترط فيه عدد معين فى الأصح[١٠٩] ، وأما خبر الآحاد فهو :

« الخبر الذى لم تبلغ نقلته فى الكثرة مبلغ الخبر المتواتر سواء كان المخبر واحدا أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة إلى غير ذلك من الأعداد التى لا يشعر بأن الخبر دخل بها فى حيز المتواتر »[١١٠] وقيل فى تعريفه : هو ما لم يوجد فيه شروط المتواتر سواء كان الراوى له واحدا أو أكثر[١١١] . والتعريفان يتفقان فى أن خبر الواحد لا يجتمع فيه شروط المتواتر ، فهما متقاربان .

وقد اتفق جمهور المسلمين من الصحابة والتابعين وغيرهم على وجوب العمل بخبر الواحد وأنه حجة ، ويفيد الظن ، ومنع من وجوب العمل به بعض طوائف : كالروافض والقدرية ، والجبائى فى جماعة من المتكلمين .

والدليل على وجوب العمل بخبر الواحد ما يأتى :

أولا : قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا

---

(١٠٨) تدريب الراوى ص ٣٧١ .
(١٠٩) قواعد التحديث للقاسمى ص ١٤٦ .
(١١٠) توجيه النظر ص ٣٣ .
(١١١) قواعد التحديث ص ١٤٧ .

قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »[١١٢] والنبأ هو الخبر ، وهو نكرة فى سياق الشرط فيعم كل خبر ، ويدخل فيه الخبر الذى يتعلق بالرسول ﷺ قبل غيره لأهميته . وقد أوجب الله تعالى التثبت فيه لوجود الفسق ، فاذا انتفى هذا السبب بأن كان المخبر ثقة عدلا قبل الخبر من غير تثبيت ولا توقف .

ثانيا : ورد فى السنة الشريفة ما يدل على قبول خبر الواحد ، من ذلك ما روى عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود عن ابيه أن النبى ﷺ قال : نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله والنصيحة ، ولزوم جماعتهم ، فان دعوتهم تحيط من ورائهم[١١٣] .

وفى هذا الحديث يدعو الرسول ﷺ لاستماع مقالته وادائها ويدعو بالنضرة للقائم بذلك فيقول : (نضر الله عبدا) وفى رواية (امرءا) ، وكل واحدة من الكلمتين بمعنى (الواحد) ، والرسول لا يأمر أن يؤدى عنه الا الذى تقوم به الحجة ، فدل ذلك على وجوب العمل بخبر الآحاد .

وقد تواتر عن الرسول صوات الله وسلامه عليه أنه كان يبعث بكتبه ويلزم المسلمين العمل بالآحاد منها .

ثالثا : اجماع الصحابة المستفاد من الوقائع الكثيرة التى كانت تحدث ، وتتواتر عنهم فى العمل بخبر الواحد وكثيرا ما يكون لهم رأى فى أمر من الأمور فاذا جاءهم خبر عن رسول الله ﷺ أخذوا به وتركوا آراءهم ، كما كانوا يرجعون الى بيت النبوة فى بعض ما يحتاجون اليه فيسألون امهات المؤمنين رغبة منهم فى الوقوف على حكم النبى ﷺ فى مثل هذه الأمور ، وعلى هذا النهج سار التابعون من بعدهم[١١٤] .

---

(١١٢) سورة الحجرات آية ٦ .

(١١٣) رواه أحمد جـ ١ ص ٤٣٦ عن زيد بن ثابت ، والترمذى جـ ٤ ص ١٤٢ عن عبد الله بن مسعود عن أبيه بلفظ (نضر الله امرءا . .) وقال : حديث حسن صحيح ، والدارمى بنحوه جـ ١ ص ٦٥ .

(١١٤) مكانة السنة فى الاسلام الدكتور محمد أبو زهو ص ٢١ .

ومما يشهد للعمل بخبر الواحد أن الصحابة كانوا يكتفون به فيما ينزل من أحكام الدين ولا يطلبون خبرا آخر من ذلك ما روى عن عبد الله أبن دينار عن ابن عمر قال : (بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح اذ جاءهم آت ، فقال : ان النبى قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل القبلة ، فاستقبلوها ، وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة)(١١٥) فقد أخبرهم بتحويل القبلة واحد صادق فلو لم يكن خبر الواحد جائزا لما تحولوا الى الكعبة بخبره .

رد بعض الاعتراضات :

١ - وقد يعترض على العمل بخبر الواحد ، بتوقف بعض الصحابة فى العمل به وطلبهم شاهدا أو يمينا .

والجواب على ذلك :

إن هذا كله لم يكن لأن الحديث خبر آحاد ، وإنما لزيادة التثبت فى الراوى والمروى وشدة الحيطة فى ذلك ، فربما وقع لهم الريب فى الراوى بأن كان غير حافظ أو غير ضابط ، فطلبوا الشاهد أو اليمين لذلك .

٢ - وقد يعترض كذلك بأن الصحابة لم يكثروا من رواية السنة وقصروا العمل على القرآن والمشهور من الأحاديث ، واجتهدوا بالرأى بعد ذلك .

والجواب على ذلك :

انهم ما تركوا الحديث الصحيح ولا لجأوا الى الرأى ، وتشهد بذلك الوقائع الكثيرة المأثورة عنهم ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول : (إياكم والرأى فان أصحاب الرأى اعداء السنن أعيتهم الاحاديث أن يعوها ، وتفلتت منهم أن يحفظوها فقالوا فى الدين برأيهم)(١١٦) .

وأما ما جاء عن الصحابة من الاجتهاد بالرأى ، فانه لم يكن الا بعد البحث عن الحديث ، فاذا لم يجدوه اجتهدوا برأيهم ، فاذا جاءهم بعد ذلك حديث عن رسول الله ﷺ

---

(١١٥) الموطأ ص ١٥٦ ، فتح البارى جـ ١ ص ٤٢٤ ورواه مسلم من طريق مالك جـ ١ ص ١٤٨ وأحمد جـ ٢ ص ١١٣ والشافعى فى الأم جـ ١ ص ٨١ .

(١١٦) أعلام الموقعين جـ ١ ص ٤٦ ط المنيرية .

اتبعوه وتركوا الرأى . وعن عبد الله بن مسعود قال : (من عرض له منكم قضاء فليقض بما فى كتاب الله فان لم يكن فى كتاب الله فليقض بما قضى فيه نبيه ﷺ ، فان جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض فيه نبيه ﷺ فليقض بما قضى به الصالحون فان جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض به نبيه ولم يقض به الصالحون فليجتهد رأيه فإن لم يحسن فليقم ولا يستحى)[117] .

---

(١١٧) المرجع السابق ص ٥٣ .

شروط العمل بخبر الواحد

اشترط العلماء فى قبول خبر الواحد ووجوب العمل به شروطا كفلت الاحتجاج به والعمل بما فيه ، وبهذه الشروط اندفعت الشبه التى أثارها المشككون حول الحديث وأصبح لا مجال لطعنهم وقولهم : (إن الراوى يجوز عليه الكذب أو الغلط مع احتمال الصدق فثبوت الخبر عن الرسول ﷺ غير مقطوع به) لا مجال لمثل هذا القول فان الشروط التى أشترطها الائمة والعلماء كانت كافية فى ترجيح جانب الصدق على جانب الكذب ، وهذه الشروط منها ما هو فى راوى الحديث ، ومنها ما هو فى متن الحديث :

أما الشروط الخاصة براوى الحديث فهى :

١ ـ العدالة .
٢ ـ الضبط .
٣ ـ أن يكون فقيها .
٤ ـ أن يعمل الراوى بما يوافق الخبر ولا يخالفه .
٥ ـ أن يؤدى الحديث بحروفه .
٦ ـ أن يكون عالما بما يحيل معانى الحديث من اللفظ .

أما الشروط الخاصة بالحديث فهى :

١ ـ أن يكون متصل السند برسول الله ﷺ .
٢ ـ خلوه من الشذوذ والعلة .
٣ ـ ألا يخالف السنة المشهورة قولية كانت أو فعلية .
٤ ـ ألا يخالف ما كان عليه الصحابة والتابعون وألا يخالف عموم الكتاب أو ظاهره .
٥ ـ ألا يكون بعض السلف قد طعن فيه .
٦ ـ الا يشتمل الحديث على زيادة فى المتن أو السند انفرد بها راويه عن الثقات .

وهكذا احتاط العلماء فى قبول خبر الواحد فاشترطوا الشروط الكافية ووضعوا لراويه الصفات اللازمة التى تجمع بين الثقة فى الدين والصدق فى الحديث . قال الخطيب : « وعلى العمل بخبر الواحد كان كافة التابعين ومن بعدهم من الفقهاء الخالفين فى سائر أمصار المسلمين الى وقتنا هذا ولم يبلغنا عن أحد منهم انكار لذلك ولا أعتراض عليه »[118] .

---

(١١٨) الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى ص ٧٢ ط مطبعة السعادة .

الأطوار التى مرت بها السنة

فى القرنين : الأول والثانى

رواية السنة وكتابتها ، وتدوينها وتصنيفها

العهد النبوى :

اصطفى الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه ليبلغ الرسالة الإلهية الى الناس جميعا ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وأعد الله تعالى رسوله ﷺ اعدادا كاملا فرباه بعنايته ، وكلأه برعايته وعصمه من الناس وعلمه ما لم يكن يعلم ، قال تعالى : (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما)[119] .

وقام الرسول ﷺ بأداء الرسالة خير قيام ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه وتحمل فى سبيلها ما تحمل وصبر واستعذب الأذى حتى أرسى دعائم الدعوة وأقام دين الله تعالى .

وقد تضافرت عوامل ثلاثة حفزت همم المسلمين الى الاقبال الشديد على السنة الشريفة ومدارستها :

أولا : القدوة الحسنة التى تمثلت فى الرسول ﷺ ، قال تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)[120] .

ثانيا : ما تضمنته آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة من الحث على العلم والعمل ، بل كانت أولى آيات الوحى الإلهى من القرآن دعوة صريحة الى العلم ، توجه

---

(١١٩) سورة النساء (١١٣)

(١٢٠) سورة الأحزاب (٢١) .

أنظار البشرية اليه ، وتحض عليه ، قال تعالى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم) [١٢١] ، وقال تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)[١٢٢] ، كما حض الرسول ﷺ على طلب العلم وتبليغه ، عن ابن شهاب قال : قال حميد بن عبد الرحمن : سمعت معاوية خطيبا يقول سمعت النبى ﷺ يقول : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله »[١٢٣] وقال ﷺ « نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه »[١٢٤] .

ثالثا : الاستعداد الفطرى ، والذوق العربى الأصيل والذاكرة الواعية الأمينة التى كانوا عليها ، وقد حركت هذه العوامل قلوب المسلمين للالتفاف حول رسولهم صلوات الله وسلامه عليه ، لينهلوا من معين سنته المطهرة التى وجدوا فيها مادة خصبة لدنياهم وأخراهم ، تكفل لهم سعادة الدارين ، لأن أحكامها الكريمة وآدابها الفاضلة تتعلق بالعقيدة والشريعة والأخلاق وتتعلق بجميع آدابهم وأحوالهم .

ونهج النبى ﷺ معهم منهج القرآن ، يتدرج فى انتزاع الشر والباطل ، ويعمل على غرس الخير والحق ، ويفتيهم فى مسائلهم فى كل مكان حسبما اتفق فى الحل والترحال ، وكان « المسجد » هو المكان المتعارف الذى تعاهدوا على حضور المجالس العلمية فيه ، تلك المجالس التى يعقدها لهم رسولهم ﷺ تشرق بنور الله ، وتنبثق منها الروحانية الصافية ، فيتعلمون ويتفقهون ويعبدون فيها ربهم ويسبحون بالغدو والآصال . وكان الرسول ﷺ يتبع معهم أسمى الطرق فى التعليم : ويتوخى مخاطبتهم بلغاتهم ولهجاتهم وعلى قدر عقولهم متواضعا حليما ، ولم يحرم النساء من حقوقهن فى العلم وإنما خصص لهن وقتا يتلقين فيه العلم .

---

(١٢١) سورة العلق (١ ـ ٥) .

(١٢٢) سورة التوبة (١٢٢) .

(١٢٣) فتح البارى جـ ١ ص ١٥٠ ، ١٥١ والمسند عن أبى هريرة جـ ١٢ ص ١٨٠ ورواه ابن ماجه جـ ١ ص ٤٩ ومجمع الزوائد (١ : ١٢١) .

(١٢٤) الحديث سبق تخريجه ص ٢٧ .

وقد بلغ من حرصه ﷺ على تعليم المسلمين أنه كان يكرر القول ثلاثا حتى يفهم عنه ، وربما طرح المسألة على أصحابه (١٢٥) ليختبر افهامهم ، ويجذب انتباههم ، ويتحرى أن يكون التدريس والموعظة فى الوقت الملائم والظروف المناسبة التى يتسنى لهم الحضور فيها ، وتكون عقولهم يقظة وواعية بعد صلاة الفجر وبعد العشاء ونحو ذلك .

---

(١٢٥) فتح البارى جـ ١ ص ١٣٦ .

تلقى الصحابة للحديث النبوى

حرص الرسول صلوات الله وسلامه عليه على تبليغ المسلمين سنته الشريفة وحبب الى أصحابه رضوان الله عليهم حفظ الحديث وتبليغه ، فوضع منهج التلقى والتحديث ، وأرسى بينهم قاعدة التثبت العلمى التى ساروا عليها ، واتخذوها منهجا فى الرواية بعد ذلك وسار الصحابة فى حرصهم على حضور مجالس الرسول ﷺ الى جانب ما يقومون به من أمور المعاش . واذا تعذر على بعضهم الحضور يتناوب مع غيره كما كان يفعل عمر رضى الله عنه ، قال : « كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد وهى من عوالى المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوما وأنزل يوما فاذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره واذا نزل فعل مثل ذلك »(١٢٦) . ولم يكن يتسنى للجميع سماع الحديث من الرسول ﷺ لما كانوا يقومون به من أعمال فكانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من أقرانهم وكانوا يشددون على من يسمعون منه ، كما كانت القبائل البعيدة تبعث الى النبى ﷺ من يتعلم أحكام الدين منه ثم يعود اليهم ليرشدهم ويعلمهم ، وهكذا عاش الصحابة مع رسولهم ﷺ يشاهدون تصرفاته فى عباداته ومعاملاته وإذا عنَّ لهم أمر من الأمور يحتاجون للبيان فيه رجعوا إليه يسألونه فيجيبهم ، ويفتيهم . كما كان ﷺ يعلم النساء أمور الدين ويخصص وقتا يجلس لهن فيه وكانت أمهات المؤمنين على درجة سامية من العلم ، لذا وجد النساء عندهن الاجابة على أمورهن وأحوالهن التى يمنعهن الحياء من التصريح بها أمام الرسول عليه الصلاة والسلام كالأمور الخاصة بهن وإلى جانب هذه العوامل السابقة كانت هناك طرق كثيرة ساعدت على انتشار السنة وقوى نشاطها اجتهاد الرسول ﷺ فى التبليغ وأثر أمهات المؤمنين الذى لا ينكر ، ومن ذلك بعوثه صلوات الله وسلامه عليه الى القبائل لتعليمهم وإرشادهم ، وكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، كما كان لغزوة الفتح أثر كبير فى نشر كثير من السنن حيث قام النبى ﷺ خطيبا بين ألوف المسلمين وغيرهم معلنا العفو عن أعدائه ومبينا كثيرا من الأحكام التى تناقلها الناس وحملوا توجيهه وإرشاده الى أهلهم . وبعد أن استتب الأمر يمم النبى ﷺ وجهه شطر المسجد الحرام حاجا ومعه ألوف من المسلمين ألقى فيهم خطبته الجامعة (١٢٧) التى تعتبر منهاجا

---

(١٢٦) فتح البارى جـ ١ ص ١٦٧ .

(١٢٧) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٣ ص ٣٣٣ ط الشعب .

عاما للدعوة الاسلامية تضمنت كثيرا من الاحكام والسنن وفيها بين الرسول ﷺ مناسك الحج ووضع من آثار الجاهلية ما أبطله الاسلام ، فكانت من أعظم عوامل انتشار السنة ن كثير من القبائل والعشائر .

ومعلوم أن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا فى مستوى واحد من العلم بل كانت تتفاوت درجاتهم العلمية ما بين مكثر ومقل ومتوسط تبعا لظروف كل واحد منهم ، إذ كان من بينهم البدوى والحضرى ، والمنقطع للعبادة ، والمشتغل بأمر المعاش فكان أكثرهم علما أسبقهم اسلاما كالخلفاء الأربعة وعبد الله بن مسعود ، أو أكثرهم ملازمة لنبيه ﷺ كأبى هريرة ، أو أكثرهم كتابة كعبد الله بن عمرو بن العاص .

ولكن السمات العامة للمسلمين آنئذ تبرز لنا الدوافع القوية التى حفزتهم على تلقى السنة النبوية حتى أودعوها حوافظهم القوية وصدورهم الأمينة مما جعل السنة الشريفة محفوظة جنبا إلى جنب مع القرآن ، وتلك الدوافع هى اقتداؤهم بنبيهم واستعدادهم الفطرى واستجابتهم للقرآن والسنة .

السنة فى عصر الصحابة والتابعين

انتقل الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الرفيق الأعلى ولم يترك وصية لمن يتولى الخلافة من بعده مكتفيا بتعاليمه الشريفة التى تضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة ، وقد أكمل الله لهم الدين وأتم عليهم النعمة قال تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »(١٢٨) وقد تمثلت سعادتهم فى الأصلين الكريمين : الكتاب والسنة فحرصوا على حفظهما وحراستهما . ولا خوف على التراث النبوى فى ظل الحياة المستقرة الآمنة مادام بعيدا عن أعداء الدعوة وأهل الأهواء ، أما حين تضطرب الحياة وتظهر العداوة والبغضاء والفتن والاهواء فحينئذ يخشى على التراث النبوى أن تمتد اليه أيدى من مردوا على البغى والعدوان .

وقد كان أول اهتزاز يخشى منه اضطراب الدولة الاسلامية ويشب بين المسلمين الخلاف من جرائه هو مسألة الخلافة بعد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقد اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يكون خليفة ، واجتمعوا فى السقيفة وبعد محاورة بينهم ومناقشة تداركهم الله بفضل منه ، فانحسم الأمر وتمت البيعة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان على الصديق أن يباشر مهام خلافته ، وكانت أولى مسئولياته الضخمة التى واجهته تلك الحركة المتمردة العنيفة التى تمثلت فى المرتدين ومانعى الزكاة ، وهى حركة لو قوبلت بلين وهوادة لهددت الدعوة وكانت خطرا جسيما على المسلمين لذا نشط الصديق فى مقاومتها من أول يوم وتأهب للقتال وأعد عدته ، ونازلهم حتى أصاخوا لحكم ربهم واستجابوا لأبى بكر رضوان الله تعالى عليه فدخلوا الاسلام وأدوا الزكاة فانتظم أمر الدعوة واستقرت الأمور وعادت الحياة آمنة ، وصفا الجو العلمى للصحابة فاستكمل صغارهم علومهم ومعارفهم كما أرادوا ، ونهل التابعون من علوم الصحابة التى حملتها إليهم صدورهم الأمينة وحوافظهم القوية وبعض صحائفهم العزيزة التى كانت تشكل روافد صافية الى منابع السنة الشريفة .

---

(١٢٨) سورة المائدة « ٣ » .

وهكذا سارت الحياة رخاء طيبة ، فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما حتى كانت الخلافات التى بدأت تبرق شرارتها حين أخذ الناس على سيدنا عثمان رضى الله عنه بعض الأمور ، ومن ذلك الوقت تسربت الفتنة بين الناس وتولى كبرها عبد لله بن سبأ اليهودى ، حتى انتهت بمقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه ، ومن هنا بدأت تتسعر نار الفتنة التى أطاحت بكثير من الصحابة .

ووسط هذا الجو الخانق تولى الامام على رضى الله عنه الخلافة فكان أول صدام واجهه على أثر مطالبة معاوية بدم عثمان ـ تلك المعارك التى أصابت سير الحياة بهزات عنيفة وفرقت المسلمين ، (وانتهت بمعركة صفين التى كان على أثرها تفرق أصحاب على إلى خوارج وشيعة)[١٢٩] .

أما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون فى بيت النبى وقد قرروا أنها حق لعلى بن أبى طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده .

وأما الخوارج فهم من أشياع على بن أبى طالب الذين خرجوا عليه بعد التحكيم ثم صاروا حربا عليه وعلى جماعة المسلمين من بعده ، وقد قضى عليهم المهلب بن أبى صفرة فى عهد الدولة الأموية . ووسط هذا الانقسام ، وبين تلك الثورات العارمة والمعارك الدامية لابد أن يجد الأعداء وأصحاب الأهواء الطريق ممهدة لهم ، فاستغل اليهود والفرس وأعداء الدعوة تلك الفرصة السانحة ليكيدوا للاسلام ويناهضوا ببغيهم وعدوانهم التراث النبوى ليدسوا ويضعوا ، فماذا ترى يفعل الصحابة ؟ !

---

(١٢٩) الحديث والمحدثون ص ٦٥ .

منهج الصحابة فى الرواية

لم يكن هناك مجال للخلاف فى عهد النبى ﷺ ، ولا خوف على السنة الشريفة ، لأن الصحابة كانوا اذا ظهر بينهم خلاف فى مسألة من المسائل يرجعون الى النبى ﷺ واذا عن لهم أمر يسألونه فيه . فلما انتقل الرسول ﷺ الى الرفيق الأعلى خيف العبث بالسنة ، خصوصا والحديث لم يدون بعد فى كتاب ، والاسلام تتسع رقعته يوما بعد يوم ويدخل فيه الكثير وفيهم من لا يؤمن جانبهم على الدين من المنافقين ونحوهم ؛ لذا كان من الضرورى أن يتثبت الصحابة فى سنة نبيهم الذى وضع لهم الاساس الأول فى قاعدة التثبت فبنوا عليها منهجهم فى الرواية وذلك بما بينه لهم عليه الصلاة والسلام من خطر الكذب عليه حين قال (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)[131] وقال « من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين »[132] وكان أول من وضع قوانين الرواية فيهم أبو بكر الصديق رضوان الله تعالى عليه وتبعه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسائر الصحابة ويتلخص منهجهم فى أنهم أقلوا من رواية الحديث كراهية أن يشتغل الناس برواية الحديث وينصرفوا عن تلاوة القرآن ، وخشية الوقوع فى الخطأ أو تسرب التحريف الى السنة ، والاقلال من الرواية كان سيرا سليما على ما رسمه لهم نبيهم عليه الصلاة والسلام ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ « كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع »[133] . كما سار الصحابة على طريق التثبت من الراوى والمروى فما

---

(١٣٠) تاريخ الاسلام : حسن ابراهيم جـ ٢ ص ١ ، ٣ .

(١٣١) رواه البخارى جـ ١ ص ١٧٩ فتح البارى بلفظ (من كذب على فلتيبوأ مقعده من النار) ورواه مسلم جـ ١ ص ٥٥ ط الشعب عن أبى هريرة ، والترمذى جـ ٤ ص ١٤٢ - عن عبد الله وأخرجه الزهرى عن أنس بن مالك وقال الترمذى حديث حسن غريب ، صحيح من هذا الوجه من حديث الزهرى عن أنس بن مالك ، والدارمى جـ ١ ص ٦٦ عن جابر .

(١٣٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ٥١ عن سمرة بن جندب وعن المغيرة بن شعبة ط الشعب ، والترمذى جـ ٤ ص ١٤٣ عن المغيرة بن شعبة وقال حسن صحيح ورواه ابن ماجه جـ ١ ص ١٠ .

(١٣٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ٦٠ ط الشعب .

أطمأنوا اليه قبلوه وما لم يطمئنوا اليه طلبوا عليه شاهدا ، وما لم تقم البينة على صدقه ردوه وكان تثبتهم قائما على ميزان النقد العلمى الصحيح . ومنع الصحابة الرواة من أن يحدثوا بما يعلو على فهم العامة . . لأن فى هذا مدعاة الى تكذيبهم للمحدث فيما لا يفهمونه ومدعاة للخطأ والارتياب فى الدين فامتنعوا عن ذلك خشية ان يستغل أصحاب الأهواء ظاهر النصوص لصالح بدعهم وأهوائهم .

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود قال : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة »[١٣٤] .

ومن أمثلة التثبت عند الصحابة ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : ـ « كنت فى مجلس من مجالس الأنصار اذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال : استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت فقال : ما منعك ؟ فقلت : استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت ، وقال رسول الله ﷺ : « اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » فقال : والله لتقيمن عليه بينة ، أمنكم أحد سمعه من النبى ﷺ ؟ فقال أبى بن كعب : والله لا يقوم معك الا أصغر القوم فكنت أصغر القوم وقمت معه فأخبرت عمر أن النبى ﷺ قال ذلك فقال عمر لأبى موسى أما أنى لم اتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ[١٣٥] .

وقد سار على سنة التثبت التابعون ومن جاء بعدهم وعنوا بالاسانيد والنقد العلمى الدقيق . ولما كان الصحابة متفاوتين فى العلم فلم يكن عند الجميع ما قاله الرسول ﷺ فقد بدأت الرحلات العلمية فقام الصحابة والتابعون بالرحلات الى كثير من البلاد حتى كان يتميز البعض بكثرة الرحلات والانتقال إلى أكثر من بلد ، وكانت الرحلة سبيلا الى طلب الحديث والتثبت منه .

كما كانت أيضا تدعيما لوحدة المسلمين وتعرفا على الجو العلمى فى شتى الاقطار الاسلامية ، ومعرفة وإلماما بطرق الحديث الكثيرة .

---

(١٣٤) صحيح مسلم شرح النووى جـ ١ ص ٦٣ ط الشعب .

(١٣٥) فتح البارى جـ ١١ ص ٢٢ ، شرح الزرقانى على الموطأ جـ ٤ ص ١٨٨ ، الرسالة ص ٤٣٥ برقم ١١٩٨ مختصرا .

تدوين السنة

قام أعداء الاسلام يعملون فى ظلام الفرقة التى دبت بين المسلمين على أثر قتل الخليفة الثالث سيدنا عثمان رضى الله عنه ـ حين افترق المسلمون فرقا وأحزابا ما بين شيعة وخوارج وجمهور ، وساعدهم على ذلك اتساع البلاد ، فوجدوا المناخ ملائما لبث سمومهم ودس أكاذيبهم ، وبعد أن انقضى عهد الخلافة الراشدة وافترق المسلمون الى فرق ، ظهر أرباب الكذب والنفاق من الملل الأخرى يكذبون ويلفقون ويضعون الاحاديث ، فكان ظهور الوضع فى الحديث أهم الأسباب التى حفزت همم العلماء لتدوينه وتصنيفه صيانة له من الايدى العابثة ، يقول الامام الزهرى : « لولا أحاديث تأتينا من المشرق ننكرها لا نعرفها ما كتبت حديثا ولا أذنت فى كتابه »[١٣٦] .

ولم يكن ذلك الوقت الذى ازداد فيه نشاط العلماء فى الجمع والتدوين هو مبدأ زمن التدوين وإنما بدأت كتابة الحديث منذ عهد النبى ﷺ بصورة خاصة وغير رسمية فالسنة النبوية لم تبق مهملة طيلة القرن الأول الى عهد عمر بن عبد العزيز ، وانما كانت تكتب كتابة فردية فى عهد الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ، وحفظت فى الكراريس والصحف بجانب حفظها فى الصدور ، حيث كانت توجد بعض الصحائف التى شاركت الصدور فى حفظ السنة ومن بين هذه الصحائف صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التى تسمى بالصادقة ، لأنه كتبها عن رسول الله ﷺ مباشرة ، يقول عبد الله بن عمرو بن العاص لمجاهد : « هذه الصادقة فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ وليس بينى وبينه أحد »[١٣٧] .

وهى تشتمل على ألف حديث[١٣٨] وكان لسعد بن عبادة الانصارى صحيفة ، ولسمرة بن جندب صحيفة ، والصحيفة التى دونت فيها حقوق المهاجرين والانصار واليهود وعرب المدينة .

وكان لجابر بن عبد الله الانصارى صحيفة ولأنس بن مالك صحيفة كان يبرزها اذ اجتمع الناس ولهمام بن منبه صحيفة تسمى الصحيفة الصحيحة رواها عن أبى هريرة

---

(١٣٦) تقييد العلم ص ١٠٨ .

(١٣٧) المحدث الفاصل ، وتقييد العلم ص ٨٤ .

(١٣٨) أسد الغابة ٣ / ٢٣٣ .

وكان ابن عباس معروفا يطلب العلم وبعد وفاة النبي ﷺ كان يسأل الصحابة ويكتب عنهم وكانت تلك الصحف والمجاميع تحتوى على العدد الأكبر من الأحاديث التى دونت فى القرن الثالث .

يقول الاستاذ ابو الحسن الندوى فى كتابه « رجال الفكر والدعوة » : « واذا اجتمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث كونت العدد الأكبر من الاحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانـد والسنن فى القرن الثالث وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله من غير نظام وترتيب فى عهد الرسول ﷺ وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم وقد شاع فى الناس حتى المثقفين والمؤلفين ان الحديث لم يكتب ولم يسجل الا فى القرن الثالث الهجرى وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون فى القرن الثانى وما نشأ هذا الغلط الا عن طريقتين :

الأولى : أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة .

الثانية : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون قد جاء فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت من القرن الأول « أ . هـ »[١٣٩] .

ويقول العلامة مناظر أحسن الكيلانى متفقا مع الندوى فى كتابه (تدوين الحديث) (وقد يتعجب الانسان من ضخامة عدد الاحاديث المروية فيقال أن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعمائة ألف حديث ، وكذلك يقال عن أبى زرعة ، ويروى عن الامام البخارى أنه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة ، ويروى عن مسلم أنه قال جمعت كتابى من ثلاثمائة ألف حديث ولا يعرف كثير من المتعلمين فضلا عن العامة ان الذى يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التى عنى بها المحدثون فحديث إنما الاعمال بالنيات يروى من سبعمائة طريق فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل[١٤٠] من الأحاديث ، وقد صرح الحاكم أبو عبد الله الذى يعتبر من المتساهين المتوسعين أن الاحاديث التى فى الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف . . . »[١٤١] « أ . هـ .) .

(١٣٩) رجال الفكر والدعوة ص ٨٢ .

(١٤٠) أى بالنسبة الى ضخامة عدد الاحاديث المروية فالقلة نسبية .

(١٤١) القرآن والنبى للدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٣٧ ، ص ٣٣٨ عن « تدوين الحديث » .

وأنا ارجح هذا الرأى وهو كتابة الحديث فى القرن الأول ، لأن أهل القرن الأول هم حلقة الاتصال بالنسبة لمن بعدهم من اصحاب القرون التالية الذين انتقلت على أيديهم السنة ، وأهل العهد الأول وإن كانت الأحاديث المدونة عنهم يظن أنها قليلة الا أنها صحيحة كلها لا يداخلها شك ، اذ لم يكن الكذب أو الوضع قد شاع فيهم كالذين جاءوا من بعدهم فهم عدول وهم خير القرون وما من شك فيما كانوا عليه فى العهد الأول من المنزلة العالية فى الحفظ والضبط ، وليس هذا غريبا على قوم انحدروا من أصلاب آباء كانوا قمما عالية فى الحفظ والاتقان ، ولكن مع هذا فقد كتب بعضهم الأحاديث فكان وصولها الى القرون التالية شفاهة وتحريرا وهذا أقوى وأوثق ، يقول ابن الصلاح « ولولا تدوينه - أى الحديث - فى الكتب لدرس فى الأعصر الأخر »(١٤٢) .

ومنذ سنة أربعين من الهجرة بعد وقوع الفتنة وحرب الامام على ومعاوية دبت الخلافات السياسية والمذهبية وظهر الوضع فى السنة النبوية من الذين لا ثقة فيهم ولا صحبة لهم حقيقية ، الا أن هذه الحركة قوبلت بقوة مؤمنة من علماء السنة الذين حصروا الوضاعين وصانوا سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام سيرا على منهجه الكريم الذى وضعه لهم فى الحفاظ على السنة الشريفة ، قال عليه الصلاة والسلام : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »(١٤٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من قال علىَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار »(١٤٤) .

وقد وردت بعض أحاديث تنهى عن الكتابة منها ما رواه أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال « لا تكتبوا على ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه »(١٤٥) .

وعن أبى نضرة قال : قيل لأبى سعيد لو اكتتبنا الحديث ؟ فقال لانكتبكم ، خذوا عنا ، كما أخذنا عن نبينا ﷺ (١٤٦) .

---

(١٤٢) مقدمة ابن الصلاح ص ٧١ .

(١٤٣) الحديث سبق تخريجه ص .

(١٤٤) فتح البارى جـ ١ ص ١٨٠ عن سلمةبن الاكوع بلفظ « من يقل . . . » واخرجه احمد جـ ٢ ص ٥٠١ عن أبى هريرة (بلفظ من قال) بإسناد صحيح وابن ماجه ص ١٠ من طريق محمد بن عمرو وعن أبى سلمة ومسلم جـ ١ ص ٥ والحاكم جـ ١ ص ١٠٢ والشافعى فى الرسالة ص ٣٩٦ والدارمى بنحوه جـ ١ ص ٦٧ .

(١٤٥) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٨ ص ١٢٩ وكتاب جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٧٦ ورواه الدارمى جـ ١ ص ٩٨ .

(١٤٦) جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٧٦ .

وهذا النهى عن كتابة الحديث كان فى بدء الدعوة خشية أن يختلط الحديث بالقرآن فيلتبس على بعض الناس ، أو أن النهى كان فى حق من يوثق بحفظه وخيف اتكاله على الكتابة ولذا أذن بالكتابة لمن لا يوثق بحفظه كأبى شاه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه : « أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه فأخبر بذلك النبى ﷺ فركب راحلته فخطب فقال : « إن الله حبس عن مكة القتل أو الفيل » ، قال ابو عبد الله : كذا ، قال أبو نعيم وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنون ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد بعدى وإنها أحلت لى ساعة من نهار ألا وإنها ساعتى هذه حرام لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط ساقطتها الا لمنشد فمن قتل فهو بخير النظرين إما أن ـ يعقل وإما أن يقاد أهل القتيل ، فجاء رجل من أهل اليمن ـ هو أبو شاه فقال : اكتب لى يا رسول الله : فقال : اكتبوا لأبى فلان . . . . »[١٤٧] .

اى الخطبة التى سمعها من رسول الله ﷺ أو أن النهى كان عاما وخص بالسماح له من كان كاتبا مجيدا لا يلتبس عليه الحال بين السنة والكتاب كعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : « ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثا عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب »[١٤٨] .

كما كان للنهى عن الكتابة ثمرة عظيمة : هى اتساع المجال أمام القرآن الكريم حتى يأخذ مكانه فى الكتابة ويثبت فى صدور الحفاظ ، « أو أن النهى كان خاصا بكتابة الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة والإذن فى تفريقهما »[١٤٩] .

أو أن النهى متقدم والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس وهو أقرب الآراء وممن روى عنه كراهة الكتابة فى الصدر الأول (عمرو بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى ، وابو سعيد الخدرى ـ وممن روى عنه إباحة ذلك أو فعله : على وابنه الحسن وأنس وعبد الله بن عمرو بن العاص)[١٥٠] .

---

(١٤٧) فتح البارى جـ ١ ص ١٨٣ ، مسند الامام احمد جـ ١٢ ص ٢٣٢ وجامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٨٤ .

(١٤٨) فتح البارى جـ ١ ص ١٨٤ ، وجامع بيان العلم جـ ١ ص ٨٤ ورواه الدارمى جـ ١ ص ١٠٣ .

(١٤٩) حاشية الدارمى جـ ١ ص ١٠٣ وتدريب الراوى ص ٢٨٧ .

(١٥٠) مقدمة بن الصلاح ص ٧١ .

(قال البلقيني : وفى المسألة مذهب ثالث وهو الكتابة والمحو بعد الحفظ) [١٥١] وأرى أن النهى عن الكتابة كان عاما فى بادىء الأمر ، وخص الرسول ﷺ بعض الصحابة بالاذن فى الكتابة لأسباب منها : أن البعض لا يوثق بحفظه كأبى شاه ، ومنها أن البعض كان كاتبا مجيدا لا يلتبس عليه الحال كعبد الله بن عمرو بن العاص ، فإنه كان قارئا للكتب المتقدمة ويكتب بالسريانية والعربية [١٥٢] .

وظل النهى عن الكتابة قائما حتى كثرت السنن وخيف عليها أن تضيع من البعض فكان الإذن بالكتابة ناسخا لما تقدم من النهى ، ولم يلحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وكتابة الحديث مأذون فيها .

وقد هم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بكتابة الحديث واستشار أصحاب الرسول ﷺ ، فأشاروا عليه ، فطفق يستخير الله فى ذلك مدة ثم عدل عن ذلك ، روى البيهقى فى المدخل عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن ، فإستشار فى ذلك أصحاب الرسول ﷺ ، فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له وقال : إنى كنت أردت أن أكتب السنن وإنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء أبدا [١٥٣] .

وأستمر حال السنة على هذا حتى انتشر الاسلام ، واتسعت الفتوحات وتفرق الصحابة فى الاقطار ومات الكثير منهم ، فدعت الحالة الى تدوين الحديث النبوى ، وذلك حين أفضت الخلافة الى الامام العادل عمر بن عبد العزيز فأراد أن يجمع السنن ويدونها مخافة أن يضيع منها شىء ، وكان ذلك على رأس المائة الأولى ، فكتب الى بعض علماء الامصار يأمرهم أن يجمعوا الأحاديث ، كما كتب الى عماله فى أمهات المدن الاسلامية ، وهكذا أصدر الخليفة العادل أمره الى أقطار الاسلام : « أنظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه »[١٥٤] .

وكتب الى ابى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ١١٧ هـ . (اكتب الى بما يثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ ، وحديث عمرة فإنى خشيت دروس العلم وذهابه) وفى

---

(١٥١) تدريب الراوى ص ٢٨٥ .
(١٥٢) تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٦ .
(١٥٣) جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٢٢ ، تدريب الراوى ص ٢٨٧ تقييد العلم ص ٥٠
(١٥٤) فتح البارى جـ ١ ص ٢٠٤ .

رواية : (فانى خشيت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبى ﷺ وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا) [١٥٥] .

كما أوصاه أن يكتب له بما عند القاسم بن محمد بن أبى بكر كما أمر ابن شهاب الزهرى ١٢٤ هـ وغيره بجمع السنن فكتبوها مستجيبين لأمر الخليفة الذى حفز هممهم وصادف أمره فى نفوسهم الاستجابة والقبول ، وهكذا أتم الله على يد عمر بن عبد العزيز تنفيذ رغبة جده عمر بن الخطاب التى عدل عنها خشية التباس السنة بالقرآن الكريم .

وكان تدوين الامام الزهرى للسنة عبارة عن جمع الاحاديث التى تدور حول موضوع واحد فى مؤلف خاص ، فكان لكل باب من أبواب العلم مؤلف قائم به ، فكتاب للصلاة مثلا ، وآخر للصوم ، وهكذا وكل مؤلف من هذه المؤلفات تدون فيه الأحاديث المتصلة بموضوعه ، ومختلطة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، وقد أخلص الامام الزهرى نيته وعمله لله وللرسول فى تدوين السنة والتنبيه على العناية بأساليبها .

أما بعد الامام الزهرى فقد تناول الأئمة رسالته ، وأخذوا يكملون ما بدأه فقد كان عمل الزهرى بمثابة حجر الأساس لتدوين السنة فى كتب خاصة ، ولكى يوضح الامام الزهرى هذا العمل ويسلم أساس البناء للجيل الذى سيأتى بعده . كان يخرج لطلابه الأجزاء المكتوبة ليرووها عنه .

وفعلا فقد بدأ العمل بعده ، وتعاون الائمة والعلماء فى المدن الاسلامية : فى مكة وفى المدينة وفى البصرة والكوفة والشام وخراسان واليمن وواسط والرى ، واضطلع الإئمة من أمثال الامام بن جريج ١٥٠ هـ بمكة ، والامام مالك ١٧٩ هـ بالمدينة ، والامام سفيان الثورى ١٦١ هـ بالكوفة وغيرهم بالمهمة الجليلة الملقاة على عاتقهم ، فأكملوا ما بدأه الزهرى ، الذى قام بالتدوين فجمع كل باب فى مؤلف خاص كما سبق ، فجاء هؤلاء من بعده ، فجمعوا أحاديث كل باب من أبواب العلم على حدة ثم ضموا الابواب بعضها الى بعض ، فكانت مصنفا واحدا ، وخلطوا الاحاديث بأقوال الصحابة والتابعين .

أما ما جاء بعد هؤلاء الأئمة - من أهل عصرهم فقد سار على دربهم ونسج على منوالهم الى أن رأى بعض الائمة إفراد الحديث وخاصة على رأس المائتين فى أوائل القرن الثالث الهجرى . . فألفت المسانيد ، ثم جاءت طبقة أخرى دونت السنة فى كتب خاصة

---

(١٥٥) المرجع السابق .

تحروا في تدوينها الصحيح على شروطهم وأفردت الحديث عن غيره ، وجمعته على أبواب الفقه ، واختارت الرواة المشهورين بالثقة ، وبهذا يتضح أن تدوين السنة لم يأخذ وضعه فى الظهور والتصنيف تماما الا فى منتصف القرن الثانى فى خلافة بنى العباس ، وإن كان قد بدأ قبل ذلك .

وكان لتدوين السنة على هذه المراحل أثره الجليل فى حفظها من الدخيل ، ومن الكذب على الرسول ﷺ ، كما كان لتدوين السنة على هذه المراحل أثره حيث سهل الطريق للاجتهاد والاستنباط .

بعد هذا كله أرى أن السنة النبوية كانت تكتب فى عهد الرسول ﷺ وأنه وإن وردت بعض الأخبار بالنهى عن كتابتها ، فإن إباحة الكتابة كانت جائزة للبعض ، وكانت آخر ما ترك الرسول ﷺ أصحابه عليه ، فلم يلحق بالرفيق الأعلى إلا وكتابة الحديث قائمة وقد حفظت فى الصحف بجانب حفظها فى الصدور ، ولم تبق مهملة طيلة القرن الأول الى عهد عمر بن عبد العزيز ، وأحاديث الإذن بالكتابة أكبر شاهد على ذلك . وهكذا كتبت الأحاديث ، وحفظ الكثير منها فى الصدور من لدن صدورها من الرسول ﷺ الى ان تلقفتها الصدور الواعية ، والصحف الأمينة ، وتناقلتها جيلا بعد جيل الى أن تسلمها منهم أهل القرن الثالث .

الباب الأول

الحالة السياسة والفكرية

فى القرن الثالث الهجرى

والكلام فيه يتناول فصلين :

الفصل الأول : ويشتمل على ثلاثة بحوث .

البحث الأول : الحالة السياسية وأثرها فى تقدم العلوم .

البحث الثانى : النزاع بين المتكلمين والمحدثين .

البحث الثالث : أثر النزاع بين المعتزلة وأهل الحديث .

الفصل الثانى : ويشتمل على بحثين :

البحث الأول : الوضع فى الحديث وأسبابه فى القرن الثالث الهجرى .

البحث الثانى : مقاومة المحدثين للوضاعين .

البحث الأول

الحالة السياسية وأثرها فى تقدم العلوم

شهد القرن الثالث الهجرى عهدين من عهود الخلافة ، **العهد الأول** وهو مطلع هذا القرن كان يمثل عهد سلطان الخلفاء وقوتهم وحسن سياستهم لأمور الدولة وينحصر هذا العهد فى الثلث الأخير من العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) هذا العصر الذى بدأ بأبى العباس السفاح الذى اجتهد فى توطيد دعائم الدولة العباسية ، وسار على نهجه الخلفاء الذين جاءوا من بعده كالمنصور والرشيد والمأمون والمعتصم وقد عمل الخلفاء فى هذا العهد على تثبيت قواعد الدولة وحمايتها من الدخلاء والمؤتمرين .

العهد الثانى :

عهد ضعف الخلفاء وتقلص نفوذهم . وبدأ هذا العهد بظهور الاتراك ، لأن المعتصم عندما تولى الخلافة وجد قوتين متصارعتين تحاول كل منهما السيطرة على الدولة ، وهما العرب من جانب والفرس من جانب آخر فأراد المعتصم أن يقيم قوة تسند سلطان الدولة ، فاستعان بالاتراك واستكثر منهم ، لأنه من أم تركية ، وقد بالغ فى استعانته بهذا العنصر حتى وكل أمور الدولة اليهم وأبعد من سواهم فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار . فكانوا سبب انحلالها واضمحلالها وتضاعف نفوذهم من بعده فقتلوا الخليفة المتوكل ومن بعد المتوكل أصبح الخلفاء ألعوبة فى أيدى الأتراك يولون من شاءوا ثم يخلعونه ويقتلونه فساءت أمور الدولة وأصبحت لا تسير على منهج مستقيم ، فالقصر موزع بين الأتراك وغيرهم من رؤساء الجيش ، والحكومة سقطت هيبتها واضمحلت عظمتها وأصبحت حالة الدولة سيئة للغاية . الا بعض فترات يسيرة يبرز فيها خليفة حازم تعظم هيبته ويشيع الأمن والطمأنينة ويسكن غوارب الفتن ، ولكنه ما أن انتهى أمره الا وتعود الحياة أدراجها ويشيع الفساد . ويرجع بعض الباحثين ذلك الى أمور ثلاثة (أولا : الجفوة بين بنى العباس والعرب . ثانيا : نظام الاقطاع الذى أسرف فيه بنو العباس إسرافا أدى الى تصدع العالم الاسلامى ، ثالثا : ضعف قيمة العهود)(١)

(١) ابن قتيبه : عبد الحميد الجندى ص ٤٨ .

وهكذا ساء تصرف أمور الدولة مما أدى الى كثرة الفساد حتى تعرضت الدولة لثورات سياسية منها : ثورة الزنج التى ظهرت فى بلاد البحرين سنة ٢٤٩ هـ [٢] ولئن كانت الدولة قد اعتراها تقهقر سياسى وأصاب الخلفاء وهن شديد وتمزقت الدولة الى ممالك ودويلات فإن النهضة العلمية لم تتعثر خطاها ولم يتقهقر ركبها ، بل استمرت تشق طريقها نحو التقدم والرقى .

وكان عهد المأمون اسمى العهود العلمية فى العصر العباسى ويرجع هذا لسببين :

أولا : ما شغف به المأمون من الاشتغال بالعلم ، ومجالسة العلماء عندما كان بمرو ، فأخذ عنهم الكثير من علوم الدين كالحديث والفقه ، ولذا كان محبا للعلم شغوفا بنشره .

ثانيا : أن الأمة إذ ذاك كانت تواقة الى البحث والمعرفة وكثر علماؤها وانتشروا فى كل مصر من الامصار[٣] .

وكان القرن الثالث أزهى عصور الاسلام فى شتى العلوم ، وما من علم إلا ونبغ فيه علماء أعلام فى هذا القرن ، فنبغ علماء فى العلوم الدينية والعربية ، وفى التاريخ والجغرافيا ، والرياضة ، والطب ، وعلم النجوم ، كما نقلت الفلسفة اليونانية . وبالجملة فقد نضجت فى هذا القرن معظم العلوم والمعارف ، ووصلت الحضارة الى أرقى أطوارها .

ولم يكن للضعف السياسى من أثر فى تقدم العلوم ، بل إن العلماء شقوا الطريق الى الامام . وكانت هناك خصومات بين تلك الثقافات السابقة بعضها مع بعض وكان الخلاف بين المتكلمين وأهل الحديث قديما ، وأكثر أهل الكلام من الخوض فى مسائل خالفوا فيها الجمهور أهل الحديث .

وظل الحال هكذا ، والخلاف يشتد بين الفريقين حتى عام ٢١٨ هـ ، حيث تطور بينهما الجفاء وكانت فتنة القول بخلق القرآن كما سيأتى بيانه وتولى المأمون كبرها مستغلا نفوذه فى رد أهل الحديث إلى رأيه ، حتى لا يخذل أمام الرعية ، وجعل الدولة تجبر الناس على غير ما يعتقدون .

---

(٢) المبرد : احمد حسين وعبد الحفيظ البرغلى ص ٩ « اعلام العرب » .

(٣) محاضرات فى تاريخ الأمة الاسلامية ص ٢٠٦ الشيخ محمد الخضرى .

وقد دافع المحدثون عن الحق ، وصبروا على السجن والتعذيب ، صامدين أمام التهديد ، حتى جاء عهد « المتوكل » سنة ٢٣٢ هـ فأزال المحنة ورفع من شأن المحدثين ، وانضمت السياسة الى جانب أهل السنة ، فكان لذلك أثره فى تقدم العلوم الدينية ولا سيما السنة النبوية . وهكذا نرى أن الحالة السياسية لم يكن لها من أثر يذكر على الحياة العلمية .

بل إن العلوم ظلت سائرة فى طريقها ، أما بالنسبة للحديث ورجاله ، فإن ما حدث بين رجاله وبين المتكلمين لم يكن ليعوق الحديث وعلومه ، بل إن الدولة فى عهد المتوكل أيدت أهل الحديث ، وانتصرت للأئمة الكرام الذين صبروا وصابروا حتى جاء الحق وزهق الباطل نعم كانت هناك بعض الفترات التى منع فيها بعض الأئمة من التحديث ، ولكن كان لها رد فعل عظيم بعد ذلك فى اقبال الناس على الحديث والانتصار له ، وإقامة أحكام الدين النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية كما سيأتى الحديث عن ذلك .

البحث الثانى

النزاع بين المتكلمين والمحدثين

يرجع النزاع بين المتكلمين والمحدثين الى ما قبل القرن الثالث الهجرى منذ نشأة المعتزلة على يد واصل بن عطاء المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائة حينما اعتزل أستاذه الحسن البصرى وخالفه فى بعض الأصول فسمى هو وأتباعه بالمعتزلة .

وكان للمتكلمين آراء خاصة فى بعض مسائل الدين تختلف عما عليه الجمهور منها :

١ ـ أفعال العبادة [٤] وقد ذهب المعتزلة الى أن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله ومن أجل ذلك يثابون عليها أو يعاقبون ، اما الجمهور فيرون انها من خلق الله سبحانه وليس للعباد منها الا جريانها على ايديهم باكتسابهم .

٢ ـ صفات الله تعالى : كما ذهب المعتزلة الى ان الله منزه عن ثبوت صفات قائمة بذاته كالقدرة والارادة . . . وأداهم الى ذلك الخشية من تعدد القدماء ، أما الجمهور فيرون أن هذه الصفات قديمة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها ونشأ عن ذلك الخلاف حول القرآن الكريم أقديم هو لأنه صفة لله كما يرى الجمهور ؟

أم حادث لأنه ليس بصفة لله بل يخلق الله هذه الحروف والأصوات فى جسم المحدث كما يرى المعتزلة ؟

وقد بلغ بالمتكلمين الأمر فى تحكيم سلطان العقل فى معظم أبحاثهم ووصلت بهم الجرأة الى رد بعض الأحاديث التى لا يرونها متفقة مع عقائدهم ولم يجدوا لها تأويلا ، الا أنهم لم يستطيعوا أن يعلنوا آراءهم ويطالعوا بها جماهير العامة ، لأنهم ليس معهم أحد من الخلفاء يؤيدهم وهم يخالفون جمهور المسلمين وقد ظلوا هكذا حتى كان القرن الثالث وتولى

---

(٤) محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية ، ص ٢٠٧ الشيخ محمد الخضرى .

المأمون الخلافة ، وكان مولعا بالمناظرة تواقا الى حرية الفكر والبحث ، شغوفا بالعلم والمعرفة ، كان هذا سببا دعا المأمون أن يفسح المجال أمامهم ، حتى ظهروا بآرائهم [٥] .

وسبب آخر دعا المأمون الى ذلك : وهو تأثير المعتزلة عليه ، كما سيأتى تفصيل ذلك ومناقشته ، وهكذا كان جو الحياة العلمية فى عهد المأمون متمثلا فى خلاف عنيف بين أهل السنة والمتكلمين ، وبذل المأمون محاولات كثيرة أملا فى أن يجتمعوا على كلمة واحدة ، ويرأب صدع الخلاف القائم بين الفريقين ، فرأى أن يجمعهم فى مجالس للمناظرة ، رجاء أن يتفقوا على رأى واحد يحمل الجميع عليه ويريح الأمة من عواقب هذا الخلاف الشديد . فعقد مجالس المناظرة ، وقد أسفرت المناقشات عن رأى المأمون فى بعض المسائل ، وانحيازه الى المعتزلة فى بعض الأمور التى من بينها القول بخلق القرآن ، وأعلن رأيه للفقهاء والعلماء منتظرا أن يستجيبوا له ، الا أنه كان لهذا الانحياز أثر كبير ، اذ رماه الناس بالابتداع ، وحكم البعض بكفر من قال بخلق القرآن ، فلما رأى أن طريقة المناظرة لم تجد فى إقناع الناس ، استغل نفوذه فى حمل الناس على رأيه .

وهنا أستطيع أن أقرر أن السبب فى افساح « المأمون » المجال أمام الآراء الاعتزالية هو ولعه بالبحث والمناظرة وقد ترتب على ولع المأمون بالبحث والمناظرة أن كان الاعتزال أقرب المذاهب الى نفسه ، لأنه أكثر اعتمادا على العقل ، وأوسع حرية فى الرأى ، والمأمون معروف بالعقل الفلسفى الذى ينزع الى حرية التفكير والرأى ، لذا قرب المعتزلة منه وأصبحوا ذوى نفوذ فى القصر[٦] فما لبث المعتزلة أن حركوا قلب المأمون ، وأثاروا عاطفته الى القول بخلق القرآن ، ونجحوا فى ذلك أيما نجاح فقد أصبح المأمون مهتما بهذه النظرية حتى أعلنها عقيدة رسمية[٧] بعد ذلك :

وقد ظهرت فكرة القول بخلق القرآن على يد الجعد بن درهم فى آخر عهد الدولة الأموية ، وقد قام بنشرها متأثرا بأفكار يهودية كان يذيعها طالوت اليهودى ، وأخذ عنه أبان ثم الجعد[٨] وقد اعتنقها الجعد وبثها بين الناس ، ولما نفى الى الكوفة ، واستقر به المقام هناك ظل مصرا على ما هو عليه ، ولقن ما يعتقده لجهم بن صفوان وأمره أن يقوم بنشره بين الناس وانتهت حياة الجعد على يد خالد بن عبد الله القسرى وإلى بغداد كماانتهت حياة

---

(٥) الحديث والمحدثون ص ٣١٧ .

(٦) عصر المأمون : الدكتور أحمد فريد الرفاعى جـ ١ ص ٣٩٥ .

(٧) تاريخ الشعوب الاسلامية : كارل بروكمان ترجمة : نبيه أمين ومنير البعلبكى ص ٢٠١ .

(٨) احمد بن حنبل : احمد عبد الجواد الدومى ص ١١٠ .

جهم على يد سالم بن الخويز بمرو سنة ١٢٨ هـ ، ولكن الفكرة لم تمت بموتها ففى عهد هارون الرشيد ظهرت على لسان بشر المريسى فتوعده الرشيد ونامت الفتنة وتوارى بشر وورث المعتزلة هذا القول عن الجعد والجهم وظل الحال فى هدوء حتى جاء المأمون واستتب له الأمر بعد قتل الأمين فأفسح المجال أمام الآراء الاعتزالية للأسباب السابقة ، وفتح لها أبواب العلم ومنابع الفكر .

ولما كان المأمون محبا للمعتزلة ولوعا بآرائهم فقد تعصب كثيرا للمعتزلة ومال الى جانبهم بصورة كبيرة لدرجة أنه ألزم العلماء والفقهاء الأخذ بمذهبه ، وهذا ما يتناقى مع حرية التفكير والرأى التى عرف بها المأمون فى بادىء الأمر ، ولكنه التعصب الذى دعاه اليه ميله للمعتزلة وتسويغهم تلك الآراء إليه .

وليس من حرية التفكير فى شىء تلك النتائج السيئة التى انتهت إليها مأساة القول بخلق القرآن[٩] وما كتبه المأمون الى ولاته فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن بوسائل الشدة والعنف ، وكان المأمون يتأثر برأيه من حوله من المعتزلة ولهذا وجدوا الطريق ممهدة للتأثير عليه ومن هؤلاء ابن ابى دؤاد الذى كان يجله المأمون ويصغى إليه ويقبل شفاعته فلما دس له القول بخلق القرآن وزينه له أصبح المأمون يعتقده حقا[١٠] وأيضا فقد كان المأمون تلميذا لأبى الهذيل العلاف وهو من رؤوس المعتزلة ، وتلميذا ليحيى بن المبارك الزيدى المهتم بالاعتزال كما كان محبا لثمامة بن الاشرس والمعتزلة وغيرهم فحبب هؤلاء الى المأمون مذهبهم وكان لهم أثرهم فى تنمية النزعة الاعتزالية عنده ، هذا بالاضافة الى حركة النقل والترجمة التى حببت الى المأمون الفلسفة والمنطق[١١] وكل ذلك هيأ لدى المأمون جوا رحبا لنصرة الآراء الاعتزالية واتساع الجوانب لتأييد مسألة القول بخلق القرآن التى وجدت من المأمون الصدر الرحب ، وهكذا تحقق للمعتزلة الحلم الذى كان يراودهم ليتمكنوا من نشر مذهبهم وتعميم أصولهم حتى رأوا فى المأمون تحقيق ما كانوا يتمنونه فقرت عيونهم بتحقيق أملهم ، ومن هنا أخذت فكرة القول بخلق القرآن أكبر مجالاتها ظهورا وذيوعا رغم كراهية العامة لها ورفضهم الكلام فيها .

وقبل بيان ما قام به المأمون تجاه هذه المسألة وما تبع ذلك من محنة قاسية للمحدثين وخاصة الامام احمد بن حنبل لابد من بيان وجهة نظر المعتزلة فى المسألة وتوضيح رأى السلف فيها حتى يتضح الأمر :

---

(٩) عصر المأمون جـ ١ ص ٣٩٥ .

(١٠) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى جـ ٢ ص ٣٧ بتحقيق عبد الفتاح الحلو .

(١١) عصر المأمون جـ ١ ص ٣٧٥ .

يرى المعتزلة تنزيه الله تعالى عن صفات قائمة بذاته خشية تعدد القدماء فى نظرهم كما سبق وأيضا رأوا أن القرآن الكريم اذا كان كلاما أزليا وصفة من صفات الله تعالى يترتب على ذلك بعض الاستحالات منها أنه لا قيمة للأمر ما لم يصادف مأمورا فلا يصح أن تصدر (أقيموا الصلاة) الا اذا كان هناك مأمورون بالصلاة ، ولم يكن فى الأزل مأمورون مخاطبون بذلك ، واستدلوا بقوله تعالى (إنا انزلناه) وقوله (كتاب انزلناه) ولا شك أنه لا انزال فى الأزل الى آخر ما ساقوه من أدلة عقلية ونقلية حكموا بها على استحالة أن يكون القرآن قديما ، وأوجبوا أنه مخلوق فكلام الله عندهم عبارة عن أصوات وحروف يخلقها الله فى غيره وتصل الى النبى عن طريق ملك أو نحوه[12] كما قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم)[13] .

أما السلف فيرون الوقوف عند النص ولا يسمحون لأنفسهم بالتأويل لأن معرفة ذات الله وصفاته عندهم فوق العقل البشرى فالعقل أضعف من ذلك ، ويرى بعض الحنابلة أن القرآن بحروفه وأصواته قديم فكان الخلاف حول القرآن من حيث حروفه وألفاظه فالمعتزلة يقولون بحدوثها وبعض الحنابلة يقولون بقدمها ، ويقول السلف لا نتكلم فى هذا . وظل النزاع هكذا أيام المأمون والمعتصم والواثق حتى جاء أبو الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ فقال : ان كلام الله يطلق بإطلاقين أحدهما المعنى النفسى القائم بذاته وهو الأزلى القديم وهو المراد بوصفنا كلام الله بالقدم والآخر بمعنى المقروء المكتوب وهذا حادث مخلوق كما يقول المعتزلة . وأرى أن المعتزلة قد أنكروا الكلام النفسى فحكموا بأن القرآن مخلوق لأنه عندهم ليس الا ما يقرأ أو يسمع أما أهل السنة فحكموا بأن لله كلاما نفسيا قائما بصفة أزلية فى الذات الإلهية وهو قديم وكان رأى الامام أحمد واضحا كل الوضوح فهو لا يعترف بالخلق بل يرى أن كلام الله غير مخلوق وهو الكلام الإلهى الأزلى .

---

(١٢) ضحى الاسلام جـ ٢ ص ٤٠ .

(١٣) سورة الشورى « ٥١ » .

المحنة

سبقت الاشارة الى أن المأمون بذل عدة محاولات لجمع العلماء على كلمة واحدة ورأى واحد يحمل الجميع عليه حتى لا يستمر الخلاف ولكن هذه المحاولات لم تكن ذات جدوى اذ أن المأمون وهو صاحب فكرة جمع العلماء وتوحيد الصف انحاز الى فريق المعتزلة بصورة واضحة وأعلن ذلك مما جعل الناس يرمونه بالابتداع فلجأ الى وسيلة القهر على الخصوم يريد أن يحمل الناس على رأيه بقوة السلطان ، ومهد الطريق أمام حملته بكتب شرح فيها نظريته بوضوح ، فى سنة ثمان عشرة ومائتين كتب المأمون الى نائبه اسحاق بن ابراهيم الخزاعى ببغداد فى امتحان العلماء كتابا يقول فيه (وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر لهم ولا رؤية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه حق معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه ، وذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه وقد قال تعالى (إنا جعلناه قرآنا عربيا)[١٤] فكل ما جعله الله فقد خلقه كما قال تعالى : (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)[١٥] وقال تعالى : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق)[١٦] فأخبره أنه قصص لأمور احدثها بعدها وقال تعالى : (آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)[١٧] والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه ، ثم انتسبوا الى أهل السنة وأنهم أهل الحق والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر فاستطالوا بذلك وأغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله الى موافقتهم فنزعوا الحق الى باطلهم واتخذوا دين الله وليجة الى ضلالهم . . . الى أن قال : فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة المنقوصون من التوحيد حظا أوعية الجهالة وأعلام الكذب . الى أن ختم الكتاب بقوله . . فاجمع من بحضرتك من القضاة ـ فاقرأ عليهم كتابنا وامتحنهم فيما يقولون

---

(١٤) سورة الزخرف آية (٣) .
(١٥) سورة الأنعام آية (١) .
(١٦) سورة طه آية (١) .
(١٧) سورة هود آية (١)

واكشفهم عما يعتقدون فى خلق الله تعالى واحداثه وأعلمهم أنى غير مستعين فى عمل ولا واثق بمن لا يوثق بدينه فاذا أقروا بذلك ووافقوا فمرهم بنص من بحضرتهم من الشهود ومسألتهم عن علمهم فى القرآن وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق واكتب الينا بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك[18] . ويلاحظ على هذا الكتاب شدة الخصومة وقسوة اللهجة مع دقة التعبير ويرى بعض الباحثين أن الكتاب أملى على المأمون املاء ولم يكن له نصيب فيه الا التوقيع ويرجح أنه من أسلوب [19] ابن أبى دؤاد . وأرى أنه لا مانع أن يكون الكتاب من املاء المأمون أو باشرافه خصوصا بعد أن عرف موقفه السابق من أهل الحديث وتعصبه الشديد للمعتزلة وتشبعه بآرائهم والزامه الناس السير على مبادئهم وقد واجه علماء الامصار كتاب المأمون بشىء من الانكار والاستغراب خاصة أهل بغداد وعلى رأسهم الامام احمد بن حنبل الذى كان يعلن رأيه على تلامذته فى المسجد وبين الأصدقاء والعشيرة حتى نمى الى علم المأمون وهو يتجهز لغزو البيزنطيين فى آسيا الصغرى - أن الرأى العام فى بغداد لا يقر فكرة القول بخلق القرآن ويتزعم المعارضة الامام احمد بن حنبل ، لذا كتب المأمون كتابا ثانيا الى عامله ببغداد بانفاذ سبعة أشخاص وهم محمد بن سعد كاتب الواقدى ويحيى بن معين وزهير بن حرب أبو خيثمة وأبو مسلم مستلمى يزيد بن هارون واسماعيل بن داود واسماعيل بن أبى مسعود واحمد ابن ابراهيم الدورقى .

فأشخصوا اليه فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأعادهم الى بغداد فأحضرهم اسحاق بن ابراهيم داره وشهر قولهم بحضرة المشايخ من أهل الحديث فأقروا بذلك فخلى سبيلهم ، وسبب طلبهم أنهم توقفوا أولا ، ثم أجابوه تقية[20] .

وكان الامام أحمد من بين هؤلاء الا أن ابن أبى دؤاد رفع اسمه من قائمتهم حتى لا تظهر جرأته فيتشجع بها سواه .

والذى يظهر أن هؤلاء العلماء قد أجابوا بخلق القرآن تحت الضغط والاكراه لما رأوا من مظاهر الشدة والشر لدى المأمون ويدل على ذلك ما قال يحيى بن معين وغيره : (أجبنا خوفا من السيف)[21] ولما انتهز المأمون موافقتهم وجمع فقهاء بغداد وعلماءها وأسمعهم

---

(١٨) الكامل لابن الأثير جـ ٥ ص ٢٢٢ ، عصر المأمون جـ ٣ ص ٥ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٣٨ ، ص ٣٩ .

(١٩) أحمد بن حنبل أحمد - عبد الجواد الدومى ص ١٢٩ .

(٢٠) الكامل لابن الاثير جـ ٥ ص ٢٢٢ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٣٩ .

(٢١) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٣٩ .

ما قالوا كان ذلك سببا فى اضطراب الرأى العام مما جعل الامام أحمد يكاد يتميز من الغيظ وجهر بمخالفته للسلطان فبعث المأمون كتابا ثالثا الى اسحاق ابن ابراهيم عامله على بغداد يؤكد فيه اصراره على حمل الناس على رأيه ، ولما وصل الكتاب إلى بغداد جمع عددا من العلماء فيهم الامام أحمد وكانت اجاباتهم متفاوتة بتفاوت ايمانهم وفهمهم وقوة شجاعتهم أما الامام أحمد فكان رأيه صريحا وجريئا فحين قال له اسحاق : ما تقول فى القرآن ؟؟ قال هو كلام الله ، قال اسحاق أمخلوق هو قال كلام الله لا أزيد عليها ، ثم امتحن الباقين وأرسل بالاجابة الى المأمون فهاج وماج وثارت حفيظته وكتب الكتاب الرابع يحمل الزجر والتقريع والوعيد والتوبيخ لمن يمتنع عن الاجابة بخلق القرآن ، ولكن الامام أحمد ظل على شجاعته لا يخشى فى الله لومة لائم وسار على نهجه بعض العلماء وهم سجادة والقواريرى ومحمد بن نوح ثم عاودهم ثالثا فأجاب القواريرى ووجه بأحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الى طرسوس حيث لم يجد حيلة فى اقناع الامام أحمد عن طريق الحجة فاتخذ أسلوب الضغط والارهاب ، وحينئذ حمله مقيدا الى المأمون ولكن المأمون مات فى طرسوس وابن حنبل فى الطريق - ورغم موت المأمون فلم تمت الفتنة ولم تخمد جذوة المحنة فقد أوصى قبل موته أخاه المعتصم الذى خلفه بأن يسير سيرته فى القول بخلق القرآن وظل ابن حنبل سجينا ينتظر مصيره فاستدعاه المعتصم بعد توليته الخلافة وجادله ولكنه أصر بحزم على موقفه وحين قال له المعتصم : ما تقول فى القرآن ؟؟ قال هو كلام الله ، أمخلوق هو ؟؟ فيجيب : هو كلام الله ، فلما يئسوا منه ولم يجدوا جدوى فى ذلك ضربوه بالسياط ونخسوه بالسيوف حتى أغمى عليه ومكث فى السجن عامين ونصف عام . وسار المعتصم على مبادىء المأمون القاسية حتى قتل خلقا من العلماء وأهان كثيرا من أهل الحديث ، واستمرت المحنة حتى مات المعتصم سنة ٢٢٧ هـ وتولى ابنه الواثق فسار على منهج سابقيه غير أنه لم يؤذ ابن حنبل وإنما كان يبعده عن الناس ويبعد الناس عنه ولما مات الواثق وولى المتوكل سنة ٢٣٢ هـ أنهى الله على يديه هذه الفتنة فعاد ابن حنبل الى التدريس مكرما بعد أربع عشرة سنة عاشها مضطهدا محاربا فى فكره وعقيدته من هؤلاء الذين لم يرعوا فى الحق حرمة ولا ذمة وآذوا ذلك الامام الجليل الذى حمل مشاعل الحق والنور وكرس عمره لخدمة السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وقد استقبل عامة الناس رفع المحنة بالدعاء للمتوكل والثناء عليه حتى قيل : (الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق فى قتل أهل الردة وعمر ابن عبد العزيز فى رد المظالم والمتوكل فى إحياء السنة وإماتة التجهم)[٢٢].

---

(٢٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٤٦ ط الفجالة ، البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٣٢ .

البحث الثالث

أثر النزاع بين المعتزلة وأهل الحديث

قام نزاع بين المتكلمين وأهل الحديث من جراء اختلافهم فى كثير من الآراء والمعتقدات كما سبق توضيحه ، وقد أطلق المعتزلة ألسنتهم على أهل الحديث ورموهم بالنقائص والكذب ورواية المتناقضات ، وكان أهل الحديث متثبتين فى رواية السنة ، سائرين على منهج التثبيت بالحيطة فيقفون عند ظواهر النصوص ولم يدخلوا على العامة من التأويلات ما يفتتنون به وما لا تدركه أفهامهم وقاموا بنقد الرواة والوقوف على أحوالهم وتمييز الاحاديث الصحيحة من غيرها أمثال الامام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المدينى واسحاق بن راهويه وغيرهم . غير أن هناك من انتسب الى أهل الحديث وليس منهم ، أمثال القصاص الذين بثوا الغرائب التى كانت سببا فى فتح أبواب الطعن فى الاسلام . ووجد الى جوارهم بعض الجهلة الذين كانوا يفتون بما هو منكر فى الشرع وقد ضاق اعلام المحدثين بهؤلاء الأدعياء الذين كانوا سببا فى رمى أهل الحديث بالمثالب والطعون التى وجهت اليهم بسبب هؤلاء الأدعياء المتكسبين بالحديث .

واذا نظرنا الى أهل الكلام نجدهم قد تطرفوا فى تأويل النصوص وارتفعوا بسلطان العقل صونا لآرائهم التى يعتنقونها والتى حكموها فى الدين وقاموا بتطبيق فهمهم لها على الكتاب والسنة ففتحوا باب التأويل والطعن فى الأخبار . يقول ابن قتيبة : (ولو كان اختلافهم فى الفروع والسنن لاتسع لهم العذر عندنا ، وان كان لا عذر لهم مع ما يدعون لأنفسهم كما اتسع لأهل الفقه ووقعت لهم الأسوة بهم ولكن اختلافهم فى التوحيد وفى صفات الله تعالى وفى قدرته وفى نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار وعذاب البرزخ وفى اللوح وفى غير ذلك من الأمور التى لا يعلمها نبى إلا بوحى من الله تعالى)[٢٣] وقد انتهز المعتزلة مكانتهم من الخلفاء وتوليهم الوزارة والقضاء فنالوا من أهل الحديث وجمهور الأمة حتى وصل الأمر ببعضهم الى سفك الدماء البريئة ، ولم يكن لأهل الحديث من ذنب اللهم الا وجود أدعياء الرواية والقصاص والجهلة بينهم .

---

(٢٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٧ .

وقد اندفع المعتزلة باعتناقهم الآراء الفلسفية الى رد الأحاديث الصحيحة والطعن فى الصحابة الى أن جاء المأمون وحاول توحيد الصف كما سبق بيانه ولكن اخطأه التوفيق وغشيه التعصب الأعمى الذى انحاز بسببه الى المعتزلة . فاتسعت هوة الخلاف بين الفريقين فلم يجد المأمون بدا أمامه من أن يستعمل الشدة والارهاب .

والذى آخذه على المعتزلة أنهم أخذوا المحق بذنب المبطل ولم يفرقوا بين الجهلة والعلماء فحاربوا الأمة ورواة الحديث مما دفع جمهور المسلمين أن يقابلوهم بما ينبغى بعد أن زالت المحنة ، وقد سار المحدثون على منهج السلف الصالح حيث امسكوا عن الخوض فى تلك الامور التى تضر بالعقيدة ، وإذا نظرنا الى محور الخلاف بين الفريقين نرى أن مسألة خلق القرآن واضحة بالنسبة للالفاظ القرآنية وكونها مخلوقة وليست قديمة ولم يخف على أئمة الحديث أمثال الامام احمد بن حنبل هذه الحقيقة ولكنهم أمسكوا عن الخوض فيها ليحافظوا على عقيدة العامة الذين لا يستطيعون التمييز بين الكلام كصفة قديمة لله وبينه كألفاظ مقروءة مكتوبة فآثروا الامساك عن الكلام فى المسألة خشية أن يعتقد العامة خلاف الحقيقة فيلتبس عليهم الأمر بين الحادث والقديم وعلى هذا كان موقف المحدثين موقف الحريص على قدسية القرآن فسلكوا منهج سلفهم الصالح .

ومن خلال ما سبق أستطيع أن أبرز أثر هذا الخلاف على الحديث وهذا ما يهمنا فى هذا البحث فقد تعرضت فيما سبق الى هذه المشكلة واوضحت وجهة نظر كل واحد من الفريقين ورجحت الحقيقة بما وفقنى الله وألهمنى من فهم أرجو أن يكون صوابا فالفريقان كان حسن النية بينهما متوفرا وكلاهما كان يبتغى خدمة الاسلام ولئن جانب التوفيق فريق المعتزلة وذهبوا فى تعصبهم ونزاعهم طرائق قددا فلا يعنى هذا الحكم عليهم بالخروج عن حظيرة الاسلام ، ولكن هذا لا يعفيهم بشهادة التاريخ ان نسجل عليهم ما ألقوه فى محيط الحديث النبوى من تعكير وعقبات كان أهمها :

١ - تجريح الرواة ورد رواية من لم يقل بخلق القرآن وحكمهم بفسق الشهود والقضاة الذين لم يقولوا بذلك ، وان كان المحدثون قد حكموا بفسق من يقول بخلق القرآن الا أن هذا كان منهم سدا للذرائع[٢٤] وكادت شظايا هذه الفتنة تصيب الامام البخارى فانه لما قدم نيسابور وسألوه عن اللفظ (فقال القرآن كلام الله غير مخلوق وأعمالنا مخلوقة) فلما سمع بذلك الامام الذهلى قال (القرآن كلام الله غير مخلوق ومن زعم (لفظى

(٢٤) الحديث والمحدثون ص ٣٣ .

بالقرآن مخلوق) فهو مبتدع لا يجلس الينا ولا نكلم من يذهب بعد هذا الى محمد بن اسماعيل ، فانقطع الناس عن البخارى الا مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة) هـ[٢٥] .

٢ ـ كان هذه المعركة أثرها فى وضع الحديث حيث انتهز الزنادقة الفرصة فوضعوا الاحاديث على رسول الله ﷺ ورووا عن أبى الزبير أن رسول الله ﷺ قال : « من قال القرآن مخلوق فقد كفر) وغير ذلك .

٣ ـ وكان من نتائج ذلك أيضا ما عاد على أهل الحديث مما فعله أصحاب الاهواء فقد طعنوا فى الصحابة ورموا المحدثين بالجهل وألفوا فى ذلك كتبا تلقفها المستشرقون بعد ذلك فى عصور الضعف العلمى والسياسى للمسلمين ودسوا عليهم كثيرا من المثالب وصوروا الاسلام فى غير صورته الكريمة ، ومن عجب أن ينخدع ببريقهم بعد ذلك بعض الباحثين ممن نسج على منوالهم .

٤ ـ كانت المحنة سببا فى أفول نجم المعتزلة وسقوط دولتهم وظهور رجال الحديث وارتفاع لوائهم حتى تبوءوا مكانتهم اللائقة واقاموا السنة ونفذوا حدود الله ، فكانوا اذا قابلوا سكيرا ضربوه وذا وجدوا مغنية منعوها وكسروا مزاميرها واذا صادفوا خمرا اراقوه وهكذا حتى سادت السنة فى العالم الاسلامى فترة كبيرة من الزمن[٢٦] .

---

(٢٥) شروط الائمة الخمسة للحازمى ص ١٠ بتعليق الشيخ محمد زاهد الكوثرى .
(٢٦) أحمد بن حنبل : احمد عبد الجواد الدومى ص ٢١١ .

الفصل الثانى

ويشتمل على بحثين :

البحث الأول : الوضع فى الحديث

البحث الثانى : مقاومة المحدثين للوضاعين

البحث الأول : الوضع فى الحديث

لم يشع الكذب فى عهد الرسول ﷺ ولا عهد الخلفاء الراشدين من بعده وما كان بينهم من خلاف فقهى فلا يتعدى اختلاف وجهة النظر فى أمور الدين ، أخرج البيهقى أن أنسا حدث بحديث فقال له رجل : (أسمعت هذا من رسول الله ﷺ قال نعم ، أو حدثنى من لم يكذب والله ما كنا نكذب ولا كنا ندرى ما الكذب)[1] .

وكان الكذب فى عهد كبار التابعين أقل منه فى عهد صغارهم لوجود الصحابة وكبار التابعين ، ولما كانوا عليه من الورع والتدين ، ولأن الخلاف السياسى كان فى أول عهدهم بسيطا كل ذلك كان سببا فى تضييق بواعث الوضع والحد من الكذب .

ولما كان الشيعة : هم أول من تجرأ على ذلك فيمكننا الحكم بأن أول بيئة نشأ الوضع فيها هى العراق وكان الامام مالك رضى الله عنه يسمى العراق دار الضرب أى تضرب فيها الأحاديث كما تضرب الدراهم ، ويقول : نزلوا أحاديث أهل العراق منزلة أهل الكتاب لا تصدقوهم ولا تكذبوهم . وقال له عبد الرحمن بن مهدى يا أبا عبد الله سمعنا فى بلدكم - المدينة - أربعمائة حديث فى أربعين يوما ونحن بالعراق نسمع هذا كله فى يوم واحد ، فقال له يا عبد الرحمن من أين لنا دار الضرب التى عندكم ؟ تضربون بالليل وتنفقون بالنهار . وقال ابن شهاب : يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود فى العراق ذراعا وذلك لبعد العراق عن الحجاز ولوجود اخلاط المسلمين من مختلف الأمم وظهور المذاهب المختلفة فى العراق من معتزلة ومرجئة وأصناف من المتكلمين وكل صنف من هؤلاء يؤيد رأيه بتأويل آيات القرآن واختلاف الحديث .

---

(١) مفتاح الجنة ص ٢٥ .

أسباب الوضع فى الحديث

(١)

التعصب السياسى

كان للاحداث السياسية أثرها فى انقسام المسلمين شيعا واحزابا وسبب هذا الانقسام قيام المذاهب الدينية التى حاول اصحابها تأييد موقفهم يالقرآن والسنة فتأول بعضهم القرآن على غير وجهه السليم وحملوا السنة ما لا تتحمله ، وقد عجزوا عن الوضع فى القرآن لأنه ثبت بالتواتر المفيد لليقين والقطع ولتوفر المسلمين على حفظه وتلاوته ، فوجهوا عنايتهم الى الوضع فى الحديث لتأييد ما يدعون فخلطوا الصحيح بغيره ، ووضعوا أحاديث فى فضائل ائمتهم ورؤساء احزابهم ، وبهذا الوضع انْغَمَست الفرق السياسية فى حمأة الكذب والوضع . وكانت الرافضة أكثر الفرق كذبا . يقول ابن تيمية : « وكذب الرافضة مما يضرب به المثل) وسئل مالك عن الرافضة فقال لا تكلمهم ولا تروعنهم فانهم يكذبون[٢] وقال حماد بن مسلم حدثنى شيخ لهم قال (كنا اذا اجتمعنا فاستحسنا شيئا جعلناه حديثا)[٣] وقد اسرف الرافضة فى وضع الاحاديث فى فضائل على وآل بيته بجرأة بالغة وذلك (لأن أكثرهم من الفرس الذين تستروا بالتشيع لينقضوا عرى الاسلام ، وأما الشيعة فقد كثر الوضع منهم وصنعوا بعض الأخبار التى تنال من أبى بكر الصديق وعمر زاعمين أنهما أساءا إلى على . ومن الاخبار التى وضعوها (وصيى وموضع سرى وخليفتى فى أهلى وخير من أخلف بعدى على)[٤] وحينما وجد أهل الاحزاب الأخرى أن ما وضعه الشيعة ينقص من أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية هب بعض الوضاعين من احزابهم بوضع ما يقابل هذا من احاديث ترفع من شأنهم . من ذلك (ما فى الجنة شجرة الا مكتوب على كل ورقة منها لا إله الا الله محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان

---

(٢) منهاج السنة جـ ١ ص ١٣ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) اللآلىء المصنوعة جـ ١ ص ١٨٥ .

ذو النورين)[٥] كما وضع المتعصبون لمعاوية والأمويين اخبارا كثيرة منها قولهم (الأمناء عند الله ثلاثة أنا وجبريل ومعاوية)[٦] كما فعل الذين أيدوا العباسين فنسبوا الى النبى قوله (العباسى وصيى ووارثى) ولما رأى بعض الذين حسنت نياتهم من طعن وتجريح فى حق الصحابة دفعهم حبهم للصحابة أن يضعوا أحاديث فى فضلهم ليبينوا بها أنهم جميعا خيار ولا فرق بينهم وظنوا انهم بهذا العمل يقدمون خيرا وفاتهم أنهم قد ارتكبوا منكرا بكذبهم على الرسول ﷺ وكان الشيعة منهم المعتادون الذين يرون أفضلية على وأولويته بالخلافة وهم مسلمون مخلصون ومنهم الغلاة الذين تظاهروا بالمحبة لآل البيت وهم بعيدون عن الاسلام وكان هدفهم ان يدخلوا ما معهم من مبادىء اليهودية والنصرانية والزراد شتية فى الاسلام ليشوهوا معالمه وعقيدته ، وكان من هؤلاء طائفة تعتقد أن جبريل اخطأ فى النزول بالرسالة على محمد وهى لعلى ، وطائفة تقول بألوهية على وهم اصحاب عبد الله بن سبأ ، وقد أعلن على براءته منهم ، وأطلق المؤرخون على هؤلاء اسم (غلاة الشيعة) ولكن لما كانت آراؤهم الهدامة لا مجال لها فى النفوس ألبسوها ثيابا مصطنعة وتقنعوا بالدين ، فلجأ أهل الزيغ منهم تأييدا لآرائهم الزائفة الى الوضع فى السنة فأساءوا الى الحديث النبوى وإلى الاسلام عامة .

وأما الخوارج وهم الذين خرجوا على الامام على رضى الله عنه بعد قبوله التحكيم فكانوا أقل الفرق فى الكذب لأن من مبادئهم أن مرتكب الكبيرة كافر والكذب كبيرة ولاسيما على رسول الله ﷺ فلم يستحلوا الكذب ، الا أن بعض الرؤساء منهم وقعوا فى الكذب على الرسول ﷺ فقد روى عن شيخ لهم أنه قال : (ان هذه الاحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فانا كنا اذا هوينا أمرا صيرناه حديثا)[٧] وقد قال بعض الباحثين أن نسبة هذا القول إلى شيخ خارجى خطأ .

وأنا أرجح عدم نسبة الوضع الى الخوارج ، لما هو معروف عنهم من الصراحة والشجاعة وعدم الميل الى التقية ، ولو كانوا يستحلون كذبا لاستحلوا على بعض الامراء الطغاة كزياد والحجاج . يقول ابن تيمية : (ليسوا ممن يتعمدون الكذب بل هم معروفون بالصدق حتى يقال أن حديثهم من أصح الحديث)[٨]

---

(٥) المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٦) تنزيه الشريعة جـ ٢ ص ٤ .

(٧) اللالىء المصنوعة جـ ١ ص ٢٣٦ .

(٨) منهاج السنة جـ ٣ ص ٣١ .

(٢)

التعصب العنصرى

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس من أهل خراسـان وكانت هـذه البلاد موضع التشيع لهذا البيت ولما كان الفرس يفهمون ان الملك ينال بالوراثة بآراء الشيعة فعدوا بنى أمية غاصبين لحقوق هذا البيت ينبغى قتالهم وتخليص الحق الى صاحبه الشرعى ، ومن المعلوم ان الفرس أمة ذات حضارة وتاريخ وكان لها نفوذها فلما وقعوا فى يد العرب تحركت فى نفوسهم نزعة العظمة الأولى وعندما قام العباسيون بطلب الخلافة كان الفـرس على استعداد تام أملا فى الحصول على نفوذهم القديم فتفانى أبو مسلم الخراسـانى وغيره فى مناصرة بنى العباس ومحاربة بنى أمية ، ولما تم الامر للعباسيين لم ينحـازوا للعرب ضـد الفرس ، لأن الفرس هم الذين نصروهم من قبل ولأن بعض الخلفاء العباسيين كانوا من أمهات فارسيات ، وإنما انحازوا للدين فحاربوا الزنادقة وشهروا بهم ، وهنا ظهرت على ألسن بعض العامة فكرة تفضيل العجم على العرب وهى التى تعرف بالشعوبية ، وهذه الفكرة بلغت اشدها فى القرن الثالث وساعدها ان الخلفاء العباسيين لم يتعصبوا للعربية فانتهز الشعوبيون الفرصة فى محاربة العرب ووضعوا احاديث فى فضل الفرس وبلدانهم وعلمائهم والحط من قيمة العرب ومن ذلك ما وضعوه فى فضل أبى حنيفة النعمان لأنه من أصل فارسى وذم الشافعى لأنه عربى ومن ذلك :

(يكون فى أمتى رجل يقال له محمد بن ادريس أضر على أمتى من ابليس ويكون فى امتى رجل يقال له ابو حنيفة هو سراج أمتى)[٩] وضعه مأمون بن أحمد الهروى من أهل القرن الثالث وقابلهم بعض الجهلة من العرب بالمثل من ذلك قولهم : « ان الله اذا غضب أنزل الوحى بالفارسية واذا رضى انزل الوحى بالعربية » ، كما وضعت احاديث فى فضائل بعض البلدان والقبائل[١٠]. (ومن ذلك ما رووه فى فضل محمد بن كـرام السبحستانى العابد المشهور بالتنجيم ووضع الحديث المتوفى سنة **٢٥٥** وقد ارتحل من خراسان الى الشام وأقام بها) « يجىء فى آخر الزمان رجل يقال له محمد بن كرام يحيى السنة والجماعة هجرته من خراسان الى بيت المقدس كهجرتى من مكة الى المدينة »[١١] وقد بلغ بهم التعصب مبلغا كبيرا أدى بهم الى الالحاد فى الدين ، والتحلل من احكامه ، وأما احاديثهم الموضوعة فلم تكن بخافية على العلماء ، وائمة الحديث الذين تتبعوها وكشفوا زيفها وميزوا بين الصحيح وغيره .

---

(٩) اللالىء المصنوعة جـ ١ ص ٢٣٧ .

(١٠) السنة ومكانتها فى التشريع ص ١٠٠

(١١) الحديث والمحدثون ص ٣٣٥ .

(٣)

الزنــدقة

تطلق الزندقة فى العصر العباسى على أتباع دين المجوس مع التظاهر بالاسلام ، وقد دعاهم الى ذلك دينهم الذى الفوه قديما ، وما تـوارثه الخلف منهم عن السلف من عادات وتقاليد ، ولما رأوا أنهم لا يستطيعون الوصول الى المنصب والجاه الا عن طريق الاسلام تظاهروا به ولم يدخل الايمان فى قلوبهم ، ثم اتسع اطلاق الزندقة ، فصـارت تطلق على الملحدين الذين لا دين لهم ، فقد شك هؤلاء فى الأديان ، وحكموا العقل فيما لا مجال فيه ونبذوا الأديان جملة .

واطلقت الزندقة أيضا على الاباحيين الذين يتبجحون بالقول فيما يمس الدين لا عن نظر ، وانما عن خلاعة ومجون ، وهؤلاء كان همهم فى الحياة شهواتهم .

وقد ساعد على انتشار الزندقة فى القرن الثالث خاصة أمور :

أولا : ما أثارته مذاهب الكلام من كثرة الجدل فى أمور الدين الأصلية ، وانتشار بحوث الفلسفة التى كثر تناول العلماء والخلفاء لها .

ثانيا : ومما ساعد أيضا على انتشار الزندقة مكيدة الفرس للاسـلام والمسلمين ، ومحاولتهم إفساد العقيدة ونشر مفاهيمهم المجوسية وخاصة مذهب (مانى) ، وكان ذلك بعد انتقال الخلافة من الأمويين الى العباسيين ، وكـان الفرس يـطمعون فى ان تكـون الحكومة فارسية ، فلما لم يحصلوا على ما يـطمعون فيـه رأوا أنهم لا يمكن أن يصلوا الى ما أرادوا والاسلام فى قوته وسلطانه ، فعملوا على اضعافه بفشو الزندقة .

ثالثا : وساعد على انتشار الزندقة فى هذا القرن قيام الموالى من الفرس بالسلطة الحكومية وإبعاد العرب ، وهذا بدوره ، مكن للفرس أن يظهروا مذاهبهم القديمة ، فقد انتعش الموالى منهم فى العصر العباسى . وكانت لهم ديانات سابقة ، ولم يجرءوا ـ فى الحكم الاموى ـ ان يتكلموا بشىء من ذلك ، وما كان يهمهم الا الحصول على الحرية السياسية ، وما أن اطمأنت الحياة وتحقق ما يتمنونه الا وأخذت دياناتهم القديمة والجديدة فى الظهور ،

فوجدت الزندقة حينئذ المناخ الملائم وكان الطريق الذى سلكوه لانتشار الزندقة هو الكذب على رسول الله ﷺ لاثارة الشبه التى تشوه سماحة الاسلام وجماله رغبة منهم فى تنفير الناس منه ، والتحلل من احكامه ، حتى تضعف قوة المسلمين ، فيتمكن هؤلاء من فرض سلطانهم ، فبثوا مذاهب المانوية والمجوسية وكثيرا من المذاهب الخبيثة التى تنطوى على اتجاهات ضالة مضلة . وكان منهم من تظاهر بالصلاح والورع ، وأضمر الحقد على المسلمين ، فهم إذًا قوم من اعداء الاسلام تظاهروا به وانتحلوا نحلا وآراء لا تتفق وأصوله العامة وقواعده المقررة ، وكل هدفهم إنما هو استدراج العامة الى الخروج من الاسلام واضعاف شوكة المسلمين فهم يكرهون الاسلام كدين ودولة لأنه الذى أنهى عهودهم عهود الزعامات والعروش المتسلطة ، وفى الجو الاسلامى نعم المسلمين وأمنوا على كرامتهم وتحرير عقولهم واحترام عقيدتهم فأقبلوا عليه وعز جانبه وقويت شوكته ولم يعد للزعماء ولا للامراء أمل فى سلطانهم الزائل ، فلم يجد الزنادقة بدا للثأر من هذا الدين الا تشوبه عقيدته وتفرق اتباعه ، فبدأوا بنشر تعاليم المجوسية والمانوية وكثير من المذاهب الضالة كما سبق ، وتقنعوا بأثواب نحل مختلفة يستهدفون من وراء ذلك أن يستدرجوا الناس ويجتذبوهم من دينهم وبهذا تنهار قوة المسلمين . كما شقوا طريق الوضع فى الحديث النبوى الذى يمثل المصدر الثانى لهذا الدين وتستروا باسم التشيع احيانا وباسم الزهد والتصوف احيانا أخرى ووضعوا الحديث فى العقائد والاخلاق والحلال والحرام .

ومما وضعوه تضليلا للمسلمين وتنفيرا من عقيدتهم : « قيل : يا رسول الله مم ربنا ؟ قال : من ماء مرور ، لا من أرض ولا سماء ، خلق خيلا فأجراها فعرقت فخلق نفسه من ذلك العرق »[١٢].

وانه لضلال ما بعده من ضلال وخبث ما بعده خبث وغباء لايتصوره أدنى عقل ولا يقره أى بشر .

وروى العقيلى بسنده إلى حماد بن زيد قال وضعت الزنادقة على رسول الله ﷺ أربعة عشر الف حديث منهم عبد الكريم بن أبى العوجاء الذى قتل وصلب فى زمن المهدى قال ابن عدى لما أخذ ليضرب عنقه قال : وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أجرم فيها الحلال واحلل الحرام[١٣] . وقد تعقب الخلفاء العباسيون هؤلاء الزنادقة فشتتوهم وقتلوهم

(١٢) اللالىء المصنوعة جـ ١ ص ٢ للسيوطى .
(١٣) تدريب الراوى ص ١٨٦ .

وقاوموا تلك الحركة الخبيثة الضالة كما لم يخف على رجال الحديث فسادهم فشمر الجهابذة والنقاد عن ساعد الجد فبينوا أمرها وتتبعوا هؤلاء الكذابين الوضاعين ، وقد تنبه الخلفاء العباسيون الى ما وراء حركة الزندقة من خطر على الكيان السياسى للاسلام فناهضوهم قتلا وتشريدا حتى طهروا ساحة الدعوة من شرهم ، فأبو جعفر المنصور عاقبهم وأمر بعض الباحثين من رجال الكلام بالرد عليهم وتوضيح الحقيقة لمن خالطه الشك وأوصى ابنه موسى الهادى بإبادتهم وقد أنفذ الهادى الوصية وفى عهد هارون الرشيد والمأمون ومن بعدهم طورد هؤلاء الزنادقة وحوربوا وفى عهد المعتصم كانت محاكمة قائد جيوشه المسمى (بالأفشين) حين اتهم بالزندقة فحبس ومنع الطعام والشراب حتى مات . . . . . وهكذا كانت يقظة الأمة الاسلامية فى حرصها على حراسة هذا الدين ومصادره وحمايته من كل دخيل أو عدو .

(٤)

القصـاصــون

ذاع القصص فى القرن الثالث وكان من بين القائمين به فريق من الزنادقة ومنهم المرتزقة وادعياء العلم الذين كثروا فى هذا العهد لدرجة أن الخلفاء كانوا يخشون على الناس منهم فيصـدرون أوامرهم بمنعهم من الجلوس فى المسـاجد والـطرقـات ومن بيـع كتب الفلسفة ، ففى سنة ٢٧٩ هـ . وهى السنـة التى بويـع فيها المعتصم الخليفـة العباسى بالخلافة أصدر أمره بمنع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها ، ومنع القصاص والمنجمين من القعود فى الطريق[١٤] وكان هؤلاء القصاص لا يهمهم الا التفاف الناس حولهم فيثيرون مشاعرهم وعواطفهم ويستدرون ما عندهم فوضعوا الاحاديث رغبة منهم فى استمالة قلوب العامة اليهم ، ورغبة فى التكسب والارتزاق . وذكـر ابن قتيبة شـأن القصاص فقال : (انهم كانوا يميلون وجه العوام اليهم ويستدرون ما عنـدهم بالمنـاكير والغريب والأكاذيب من الاحاديث ، ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجيبا خارجا عن فطر العقول أو كان رقيقا يحزن القلوب ويستغزر العيون فاذا ذكر الجنة قال فيها الحوراء من مسك أو زعفران وعجيزتها ميل فى ميل ويبوىء الله تعالى وليه قصرا من لؤلؤة بيضاء فيه سبعون ألف مقصورة فى كل مقصورة سبعون الف قبة . . فلا يزال هكذا فى سبعين الف كذا وسبعين الفا كأنه يرى أنه لا يجوز أن يكون العدد فوق السبعين ولا دونها)[١٥] .

وحكى أبو حاتم البستى انه دخل مسجدا فقام بعد الصلاة شاب فقال حدثنا أبو خليفة أبو الوليد عن شعبة عن قتادة عن انس وذكر حديثا ، قال ابو حاتم : فلما فرغ دعوته قلت : رأيت أبا خليفة ؟ قال لا . قلت : كيف تروى عنه ولم تره فقال إن المناقشة معنا من قلة المروءة أنا احفظ هذا الاسناد فكلما سمعت شيئا ضممته الى هذا الاسناد[١٦] وروى

---

(١٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٤٦ .

(١٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٣٥٦ .

(١٦) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٨٠ .

ابن الجوزى باسناده الى ابى جعفر بن محمد الطيالسى قال : صلى احمد بن حنبل ويحيى بن معين فى مسجد الرصافة ، فقام بين ايديهم قاص ، فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن انس قال : قال رسول الله ﷺ من قال لا اله الا الله خلق الله من كل كلمة طيرا منقاره من ذهب ، وريشه من مرجان . وأخذ فى قصة نحوا من عشرين ورقة . فجعل احمد بن حنبل ينظر الى يحيى بن معين ، وجعل يحيى ابن معين ينظر الى أحمد ، فقال له : حدثته بهذا ؟ فيقول والله ما سمعت هذا الا الساعة . فلما فرغ من قصصه وأخذ العطيات ثم قصد ينتظر بقيتها قال له يحيى بن معين بيده : تعال ، فجاء متوهما لنوال ، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال أحمد بن حنبل ويحيى ابن معين . فقالا : أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل ، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله ﷺ فقال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ما تحققت هذا الا الساعة . كأن ليس فيها يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما . وقد كتبت عن سبعة عشر ، أحمد بن حنبل ويحيى بن معين . . فوضع أحمد كمه على وجهه وقال : دعه يقوم ، فقام كالمستهزىء بهما[17] « أ هـ » .

وأكثر هؤلاء القصاص من الجهال الذين تشبهوا بأهل العلم واندسوا بين صفوفهم فأفسدوا كثيرا من عقول العامة بما كانوا يبثونه بين الناس حين يقومون بمهمة الوعظ وليس يهمهم الا أن يستدروا المال وبكاء العيون وإعجاب الناس بهم فى سبيل ذلك يضعون الأكاذيب على رسول الله ﷺ ولا يخافون الله ومن عجيب أمرهم أنهم رغم كذبهم الفاضح وجهلهم الواضح وجدوا آذان العوام مصغية وقلوبهم متقبلة .

---

(١٧) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٨٥ .

(٥)

الخلافات الفقهية والكلامية

اتجه أتباع المذاهب الفقهية ـ والكلامية إلى تأييد مذاهبهم بأحاديث مكذوبة وضعوها تأييدا لهم ومن ذلك ما روى أنه قيل لمحمد بن عكاشة الكرمانى أن قوما يرفعون ايديهم فى الركوع وفى الرفع منه فقال حدثنا المسيب بن واضح عن انس مرفوعا « من رفع يديه فى الركوع فلا صلاة له »[١٨] وحديث (كل ما فى السموات والأرض وما بينهم فهو مخلوق غير الله والقرآن وذلك انه كلامه منه بدأ واليه يعود وسيجىء أقوام من أمتى يقولون القرآن مخلوق فمن قاله منهم فقد كفر بالله العظيم وطلقت امرأته من ساعته لأنه لا ينبغى لمؤمنة أن تكون تحت كافر الا أن تكون قد سبقته بالقول)[١٩] .

ويظهر فى هذا القول ركاكة اللفظ كما يكشف اتجاه مرماه عن الوضع فى وضوح .

---

(١٨) تدريب الراوى ص ١٨١ ، والباعث الحثيث .
(١٩) اللآلىء المصنوعة جـ ١ ص ٣ .

(٦)

الجهل بالدين مع الرغبة فى الخير

قام بعض الجهلة بالدين الذين كانوا على جانب من الصلاح والزهد بوضع احاديث فى الترهيب والترغيب حينما ساءهم وجود بعض الناس المتكالبين على الدنيا والذين تركوا آخرتهم فوضعوا بعض الاحاديث التى ترغبهم فى الآخرة وتخوفهم من عذاب الله ومن هؤلاء غلام خليل وهو أحمد بن محمد بن غالب الباهلى كان معروفا بالزهد وتوفى فى رجب سنة ٢٧٥ هـ[٢٠] . قال له أبو عبد الله النهاوندى : ما هذه الرقائق التى تحدث بها قال : وضعناها لنرقق بها قلوب العامة ، وهؤلاء هم أشد الوضاعين ضررا وأفدح خطرا لأن أحاديثهم المختلقة كانت تجد قبولا عند بعض الناس لما كانوا عليه من الزهد والصلاح ولهذا قال يحيى القطان : ما رأيت الكذب فى أحد أكثر منه فيمن ينسب الى الخير ، كما رأى البعض منهم انشغال الناس بالفقه فخاف أن يعرضوا عن القرآن فوضع أحاديث فى فضائل سور القرآن ، وقد قيل لأبى عصمة نوح بن أبى مريم من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس فى فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟ فقال إنى رأيت الناس قد اعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن اسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة ، وروى ابن حبان فى الضعفاء عن ابن مهدى قال قلت لميسرة بن عبد ربه من أين جئت بهذه الأحاديث من قرأ كذا فله كذا ؟ قال : وضعتها أرغب الناس فيها[٢١] ، وكان هؤلاء الوضاعون اذا قيل لهم فى ذلك قالوا : نحن ما كذبنا عليه أى على الرسول وانما كذبنا له ـ وهذا من تمام جهلهم الفاضح وفجورهم وافترائهم فانه عليه السلام لا يحتاج فى كمال شريعته الى غيره[٢٢] .

---

(٢٠) ميزان الاعتدال جـ ١ ص ٦٧ .

(٢١) تدريب الراوى ص ١٨٤ .

(٢٢) الباعث الحثيث ص ٧٩ .

البحث الثانى

مقاومة الوضع

قيض الله سبحانه لسنة نبيه ﷺ رجالا أمناء صدقوا فى إخلاصهم لله ولرسوله ونصبوا أنفسهم للذب عن السنة الشريفة فأفنوا أعمارهم فى التمييز بين الصحيح والباطل صيانة للسنة النبوية وحفاظا على الاسلام من الدس والتحريف وفى سبيل تنقيح السنة وتنقيتها من الوضع بذل علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم جهودا مخلصة فوضعوا قواعد الجرح والتعديل ، وكان من ثمرة أعمالهم (علم مصطلح الحديث) وهو يشتمل على أدق الطرق العلمية للتحقيق والتوثيق وأقومها فى التمحيص والنقد وكانت القواعد التى اتبعوها فى جهودهم تتسم بالآتى :

١ - التزام اسناد الحديث : ظل الصحابة والتابعون بعد انتقال الرسول ﷺ الى الرفيق الأعلى منعمين فى جو من الصدق ، آمنين على تراث نبيهم ، حيث كانت صدروهم الأمينة تفيض بالثقة والاخلاص وقلوبهم الواعية تنبض بالايمان والصدق فكان البعض يسند الحديث مرة ولا يسنده أخرى الى أن حدثت الفتنة وظهرت الاحزاب والفرق واخذ الكذب على رسول الله ﷺ يزداد شيئا فشيئا ، فانبرى الصحابة والتابعون يمحصون الأحاديث سندا ومتنا ويشددون فى معرفة الرواة والطرق ويلتزمون الاسناد دائما ، وكان ابتداء مرحلة التحرى والتزام الاسناد منذ عهد صغار الصحابة الذين تأخرت وفاتهم عن زمن الفتنة(٢٣) . فمنذ ذلك الحين وهم يتشددون فى التزام الاسناد دائما ، عن ابن سيرين قال : (لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم)(٢٤) . وكانوا يتسارعون الى أخذ الحديث وسماعه فلما وقعت الفتنة وركب الناس الصعب والذلول لم يأخذوا من الاحاديث إلا ما يعرفون والتزموا التثبت والاسناد .

---

(٢٣) السنة ومكانتها فى التشريع ص ١٠٧ .

(٢٤) مقدمة صحيح مسلم بشرح النووى ص ٧١ ط الشعب .

٢ ـ التثبت من الاحاديث : كان من فضل الله تعالى وعنايته بالسنة النبوية ان بارك فى أعمار عدد من الصحابة والفقهاء يرجع الناس اليهم ، ويلجأون لهم حين يقع الكذب ليستوثقوا من الاحاديث وقد كثرت الرحلات العلمية لبعض الصحابة والتابعين واتباعهم ومن بعدهم من علماء الحديث من أجل التثبيت ، يقول سعيد بن المسيب : (ان كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد)[٢٥] .

وفى سبيل التثبت كانوا يتذكرون الاحاديث فيما بينهم لمعرفة ما يأخذون منها ، وترك ما ينكرونه ، كما كانوا على جانب كبير من الوعى والحيطة بحيث يحفظون الاحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة خشية أن تختلط عليهم وحتى يستطيعوا التمييز بين الصحيح وغيره بدقة فائقة وحيطة بالغة ، وروى أبو بكر بن الاثرم : أن أحمد بن حنبل رأى يحيى بن معين بصنعاء فى زاوية وهو يكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس فاذا طلع عليه انسان كتمه ، فقال له احمد بن حنبل تكتب صحيفة معمر عن أبان عن انس وتعلم أنها موضوعة : فلو قال لك قائل : إنك تتكلم فى أبان ثم تكتب حديثه على الوجه ؟ فقال : رحمك الله يا أبا عبد الله أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر على الوجه فأحفظها كلها وأعلم أنها موضوعة حتى لا يجيء بعده انسان فيجعل بدل أبان ثابتا ، ويرويها عن معمر عن انس بن مالك ، فأقول له كذب انما هى عن معمر عن أبان لا عن ثابت[٢٦] .

ومن أجل التثبت كذلك ناهض العلماء الكذابين ومنعوهم من التحديث واشتدوا عليهم ، لدرجة أنهم كانوا يضربونهم أحيانا ويهددونهم بالقتل أحيانا أخرى . عن حمزة الزيات قال : سمع مرة الهمذانى من الحارث الاعور شيئا فقال له : اقعد بالباب ، قال : فدخل مرة وأخذ سيفه ، قال وأحس الحارث بالشر فذهب[٢٧] .

٣ ـ نقد الرواة ودراسة حياتهم وتاريخهم وبيان أحوالهم من صدق أو كذب وقد وصلوا عن طريق هذه الدراسة الى تمييز الصحيح من المكذوب وكانت لديهم قواعد اتبعوها وساروا عليها فى الأخذ من الرواة أو عدم الأخذ منهم فحصروا المتروكين الذين يكذبون على الرسول ﷺ والذين يكذبون فى أحاديثهم العامة وإن لم يكذبوا على النبى ﷺ وأصحاب البدع والأهواء والزنادقة ، والذين لا يفهموم ما يحدثون ، ومن لا تتوافر فيهم صفات الضبط والعدالة والفهم .

---

(٢٥) جامع بيان العلم ص ٩٤ .
(٢٦) الجامع لأخلاق الراوى ص ١٠٧ .
(٢٧) صحيح مسلم شرح النووى جـ ١ ص ٩٩ .

وقد عين أئمة النقاد أياما ليتكلموا فى الرجال ، وكانوا يسألون عن الرواة لمعرفة أحوالهم والتمكن من صدقهم أو كذبهم فكانوا ينقدونهم نقدا دقيقا : عن يحيى بن سعيد قال سألت سفيان الثورى وشعبة ومالكا وابن عيينة عن الرجل لا يكون ثبتا فى الحديث ، فيأتينى الرجل فيسألنى عنه قالـوا : أخبر عنـه أنه ليس بثبت[٢٨] . وكـانوا فى حكمهم لا يخافون فى الحق لومة لائم ، ولا تأخذهم عاطفة حتى ولو كان أخاه ، يقول زيد بن أبى أنيسة : « لا تأخذوا عن أخى »[٢٩] ولم يحاب أحد من أهل الحديث أباه ولا أخاه وهذا على ابن المدينى المتوفى سنة ٢٣٤ هـ . وهو إمام الحديث فى عصره لا يروى عنه حرف فى تقوية أبيه بل يروى عنه ضد ذلك[٣٠] .

وهكذا أخلصوا عملهم لله وخدموا الشريعة السمحة بدفـع ما يشـوبها وتخليص الغث من الثمين وبهذا تكوَّن علم الجرح والتعديل الذى وضع قواعده كبار الصحابـة والتابعين وأتباعهم .

وكان الضعفاء فى القرن الثانى أكثر منهم فى القرن الأول وقـد تناول الحـديث فى العدالة والتجريح كثير من الائمة وبينوا من تقبل روايته ومن لا تقبل روايته وتكامل علم الجرح والتعديل من العهد النبوى الى عهد التدوين ، وألفت المصنفات الكبيرة فى الرواة وألفت كتب خاصة بالضعفاء فصار من السهل التمييز بين المحق والمبطل على أساس من القواعد الدقيقة حتى اكتمل هذا العلم من القرن الثالث الهجرى على أيدى الائمة الاعلام الذين أخذوا على عاتقهم حفظ السنة الشريفة ، والذود عن حياضها ، فـألفوا الكتب الكثيرة فى الجرح والتعديل .

٤ ـ وضع قواعد عامة لتقسيم الحديث وتمييز الصحيح من غيره :

لم يكتف العلماء فى التزام الاسناد ، والتثبت من الاحـاديث بالـرحلة ومـراجعـة الاحاديث ودراسة الاسانيد والطرق وإنما ضموا مع هذا تقسيم الحديث الى درجات : صحيح وحسن وضعيف وذلك لمعرفة القوى من الضعيف وما يقبل وما يرد ، ولم يعرف الحسن فى القرن الثانى الهجرى وانما عرف فيما بعد ، وكتاب[٣١] أبى عيسى الترمذى أصل

---

(٢٨) صحيح مسلم شرح النووى جـ ١ ص ٩٢ .

(٢٩) صحيح مسلم شرح النووى جـ ١ ص ١٢١ .

(٣٠) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادى ص ٨٠ مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٣١) تدريب الراوى للسيوطى تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف .

فى معرفة الحسن قال ابن الصلاح وان وجد فى متفرقات من كلام بعض مشايخه ، والطبقة التى قبله كأحمد والبخارى وغيرهما .

وقد وضع العلماء قواعد يعرفون بها الحديث الموضوع ، وبينوا العلامات الدالة على وضعه منها ما هو فى السند ، ومنها ما هو فى المتن .

أما علامات الوضع فى السند فأهمها :

١ ـ أن يكون راوى الحديث معروفا بالكذب ، وينفرد برواية الحديث ، ولا يرويه ثقة غيره .

٢ ـ اقرار واضع الحديث بوضعه كما أقر ميسرة بن عبد ربه الفارسى أنه وضع أحاديث فى فضائل القرآن(٣٢) .

٣ ـ ما يقوم مقام الاعتراف بالوضع بأن يكون هناك قرينة مانعة من صحة الحديث كأن يروى عن شيخ لم يثبت لقاؤه به أو ولد بعد وفاته أو لم يدخل المكان الذى سماعه فيه ، وهذا عن طريق دراسة تاريخ مولد الرواة وأقامتهم ورحلاتهم ووفاتهم ، كما قسموا الرواة الى طبقات وعرفوا عنهم كل صغيرة وكبيرة وبهذا تكوّن « علم الطبقات » الذى لا يستغنى عنه رجال الحديث ونقاده ، يقول سفيان الثورى : « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ » .

٤ ـ معرفة حال الراوى وبواعثه النفسية مثل ما وقع من سعد بن ظريف حين جاء ابنه من الكتاب يبكى ، فقال : مالك ؟ قال : ضربنى المعلم قال : لأخزينهم اليوم ، حدثنى عكرمة عن ابن عباس مرفوعا : « معلمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة لليتيم ، وأغلظهم على المسكين » .

ولم تصل أمة من الأمم الى ما وصلت اليه الأمة الاسلامية فى التحقيق والضبط ، فقد عنى رجال الحديث بالسنة عناية لم يجد معها أهل الأهواء ثغرة ينفذون منها الى نقض قواعدهم العلمية ، ولذا كان نقد بعض المستشرقين والمغرضين وأمثالهم يتجه الى المتن زعما أن المتن لم يلق من رجال الحديث ما لقيه السند من العناية .

---

(٣٢) الباعث الحثيث ص ٨١ .

علامات الوضع فى المتن :

بذل علماء السنة جهودا مشكورة وعناية فائقة بالمتن ، ولئن كانت الجهود التى بذلت فى العناية بالسند أكثر من المتن فليس هذا تقصيرا منهم لحال المتن ، وانما يرجع ذلك الى كثرة أحوال السند وتعددها مما كان سببا فيما يتعلق به من علوم وبحوث كثيرة ، على أنه قد قام علماء السنة ببحث ودراسة الصفات التى يجب توافرها فى صحة المتن وبيان العلامات الدالة على وضعه وهذه أهمها :

١ - ركاكة المعنى واللفظ وتعرف بكثرة الممارسة لألفاظ الحديث النبوى فتحصل هيئة نفسانية وملكة يعرف بها اللفظ النبوى من غيره قال الحافظ ابن حجر : « المدار فى الركة على ركة المعنى فحيثما وجدت دلت على الوضع ، وان لم ينضم إليها ركة اللفظ فقط فلا تدل على ذلك لاحتمال أن يكون رواه بالمعنى فغير ألفاظه بغير فصيح نعم إن صرح بأنه من لفظ النبى ﷺ فكاذب ، وقال الربيع بن خثيم : « ان للحديث ضوءا كضوء النهار نعرفة أو ظلمة كظلمة الليل ننكره »(٣٣) .

٢ - فساد المعنى بأن يخالف الحديث بدهيات العقول أو القواعد العامة فى الأخلاق والآداب أو يخالف الحس أو قواعد الطب أو ما يوجبه العقل من تنزيه الله ، أو يخالف قطعيات التاريخ أو سنة الله فى الكون والانسان ، أو يشتمل على سخافات يبعد عنها كل عاقل ، يقول أبن الجوزى : « ما أحسن قول القائل : اذا رأيت الحديث يباين المعقول أو يخالف المنقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع »(٣٤) .

٣ - مخالفته القرآن أو السنة المتواترة أو الاجماع القطعى ، أما المعارضة مع امكان الجمع فلا(٣٥) وقال ابن قيم الجوزية : ومن الأمور التى يعرف بها أن الحديث موضوع مخالفته صريح الكتاب كحديث مقدار مدة الدنيا وأنها سبعة آلاف سنة ، لمخالفته قوله تعالى « قل إنما علمها عند ربى »(٣٦) وقوله تعالى « ان الله عنده علم الساعة »(٣٧) ومن ذلك أيضا مخالفته صريح السنة المسلم بها لشهرتها أو لتواترها(٣٨) مثل : « اذا حدثتم عنى

---

(٣٣) الباعث الحثيث ص ٨٢ .
(٣٤) تدريب الراوى ص ١٨٠ .
(٣٥) الباعث الحثيث ص ٨٣ .
(٣٦) سورة الأعراف ١٨٧ .
(٣٧) سورة لقمان آية ٣٤ .
(٣٨) المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الاسلامية سنة ١٩٦٦ م ص ٤٨ .

بحديث يوافق الحق فخذوا به سواء حدثت به أو لم أحدث » فانه مخالف للحديث المتواتر : « من كذب على متعمدا فليتبوأ معقده من النار » ومثل : « من قضى صلوات من الفرائض فى آخر جمعة من رمضان كان ذلك جابرا لكل صلاة فاتته فى عمره الى سبعين سنة » فان هذا مخالف لما أجمع عليه من أن الفائتة لا يقوم مقامها شىء من العبادات(٣٩) .

٤ ـ مخالفته للوقائع التاريخية المقطوع بصحتها ومثاله ما رواه الامام مسلم بسنده عن أبى وائل قال : خرج علينا ابن مسعود بصفين فقال أبو نعيم : أتراه بعث بعد الموت(٤٠) لأن ابن مسعود توفى قبل « صفين » .

٥ ـ صدور الحديث من راو تأييدا لمذهبه : كالأحاديث الصادرة من أتباع المذاهب الفقهية والكلامية المغالين فى تعصبهم مثل « من رفع يديه فى الصلاة فلا صلاة له » أو أن يروى رافضى حديثا فى فضائل أهل البيت أو مرجىء حديثا فى الإرجاء(٤١) .

٦ ـ أن يشتمل الحديث على افراط فى الثواب العظيم على العمل الصغير أو اشتماله على المبالغة بالوعيد الشديد على الامر الحقير كالأحاديث التى وضعها القصاص فى ثواب بعض الأعمال وجزاء بعض الجرائم مثل (من صلى الضحى كذا وكذا ركعة أعطى ثواب سبعين نبيا) ومثل (من قال لا إله إلا الله خلق الله تعالى له طائرا له سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يستغفرون له)(٤٢) .

٧ ـ أن يتضمن الحديث أمرا من شأنه أن تتوفر الدواعى على نقله لوقوعه بمشهد عظيم ثم لا يشتهر ولا يرويه إلا واحد ، بهذا حكم أهل السنة بالوضع على الحديث المتضمن النص على خلافة على ووصايته .

٨ ـ ما يصرح بتكذيب جمع المتواتر(٤٣) .

بالاضافة الى هذه الأسس الرصينة والقواعد المحكمة نقد العلماء المتن من ناحية اضطرابه أو شذوذه أو إعلاله كما بحثوا فيما وقع فيه من قلب أو غلط أو إدراج الى غير ذلك

---

(٣٩) السنة ومكانتها فى التشريع د . السباعى ص ١١٧ .
(٤٠) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ١٠٠ ط الشعب .
(٤١) السنة ومكانتها ص ١١٧ .
(٤٢) الموضوعات .
(٤٣) المنهج الحديث فى علم الحديث للاستاذ : محمد محمد السماحى ص ١٨٧ .

من العلل التى عنى العلماء ببيانها وشرحها فيما وضع فى ذلك من الكتب[٤٤] كما كان للذوق المؤمن مجاله فى النقد فاذا استساغت الملكات السليمة المؤمنة حديثا قبلوه ، وإذا لم تستسغه ردوه وكان هذا الذوق متفقا مع قوانين الرواية ، كذلك . يقول الربيع بن خثيم « ان من الحديث حديثا له ضوء كضوء النهار تعرفه به وإن من الحديث حديثا له ظلمة كظلمة الليل تعرفه بها »[٤٥] ويقول ابن الجوزى : الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم وينفر منه قلبه فى الغالب .

وهكذا وضع علماء الحديث القواعد الهامة التى عرفوا بها الحديث الصحيح من الموضوع ووجهوا جهودهم إلى نقد السند والمتن على السواء . هذا وقد بدأت حركة النقد منذ وقوع الفتنة وظلت حتى كان عصر التدوين ودون العلماء الحديث دون تمييز بين الصحيح وغيره ، وإنما تركوا ذلك لاهل الخبرة من العلماء ، لهذا تحرى الامام مالك رضى الله عنه فى كتاب (الموطأ) جمع الحديث المقبول حتى شهد له الكثيرون بالصحة والقبول وعندما كتب الامام الشافعى رضى الله عنه (كتاب الرسالة) تعرض لشىء من علوم الحديث ، كما كتب أيضا شيئا من ذلك فى كتاب (الأم) .

وقام العلماء كذلك بنقد الحديث سندا ومتنا خلال تأليفهم كما فى كتاب الترمذى ، وبعضهم خصص مقدمة فى هذا العلم تتعلق بالكتاب الذى يؤلفه كما صنع الامام مسلم فى مقدمة كتابه أو خاتمة توضح المصطلحات التى أرادوها كما صنع الامام الترمذى فى آخر جامعه ، وعنى البعض بالرواة فألف البخارى فى الصحابة كتبه فى التواريخ الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير ، وعنى فيها بنقد المرويات من حيث السند والمتن . وألف غيره فى تواريخ الرواه صحابة أو غيرهم كالامام محمد بن سعد كاتب الواقدى المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ألف كتاب الطبقات كما أن بعضهم ألف فى الثقات كأبى حاتم بن حيان المتوفى سنة ٣٥٤ هـ ألف كتاب الطبقات كما أنه خصصت تآليف فى الضعفاء والعلل ككتاب الضعفاء للبخارى صاحب الصحيح وهكذا ، فرأى العلماء أن هذه الكتب قد تضمنت اصطلاحات خاصة لأهل الحديث وقواعد كثيرة لهم يعرف بها المقبول والمردود ففكروا فى تخليصها من هذه الكتب وجمعها فى علم خاص وتدوينها فى كتاب مستقل ، وكان ذلك فى القرن الرابع . وكان أول من ألف فيه الرامهرمزى[٤٦] .

---

(٤٤) المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٨٦ هـ - سنة ١٩٦٦ م ص ٤٩ .

(٤٥) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٢٦ .

(٤٦) المنهج الحديث للاستاذ / محمد السماحى ص ٢١ .

ومن النتائج الجليلة القدر التى عادت على الاسلام والمسلمين من هذه الجهود الضخمة الموفقة أن تم تدوين السنة بعد أن سار أشواطه المباركة وانتهى الأمر بالتدوين التام ، والتصنيف الكامل فى القرن الثالث الهجرى الذى كان أسعد عصور السنة الشريفة بظهور أئمة الحديث وقيامهم بتلك التآليف الخالدة وتمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها .

نماذج من الرجال المجروحين
فى القرن الثالث

وجه علماء القرن الثالث هممهم العالية الى نقد السند والمتن ، وقد حفلت كتب الرجال والتراجم بالكثير الذى أطلعنا على جهودهم العظيمة فى مجال النقد العلمى النزيه ، وسأضرب لذلك بعض الأمثلة لنرى من خلالها بعض النماذج للرجال المجروحين ، وآراء بعض الأئمة فيهم :

١ - ابراهيم بن ابى الليث المتوفى سنة أربع وثلاثين ومائتين ، حدث ببغداد عن عبيد الله الأشجعى متروك الحديث ، قال صالح جزرة : كان يكذب عشرين سنة وأشكل أمره على أحمد وعلى حتى ظهر بعد . وقال أبو حاتم كان ابن معين يحمل عليه والقواريرى أحب الى منه وقال ابن معين ثقة لكنه أحمق ، وقال زكريا الساجى . متروك .

٢ - ابراهيم بن محمد بن مروان المتوفى سنة ثلاث وستين ومائتين عرف بالعتيق ، روى عن يعلى بن عبيد وطبقته ، وروى عنه ابن صاعد ومحمد بن مخلد ، قال البرقانى سمعت الدار قطنى يقول « غمزه » .

٣ - أحمد بن بديل الكوفى القاضى المتوفى سنة ثمان ومائتين قال النسائى : لا بأس به وقال ابن عدى : حدث عن حفص بن غياث وغيره أحاديث أنكرت عليه وهو ممن يكتب حديثه على ضعفه ، وقال الدارقطنى فيه لين .

٤ - احمد بن الحسن بن القاسم بن سمرة الكوفى المتوفى سنة اثنتين وستين ومائتين بمصر قال الدارقطنى وغيره : متروك ، وقال ابن حبان : كذاب روى عنه وكيع عن سفيان عن ابن جريج عن عمرو بن دينار عن ابن عباس مرفوعا : « اذا كان يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش فيؤتى بأبى بكر وعمر وعثمان وعلى) الحديث وقال ابن يونس حدث بمناكير .

٥ ـ احمد بن عبد الجبار العطاردى المتوفى سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، روى عن أبى بكر ابن عباس وطبقته ، ضعفه غير واحد ، قال ابن عدى : رأيتهم مجمعين على ضعفه ولا أرى له حديثا منكرا انما ضعفوه لأنه لم يلق الذين يحدث عنهم ، وقال مطين : كان يكذب وقال الدارقطنى : لا بأس به وقال أبو حاتم : ليس بالقوى ، وقال ابنه عبد الرحمن : كتبت عنه وأمسكت عن التحديث عنه لما تكلم الناس فيه(٤٧).

٦ ـ حبيب بن ابى حبيب ، واسم ابيه زريق وقيل مرزوق أبو محمد المصرى المتوفى سنة ثمانى عشرة ومائتين . قال أحمد : ليس بثقة ، وقال ابن سعيد : كان يقرأ على مالك وتصفح ورقتين وثلاثة فسألونى عنه بمصر فقلت : ليس بشىء ، وقال ابو داود : كان من أكذب الناس وقال أبو حاتم : روى عن ابن أخى الزهرى أحاديث موضوعة ، وقال ابن عدى : أحاديثه كلها موضوعة ، وقال ابن حيان : كان يورق بالمدينة على الشيوخ ويروى عن الثقات الموضوعات وكان يدخل عليهم ما ليس من حديثهم . وساق له ابن عدى عن مالك عن نافع عن ابن عمر حديثين موضوعين : أحدهما : لمالك بن عبد الله بن سيف حدثنا حبيب حدثنا مالك وابن أخى الزهرى عن الزهرى عن ابى سلمه عن ابيه مرفوعا قال : « تذهب زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة » والثانى : روى محمد بن مسعود العجمى انبأنا حبيب حدثنا مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير عن ابيه مرفوعا : (استنزلوا الرزق بالصدقة) .

٧ ـ حجاج بن نصيرت الفساطيطى بصرى المتوفى سنة أربع عشرة ومائتين . قال يعقوب ابن شيبه : سألت ابن معين عنه فقال : صدوق لكن اخذوا عليه أشياء فى حديث شعبة وقال ابن المدينى : ذهب حديثه ، وقال أبو حاتم : ضعيف ترك حديثه وقال البخارى : سكتوا عنه ، وقال النسائى : ضعيف ، وقال ابو داود تركوا حديثه ، وقال الدارقطنى وغيره : ضعيف ، وأما ابن حيان فذكره فى الثقات(٤٨). وبهذه النماذج يتضح لنا دقة سلفنا فى نقد الرجال ، وتمحيص احوالهم ، وسبر صفاتهم فى دقة فائقة ، وتحقيق علمى نزيه ، وكان بين المجروحين من تكلم فيه مع جلالته ، لأنهم لم يرعوا منزلة ولا جاها للرجال الا بمقياس التقوى والصدق والحفظ والاتقان . كما كان أيضا من بين من تكلم فيهم مع ثقتهم بأدنى لين وبأقل تجريح ، وتلك هى الدقة الكاملة التى يراعون فيها أمر دينهم ، وحفظ شريعتهم ، لأن الرواة هم نقلة العلم النبوى فلابد أن يكونوا على درجة عالية فى الاتقان والضبط مع التقوى والأمانة .

---

(٤٧) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبى جـ ١ ص ٢٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٣ .

(٤٨) ميزان الاعتدال جـ ١ ص ٢١٠ ، ١١٦ .

البحث الثالث

من جهود العلماء فى مقاومة اعداء الحديث

الامام ابن قتيبة الدينورى

تبين فى المبحث السابق كيف تصدى علماء الحديث لمحاربة بعض الطوائف ، وكيف قاموا بنخل جميع ما ألقوا به فى محيط الأحاديث من الترهات ، فميزوا بذلك البهرج من الصحيح ، ونفوا عن السنة النبوية تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين .

وفى هذا البحث أسوق مثلا من أمثلة هذا الجهاد المبرور المشكور ، لعلم من اعلام هذا القرن كان له فى هذا المجال باع طويل ، وجهد عظيم ، الا وهو الامام محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينورى وقيل المروزى ، والدينورى نسبة الى (دينور) وهى بلدة من بلاد الجبل قرب قرميسين(٤٩) ، أقام بها مدة قاضيا فنسب اليها ، ويقال له أيضا (المروزى) لأن أباه من (مرو الروز) وأصله فارسى ، وقد صرح بذلك فى قوله ـ حين حاج الشعوبية . (فلا يمنعنى نسبى فى العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلتها) .

وقبل التعرض لجهوده المشكورة فى خدمة السنة النبوية والدفاع عنها ، أقدم نبذة سريعة تعطينا فكرة عن نشأته وحياته العلمية ، كمدخل لهذه الجهود .

نشـــأته :

ولد ابن قتيبة ببغداد ، وقيل بالكوفة ، وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وتوفى فى ذى القعدة سنة سبعين ومائتين وقيل سنة احدى وسبعين ومائتين ورجح ابن خلكان أنه توفى فى منتصف رجب سنة ست وسبعين ومائتين وعاش ابن قتيبه معظم حياته ببغداد وهى فى أوج مجدها العلمى ، وقضى جزءا من حياته فى الدينور أثناء ولايته القضاء فيها ، واتسم ـ منذ نشأته الأولى بمكارم الأخلاق ، والتحلى بحميد السجايا ، وكان يرى

---

(٤٩) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٣١٤ .

أن التجمل بالخلق أفضل من طلب العلم ، وعرف بالسماحة والتواضع والزهد والدعوة اليه فكان من أوائل من جعلوا الزهد ركنا هاما من أركان الأدب وأفرد له بابا خاصا فى كتاب (عيون الأخبار) وابن قتيبه بما قام به من دعوة صارخة الى الزهد ، شارك فى مقاومة تيارات التحلل والمجون التى ألحت على الدولة حينئذ . ولم يكن ابن قتيبه رحالة كغيره من الائمة وانما نشأته مستقرة أنفق الشطر الأكبر منها فى بغداد فى طلب العلم ثم فى تصنيف الكتب وإملائها وأقام بالدينور مدة أثناء توليه القضاء .

حياة ابن قتيبه العلمية

اتسمت حياة ابن قتيبه العلمية بالاستقرار ، فلم يشتغل بالرحلة الى البلاد كشأن غيره من الأئمة ، وانما قضى معظم حياته فى بغداد ، واخذ عن علمائها علوم الحديث والفقه واللغة والتفسير والنحو والأدب والأخبار وعاش مدة فى الدينور أعانته على اتقان اللغة الفارسية .

واضطلع ابن قتيبه بمهمة جسيمة ، ورسالة عظيمة ملكت عليه أقطار نفسه ، وكانت شغله الشاغل وهذه المهمة هى (الدفاع عن أهل السنة ومذاهبهم ، ووضع المؤلفات لسد حاجة المسلمين وتحبيبهم فى دراسة اللغة العربية) .

وكان غزير الثقافة استوعب معظم ما كان يعج به عصره من ثقافات وعلوم ، وهذا راجع الى أنه أخذ عن شيوخ مختلفين ، منهم المحدث ، ومنهم اللغوى ومنهم النحوى وهكذا . ومن أشهر الشيوخ الذين اخذ عنهم : ابو الفضل الرياش ، وأبو حاتم السجستانى واسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل(٥٠) .

وروى عنه ابنه أحمد وعبيد الله بن عبد الرحمن السكرى وعبد الله وآخرون .

ومن تصانيفه : كتاب المعارف ، وأدب الكاتب ، وغريب القرآن ، ومشكل الحديث ومشكل القرآن وكتاب الشعر والشعراء ، والاشربة ، واصلاح الغلط ، وكتاب التفقيه ، وكتاب الخيل ، وكتاب اعراب القرآن وكتاب الانواء وكتاب المسائل والجوابات ، والميسر والقداح وغير ذلك(٥١) .

وبعض هذه المؤلفات ليس له فيها الا فضل الجمع والتبويب مثل كتاب : (عيون الاخبار) وكتاب : (المعارف) ومثل هذه الكتب لا تظهر لنا فيه شخصيته العلمية الا فى القليل من ـ التنسيق الذى يدل فقط على خبرته وحسن اختياره ، أما البعض الآخر من

---

(٥٠) لسان الميزان لابن حجر جـ ٣ ص ٣٥٧ تاريخ بغداد جـ ١ ص ١٧٠ .

(٥١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣١٤ ، مرآة الجنان لليافعى جـ ٢ ص ١٩١ .

مؤلفاته فصنفه فى الرد على اعداء أهل الحديث ، وعلى الشعوبية مثل كتاب (تأويل مختلف الحديث) وكتاب : (الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة) وهذا النوع من مؤلفاته هو الذى كتبه واستمد مادته من عقليته الحافظة المتفتحة وتفكيره الخصب ، الذى كان له أكبر الأثر فى التوفيق بين نصوص القرآن والحديث ، وبيان المراد وشرح ما غمض على بعض العقول . وهذه المؤلفات تدل على تبحره فى علوم الدين واللغة من حديث وفقه ونحو وأدب وغير ذلك .

مكانته وفضله

كان ابن قتيبه ثقة دينا فاضلا كما قال الخطيب[٥٢] ، وهو أحد أعلام الائمة الذين برزوا فى الميدان العلمى بأعمال كثيرة ، ومصنفات وافرة فلم يترك حقلا من حقول العلم الا وكان من زارعيه ولا بحرا من بحور المعرفة الا وأدلى بدلوه فيه ، وكان من أجود الأئمة تصنيفا وأحسنهم ترصيفا ، له زهاء ثلاثمائة مصنف[٥٣] وكانت له مكانته بين العلماء ، يقول فيه أهل المغرب : من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبه يتهم بالزندقة . ويقولون كل بيت ليس فيه شىء من تصنيفه لا خير فيه . ومع المبالغة فى هذا القول فهو يعطينا صورة لمكانته وفضله .

وقد حامت حوله شبهة لا أساس لها من الصحة وهى اتهامه بالانحراف عن أهل البيت النبوى . واذا نظرنا الى كتبه وآرائه وجدنا ما يناقض هذه الشبهة ، فقد أحب ابن قتيبه الامام على بن أبى طالب وآله رضوان الله عليه وكان يذكرهم بالاكبار والتجلة ، بل ويحث على حبهم ويرى أن مناصرتهم مما ينفع المرء فى يوم المعاد[٥٤] .

وحب ابن قتيبه لآل البيت ليس فيه غلو كالشيعة بل كان معتدلا . ويرى بعض الباحثين أنه كان فى بعض آرائه انحراف عن أهل البيت الا أنه رجع الى الصواب ولطف لهجته[٥٥] .

وأرى أن ابن قتيبه كعالم اخذ على عاتقه مناصرة السنة وأهلها ، وظهرت ميوله الى آل البيت كما تبين فى الرأى الاول وبهذا يكون بعيدا كل البعد عن هذه الشبهة ، ولعل الذى دعا بعض الباحثين الى ذلك هو ما أثار خصومه حول شخصيته العلمية وما أشاعوه فيه .

---

(٥٢) لسان الميزان جـ ٣ ص ٣٥٧ .

(٥٣) مقدمة مشكل القرآن وغريبه لابن قتيبه ط الخانجى .

(٥٤) ابن قتيبه للدكتور عبد الحميد سند ص ٢٣٧ .

(٥٥) مقدمة الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبه لابن قتيبة بتعليق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ص ٣ .

وقد اخترت ابن قتيبة كمثال لجهود العلماء في مناصرة الحديث ومقاومة اعدائه لانه كان من طليعة العلماء الذين مثلوا ثقافة القرن الثالث الهجرى بكل ما فيها من علوم ومعارف وثقافات مختلفة ، ألف في الحديث والتفسير وأخذ وضعه في امامة أهل السنة في زمنه جمع بين العلم والعمل ، وكان أديبا ناقدا ولغويا ضليعا وراوية للاخبار ، كل ذلك يدل على عقلية متفتحة وأفق واسع .

ابن قتيبه وأهل الرأى والكلام

كانت الخصومة حادة بين أهل الحديث وأهل الرأى ، وقد حمل أهل الرأى على أهل الحديث حملات عنيفة وانبرى ابن قتيبه يرد كيد خصومه من أهل الرأى ويدافع عن أهل الحديث الذين عانوا كثيرا من هذه الخصومة التى بلغت مبلغا كبيرا حتى ان القضاة من أهل الرأى هم الذين قاموا باختبار المحدثين اثناء فتنة القول بخلق القرآن ، وكان لأهل الرأى فهم فى الآيات على غير وجهها الصحيح ، وتأولوا الأحاديث تأويلا لا يقره دين ، فوقف ابن قتيبه منهم موقف المدافع عن الدين . ففند آراءهم ، ورد أباطيلهم . أما عن أهل الكلام فكان موقفهم من الحديث موقف الشك ، لأنهم يحكمون العقل فى كل شىء ولا يثقون فى الحديث الا اذا اتفق مع عقولهم ، وأحلوا العقل مكانة كبيرة ، وجعلوا له سلطانه مع ما فيه من جموح فكان غلوهم فى تحكيم العقل وتعصبهم لبعض آرائهم هو الذى فتح سبيلا للغى . وهذا هو الذى حفز ابن قتيبه ليناهضهم ويتصدى للرد عليهم وعلى غيرهم من أعداء الحديث ، ويذود عن حمى الدين فى اخلاص وحمية . وسأعطى نموذجا لعمل ابن قتيبة فى الدفاع عن الحديث وهو كتابه (تأويل مختلف الحديث) :

الباعث لابن قتيبه على تأليف كتابه تأويل مختلف الحديث

مختلف الحديث فن من أهم الفنون التى يضطر العلماء الى معرفتها والوقوف عليها ، ومعناه : أن يأتى حديثان ظاهرهما التناقض فى المعنى فيوفق بينهما أو يرجح احدهما على الآخر . والتوفيق بين الاحاديث قد يكون بتقييد المطلق أو تخصيص العام أو الحمل على تعدد الحادثة وما الى ذلك من الوجوه .

وأول من تكلم فى هذا الفن هو الامام الشافعى فى كتاب « الأم » وذكر السيوطى أن الشافعى لم يقصد استيفاءه ولا افراده بالتأليف(٥٦) ، ولكنه فى الجزء السابع الف على هامشه كتابا خاصا باسم « اختلاف الحديث » ثم صنف بعد ذلك ابن قتيبه كتابه فى مختلف الحديث . وكان الباعث لابن قتيبه على تأليف هذا الكتاب : هو تنزيه ساحة السنة النبوية عن تلك الطعون الزائفة التى وجهها الى الحديث وأهله اعداء السنة ، فألف هذا الكتاب عندما رأى أهل الكلام يقومون بثلب أهل الحديث والتحامل عليهم ، فعز ذلك عليه سيما وأن أحد أنصار الحديث كتب الى ابن قتيبه يطلب منه أن يرد على أهل الكلام فصنف هذا الكتاب النفيس وقد بين الباعث له على تأليفه فى مقدمة الكتاب اذ يقول : (فانك كتبت الى تعلمنى ما وقفت عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث وامتهانهم واسهابهم فى الكتب بذمهم ، ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض حتى وقع الاختلاف وكثرت النحل وتقطعت العصم وتعادى المسلمون وكفر بعضهم بعضا ، وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث)(٥٧) .

---

(٥٦) تدريب الراوى ص ٣٨٧ .

(٥٧) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢ .

منهج ابن قتيبه فى هذا الكتاب

ويتحدد منهج ابن قتيبه فى هذا الكتاب فى أمرين :

١ - جمع الطعون التى وجهها أهل الكلام الى الحديث ورجاله والرد عليها .

٢ - جمع الأخبار التى زعم البعض أنها متناقضة ومختلفة فيزيل عنها ما زعموه من تناقض ويجيب عما أوردوه حولها من شبه .

وقد تناول ابن قتيبه الحديث عن أهل الكلام والرأى وعن بعض المعتزلة الذين طعنوا فى أهل الحديث وبدأ بالنظام فبين طعنه فى أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ثم تعرض فى رده للعلاف « وعبيد الله بن الحسن » « وبكر صاحب البكرية » ، « هشام ابن الحكم » كما تعرض « للجاحظ مبينا استهزاءه بالحديث ، وما قام به من وضع وكذب ، واخذ يفند مزاعمهم العجيبة ، واقوالهم الغريبة وطعونهم الجريئة ويجيب عنها ، كما وضح موقفه من المعتزلة وأهل الكلام ، وكيف عزف عنهم وقاطع مجلسهم حينما رأى منهم مالا يتفق مع عقيدته ومشربه ، وأخذ يذيع على الناس ما خفى من أمورهم وجرأتهم فى رد السنة الصحيحة ، ورد على الروافض الذين زعموا أنهم على علم بباطن القرآن ففسروا الآيات بما يمليه عليهم الهوى والغرض .

قال ابن قتيبه : « ولو اردنا - رحمك الله - أن ننتقل عن أصحاب الحديث ونرغب عنهم فى اصحاب الكلام ونرغب منهم اخرجنا من اجتماع الى تشتت ، وعن نظام الى تفرق وعن أنس الى وحشة وعن اتفاق الى اختلاف »(٥٨) .

وقد وضح ابن قتيبه مسلك اهل الحديث فى اتباع الطريق الصحيح ، واجاب عن الطعون التى وجهت اليهم وهم منها براء كما تصدى لما وضعه الزنادقة وأهل الاهواء من الاحاديث فنبه وحذر منها ، ورد عليها ، وشرح ما قام به رجال الحديث من جهود مخلصة وأمينة فى سبيل الدفاع عن السنة ، حتى ميزوا الصحيح من غيره ، وبين أن هذا هو ما حدا

---

(٥٨) تأويل مختلف الحديث ص ١٩ .

بهم الى ذكر بعض الاحاديث الضعيفة موضحا ان وجهة نظرهم فى ذكرها هو التنبيه عليها لتتضح للناس . وليميزوا بين الصحيح والسقيم .

وفى سبيـل التماسهم للحق وتتبعهم لـه وجمعهم للاحـاديث قام رجـال الحديث برحلاتهم العلمية الهائلة برا وبحرا وشرقا وغربا ، ويرحل الواحد منهم فى سبيل الخبر الواحد وهكذا عاشوا مجتهدين مخلصين حتى ادركوا الصحيـح من الاحاديث (وفهمـوا صحيح الاخبار وسقيمها وناسخها ومنسوخها وعرفوا من خالفها من الفقهاء فنبهوا على ذلك حتى نجم الحق بعد ان كان دارسا ، واجتمع بعد ان كان متفرقا وانقاد للسنن من كان عنها معرضا وتنبه لها من كان عنها غافلا وحكم بقول رسول الله ﷺ بعد ان كان يحكم بقول فلان وفلان[٥٩] وقد مرد بعض المستشرقين والملحدين ممن يلبسون الحق بالباطل ، والصحيح بالعاطل فأخذوا تلك المطاعن ونسبوها الى ابن قتيبة ، وقدموها كقواعد مسلمة عند المسلمين ووجهوا على ضوئها طعونهم الزائفة فى الدين دون أن يذكروا ما قام به هذا الامام الجليل من جهود مخلصة فى الاجابة عليها وبيان الحق من الباطل[٦٠] .

(٥٩) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٦٠) الحديث والمحدثون ص ٣٦٩ .

وليس معنى دفاع ابن قتيبه عن الحديث وأهله أنه كان يتعصب لرأى البعض ممن ينتسبون الى أهل الحديث ، أو ممن يروون احاديث غير صحيحة تجنح الى الخرافة أو الشك ، لا . وانما كان لا يقبل الاحاديث غير الصحيحة ، ومع ذلك قد اثيرت حول ابن قتيبة الشبهة الآتية :

الشبهة : اتهم ابن قتيبة بانه لا يفرق بين الاحاديث الموضوعة ، والاحاديث الصحيحة ، وكان كل همه ان يتناول التوفيق بين الاحاديث المتناقضة ويبحث عما يؤيد آراءه من الأحاديث .

الرد على ذلك : وردنا على هذه الشبهة ، يتلخص فى انها دعوى غير صحيحة لأن ابن قتيبة رفض احاديث كثيرة وردها لأنه رأى فيها من الخرافات والكذب ما لايستقيم مع العقل ، وما يضاعف شكوك المرتابين ، وهى ايضا تحمل بين طياتها دلائل وضعها وكذبها ، ومقام الرسول صلوات الله وسلامه عليه اعظم من ذلك . ومن امثلة ما رده ابن قتيبة من احاديث : « من قرأ سورة كذا وكذا ، ومن فعل كذا وكذا اسكن من الجنة سبعين الف قصر فى كل قصر الف مقصورة فى كل مقصورة سبعون الف مهاد على كل مهاد سبعون الف كذا . . الخ »[٦١] ومثل ذلك ما قيل عن عوج بن عنق : « قالوا : حديث يكذبه النظر ، قالوا : رويتم ان عوجا اقتلع جبلا قدره فرسخ فى فرسخ على قدر عسكر موسى فحمله على رأسه ليطبقه عليهم فصار طوقا فى عنقه حتى مات ، وأنه كان يخوض البحر فلا يجاوز ركبتيه وكان يصيد الحيتان من لجحه ويشويها فى عين الشمس وأنه لما مات وقع على نيل مصر فجسر للناس سنة أى صار جسرا لهم يعبرون عليه من جانب الى جانب وأن طول موسى عليه السلام كان عشرة أذرع وطول عصاه عشرة أذرع ووثب من الأرض عشرا ليضربه فلم يبلغ عرقوبه ـ قالوا هذا كذب بين لا يخفى على عاقل ولا على جاهل وكيف

(٦١) تأويل مختلف الحديث ص ٩ .

صار فى زمن موسى عليه السلام من خالف أهل الزمان هذه المخالفة وكيف يجوز أن يكون من ولد آدم من يكون بينه وبين آدم هذا التفاوت ؟ وكيف يطيق آدمى حمل جبل على رأسه قدره فرسخ فى فرسخ ؟ »

قال أبو محمد : « ونحن نقول أن هذا حديث لم يأت عن رسول الله ﷺ ولا عن صحابته انما هو خبر من الاخبار القديمة التى يرويها أهل الكتاب سمعه قوم منهم على قديم الايام فتحدثوا به » .

وهكذا نرى كيف وقف ابن قتيبة من هذه الأخبار الكاذبة والخرافات الضالة موقف الناقد البصير فردها وحكم بكذبها ووضعها . بل إنه حدد الوجوه التى يدخل منها الفساد الى الحديث وحصرها فى ثلاثة أمور :

الاول : الزنادقة وما قاموا به من دس الأحاديث الشنيعة والمستحيلة التى لم يخف أمرها على رجال الحديث الذين كشفوا عوارها ، وبينوا خطرها ، وأشار الى بعض اولئك الوضاعين أمثال ابن ابى العوجاء الزنديق ، وصالح بن عبد القدوس الدهرى .

الثانى : القصاص وما كانوا يقومون به من استمالة وجوه العوام اليهم ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب من الاحاديث .

الثالث : ما كان الناس عليه فى الجاهلية من أخبار متقادمة تشبه أحاديث الخرافة كقولهم أن الضب كان يهوديا عاقا فمسخه الله تعالى ضبا ، ولذلك قال الناس : أعق من ضب ، وأيضا ما قام به أعداء الحديث والجهلة وما الى ذلك ، فبين هذه الأسباب ، وطفق يدافع عن السنة فى إخلاص المؤمن وحمية الغيور عل دينه .

بعض المآخذ : والذى نأخذه على ابن قتيبة ما يأتى :

أولا : تحامله على أئمة الرأى والكلام ، ويرى بعض الباحثين أن هذا راجع الى أن بعض متكلمى المعتزلة ، وبعض القضاة المتفقهين على مذهب ابى حنيفة قاموا باختبار المحدثين فى القول بخلق القرآن فى المحنة المشهورة التى قام بها المأمون[٦٢]

وأرى أن السبب فى ذلك يرجع الى ما جنح إليه أهل الكلام والرأى من أقوال فى

---

(٦٢) الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة تعليق الشيخ زاهد الكوثرى ص ٣ .

الدين غريبة ، وتجريح لأهل الحديث بالاضافة الى ما ذكره بعض العلماء من سبب المحنة ، والكتاب يفيض بالكثير من هذه الآراء التى ذكرها ورد عليها ، ولعله قد أخذته غيرته على الدين وأهل الحديث فتحامل على أهل الرأى والكلام .

ثانيا : نأخذ على ابن قتيبة أنه كان فى بعض الأحوال النادرة لا يرد بعض الأحاديث غير المعقولة المنسوبة الى الصحابة مستبعدا أن يتعمد واحد منهم الكذب ، وذلك كبعض الأحاديث التى وقعت فى (كتاب العرب) التى أيد بها رأيه فى تفضيل العرب ، وفيها نقله أيضا فى كتابه (تأويل مختلف الحديث) أن القردة مسخت من بنى إسرائيل[٦٣] .

وأرى أن ابن قتيبة كان ثقة صادقا فى روايته الا أنه ينقصه تحقيق بعض الأخبار ووزنها بالميزان العقلى السليم، وإن كان قد قصر فى البعض فقد أنجح فى البعض الآخر وفتح باب الرد على أهل الأهواء وجاهدهم مستبسلا صابرا فلله دره .

---

(٦٣) تأويل مختلف الحديث ص ١٦٧ .

الباب الثانى

تدوين الحديث

فى القرن الثالث الهجرى

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : وفيه بحثان :

البحث الأول : مناهج تدوين الحديث .

البحث الثانى : مثال لمنهج التدوين على المسانيد « مسند الامام أحمد » .

الفصل الثانى : وفيه بحثان :

البحث الأول : الصحيحان والمقارنة بينهما .

البحث الثانى : السنن الأربعة .

الفصل الأول

البحث الأول : مناهج تـدوين الحديث فى القـرن الثالث

أخذ تدوين الحديث فى القرن الثالث الهجرى شكلا جديدا غير الذى كان مألوفا فى القرنين : الأول والثانى ، ذلك أن التدوين فى القرن الأول الهجرى « كان الغرض منه حفظ السنة النبوية من الضياع ، وصيانتها من أن يتطرق إليها الوضع ، فكانت كتابـة الحديث آنئذ كتابة فردية ، ثم ما لبث أن دونت فى الصحف بجانب حفظها فى الصدور .

أما فى القرن الثانى فقد بدأ تدوين السنة فيه على يد الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ وكان منهج التدوين يقوم على جمع الاحاديث التى تدور حول موضـوع واحد فى مؤلف خاص ، فكان لكل باب من أبواب السنة مؤلف خاص به تدون فيه الأحاديث المتصلة بموضوعه مختلط بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين .

ثم كانت المرحلة الثانية ، من مراحل التدوين فى القرن الثانى ، بعد الزهرى حيث قام الائمة : مالك ، وابن جريج ، وسفيان الثورى وغيرهم فجمعوا أحاديث الأبواب وضموا بعضها الى بعض فكانت مصنفا واحدا ومزجوا الاحاديث بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، ونسج على هذا المنوال بقية أهل عصرهم . ولم يصلنا من مؤلفاتهم الا موطأ الأمام مالك ومسند الامام الشافعى ، والاثار للامام محمد بن الحسن الشيبانى ووصف لبعض المؤلفات الأخرى وأغلب الظن أن العلماء أدمجوها فى مؤلفاتهم بعد ذلك ، بجانب حفظها فى القلوب .

وكان الغرض من الجمع فى هذا القرن الثانى هو خدمة التشريع وتسهيل استنباط الاحكام ، ومن أمثلة ذلك « موطأ » الامام مالك الذى يعتبر أول مصنف من المصنفات الصحيحة رتب على الابواب ، قال أبو بكر العربى « الموطأ هو الأصل الاول واللباب ،

وكتاب البخارى هو الاصل الثانى فى هذا الباب وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذى »[1] وقد عنى الامام مالك فى كتابه بتدوين الاحاديث القوية ، ومكث فى تأليفه وتنقيحه وتهذيبه أربعين سنة ، وقد نهج فى تدوين الحديث فى كتابه أن يكون مرتبا على الأبواب فيذكر أحاديث كل باب ثم يتبعها بما ورد فيه من الاثار عن الصحابة والتابعين .

وأما فى القرن الثالث الهجرى فقد أخذ التدوين شكلا جديدا غير الذى كان عليه فيما مضى ، فقام علماء هذا القرن وأفردوا أحاديث الرسول ﷺ عن أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، وتصدى بعضهم لتدوين الأحاديث التى يوهم ظاهرها التناقض ، أو يقع فى حسبان البعض انها غير صحيحة ، ويجمع الطعون الواردة عليها ويبين حقيقتها ويرد على تلك الطعون كما تقدم فى الحديث عن ابن قتيبة الدينورى .

وكانت مناهج التدوين فى القرن الثالث ترجع الى الطرق الآتية :

١ - **منهج التدوين على المسانيد** : ويتحقق بجمع المؤلف ما يروى عن الصحابى فى باب واحد من غير تقييد بوحدة الموضوع ، واتسم هذا المنهج بإفراد الحديث وتجريده من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، وجمع كل ما يروى عن الصحابى وان اختلفت موضوعات الأحاديث ، فمثلا يوجد حديث للصلاة بجانب حديث للصوم وهكذا مع الجمع بين الحديث الصحيح وغيره .

فيذكر صاحب المسند مثلا ابا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ويجمع ما رواه من الأحاديث ثم عمر رضى الله تعالى عنه وهكذا .

وكان منهم من يرتب أسماء الصحابة على القبائل فيقدم بنى هاشم ثم الاقرب فالأقرب الى رسول الله ﷺ فى النسب ، ومنهم من رتبها على السبق فى الاسلام فقدم العشرة المبشرين بالجنة ثم أهل بدر ثم أهل الحديبية ثم من أسلم وهاجر بين الحديبية والفتح ثم من أسلم يوم الفتح ، ثم أصاغر الصحابة سنا ثم النساء . وممن سار على هذه الطريقة الامام احمد بن حنبل ، ومنهم من رتبهم على حروف المعجم كالطبرانى فى المعجم الكبير ، ومن طرق التصنيف على المسانيد تصنيفه معللا بأن يجمع فى كل حديث طرقه واختلاف الرواة فيه ، فان معرفة العلل أجل أنواع علم الحديث وبها يظهر ارسال بعض ما عد متصلا ، أو وقف ما ظن مرفوعا وغير ذلك من الأمور المهمة ، وقد ألف الحافظ

---

(١) تنوير الحوالك ص ٥ .

الكبير يعقوب بن شيبة البصرى المتوفى سنة ٢٦٢ هـ مسندا معللا غير أنه لم يتم ، ولو تم لكان فى نحو مائتى مجلد . والذى تم منه مسند العشرة والعباس وابن مسعود وعتبة بن غزوان وبعض الموالى وعمار[٢] . وطريقة المسانيد هذه هى التى ابتدأ التأليف عليها فى القرن الثالث الهجرى ، وأول من قام بذلك هو عبد الله بن موسى العبسى الكوفى ومسدد ابن مسرهد البصرى وأسد بن موسى الأموى ، ونعيم بن حماد والخزاعى نزيل مصر ثم انتشر التأليف على هذه الطريقة بعد ذلك بين الائمة والحفاظ كالامام احمد بن حنبل واسحاق بن راهويه ، وكان منهم من جمع بين طريقة المسانيد وطريقة الأبواب فى مصنفه كأبى بكر بن أبى شيبة[٣] .

ومن أعظم المسانيد مسند الامام احمد بن حنبل ، وهو المراد عند المحدثين على الاطلاق ، واذا أرادوا غيره قيدوه باسم صاحبه[٤] . وقد يطلق المسند على الكتاب المرتب على الأبواب أو الحروف أو الكلمات لكون أحاديثه مسندة ومرفوعة الى النبى ﷺ كصحيح البخارى فانه يسمى (المسند الصحيح) وصحيح مسلم ، وسنن الدارمى فانها تسمى بالمسند ، وهناك مسندات لم تصل إلينا كمسند الحارث ابن الحارث بن أبى أسامة المتوفى سنة ٢٨٢ ، ومسند عبد الحميد المتوفى سنة ٢٤٩[٥] وكان لهذه الطريقة مزايا وعيوب :

أما مزاياها : فهى تجريد الاحاديث النبوية عن غيرها ، فقد افردت أحاديث الرسول ﷺ بالتدوين ، وجردت من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ففى هذه الطريقة اذا نوع من استقلال الحديث عن الفقه .

وأما عيوب هذه الطريقة : فهى صعوبة الوقوف على الحديث فى المسند ، لعدم جمع الاحاديث المتناسبة فى موضوعاتها فى باب خاص . كما كان من عيوبها كذلك تعذر معرفة درجة الحديث من الصحة والضعف والاحتجاج به أو عدمه ، لاحتمال أن يكون كل حديث فى نظر القارىء صحيحا أو ضعيفا . لأنها جمعت بين الصحيح وغيره فلا يستطيع إدراك هذا كله الا الحافظ المتضلع . وكان الباعث لأصحاب هذه الطريقة على تدوين الأحاديث التى لم تبلغ مرتبة الصحة هو أن الطرق قد تتعدد فيصل الحديث الى درجة الصحة ، كما أنها أيضا صالحة للاعتبار بها وقد تتبين صحة الحديث لنقاده بعد ذلك ، ومما

---

(٢) تاريخ فنون الحديث ص ١٥ .

(٣) مقدمة فتح البارى لابن حجر ص ٥ .

(٤) الرسالة المستطرفة ص ٦١ .

(٥) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ص ٣٠٢ الدكتور على حسن عبد القادر .

هو جدير بالذكر أن العلماء فى هذا العصر كانوا على درجة عالية فى معرفة الصحيح من الاحاديث التى دونوها ، أو دونت لهم ، ومعرفة الضعيف منها ومعرفة عللها ، وكانوا على علم بحال المتون والأسانيد التى فى هذه المسانيد .

٢ - **منهج التصنيف على الابواب** : ويقوم على تخريج الحديث على أحكام الفقه وغير ذلك وتبويب الاحاديث وترتيبها ترتيبا موضوعيا وتنويعها أنواعا مختلفة بحيث يجمع المصنف ما ورد فى كل حكم وفى كل باب على حدة فيجمع الأحاديث المتعلقة بالصلاة فى باب والمتعلقة بالصوم فى باب وهكذا ، وأهل هذه الطريقة منهم من اقتصر على ايراد ما صح فقط كالشيخين « البخارى ومسلم » ومنهم من لم يقتصر على ذلك كأبى داود والترمذى وكان من مزايا هذه الطريقة سهولة الحصول على الحكم الشرعى وغيره من الباب الخاص به ، والوقوف على درجة الحديث بيسر وسهولة بخلاف الطريقة الأولى « طريقة المسانيد » حيث يصعب فيها الحصول على المطلوب ، وهذا ما دعا الامام البخارى الى أن يتجه فى كتابه الى الاقتصار على الحديث الصحيح وتبعه الامام مسلم سيرا على منهجه ، وكان لهما الفضل فى تمهيد الطريق أمام طلاب الحديث ليصلوا الى الصحيح من الأحاديث دون عناء ، ولعل أقدم كتاب يمثل طريقة التصنيف على الأبواب هو « موطأ » الامام مالك ، غير أنه مزجه بأقوال الصحابة والتابعين بخلاف عمل الشيخين فقد أفردا الحديث عن تلك الأقوال والفتاوى .

وكان الداعى لهذه الطريقة هو أن تكون عونا للفقهاء وتسهيلا لهم فى الوقوف على الاحاديث التى يستنبطون منها أحكامهم أو يستدلون بها أو يجتهدون على ضوئها .

٣ - **الطريقة الثالثة** : طريقة الجمع لبعض الأحاديث والطعون الموجهة إليها والرد عليها كما سبق بيان ذلك فى الكلام على كتاب (تأويل مختلف الحديث) لابن قتيبة . وبعد بيان مناهج تدوين الحديث فى القرن الثالث نذكر أمثلة لها ، ولنبدأ فى البحث التالى بكتاب المسند للامام أحمد بن حنبل الذى يعد من أعظم الكتب المصنفة على هذه الطريقة ، وأقدم لذلك بترجمة عن الامام أحمد صاحب المسند . . .

الامام أحمد بن حنبل

نسبه ومولده :

هو الامام الجليل الذى طبقت شهرته الآفاق ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ابن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله ابن انس بن عوف بن قاسط ابن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفص بن دعس ابن جديله بن أسد بن ربيعه بن نزار بن معد بن عدنان الشيبانى المروزى الاصلى[٦] يلتقى نسبه مع الرسول ﷺ فى نزار بن معد بن عدنان ، واشتهر أبو عبد الله بابن حنبل مع أن حنبل جده وليس أباه ، لأن جده هذا كان معروفا مشهورا وعمل واليا على سرخس من أعمال خراسان فى العهد الأموى وناصر الدعوة العباسية عند ظهورها ، على حين كان والده مجاهدا غير مشهور ومات فى ريعان شبابه فعرف بابن حنبل نسبة الى جده ، واما أمه فاسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيبانى كان أبوه قد نزل بهم وبنى بها وجدها هو عبد الملك الذى كانت قبائل العرب تنزل عليه فيضيفهم ويكرم وفادتهم وقد نزل به محمد بن حنبل فزوجه من صفية حفيدته من بنته ميمونة ثم رحل الزوجان الى خراسان حيث كان الزوج يرابط بمرو ثم عاد بها حاملا الى بغداد[٧] فولد الامام احمد فى بغداد مدينة العلم فى ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ١٦٤ هـ [٨] وقيل انه ولد بمرو وحمل الى بغداد وهو رضيع[٩] .

وأرجح الرأى الأول وهو أنه ولد فى بغداد فى شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ومما يؤيد ذلك ما قاله صالح بن أحمد بن محمد بن حنبل : (سمعت أبى يقول ولدت فى سنة أربع وستين ومائة فى أولها فى ربيع الاول وجيىء بى حملا من مرو وتوفى أبى محمد بن حنبل وله ثلاثون سنة فوليتنى أمى)[١٠] .

(٦) مناقب الامام احمد لابن الجوزى ص ١٦ وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٠ .
(٧) احمد بن حنبل : عبد الحليم الجندى ص ٢١ .
(٨) تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٧٢ .
(٩) وفيات الاعيان جـ ١ ص ٤٧ .
(١٠) مخطوطة بقلم صالح بن الامام احمد بدار الكتب المصرية .

وهكذا نرى ان الامام احمد ولد من ابوين كريمين وجاء من اسرة عربية اصيلة ورث عنها الايمان الراسخ ، والعزيمة القوية ، وعزة النفس .

نشأته

فى مدينة العلم بغداد نشأ الامام احمد وتربى وحملت أمه تبعات هذه النشأة فهى التى كفلته وقامت برعايته لأن أباه مات فى فجر شبابه ولم يرث الامام احمد عن أبيه سوى منزل يسكنه وعقار قليل لا يغل عليه الا سبعة عشر درهما كل شهر فكان يعمل بيده اذا أعوزته الحاجة قال عبد الله بن أحمد : حدثنا على بن الجهم قال كان لنا جار فاخرج إلينا كتابا فقال : أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا هذا خط احمد بن حنبل فكيف كتب لك ؟ قال كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينه ففقدنا احمد أياما ثم جئنا لنسأل عنه فاذا الباب مردود وعليه حلتان فقلت : ما خبرك ؟ قال : سرقت ثيابى فقلت له معى دنانير فان شئت صلة وان شئت قرضا فأبى فقلت تكتب لى بأجرة ؟ قال : نعم فاخرجت دينارا فقال اشتر لى ثوبا واقطعه نصفين يعنى ازارا ورداء وجئنى ببقية الدينار ففعلت وجئت بورق فكتب لى هذا[11] . وعندما كان يطلب العلم باليمن مع اسحاق ابن راهويه عند عبد الرزاق وفنيت نفقته عرض عليه اسحق شيئا من المال صلة أو قرضا فامتنع من قبول ذلك وأخذ يشتغل بصناعة النسيج ويبيعها وينفق منها[12] . وفى هذا ما يدل على عزة النفس وشرفها وعفتها وكرامتها التى يأبى معها أن يأكل الا من عمل يده ، ولم يمد عينه الى زينة الحياة ولا الى ثروة المال لانه اكتفى بثروة العلم التى أغنته عن كل شىء ، من اجل هذا لم يحاول ان ينمى ثروته ولم يتمن الغنى لأن ينابيع نفسه الطموحة لم تتفتح الا على الحديث والعلم ، بل كان من السهل عليه أن يكون من الأثرياء لو أراد ولكنه رفض ذلك كله ورفض عطايا الخلفاء ، ومنح الاصدقاء ورفض تولى القضاء حين عرض عليه الشافعى أن يكون قاضيا باليمن عندما كلفه الأمين أن يختار قاضيا لها فاختاره ليستعين بذلك على معيشته وليسهل عليه طلب الحديث من عبد الرزاق دون تعب أو نصب ، ولكنه رفض واحب أن تكون هجرته لليمن خاصة للحديث لا تشوبها شائبة ، وحينما كرر الشافعى العرض عليه قال له (يا أبا عبد الله ان سمعت منك هذا ثانية لم ترنى عندك »[13] ومعلوم أن الامام الشافعى شيخه ، وابن حنبل يقدره ويجله ولكن نفسه التى ارتقت بالحديث لا ترى لها مطمحا فى سواه بل انه رغب فى تحصيل العلم بجهاد وجلد .

---

(١١) ترجمة الامام احمد للذهبى من كتاب تاريخ الاسلام .
(١٢) ترجمة الامام احمد من كتاب تاريخ الاسلام الذهبى .
(١٣) المناقب لابن الجوزى ص ٢٧١ .

وشق ابن حنبل طريق نشأته فى بغداد وهى يومئذ تزخر بالعلماء والمحدثين والحكماء والفلاسفة وهى حاضرة العلم الاسلامى تموج بالثقافات والفنون ، وقد توافرت فى جوانب نشأته عوامل كثيرة كان لها أكبر الاثر فى تكوينه العلمى ومن ذلك :

١ - **ما فطر عليه من حب للعلم وتحصيل له :** فكان من شدة شغفه بـه يخرج احيانا قبل الفجر فتأخذ أمه بثيابه ليبقى ريثما يصبح الصباح .

٢ - **توجيه أسرته له :** وقد ركزت الاسرة فيه آمالها ليكون عالما ومحدثا يدعو الى سبيل ربه على بصيرة وهدى فوجهته أسرته أول ما وجهته الى حفظ القرآن الكريم ثم الى علم اللغة والحديث وسيرة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين وكانت أمـه تحببه فى العلم وتعينه على طلبه فاتفق هذا التوجيه مع ما كانت تصبو إليه همته العالية .

٣ - **ذاكرته الحافظة :** وقد زكى هذا الاستعداد والتوجيه ذاكرة قوية وجهها الى حفظ الحديث اسنادا ومتنا والى فتاوى الصحابة والتابعين فاستوعب ذلك باستظهار منقطع النظير فهما واستنباطا .

٤ - **ورعه وتقواه :** وتوج هذه العوامل السابقة ما فطر عليه منذ صغره من الورع والتقوى والثقة والامانة .

واستفاضت شهادات الائمة له بالعلم والعمل وكانت تطلعات أهل زمـانه اليـه ترهص بمكانة عاليه له ، يقول الهيثم بن جميل « ان عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه »[١٤] .

حياته العلمية

كان العصر الذى نشأ فيه الامام احمـد هو عصـر التدوين والنضـج العلمى ففيه ازدهرت علوم الدين وغيرها فكان معنيا بتدوين ما يسمعه من الاحاديث وآثار الصحابة ولا يكتفى بما أودعه قلبه الحافظ وذاكرته الواعية وانما كان يدون ما يسمعه . وكان يتلقى علم الفقه والاستنباط من الشافعى وغيره حتى أصبح حافظا للحديث والفقه قال احمد بن سعيد الرازى ما رأيت أسود الرأس احفظ لحديث رسول الله ﷺ ولا أعلم بفقهه ومعانيه من احمد بن حنبل[١٥] كما كان يحفظ كتب أهل الرأى ولا يأخذ بها .

---

(١٤) مرآة الجنان لليافعى جـ ٢ ص ١٣٢ .

(١٥) مقدمة المسند ص ٦٤ تحقيق الاستاذ احمد شاكر .

وكان طبيعيا أن يلم بمثل هذه العلوم الكثيرة لانها كانت موجودة فى عصره وكان تلقيه من الفقهاء الذين جمعوا بين الحديث والرأى كالقاضى أبى يوسف صاحب أبى حنيفة . ثم انصرف بعد ذلك الى المحدثين فتلقى الحديث أولا ببغداد سنة تسع وسبعين ومائة واستمر بها سبع سنين واقتصر فيها على جمع أحاديث علماء بغداد وما يحفظون من الفتاوى ، ولازم فى هذه الفترة احد ائمة الحديث ببغداد نحو اربع سنوات وهو هشيم بن بشير بن حازم الواسطى المتوفى سنة ١٨٣[١٦] ولم يكن فى هذه الفترة التى لزم فيها هشيما منقطعا عن غيره ولكنه تلقى عن غيره من الثقات ذوى الشهرة العلمية كعبد الرحمن بن مهدى وابى بكر بن عياش وبعد موت هشيم مكث ثلاث سنوات ببغداد يجتهد فى طلب الحديث من العلماء دون تقييد بواحد منهم .

رحلاته

وابتدأ الامام احمد رحلاته العلمية فى السنة السادسة والثمانين بعد المائة فرحل المراحل البعيدة وركب المركب الصعب واحتمل خشونة العيش ، فرحل الى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة ورحل الى الحجاز خمس مرات ، أولاها سنة سبع وثمانين ومائة والتقى فى هذه الرحلة بالشافعى رضى الله عنه كما التقى به فى بغداد كذلك عندما أتى اليه الشافعى .

وكان يستعذب المشقة فى طلب الحديث ، لأن تحصيل العلم بصعوبة يكون أشد تمكنا واكثر حفظا وأبعد عن النسيان ، كما أنه كان يخلص نيته فى سبيل الله مستمرا فى دأبه لطلب الحديث حتى بعد أن بلغ درجة الامامة ، ولما سئل فى ذلك قال : (مع المحبرة الى المقبرة) وكثيرا ما كان يقول (أنا طالب للعلم الى ان ادخل القبر)[١٧]

شيوخه

أخذ الامام احمد عن كثير من الشيوخ الاعلام والائمة الحفاظ منهم هشيم بن بشير والشافعى وسفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد القطان وإسماعيل بن علية وعبد الرزاق والقاضى أبو يوسف صاحب الامام ابى حنيفة وابراهيم بن سعد وجرير بن عبد الحميد وعبد الرحمن بن مهدى ومعتمر بن سليمان وغيرهم[١٨] ، ويعتبر هشيم بن بشير هو

---

(١٦) المناقب لابن الجوزى ص ٢٥ .
(١٧) المرجع السابق ص ٣١ .
(١٨) تهذيب جـ ١ ص ٧٢ .

الشخصية الأولى من شيوخه الذين كان لهم أكبر الاثر فى حياته العلمية فقد ذهب اليه وهو فى السادسة عشرة من عمره ولازمه أربع سنين تكونت خلالها الملكة العلمية فى الحديث ومن شيوخه الذين كان لهم اكبر الاثر فى حياته الامام الشافعى وقد التقى به حين ذهابه للحج وكان الشافعى يدرس بالمسجد الحرام والتقى به مرة أخرى فى بغداد .

فقـهه :

وقد أخذ احمد عن شيخه الشافعى الفهم الصحيح للكتاب والسنة والمقـابلة بين الأصول واشتقاق الفروع ومعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد ، حتى صار فقيها له مذهبه المعروف ، ولا معول اذا على قول من قال : انه محدث لا فقيـه ، وحسبنا دلالة على إمامته فى الفقه ما خلفه من ثروة فقهيه ضخمة أخذها عنه تلاميذه .

وهو وإن لم يدون مذهبه فى كتاب ـ لأنه كان يكره ذلك ـ الا أن أصحابه قاموا بجمع مسائله وتدوينها ، ثم انتشرت ثروته الفقهيه فى كتب الحنابلة .

وقد خالف بعض العلماء هذه الحقيقة وأثاروا حول الفقه الحنبلى كثيرا من الكلام ، فابن جرير الطبرى قال (انه رجل حديث لا رجل فقه) ولذا ثار الحنابلة عليه ، وابن قتيبة لم يذكره بين الفقهاء واقتصر ابن عبد البر على الائمة الثلاثة أبى حنيفة ومالك والشافعى فى كتابه « الانتقاء » .

والحق أنه فقيه له مذهبه المعروف ، ويشهد بذلك الكثير من المتقدمين والمتأخرين ويشهد بذلك الانتخاب التاريخى وعلى رأس الشاهدين بفقهه الامام الشافعى الذى قال : « خـرجت من بغداد ومـا تـركت بهـا أفقـه ولا ازهـد ولا أورع ولا أعلم من أحمـد بن حنبل »[١٩] .

جلوسه للدرس والافتاء

تصدى الامام أحمد للدرس بعد أن بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، ولم ينصب نفسه للدرس قبل ذلك ، وقد جاءه بعض معاصريه يطلب منه الحديث سنة ثلاث ومائتين فأبى أن يحدثهم فذهب الى عبد الرزاق بن همام باليمن ثم عاد الى بغداد سنة أربع ومائتين فوجد أحمد قد حدث واستوى الناس عليه [٢٠] ولعل السبب فى امتناعه عن الحديث قبل هذه

---

(١٩) تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٧٢ .
(٢٠) المناقب ص ٨٨ .

السن يرجع الى أنه كان يستحى أن يحدث أو يفتى وبعض شيوخه الذين تخرج على أيديهم وأخذ عنهم ما زال موجودا وحيا ، ولعله كذلك استحسن أن يجلس للدرس فى هذه السن تأسيا بصاحب السنة المطهرة عليه الصلاة والسلام الذى بعث فى سن الأربعين ، وهذه السن غالبا ما تتكامل فيها القوة العلمية . وليس معنى هذا أنه لم يكن يفتى اذا سئل بل بالعكس فقد كان يرى أن الإعراض عن الاجابة والامتناع عن ارشاد السائلين كتمان للعلم منهى عنه لذا كان يفتى « فى مسجد الخيف » وهو فى الرابعة والثلاثين وغير ذلك .

أما التصدى للتدريس والفتيا رسميا فلم يكن إلا بعد بلوغه سن الأربعين . وكان مجلسه غاصا بطلاب العلم والمسترشدين من تلاميذه ومحبيه وعارفى فضله ، وكان له درس عام يعقده بعد العصر فى المسجد وآخر خاص يعقده فى منزله للخاصة من تلاميذه وابنائه . وكان الوقار والهيبة يسودان مجلسه فلا مجال لغير العلم ، وهذا يعطينا صورة صادقة لما كان عليه من حياة جادة وخالصة لخدمة الاسلام وجهاد كبير فى سبيل السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

تلاميذه

وقد روى عنه كثيرون منهم الائمة الستة : البخارى ومسلم وأبو داود بلا واسطة والترمذى والنسائى وابن ماجه بواسطة ، وابنه صالح ، وابنه عبد الله .

وقد روى عنه بعض شيوخه كعبد الرزاق والشافعى ، وفى هذا ما يدل على مكانته الجليلة وعظمته العلمية .

وروى عنه من أقرانه على بن المدينى ويحيى بن معين . ومما روى عنه كذلك محمد بن يحيى الذهل وأبو زرعة زرعة الرازى وأبو القاسم وهو آخر من حدث عنه وغير هؤلاء[٢١] .

محنته

جعل الله تعالى ابن حنبل علما يقتدى به وملجأ للمهتدين وهيأته الاقدار لذلك . قال فيه ابن حبان (اغاث الله به أمة محمد ﷺ وذلك أنه ثبت فى المحنة وبذل نفسه)[٢٢] .

---

(٢١) تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٧٢ .

(٢٢) تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٧٢ .

وقد سبق فى الباب الأول بيان أسباب المحنة ونتائجها وتتمة للترجمة عن حياة هذا الامام الجليل ألقى بعض الضوء على أهم جوانب العظمة فى حياته وهو موقفه فى « المحنة » هذا الموقف الذى تجلت فيه شجاعته الادبية واحترامه لاقتناعه السليم آخذا من موقفه ما يوضح القدوة فى حياته ، تمسكا بالسنة ومحافظة عليها .

وكانت هذه المحنة فى عهد « المأمون » الخليفة العباسى حين قامت فرقة المعتزلة ورأت أن القرآن مخلوق وكان المأمون متعصبا للمعتزلة فلما زينوا له القول بخلق القرآن اقتنع به وحمل الناس والعلماء عليه ، ومعظمهم وافق عن اكراه كما سبق بيان ذلك فى الباب الأول . وحمل لواء المعارضة الامام أحمد ، واستمرت الفتنة حتى عهد المتوكل الذى كان محبا للسنة وأهلها ، فرفع المحنة وكتب الى الآفاق الا يتكلم أحد فى القول بخلق القرآن . وقد تعرض الامام أحمد أثناء هذه المحنة الرهيبة لأعنف صنوف الأذى والاضطهاد ولكنه استعذب الأذى فى سبيل دينه وعقيدته حتى أصبح كما قال بشر بن الحارث : (أدخل الكير فخرج ذهبا أحمر)[٢٣] وهكذا أصحاب العزائم القوية واليقين الراسخ لا تزيدهم الفتن الا قوة فى الحق وزيادة فى الايمان ، وهذا شأن أولى العزم من الائمة المتفانين فى سبيل الله ، وقد كان من الممكن أن يأخذ بالرخصة فى أوقات البلاء عندما ازدادت به الشدة فيقف موقف التقية ولكنه ليس كذلك ، إنه فوق كل هذا ، ومكانته بين الناس مكانة الامام المقتدى به فلو أنه أخذ بالتقية والرخصة فلربما ضل الناس الذين يقتدون به من ورائه دون أن يعلموا أن ذلك تقية ، وهذا يعطينا رؤية واضحة لتمسك الامام بالسنة وحرصه على هداية الناس مهما كلفه ذلك .

كما ان روحه السمح جعله يصفح عن كل من ذكره الا المبتدع فهو يتسامح فى حق نفسه وايذائها أما ما يتعلق بالدين والسنة فلا يتسامح فيه يقول : « كل من ذكرنى فى حل الا مبتدع وقد جعلت ابا اسحاق المعتصم فى حل ورأيت الله تعالى يقول « وليعفوا وليصفحوا إلا تحبون أن يغفر الله لكم » وأمر النبى ﷺ أبا بكر بالعفو فى قصة مسطح ، قال ابو عبد الله : العفو أفضل ، وما ينفعك أن يعذب اخوك المسلم فى سببك » .

وبعد حياة حافلة بجلائل الاعمال وجهاد فى سبيل الحق مشكور ، فاضت روحه الى بارئها لاثنتى عشرة خلت من ربيع الاول سنة مائتين وإحدى وأربعين رضى الله عنه وجزاه عن السنة خير الجزاء .

---

(٢٣) مقدمة المسند جـ ١ ص ١٠٤ تحقيق الاستاذ احمد شاكر .

وبعد أن طوفنا مع هذا الامام الجليل فى حياته المشرقة نقدم لأهم أعماله العلمية التى تمثل طريقة التدوين على المسانيد وهو كتابه « المسند » .

مسند الامام أحمد

المسند فى اصطلاح المحدثين هو الكتاب الذى تذكر فيه الاحاديث عن الصحابة رضى الله عنهم مرتبين على حروف الهجاء أو السوابق فى الاسلام أو شرف النسب(٢٤)

ومنهج الامام احمد فى المسند هو جمع الاحاديث على ترتيب الصحابة الذين انتهى الحديث إليهم عن النبى ﷺ ، بحيث يوافق ترتيبهم السوابق الاسلامية ، وإن كان الحديث مرسلا كان على حسب التابعى الذى انتهى الحديث اليه عن النبى ﷺ فبدأ بأحاديث العشرة المبشرين بالجنة ثم أحاديث أهل الحديبية ثم مسلمة الفتح ثم أحاديث النسوة الصحابيات وهكذا حتى إذا وصل التابعين رتبهم كذلك ، فهو يدون أحاديث كل صحابى على حدة دون نظر الى وحدة الموضوع حتى اذا فرغ من حديث واحد من الصحابة أخذ فى حديث غيره فكان مسلكه فى المسند متجها الى التدوين والجمع دون نظر الى التبويب والترتيب الموضوعى رغبة منه فى جمع السنة والعمل على نشرها .

وكان الذى حدا به الى اتباع هذا المنهج فى التدوين هو :

١ ـ أن يصل الى أهل كل أقليم ما لم يصل اليهم من الاحاديث فقد رأى أن بعض الاحاديث فى الكوفة لا يصل إليها أهل بغداد وبعضها فى مكة لا يصل اليها أهل دمشق وأحاديث فى دمشق لا يصل إليها أهل اليمن ، وهكذا كان فى كل بلد محدثون فكيف يحصل على ما جمع هؤلاء وهؤلاء ؟ من اجل هذا رأى انه لابد من الرحلة فى جمع هذه الاحاديث المتفرقة فى البلاد النائية فبدأ بما سمعه ببغداد ثم اتجه الى الكوفة فالبصرة فمكة فالمدينة فاليمن وكان فى هذه البلاد يحرص على لقاء أهل الحديث ، ويجمع كل ما صح عنده وبهذا خطا خطوة جديدة فى جمع الحديث وهى الرحلة فكانت سنة لمن جاء بعده ، وقد توسع فيها البخارى حتى قام برحلات اكثر منه .

ولئن كانت هناك مدونات قبل المسند الا أنها إقليمية منها ما هو بالمدينة ومنها ما هو بمصر وهكذا ، وأظهر الكتب المدونة قبله « الموطأ » للامام مالك رضى الله عنه ، وكان الغرض منه خدمة الفقه ولذا بوبه تبويبا فقهيا بحيث يسهل الحصول منه على استخراج الدليل الشرعى واستنباط الحكم الفقهى وجاءت احاديث الموطأ محدودة بالنسبة الى المسند الذى اشتمل على أربعين ألف حديث بالمكرر ، ومن غير المكرر على ثلاثين ألفا .

(٢٤) مقدمة تحفة الاحوذى ص ٦٦ .

٢ ـ ما رآه أحمد فى عصره من كثرة الاحاديث التى وضعها أعداء الدين والمغرضون من أصحاب النحل الأخرى حتى عج تيار الموضوعات بصورة أفزعت هذا الامام الجليل مما جعله يتصدى للقيام بهذا العمل الضخم والمجهود الكبير ليقدم ما صح فى رأيه من أحاديث رسول الله ﷺ .

وقد ابتدأ كتابة الحديث وتدوينه فى مستهل حياته العلمية سنة ثمانين ومائة ١٨٠ هـ وعمره ستة عشر عاما ، وآثر كتابة الحديث رغم كراهته للكتابة لما رآه من الضرورة حتى لا يختلف الناس فى السنة النبوية . وروى أن عبد الله قال : (قلت لأبى رحمه الله تعالى لم كرهت وضع كتب وقد عملت المسند ؟ فقال : عملت هذا الكتاب إماما اذا اختلف الناس فى سنة عن رسول الله ﷺ رجع إليه)(٢٥) .

وقد ظل الامام احمد يجمع المسند الى آخر حياته فى أوراق منفردة وأجزاء متفرقة على نحو ما تكون المسودة وأورد فيه أربعين ألف حديث منها عشرة آلاف مكررة من مجموع سبعمائة ألف حديث وخمسين ألفا كما جمع فى المسند ثلاثمائة حديث ليس بينه وبين رسول الله ﷺ فيها غير ثلاثة رواة وهى ما تعرف بثلاثية الاسناد .

ومما ينبغى ملاحظته أن هذه السن المبكرة كانت بداية اشتغاله بالعلم وجمع الحديث ولكن تأليف المسند لم يشرع فيه الا بعد أن جاوز السادسة والثلاثين بعد رجوعه من عند عبد الرزاق بن همام وأخذ ينقحه مدة طويلة بعد ذلك حتى تمت ثقته فيما جمعه فأملاه على خاصته وولديه وابن عمه اسحاق ، يقول حنبل :

« ما سمعه ـ أى المسند ـ منه تاما غيرنا »(٢٦) .

وهذا الرأى هو الذى أرجحه وأراه أقرب الى الصواب ، اذ ان التصنيف فى سن السادسة والثلاثين يكون الباحث فيها أكثر إلماما حيث تنمو المواهب العلمية عنده وكان الامام أحمد رغم ثقته فيما جمعه ورغم تخير الثقات الذين روى عنهم كان كثير التهذيب والتنقيح فيه وعندما أحس باقتراب أجله جمع أهل بيته وخاصته واسمعهم المسند كله ، ولكنه لم يكمل ما قام به من ترتيب وتهذيب .

---

(٢٥) خصائص المسند للحافظ أبى موسى المدينى مطبوع مع المسند جـ ١ ص ٢٢ تحقيق الاستاذ / احمد محمد شاكر .

(٢٦) احمد بن حنبل : عبد الحليم الجندى ص ٢١٣ .

وكان المسند أجزاء ومجموعات فى أوراق منفردة لم يرتب الا على يد ابنه عبد الله كما قام عبد الله هذا فألحق به ما ألحق ، وقد رأى بعض الباحثين ان الذى ألحقه عبد الله بالمسند قد زاده عليه عن سماع من غير أبيه ، ويرى البعض أنه من سماعه عن أبيه غير أنه لم يكن مما أملاه عليهم عند املاء المسند[٢٧] وقد فصل الشيخ احمد البنا الرأى فى هذا فقال : (بتتبعى لاحاديث المسند وجدتها تنقسم الى ستة أقسام) .

١ ـ قسم رواه أبو عبد الرحمن عبد الله بن الامام أحمد عن أبيه سماعا منه وهو المسمى بمسند الامام أحمد وهو كبير جدا يزيد عن ثلاثة أرباع الكتاب .
٢ ـ قسم سمعه عبد الله من أبيه ومن غيره وهو قليل جدا .
٣ ـ وقسم رواه عن غير أبيه وهو المسمى عند المحدثين بزوائد عبد الله وهو كثير بالنسبة للاقسام كلها عدا القسم الاول .
٤ ـ وقسم قرأه عبد الله على أبيه ولم يسمعه وهو قليل .
٥ ـ وقسم لم يقرأه ولم يسمعه ولكنه وجده فى كتاب أبيه بخط يده .
٦ ـ وقسم رواه الحافظ أبو بكر القطيعى عن غير عبد الله وأبيه رحمهما الله تعالى وهو أقل الجميع فهذه ستة أقسام وكل هذه الاقسام من المسند الا الثالث فانه من زوائد عبد الله والسادس فانه من زوائد القطيعى »[٢٨] « أ . هـ » .

وهذا الرأى الأخير وهو أن المسند قد اشتمل على هذه الاقسام السابقة وفيه من زيادة ابنه عبد الله ما فيه هو ما أرجحه ومما يدعو الى الاطمئنان لما نقله عبد الله أن أباه كان يقبل ما يذاكره فيه من الحديث مما لم يسمعه ، وانه لم يكتب عن أحد الا من أمره أبوه أن يكتب عنه[٢٩] ومن المستبعد أن يستجيز عبد الله لنفسه أن يروى فى المسند عمن لم يأمره أبوه أن يكتب عنه ، وهو المعروف باخلاصه فى طلب الحديث وأمانته العلمية وامتداد فضل أبيه إليه مما جعل خاصة العلماء يثنون عليه عاطر الثناء .

شرطه فى الرواة الذين يأخذ عنهم

نهج الامام احمد فيما يدونه على الحيطة سندا ومتنا ، فاشترط الا يروى عمن كان معروفا بالكذب عنده ، كما تخير الثقات الذين يروى عنهم فما كان يروى عن شخص يعتقد

---

(٢٧) ابن حنبل : الشيخ أبو زهرة ص ١٦٠ .
(٢٨) مقدمة الفتح الربانى ص ١٩ للشيخ أحمد البنا .
(٢٩) ابن حنبل : الشيخ أبو زهرة ص ١٦١ .

أنه ضعيف غير ضابط أو غير فاهم ، وإنما يروى عن الثقات العدول الذين اشتهروا بالصدق والتقوى . قال الحافظ أبو موسى : « لم يخرج أحمد فى مسنده إلا من ثبت عنده صدقه دون طعن فى أمانته »[٣٠] . وكان يرد بعض الاحاديث اذا عارضها أقوى منها سندا وأوثق رجالا ، ويقبل عن أهل التقوى الذين لم يعرفوا بالكذب وإن كان فى ضبطهم بعض النقص فيقبل روايتهم على أن يوازن بينها وبين غيرها ، فان عارضها ما هو أوثق منها ردها وقد يأخذ بها للاعتبار ، يقول : (قد أكتب حديث الرجل للاعتبار به)[٣١] .

وقد يكتبها احتياطا منه ومخافة أن يترك حديثا للرسول ﷺ يحتمل الصحة وبهذا النهج اشتمل المسند على أكثر الاحاديث النبوية .

---

(٣٠) مقدمة المسند تحقيق الاستاذ شاكر ص ٣٤ .

(٣١) ابن حنبل للاستاذ محمد أبى زهرة ص ٢٣٢ .

موازنة بين المسند وبين ما قبله وما بعده من كتب الحديث

أما اذا نظرنا الى الكتب المصنفة قبل المسند فحسبنا أن نوازن بينه وبين أعظم كتاب صنف قبله فى القرن الثانى وهو كتاب « الموطأ » للامام مالك .

وأما بالنسبة لما صنف بعد المسند فحسبنا أن نوازن بينه وبين أعظم كتاب صنف بعده وهو صحيح البخارى .

أما « الموطأ » فهو كتاب الامام مالك بن أنس الأصبحى المولود بالمدينة حوالى سنة ٩٣ هـ المتوفى سنة ١٧٩ هـ وألف كتابه هذا فى أربعين سنة ، وقد قيل فى سبب تسميته بالموطأ أنه تجنب فيه شدائد ابن عمر ورخص ابن عباس ووطأه للناس كما أشار عليه المنصور فسماه « الموطأ » وذكر السيوطى فى سبب تسميته ما روى عن مالك أنه قال : عرضت كتابى هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة فكلهم واطأنى عليه فسميته « الموطأ » .

وقد بين ولى الله الدهلوى مكانة الموطأ من كتب السنة فوضعه فى درجة واحدة مع صحيح البخارى ومسلم ، وهى الدرجة الأولى فى الصحة قال : « وكتب [٣٢] الحديث على طبقات فالطبقة الأولى منحصرة فى ثلاثة كتب : الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم . كما بين أثر الموطأ فى كتب أئمة الحديث فقال : « ان الكتب المصنفة فى السنن كصحيح مسلم وسنن ابى داود وما يتعلق بالفقه من صحيح البخارى وجامع الترمذى مستخرجات على المؤطأ تحوم حومه وتروم رومه » وقد بين الشيخ محمد الشنقيطى أن مشايخ أصحاب الكتب الستة ومن عاصرهم كالامام أحمد أغلبهم تلامذة الامام مالك الذين رووا عنه الموطأ بروايات عديدة قل أن تخلو واحدة عن زيادة تنفرد بها ، ولم يتركوا شيئا من أحاديث الموطأ بل أخرجوها فى مصنفاتهم ووصلوا كثيرا من مرسلاته ومنقطعاته وموقوفاته [٣٣] .

---

(٣٢) حجة الله البالغة للدهلوى جـ ١ ص ١٠٦ ط الخيرية .

(٣٣) دليل السالك الى موطأ مالك . ومقدمة موطأ مالك للزرقانى .

وبذلك يتضح لنا ما للموطأ من أثر عظيم بالنسبة لتلك الكتب ، كما يتبين لنا ما لأصحاب هذه الكتب من مقدرة عالية فى وصل المرسل ورفع الموقوف واستدراك ما فات وذكر المتابعات والشواهد لما أسنده ، ومن ذا الذى يستطيع القيام بهذا غير العالم بالسنة ورجالها . إذًا فأعمال هؤلاء الائمة متممة لاعمال الامام مالك ، والامام أحمد هو أحد هؤلاء الائمة الذين قاموا بواجبهم ، فدون كتابه بعد الموطأ فخرج أحاديثه فى مسنده وكان له هذا العمل الجليل .

واذا نظرنا الى الكتب المصنفة بعد الموطأ نجد أن أصحابها قد انتفعوا بمادة الموطأ ومنهجه ، ثم أخذوا فى التجديد والابتكار بالنسبة للمنهج وطرق التدوين وشروط الرجال مما يشهد لهم بالجهود العظيمة المشكورة .

ومن الملاحظ أن الامام أحمد يتفق مع الامام مالك فى قبول الحديث المرسل وهو الذى سقط من سنده الصحابى ورواه التابعى عن رسول الله ﷺ مباشرة ، كما قبل الحديث المنقطع « وهو ما لم يتصل اسناده على أى وجه كان انقطاعه سواء كان الساقط منه الصحابى أو غيره فهو والمرسل واحد ، ولكن أكثر ما يستعمل فى رواية من دون التابعى عن الصحابى كما لك عن ابن عمر »[٣٤] .

ولعل وجهة كل من الامام مالك والامام أحمد فى قبول المرسل والمنقطع أن رواة الحديث مظنة الورع ويبعد أن يزيد واحد منهم على الرسول ﷺ وكذلك فان المتن فى الغالب لا يتنافى مع ما جاء فى الكتاب والسنة لذا قبل كل منهما المرسل أو المنقطع دون غيرهما .

ويختلف الامام احمد فى « مسنده » عن الامام مالك فى « الموطأ » من ناحيتين :

١ ـ نهج الامام مالك فى ترتيب الاحاديث على حسب الأبواب الفقهية ، بينما نرى الامام احمد يرتبها على حسب الرواة .
٢ ـ من ناحية عدد الاحاديث : نرى أحاديث الموطأ محدودة بالنسبة للمسند الذى زادت أحاديثه على أربعين ألف حديث .

أما الموازنة بين المسند وصحيح البخارى فتتلخص فى أمرين :
١ ـ بالنسبة للشروط ، فقد تشدد الامام البخارى فى صحيحه أكثر من الامام أحمد حيث

---

(٣٤) تدريب الراوى ص ١٢٧ .

اشترط فى الحديث أن يكون متصل الاسناد لا مرسلا ، وأن يكون راويه مسلما صادقا غير مدلس ، عدلا ضابطا سليم الذهن والاعتقاد ، معاصرا لمن روى عنه ، وثبت لقاؤه به .

٢ ـ من ناحية الترتيب : كان ترتيب المسند مغايرا لترتيب صحيح البخارى فترتيب المسند على حسب الرواة ، وترتيب صحيح البخارى على حسب الموضوعات ، وهذا الترتيب هو السبب فى تقطيع البخارى للحديث فى أبواب مختلفة ، أما مسند أحمد فقد سلم من ذلك الا أنه وقع فى عيب آخر هو صعوبة الوصول الى الحديث المطلوب فكانت طريقته شاقة على الباحثين ، لأن الباحث لا يصل الى مطلوبه فيه الا بعد جهد كبير ، فمثلا اذا أراد الوصول الى معرفة حديث فى حكم من أحكام الفقه فعليه معرفة راويه ، ثم يستعرض كل ما رواه هذا الصحابى حتى يصل الى الحديث المطلوب فاذا لم يكن يعرف راوى الحديث فان الجهد يكون أكثر ، إذ عليه حينئذ أن يستعرض قراءة الكتاب من أوله حتى يصل إلى ما يريد .

وكان عذر الامام أحمد فى سلوك هذه الطريقة آنذاك يتلخص فى أمرين :

الأول :

أنه جعل كل هدفه من تأليف المسند شيئا واحدا وهو جمع الاحاديث فقط ولم يضع فى حسبانه فكرة الترتيب والتبويب ولا مسائل الفقه والأحكام ولذا جاء ترتيبه حسب الرواة .

الثانى :

ان هذه الطريقة التى جمع بها المسند (كانت سائغة ميسورة لأهل القرن الثالث الذين عظمت عنايتهم بحفظ الحديث وضبطه ومذاكرته ودرسه حتى كان الواحد منهم يحفظ المسند الكبير كما يحفظ السورة من القران الكريم ويعرف صحيحه من سقيمه وغثه من ثمينه)[٣٥] أ . هـ .

---

(٣٥) الحديث والمحدثون ص ٣٧٠ .

وقد تولى عبد الله بن الامام أحمد اخراج المسند الى الناس وهو الذى انتهج هذه الطريقة فى روايته للمسند حين قام بجمع المتناثر الذى جمعه أبوه ورتبه وهذبه وتسلسلت من بعده الروايات عن الثقات الى ان حفظته الأجيال وتلقته الأمة بالقبول . يقول الذهبى فى نقد هذا الترتيب « ولو أنه حرر ترتيب المسند وقربه وهذبه لأتى بأسنى المقاصد ، فلعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامى من يخدمه ويبوب عليه ويتكلم عن رجاله ويرتب هيئته ووضعه فانه محتو على أكثر الحديث النبوى . وقل أن يثبت حديث الا وهو فيه » وقد قام بترتيب المسند الامام أبو بكر محمد بن عبد الله ابن المحب الصامت فرتبه على معجم الصحابة ورتب الرواة كذلك وأخذ هذا الكتاب أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير وأضاف إليه أحاديث الكتب الستة وكتاب ابن كثير اسمه « جامع المسانيد والسنن » وجمع غريبه أبو عمر محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٣٤٥ واختصره عمر بن على المعروف بابن الملقن المتوفى سنة ٣٠٥ هـ ورتبه على الأبواب الفقهية على بن حسين بن عروة ، وأبو الحسن على بن زكنون الحنبلى سنة ٨٣٧ هـ وشرحه كذلك بعض الحفاظ الاصبهانيين والحافظ ناصر الدين بن زريق وبعض من تأخر عنه[٣٦] .

وقيض الله تعالى للمسند عالما جليلا هو المرحوم الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الشهير بالساعاتى وانتهى من ترتيبه فى عام ١٣٥١ هـ . ورتبه وبوبه حسب الموضوعات ووافته منيته بعد أن أخرج واحدا وعشرين جزءا وسمى هذا الكتاب « الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى » ثم شرح الكتاب وخرج أحاديثه فى كتاب آخر معه سماه « بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى » وقسمه سبعة أقسام :

١ - التوحيد وأصول الدين
٢ - الفقه .
٣ - التفسير
٤ - الترغيب
٥ - الترهيب
٦ - التاريخ وفيه السير والمناقب .
٧ - القيامة وأحوال الآخرة .

وميز بين الاحاديث التى هى أصل المسند والاحاديث التى هى من زيادات ابنه عبد الله وأبى بكر القطيعى .

---

(٣٦) كشف الظنون جـ ٢ ص ٢٦٥ ، الرسالة المستطرفة ص ١ .

كما أخرج كتاب المسند اخراجا آخر عالم محقق هو الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله وقام بعمل فهارس علمية ولفظية تعين الباحث على الاطلاع على مواضع الاحاديث . والفهارس اللفظية وفهارس الاعلام والجرح والتعديل والاماكن وغريب الحديث أما الفهارس العلمية فهى فهارس الأبواب والمسائل التى ترشد الى ما جاء فى المسند من المعانى وقد رقم الأحاديث فأصبح ميسورا لكل قارىء أن يجد الباب الذى يقصده والمعنى الذى يريده ، ولم يخرج الأحاديث كلها وانما عنى ببيان درجة الحديث ، فيذكر صحة الحديث ان كان صحيحا ويبين سبب الضعف ان كان ضعيفا . وصدر الكتاب ببحوث سماها طلائع الكتاب تضمنت ما قاله بعض الائمة فى المسند . كما ذكر ترجمة للامام احمد نقلها من كتاب تاريخ الاسلام للحافظ الذهبى . وقد أكمل منه خمسة عشر جزءا ثم لحق بربه ، رحمه الله رحمة واسعة . ثم أكل من بعده فضيلة الدكتور الحسين هاشم رحمة الله واسعة من الجزء السادس عشر حتى الجزء التاسع عشر ، ثم اشترك معه الدكتور أحمد عمر هاشم فى الجزء العشرين والحادى والعشرين ، وهو بصدد اكمال بقية الأجزاء حيث اكتمل الجزء الثانى والعشرين . . ثم بقية الأجزاء ان شاء الله تعالى .

درجة أحاديث المسند :

اختلف العلماء فى درجة أحاديث المسند على أقوال منها :

أولا : ذهب بعضهم : الى أن كل ما فى المسند صحيح يحتج به ، والى هذا يشير كلام الحافظ أبى موسى المدينى : « وهذا الكتاب أصل كبير ، ومرجع وثيق لأصحاب الحديث ، انتقى من حديث كثير ، ومسموعات وافرة فجعله إماما ومعتمدا وعند التنازع ملجأ ومستندا » وما قاله الامام أحمد : « فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا اليه ، فان كان فيه وإلا فليس بحجة »(٣٧) .

واستند أصحاب هذا الرأى الى حيطة ابن حنبل فيما يرويه سندا ومتنا كما سبق . واذا نظرنا الى قول الامام احمد السابق نرى أنه ليس صريحا فى أن كل ما فيه حجة ، ولكنه صريح فى أن ما ليس فيه ليس بحجة ، هذا مع أن هناك أحاديث صحيحة مخرجة فى الصحيحين وليست فيه ، منها حديث عائشة فى قصة أم زرع(٣٨) وقد أجاب بعض العلماء على ما فات المسند من الاحاديث الصحيحة والمخرجة فى الصحيحين بعدة أجوبة منها :

---

(٣٧) مقدمة المسند ص ٢١ تحقيق الاستاذ شاكر .

(٣٨) تدريب الراوى ص ١٠٠ .

١ ـ ان الامام أحمد جمع المسند في أوراق مفردة ، وفرقه في أجزاء منفردة وبعد أن توفى قام ابنه فألحق به ما يشاكله ، وضم إليه من بعض مسموعاته ما يماثله ، فسمع القطيعى ما ظفر به منها ، وبقى كثير من الاحاديث فى الأوراق والأجزاء لم يظفر بها ، فما لم يوجد فيه من الاحاديث الصحاح فهو من هذا القبيل (٣٩) .

٢ ـ وقال الحافظ الذهبى : « هذا القول منه على غالب الأمر والا فلنا احاديث قوية فى الصحيحين والسنن والأجزاء ما هى فى المسند »(٤٠) أ . هـ ، فيكون القول محمولا على الغالب والأكثر .

٣ ـ أو أنه يريد بقوله (. . . فان كان فيه وإلا فليس بحجة) يريد أصول الاحاديث بمعنى : أنه ما من حديث فى الغالب ، الا وكان له أصل فى المسند وما لم يوجد فيه من حديث صحابى معين يكون معناه موجودا من حديث صحابى آخر . والحق أنه كتاب عظيم تحرى فيه صاحبه جمع السنة ، والرجوع اليه اذا اختلف الناس . وأرجح أن القول السابق محمول على غالب الأمر ، اذ لا يحيط أحد بسنة الرسول ﷺ جميعها لما سبق بيانه من بعض الاحاديث المخرجة فى الصحيحين والتى لم توجد فى المسند . كما أن المحدثين قد يختلفون فى درجة الحديث كاختلاف الفقهاء فى الاحكام الشرعية الظنية .

ثانيا : وذهب قوم الى أن فيه الصحيح والضعيف والموضوع ، ومن هؤلاء : ابن الجوزى فقد ذكر فى موضوعاته تسعة وعشرين حديثا من مسند الامام أحمد ، وحكم عليها بالوضع أيضا ورد على من قال : أن أحمد شرط الصحيح فى مسنده وبين أن المراد بكلام الامام أحمد هو أن ما ليس فى المسند فليس بحجة لا أن جميع ما فيه حجة .

ثالثا : وذهب قوم الى أن فى المسند الصحيح والضعيف الذى يقرب من الحسن وممن ذهب الى ذلك الذهبى وابن حجر والسيوطى ، وتعقبوا ابن الجوزى والعراقى فيما زعماه من وجود أحاديث موضوعة ، فذكروا لها شواهد ودافعوا عنها ، ولم يسلم ابن حجر الا بثلاثة أو أربعة أحاديث لا أصل لها ، منها حديث عبد الرحمن بن عوف أنه يدخل الجنة زحفا ، وقيل فى الاعتذار عنه : أنه مما أمر أحمد بالضرب عليه فترك سهوا ، أو ضرب وكتب من تحت الضرب . وهذا هو الحديث المذكور :

---

(٣٩) مقدمة المسند ص ٢٠ بتحقيق الأستاذ / شاكر .

(٤٠) الباعث الحثيث ص ١٨٦ .

قال الامام أحمد أنا عبد الصمد بن حسان أنا عمارة عن ثابت عن أنس قال : بينما عائشة فى بيتها سمعت صوتا فى المدينة فقالت ما هذا ؟ فقالوا عير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل كل شىء قال وكانت سبعمائة بعير فارتجت المدينة من الصوت فقالت عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال إن استطعت لأدخلنها قائما فجعلها فى سبيل الله عز وجل بأقتابها وأحمالها . وهذا الحديث أورده ابن الجوزى فى الموضوعات وقال:قال أحمد هذا الحديث كذب منكر قال وعمارة يروى أحاديث مناكير وقال أبو حاتم الرازى عمارة بن زاذان لا يحتج به . انتهى .

وقد أجاب عن هذا الحديث ابن حجر بقوله : « حديث[41] أنس عن عائشة فى قصة عبد الرحمن بن عوف لم ينفرد به عمارة الراوى المذكور فقد رواه البزار من طريق أغلب بن تميم عن ثابت البنانى بلفظ : أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى عبد الرحمن بن عوف والذى نفس محمد بيده لن يدخلها الا حبوا . قلت : « وأغلب » شبيه بعمارة بن زاذان فى الضعف لكن لم أر من اتهمه بالكذب . وقد رواه عبد بن حميد فى مسنده أتم سياقا من رواية أحمد . قال عبد بن حميد فى مسنده حدثنا يحيى بن اسحاق ثنا عمارة بن زاذان عن ثابت عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف لما هاجر آخى النبى ﷺ بينه وبين عثمان بن عفان فقال له إن لى حائطين فاختر أيهما شئت فقال بارك الله لك فى مالك ما لهذا أسلمت دلنى على السوق قال فدله فكان يشترى السمنة والإقط والاهاب فجمع فتزوج فأتى النبى ﷺ فقال له : بارك الله لك أو لم ولو شاة قال فكثر ماله حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر وتحمل الدقيق والطعام فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجة فقالت عائشة ما هذه الرجة فذكر الحديث . وفيه من النكارة أيضا إخاء عبد الرحمن لعثمان والذى فى الصحيحين أنه سعد بن الربيع وهو الصواب والذى أراه أنه يكفينا شهادة الامام أحمد بأنه كذب وأولى ما يحمل عليه أن نقول هو من الاحاديث التى أمر الامام أحمد أن يضرب عليها فإما أن يكون الضرب ترك سهوا وأما أن يكون بعض من كتبه عن عبد الله كتب الحديث وأخل بالضرب والله أعلم »أ . هـ .

ويرى ابن تيمية : أن فى بعض أحاديث المسند ضعفا من حيث الاصطلاح ، ولكنه لا يسلم أن فيه موضوعا برواية أحمد ، وما يظهر أنه موضوع فهو من زيادات القطيعى راويه وقد ألف ابن حجر كتابه، « القول المسدد فى الذبِّ عن المسند » وسرد فيه

---

(٤١) القول المسدد ص ٢٥ .

الأحاديث التى جمعها العراقى وحكم عليها بالوضع ، وهى تسعة ، وأضاف اليها خمسة عشر حديثا أوردها ابن الجوزى فى الموضوعات وهى فيه وأجاب عنها حديثا حديثا ، ويقول السيوطى « وقد فاته أحاديث أخر أوردها ابن الجوزى وهى فيه ، وجمعتها فى جزء سميته (الذيل الممهد) مع الذب عنها . وعدتها أربعة عشر حديثا »[٤٢] .

وقد أجاب ابن حجر - فى دفاعه عن الاحاديث التى أوردها ابن الجوزى - أجابة اجمالية أولا ، ثم تناول الأحاديث بعد ذلك بالتفصيل ، **أما الاجابة الاجمالية** : فبين فيها أن الأحاديث المذكورة « ليس فيها شىء من أحاديث الأحكام فى الحلال والحرام والتساهل فى إيرادها مع ترك البيان بحالها شائع ، وقد ثبت عن الامام أحمد وغيره من الأئمة انهم قالوا : اذا روينا فى الحلال والحرام شددنا واذا روينا فى الفضائل ونحوها تساهلنا وهكذا حال هذه الأحاديث »[٤٣] .

وأما الاجابة التفصيلية : فلنضرب مثلا عليها بحديث من الأحاديث التى كان الحق فيها مع الحافظ ابن حجر ، بل وأخرجه الامام مسلم فى صحيحه :

قال الامام احمد : حدثنا أبو عامر نا أفلح بن سعيد نا عبد الله بن رافع سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن طالت بك مدة أوشك أن ترى قوما يغدون فى سخط الله عز وجل ويروحون فى الفتنة فى أيديهم مثل أذناب البقر[٤٤] ذكره أبن الجوزى فى الموضوعات باسناد المسند أيضا ، ونقل عن ابن حبان أنه قال : « إن هذا الخبر باطل » ، وأفلح « كان يروى عن الثقات الموضوعات » وهذا الحديث أخرجه مسلم عن جماعة من مشايخه عن أبى عامر العقدى بهذا وأخرجه من وجه آخر وقال ابن حجر : ولم أقف فى كتاب الموضوعات لابن الجوزى على شىء حكم عليه بالوضع وهو فى أحد الصحيحين غير هذا الحديث ، وإنها لغفلة شديدة منه ، « وأفلح » المذكور يعرف بالقبائى مدنى من أهل قباء ثقة مشهور ، وثقه ابن معين وابن سعد ، وقال ابن معين أيضا والنسائى : لا بأس به وقال أبو حاتم شيخ صالح الحديث . وأخرج له مسلم فى صحيحه . وقد روى عنه عبد الله بن مبارك ، وطبقته . ولم أر للمتقدمين فيه كلاما الا أن العقيلى قال : لم يرو عنه ابن مهدى وقال ابن حجر : وليس هذا بجرح ، وقد غفل ابن حبان فذكره فى الطبقة الرابعة من

---

(٤٢) تدريب الراوى ص ١٠١ .

(٤٣) القول المسدد لابن حجر ص ١١ .

(٤٤) رواه الامام أحمد فى المسند جـ ٢ ص ٢٠٨ رقم ٨٠٥٩ والامام مسلم فى صحيحه جـ ٢ ص ٣٥٥ .

الثقات وقد أخطأ ابن الجوزى فى تقليده لابن حبان فى هذا الموضوع خطأ شديدا وغلط ابن حبان فى « أفلح » فضعفه بهذا الحديث وعقبه بأن قال : هذا بهذا اللفظ باطل والمحفوظ عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة بلفظ : « اثنان من أمتى لم أرهما : رجال بأيديهم سياط مثل أذناب البقر ونساء كاسيات عاريات » وتعقب الذهبى فى الميزان كلام ابن حبان هذا فقال : « حديث أفلح حديث صحيح غريب ورواية سهيل شاهدة له وابن حبان ربما جرح الثقة » وقد صححه من طريق أفلح أيضا الحاكم فى المستدرك وصححه من طريق سهيل عن أبيه عن أبى هريرة قال حدثنا أبو خيثمة ثنا جرير عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » وأخرج البيهقى فى دلائل النبوة من طريق الحسن بن سفيان عن محمد بن عبد الله بن نمير ثنا زيد بن الحباب حدثنا أفلح بن سعيد فذكره ولفظه : « يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوما فى أيديهم مثل أذناب البقر يغدون فى غضب الله ويروحون فى سخطه » قال البيهقى رواه مسلم عن محمد بن عبد الله بن نمير وهو كما قال : قال ابن حجر : « فلقد أساء ابن الجوزى لذكره فى الموضوعات حديثا من صحيح مسلم[٤٥] أ . هـ .

وهذا الذى قدمناه نموذج لاجابة ابن حجر التفصيلية على الأحاديث التى أوردوها بين الموضوعات وقد رأينا الى أى حد كان ابن حجر موفقا فى دفاعه .

وخلاصة الآراء :

١ - أن العلماء يقررون فى شبه اتفاق على أن فى المسند الضعيف لأن الامام أحمد كان يروى عمن لا يعرف بالكذب ، ويروى عمن ضعف حفظه ويعتضد به .

٢ - يرى البعض أن المسند ليس فيه موضوع قط وممن ذهب الى ذلك الحافظ أبو موسى المدينى وأبو العلاء الهمدانى ونحوهما .

٣ - ويرى البعض أن فى المسند الأحاديث الموضوعة كأحاديث فضائل مرو وعسقلان وغير ذلك . وهؤلاء يختلفون : هل هى برواية أحمد أم لا ؟ فيرى البعض : ان المسند ليس فيه موضوع برواية أحمد ، وإنما هو من زيادة القطيعى . ويرى البعض الآخر

---

(٤٥) القول المسدد ص ٣٣ .

أن فى المسند الموضوع برواية أحمد أو ابنه وممن ذهب الى ذلك العراقى وقد رد عليه ابن حجر كما سبق .

والذى أرجحه هو أن بعض الاحاديث كان الحق فيها مع الحافظ ابن حجر ، وهى لا تصل الى حد أن يحكم عليها بالوضع ، وأن البعض الآخر تكلف الحافظ فى الرد عليهما ، ويدل على ذلك رجوعه فى الرأى وحكمه بالوضع على بعض الأحاديث .

ويمكن التقريب بين الآراء فى درجة أحاديث المسند بحيث لا يكون هناك اختلاف كبير بينهما وذلك بإرجاع الرأيين : الأول والثانى إلى الثالث .

فمن قال بأن فى المسند بعض الأحاديث الموضوعة نظر الى زيادات القطيعى وعبد الله ، ومن قال : بأن ما فيه صحيح يحتج به لا يتنافى قوله مع وجود الضعيف ، لأن الضعيف دائر بين الحسن لذاته والحسن لغيره .

واذا كنا قد وقفنا الآن على النقد القديم ، فلننظر بعد ذلك الى النقد الحديث الذى وجه الى المسند ، ثم نرد عليه . . .

الطعن فى مسند الامام أحمد بن حنبل والرد عليه

وقد طعن (أبو رية) فى مسند الامام أحمد وغيره من كتب المسانيد ، وذلك فى كتابه : أضواء على السنة المحمدية حيث يقول فى صفحة « ٣٢٢ » : (واننا لم نعرض لهذا الكتاب ـ يعنى مسند الامام أحمد ـ ولا الى غيره من كتب المسانيد بالتفصيل وهى كثيرة ، الا لأن العلماء قد تكلموا فيها ، وقضوا بأنه لا يسوغ الاحتجاج بها ولا التعويل عليها ، على أننا قد رأينا أن نتكلم عن مسند أحمد الذى هو أشهرها ، لنبين للمسلمين حقيقته ، ونكشف عن درجته) وفى خلال عرضه للدليل على دعواه الزائفة ينقل كلام الشيخ طاهر الجزائرى فى كتاب (توجيه النظر) حيث قال : « وكتب المسانيد هى ما أفرد فيها حديث كل صحابى على حدة من غير نظر للأبواب وقد جرت عادة مصنفيها أن يجمعوا فى مسند كل صحابى ما يقع لهم من حديثه صحيحا أو سقيما ، ولذلك لا يسوغ الاحتجاج بما يورد فيها مطلقا »[٤٦] أ . هـ .

---

(٤٦) توجيه النظر ص ١٥٣ .

والحق أن كتب المسانيد دون كتب السنن فى الرتبة ، وهذا لا خلاف فيه ، ولا ينكره أحد ولكن دعوى أن الأئمة لا يحتجون بما فى كتب المسانيد ، ولا يعولون عليها ، فهذا هو الجهل الفاضح ، والظلم بعينه ، والتجنى على هـذه الكتب تجنيا لا يـرضاه ذو عقيـدة صحيحة .

ومن الواضح أن قولهم : (لا يحتج بما ورد فيها مطلقا) مراد به انه لا يحتج بكل حديث منها لأنها تجمع بين الصحيح والحسن والضعيف ، والعلماء إنما يحتجون بالصحيح والحسن دون الضعيف ولهذا كان الواجب البحث عن درجة أحاديث المسند ، والتأكد من صلاحيتها للاحتجاج . ومن المعلوم أن معظم الأحاديث التى دونت فى مسند الإمام أحمد مما يصح الاحتجـاج بها ، لأنها إمـا صحيحة ، أو حسنـة ، وفيـه أحـاديث كثيـرة فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنة المعروفة ، ومما يشهد لمسند الامام أحمد بالفضل وأنه اشتمل على كثير من أحاديث الصحيحين ما قاله الحافظ الفقيه محمد اليونينى حين سئل : أأنت تحفظ الكتب الستة ؟ فقال : أحفظها وما أحفظها ، فقيل له : كيف هذا ؟ فقال : « أنا أحفظ مسند أحمد وما يفوت المسند من الكتب الستة إلا قليل فـأنا أحفـظها بهـذا الوجه »[٤٧] نعم ، فى المسند أحاديث ضعيفة ، بل وموضوعة على ندرة إلا أن أغلب تلك الأحاديث إنما هى من زيادات عبد الله ابن الامام ، وزيادات أبى بكر القطيعى راوٍيه ، وهى مع ذلك قليلة ، وفى الفضائل فقط لا فى الاحكام ، ولهذا فهى لا تؤثر على درجة المسند ، ولا تنقص من قيمته الجليلة فى نفوس الأئمة والعلماء ، وبهذا يرد ما أثير حول المسند من دعاوى زائفة تدل على خبث نية أصحابها وسوء طويتهم ، وتتضح لنا درجة المسند من الصحة وأنه مرجع وثيق لأصحاب الحديث كما قال الامام الحافظ الكبير أبو موسى المدينى : (وهذا الكتاب ـ أى المسند ـ أصل كبير ومرجع وثيق لأصحاب الحديث انتقى من حـديث كثير ومـوسوعـات وافرة فجعله إمـاما ومعتمـدا وعند التنـازع ملجأ ومستندا) . أ هـ .

منهج الامام أحمد فى الأخذ بالأحاديث الضعيفة

كان الامام أحمد لا يروى فى المسند عمن عرف بالكذب وإنما يروى عن الثقـات العدول ولا يرد حديثا لنقد فى متنه الا اذا عارضه حديث غيره أقوى منه . ومن المعلوم أن الأحاديث فى عصر الامام أحمد وقبل الترمذى تنقسم الى أحاديث :

---

(٤٧) مقدمة الفتح الربانى ص ٩ للاستاذ عبد الرحمن الساعاتى .

١ ـ صحيحة تتوافر فيها شروط الصحة فتكون مقبولة .

٢ ـ والى احاديث ضعيفة لا تتوافر فيها هذه الشروط وعلى ذلك يدخل فى الفرع الثانى الحديث الحسن كما يدخل الحديث الضعيف الذى ارتفع الى درجة الحسن بتعدد الطرق . قال ابن تيمية فى ذلك : أول من عرف أنه قسم الحديث الى صحيح وحسن وضعيف أبو عيسى الترمذى ولم تعرف هذه القسمة عن أحد قبله وقد روى عن الامام أحمد أنه كان يعمل بالحديث الضعيف ويجعل منزلته فى العمل بعد فتاوى الصحابة وأن المسند فيه الاحاديث الضعيفة وأن الامام أحمد كان يقبل الرواية على الضعفاء اذا لم يعرفوا بالكذب فيروى عمن لم يشتهر بالضبط كأبن لهيعة وغيره ممن لا يكذبون ، ويعرفون بالصلاح .

وكان الضعيف عندهم نوعين : ضعيف ضعفا لا يمنع العمل به وهو يشبه الحسن فى اصطلاح الترمذى ، وضعيف ضعفا يوجب تركه وهو الواهى . وقبل بيان منهج الامام أحمد فى الأخذ بالأحاديث الضعيفة أبين مذاهب العلماء فى العمل بها :

١ ـ مذهب كبار الحفاظ والمحدثين كالبخارى ومسلم وهو أنه لا يعمل بالأحاديث الضعيفة مطلقا لا فى الأحكام ولا للاعتبار والمواعظ ووجهتهم فى ذلك : أن أمور الدين لا تأخذ الا من كتاب الله تعالى أو من سنة رسوله عليه الصلاة والسلام الصحيحة أما الاحاديث الضعيفة فغير صحيحة والأخذ بها إنما هو زيادة فى الشرع على غير علم بل إنه يعتبر منهيا عنه أخذا من قوله تعالى « ولا تقف ما ليس لك به علم » فالخير إذاً أن يقول الانسان برأيه فيما لم يرد فيه نص حتى اذا اعتراه خطأ كان منسوبا الى رأيه لا الى الرسول ﷺ ولذا لم يأخذوا بالضعيف من الأحاديث الا اذا رويت من وجوه متعددة ترفعها الى درجة الحسن .

٢ ـ مذهب بعض علماء الفقه والأثر : وهو أنه يعمل بالأحاديث الضعيفة فى الفضائل : روى عن عبد الرحمن بن مهدى كما أخرجه البيهقى إذا روينا عن النبى ﷺ فى الحلال والحرام والاحكام شددنا فى الاسانيد وانتقدنا فى الرجال واذا روينا فى الفضائل والعقاب سهلنا فى الاسانيد وتسامحنا فى الأحاديث . وروى مثل هذا القول عن الامام أحمد وبذلك تتضح وجهة نظرهم فى أن الحديث الضعيف اذا لم يترتب عليه حكم بالحلال والحرام يتساهلون فيه .

٣ ـ مذهب الامام أحمد وأبى داود وهو العمل بالحديث الضعيف اذا لم يكن فى الباب حديث صحيح أو حسن أو فتوى صحابى . هذا وقد اشترط الحافظ ابن حجر فى الأخذ بالأحاديث الضعيفة ثلاثة شروط :

الأول : أن يكون الضعف بسيطا غير شديد وهذا الشرط متفق عليه .

الثانى : أن يدخل تحت أصول معمول بها حتى لا يكون غريبا عن قواعد الاسلام .

الثالث : ألا يعتقد ثبوته بل يحتاط للحديث لاحتمال أن تصح نسبته الى النبى ﷺ . تلك هى آراء العلماء فى العمل بالحديث الضعيف وهذا ما اشترطه الحافظ ابن حجر فى الأخذ بها .

أما الامام أحمد بن حنبل فانه من الذين يذهبون إلى الأخذ بالأحاديث الضعيفة ويقدمونها على الرأى الا أنه لا يجعل الحديث الضعيف فى مرتبة الصحيح وانما يؤخره عن فتوى الصحابى فيقول فى هذا . لا تكاد ترى أحدا ينظر فى الرأى الا وفى قلبه غل والحديث الضعيف أحب الى من الرأى . وقال عبد الله : سألته عن الرجل الذى يكون ببلد لا يجد فيه إلا صاحب حديث لا يدرى صحيحه من سقيمه وصاحب رأى فمن يسأل ؟ قال يسأل صاحب الحديث ولا يسأل صاحب الرأى(٤٨) .

ولقد دون الامام أحمد فى مسنده ضمن ما دون بعض الأحاديث الضعيفة لأنه أراد من المسند أن يكون جامعا لكل ما روى عند أهل عصره فكان يدون كل ما يتلقاه اذا لم يثبت أن هناك ما يخالفهم متقيدا فى ذلك بالشروط التى اشترطها العلماء فى الأخذ بالحديث الضعيف . وقد قرر ابن تيمية أن الحديث الضعيف فى نظر أحمد والذى يقبله هو من قبيل الضعف الذى يرتفع الى مرتبة الحسن وأن أحمد كـان يعتبر الضعيف قسيم الصحيح ولا يعتبر الحسن الا ضعيفا ويقبله بهذا الاسم ، ويقول فى ذلك : وأما قولنا أن الحديث الضعيف خير من الرأى فليس المراد به الضعيف المتروك ولكن المراد به الحسن ، وكان الحديث فى اصطلاح من قبل الترمذى إما صحيح وإما ضعيف والضعيف نوعان ضعيف متروك وضعيف ليس بمتروك وتكلم أئمة الحديث بهذا فلما جاء من لا يعرف الا اصطلاح الترمذى فسمع قول بعض الأئمة الحديث الضعيف أحب الى من القياس فظن أنه يحتج بالحديث الذى يضعفه مثل الترمذى (أ . هـ) . فرأى أبن تيمية اذا : ان الضعيف الذى يقبله أحمد هو من القسم المسمى بالحسن الا أن فى المسند من الأحاديث ما ليس محكوما عليه بأنه من قبيل الحسن بل من قبيل الضعف حتى فى اصطلاح الترمذى ومن بعده ، ومثل ذلك إنما يقدمه الامام أحمد احتياطا فى الدين لاحتمال صحة نسبته الى النبى ﷺ ، ذلك أنه حين لا يجد حديثا صحيحا فى موضوع الفتوى وليس أمامه غير الحديث الضعيف

(٤٨) ابن حنبل : الأستاذ أبو زهره ص ٢٣٩ .

يرى نفسه بين حرجين : فهو إما أن يفتى برأيه وهذا ما يكرهـه ، ولا يلجأ إليـه إلا فى الضرورة القصوى رجاء أن يكون الرأى صوابا ، أما إن أخطأ فنسبة الخطأ تعود عليه ، وإما أن يأخذ بضعيف الاخبار فيكون فيه مدعاة للحكم بصحة نسبته فيثبت الى الرسول ﷺ قولا لم يثبت بطريق سليم ، اذا كان يتخذ موقفا وسطا فعمل بموجب الحديث الضعيف حيطة فى الدين واحتمالا للصدق دون أن يحكم بصحة نسبته ، ويقول فى ذلك : انـه ضعيف وأنه مع ضعفه أحب عندى من الرأى »[٤٩] .

---

(٤٩) مقدمة الفتح الربانى ص ٩ .

الفصل الثانى

ويشتمل على بحثين :

البحث الأول : الصحيحـــان .

البحث الثانى : السنن الأربعة .

ولنبدأ بالتعريف بشيخ الحفاظ وصاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى ألا وهو :

الامام البخارى

نسبه ونشأته :

هو أمير المؤمنين فى الحديث الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة[1] الجعفى ولاء حيث أسلم جده المغيرة على يـد اليمان الجعفى والى بخارى فانتمى اليه بالولاء ، البخارى مولدا .

ولد أبو عبد الله بمدينة بخارى احدى مدن ما وراء نهر جيحون على بعد ثمانية أيام من سمرقند من بلاد فارس وهذه المدينة الآن تتبع الاتحاد السوفيتى .

وكانت ولادة البخارى بها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة من الهجرة[2] . وكان والده ورعا تقيا ومحدثا فاضلا . كما كان ثقة ترجم له ابن حبان فى كتاب الثقات كما ترجم له ولده فى التاريخ الكبير . وقد خرج إسماعيل حاجا قبل سنة ١٧٩ هـ وتقابل مع امام المدينة مالك بن أنس وحدث عن أبى معاوية بن صالح وجماعة وروى عنه أحمد بن حفص وغيره من العراقيين وبلغ اسماعيل فى ورعه درجة عالية ، فكان يبتعد عن الشبهات وثروته الطائلة التى جمعها نقية خـالصة استثمـرها فى

---

(١) بردزبة : كلمة فارسية معناها الزراع أى الفلاح أو البستانى .

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٧٦ ومقدمة فتح البارى ص ٤٧١١ .

الخيرات روى عنه أحمد بن حفص قال : دخلت عليه عند موته فقال : لا أعلم فى جميع مالى درهما من شبهة ، فتصاغرت الى نفسى[3] وفى بيئة الطهر والـورع والدين والـدنيا استقبل بيت الحديث والنعمة محمد بن اسماعيل وقد لبث الوالد قرير العين بابنه الى أن عاجلته المنية فترك ابنه طفلا صغيرا فكفلته أمه وقامت بتربيته ورعايته وعقدت عليه اسمى الآمال ، ثم وجهته الى التعليم لينسج على منوال أبيه ويستفيد مما خلفه من ثروة العلم فاتجهت به إلى الكتاب ليحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف وما أن بلغ البخـارى العاشرة من عمره إلا وألهمه الله حفظ الحديث الشريف فى هذه السن المبكرة مما يدل على ما وهبه الله له من قدرة فائقة فى الحفظ وقريحة وقادة فيه ، يقول محمد بن أبى حاتم وراق البخارى : سمعت البخارى يقول : ألهمت حفظ الحديث وأنا فى الكتاب فقلت كم أتى عليك اذ ذاك ؟؟ فقال عشر سنين أو أقل[4] ولهذا النبوغ الهائل انطلق البخارى فى سن الحادية عشرة قاصدا أئمة الحديث لينهل من مواردهم يساعـده على ذلـك عقلية واعيـة وحافظة قوية ومما يدل على نبوغه العلمى ما تحدث به عن نفسه فى هذه المرحلة : (ثم خرجت من الكتاب فجعلت اختلف الى الداخلى وغيره فقال يوما فيما كان يقرأ الناس : سفيان عن أبى الزبير عن ابراهيم فقلت : إن أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم فانتهرنى فقلت له : ارجع إلى الأصل إن كان عندك فدخل فنظر فيه ثم رجع فقال كيف هو يا غلام ، فقلت : هو الزبير وهو ابن عدى بن ابراهيم ، فأخذ القلم وأصلح كتابه ، وقال لى : صدقت ، قال : فقال له انسان ابن كم حين رددت عليه ؟؟ فقال : ابن احدى عشرة سنة)[5] .

منهج البخارى فى طلب الحديث :

ينحصر منهج البخارى فى طلب الحديث فى أمور ثلاثة الأول : العنايـة بالسنـد والمتن ، والثانى : رحلاته العلمية ، والثالث : حفظه ومعرفته بعلوم الحديث .

١ـ العناية بالسند والمتن : أما بالنسبة للاول فمنذ اتجه البخارى الى طلب الحديث وهو يعنى بالاسناد فعرف الرجال وتواريخهم وأحوالهم ، وعنى بالمتن وأصوله وكان لا يروى الموقوف الذى روى عن الصحابى أو المقطوع الذى وقف على التابعى الا اذا كان له أصل

(٣) الطبقات الكبرى لابن السبكى جـ ٢ ص ٢١٣ .
(٤) النكت لابن حجر ص ٧ مخطوط بمكتبة الأزهر .
(٥) مقدمة فتح البارى ص ٤٧٩ ، الطبقات الكبرى لابن السبكى جـ ٢ ص ٢١٦ .

من القرآن الكريم أو السنة الصحيحة المسندة يقول سليم بن مجاهد كنت عند محمد بن سلام البيكندى فقال : لوجئت قبل لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث فخرجت حتى لحقته فقلت له : أنت تحفظ سبعين ألف حديث ؟ قال نعم وأكثر ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين الا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ولست أروى حديثا من حديث الصحابة والتابعين إلا ولى من ذلك أصل أحفظه من الكتاب أو السنة[٦] . وهكذا هيأته عناية الله وتوفيقه لسلوك طريق العلم منذ صغره على أساس متين مع الاستعداد الفطرى والعقلية الحادة مما جعل لمروياته الثقة المتوفرة كما أعانه على تحصيل العلم واستيعابه ما تركه والده من التراث العلمى النافع فظل يحفظ ويناقش ويطلب العلم حتى ذاع صيته وأصبح موضع الاعجاب من شيوخه ، وما أن بلغ من عمره ست عشرة سنة الا وحفظ كتب ابن المبارك ووكيع وعرف مذاهب أهل الرأى وكلامهم .

٢ - **رحلاته العلمية** : أما عن رحلات البخارى فى طلب العلم فقد كابد الاخطار فى رحلاته وبذل كثيرا من الجهود المضنية فى طلب العلم وتحرى الاحاديث الصحيحة ولم يكتف البخارى فيما يرويه على ما جمعه من أحاديث بلده الذى يعيش فيه وإنما هاجر ورحل الى كثير من البلاد يجالس المحدثين والحفاظ ليأخذ عنهم ويسمع منهم ولم يأل جهدا فى استيعاب ما عند المحدثين حتى جمع الكثير من الحديث . وقد حفزه الى الرحلة ما وفقه الله تعالى اليه من إلهامه الصواب وتذليل طرق البحث والتعليم ، وما كان يستشعره فى نفسه من نهم علمى وطموح مبكر وتوجيه سديد . وقد ابتدأ البخارى رحلته بمكة المكرمة مهبط الرسالة ليؤدى فريضة الحج فخرج هو وأمه وأخوه أحمد سنة عشرة ومائتين ٢١٠ هـ وأقام البخارى بمكة يطلب العلم ورجع أخوه أحمد الى بخارى ، وفى مكة سمع من أبى الوليد أحمد بن محمد الارزقى واسماعيل بن سالم الصايغ ثم اتجه بعد ذلك الى المدينة المنورة دار الهجرة ، وفى رحاب المسجد النبوى وبجوار صاحب الرسالة ﷺ بدأ البخارى تأليف ما وفقه الله اليه فصنف قضايا الصحابة والتابعين ثم صنف التاريخ الكبير قال البخارى : فلما طعنت فى ثمانى عشرة صنفت كتاب قضايا الصحابة والتابعين ثم صنفت التاريخ فى المدينة عند قبر النبى ﷺ وكنت أكتبه فى الليالى المقمرة وقل اسم فى التاريخ الا وله عندى قصة الا أنى كرهت أن يطول الكتاب « أ . هـ »[٧] .

ومكث البخارى فى المدينة سنة ثم رحل بعدها الى البصرة وأقام بها خمس سنين وكان

(٦) الطبقات الكبرى لابن السبكى جـ ٢ ص ٢١٨ .
(٧) هدى السارى ص ٤٧٩ .

يتردد منها على مكة أيام الحج يقول البخارى (دخلت الى الشام ومصر والجزيرة مرتين وإلى البصرة أربع مرات وأقمت بالحجاز ستة أعوام ولا أحصى كم دخلت الى الكوفة وبغداد مع المحدثين »[٨] . وهكذا طوف البخارى فى سبيل العلم فى اقطار شتى فمن مكة الى المدينة والشام وبغداد والبصرة والكوفة ومصر وبخارى ومرو ونيسا بور وقيسيارية وعسقلان وحمص وخراسان وكان لهذه الجهود التى بذلها من الأهمية ما يعطينا الثقة الكاملة بمروياته يقول البخارى كتبت عن ألف شيخ أو أكثر ما عندى حديث لا أذكر اسناده[٩] .

٣ - **حفظه ومعرفته بعلوم الحديث** : تميز البخارى منذ صغره بمواهب عظيمة منحه الله إياها فكان لديه الاستعداد الفطرى الذى فطره الله عليه : حافظة قوية وعقلية صافية وعمل دائب فلا غرو أن كان فى حفظه ومعرفته بعلوم الحديث آية بهرت العقول وقد سلك فى دراسته أدق الطرق وأسماها فكان ينمى ما عنده من القدرات بالجد والاجتهاد والمداومة على المذاكرة ، يقول البخارى : موضحا المنهج السليم للحفظ (لا أعلم شيئا أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر)[١٠] كما كان يستعين على تثبيت المعلومات بربطها بما يحيط بها كما كان يربط بين أقوال الصحابة والتابعين وبين الكتاب والسنة حتى يتضح القول فى ذهنه من جميع الجوانب فسبق علماء النفس بهذا المنهج التربوى فى الدراسة . ومما يشهد البخارى بسعة حفظه ومعرفته بعلوم الحديث مارواه أحمد بن الحسين الرازى قال : سمعت أبا أحمد بن عدى الحافظ يقول : سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون أن محمد بن اسماعيل البخارى قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا به وأرادوا امتحان حفظه فعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر واسناد هذا المتن لمتن آخر ودفعوها الى عشرة أنفس لكل رجل عشرة أحاديث وأمروهم اذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى وأخذوا عليه الموعد للمجلس فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث .

فقال البخارى لا أعرفه ، فما زال يلقى عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ والبخارى يقول لا أعرفه وكان العلماء ممن حضروا المجلس يلتفت بعضهم الى بعض ويقولون فهم الرجل ومن كان لم يدر القصة يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الحفظ ثم انتدب

---

(٨) المرجع السابق .

(٩) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٠ .

(١٠) هدى السارى ص ٤٨٨ .

رجل من العشرة أيضا فسأله عن حديث من الاحاديث المقلوبة فقال : لا أعرفه فسأل عن آخر فقال : لا أعرفه فلم يزل يلقى عليه واحدا واحدا حتى فرغ والبخارى يقول لا أعرفه ، ثم الثالث والرابع الى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الاحاديث المقلوبة والبخارى لا يزيدهم على (لا أعرفه) فلما علم أنهم قد فرغوا التفت الى الأول فقال اما حديثك الأول فقلت كذا : وصوابه كذا وحديثك الثانى كذا وصوابه كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه وفعل بالاخرين مثل ذلك فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل[١١] . يقول ابن حجر هنا يخضع للبخارى فما العجب من رد الخطأ الى الصواب ؟ فانه كان حافظا بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة وفى هذا الامتحان الصعب الذى اجتازه البخارى بنجاح باهر ما يدل على قوة ذاكرته ، وبلوغه فى الاحاطة بالحديث حدا لم يصله سواه حتى أقر له الجميع بالامامة والفضل . وكان البخارى حجة فى معرفة علوم الحديث ولم يتصدر للتحديث الا بعد احاطته بالصحيح من السقيم كما قال (ما جلست للتحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم وحتى نظرت فى كتب أهل الرأى) . وهكذا تتضح شخصيته العلمية متكاملة الجوانب فى مجال السنة المطهرة ، يجمع بين حفظ الأسانيد والمتون والاحاطة الدقيقة بعلل الحديث مما جعله مرجعا لكبار العلماء . قال أحمد بن حمدون الحافظ (رأيت البخارى فى جنازة ومحمد بن يحيى الذهلى يسأله عن الاسماء والعلل والبخارى يمر فيه مثل السهم كأنه يقرأ هو الله أحد)[١٢] . وقد شهد الامام مسلم للبخارى بالسبق والامامة معترفا له بالفضل ، قال أحمد بن حمدون : جاء مسلم بن الحجاج الى البخارى فقبل بين عينيه ، وقال : (دعنى اقبل رجليك يا استاذ الاساتذة ويا سيد المحدثين وطبيب الحديث فى علله)[١٣] .

كما شهد له أيضا أبو عيسى الترمذى قال : (لم أر بالعراق ولا بخراسان فى معنى العلل والتاريخ ومعرفة الاسانيد أعلم من محمد بن اسماعيل)[١٤] كما شهد له أقرانه وشيوخه وأثنوا عليه عاطر الثناء ، فلا غرابة أن يلقب بأمير المؤمنين فى الحديث ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

---

(١١) هدى السارى ص ٤٨٧ ، ووفيات الاعيان جـ ١ ص ٥٧٦ .

(١٢) هدى السارى ص ٤٨٩ .

(١٣) البداية والنهاية جـ ١١ ص ٩٦ .

(١٤) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٢٧ .

شيوخ البخـــارى :

رسم البخـارى منهجا لنفسـه فى اختيار شيـوخـه الـذين يـأخـذ عنهم لا يتعـداه ولا يحيدون عنه فقد طاف بآفاق كثيرة يبحث عن أئمة الحديث واشترط على نفسه ألا يأخذ الحديث الا عن الرواة الثقات المعروفين بالورع ، واهتم بمعرفة احوالهم وكيفية تلقيهم للحديث فميز بين من كان محل ثقة كاملة فى نظر الأئمة المحدثين فيأخذ حديثه وبين من لم يكن محل ثقة فيترك حديثه . يقول البخارى : (كتبت عن ألف شيخ وأكثر ما عنـدى حديث الا وأذكر اسناده)[١٥] وفى هذا دلالة على احاطته الدقيقة وتحريه الشديد فى معرفة الرجال وتمييزهم فمن كان من الرواة فيه نظر ترك حديثه مهما كان عدد احاديثه ، سئل عن خبر حديث ، فقال : (يا أبا فلان اترانى ادلس ؟ تركت أنا عشرة آلاف حديث لرجل فيه نظر ، وتركت مثلها أو أكثر لغيره لى فيه نظر)[١٦] .

وكما تحرى الدقة فى معرفة الثقات وغيرهم فقد تحرى الدقة كذلك بالنسبة للاحاديث الصحيحة وغيرها فحفظ كثيرا من الاحاديث الصحيحة وغير الصحيحة ، وحفظه لغير الصحيحة إنما هو لتجنبها وتمييزها وتنقية الاحاديث الصحيحة منها .

وقد كان شيوخ البخارى من الكثرة بمكان بحيث يصعب استيعابهم أو تحديد بعض الشخصيات العلمية الذين كان لهم أثرهم فى تزكية مواهبه وتنمية ثروته العلمية لانه كان ذا رحلات واسعة متأثرا بجميع شيوخه الافاضل حتى تكونت شخصيته العلمية المستقلة ومن شيوخه **بمكة** : أبو الوليد أحمد بن محمد الارزقى واسماعيل بن سالم الصائـغ وأبو بكـر الحميـدى ، **وبالمدينة** : ابـراهيم بن المنذر الحـزامى ومطرف بن عبـد الله بن حمزة ، **وبالشام** : محمد بن يوسف الفريابى من اوائل من صنف المسانيد وأبو اسحاق بن ابراهيم وأبو ابراهيم وأبو اليمان بن نافع ، **وببخارى** : محمد بن سلام البيكندى ومحمد بن يوسف ابن محمد المسندى ، **وبمرو** : على بن الحسن بن شقيق وعبد الله بن عبد الله بن عثمان ومحمد بن يحيى الصائغ ، **وببلخ** : مكى بن ابراهيم ويحيى بن بشر وقتيبة بن سعيد ومن هراة أحمد بن الوليد الحنفى ، ومن **نيسابور** : يحيى بن يحيى التميمى وإسحاق بن راهويه ومحمد بن يحيى الذهلى ومن **الرى** : ابراهيم بن موسى ومن **بغداد** : أحمد بن حنبل ومحمد ابن سابق وابو بكر بن الاسود ومن واسط حسان بن عبد الله وسعيـد بن عبد الله بن سليمان ومن **البصرة** : أبو عاصم النبيل وأبو الوليد الطيالسى ومن **الكوفة** : عبد الله بن

---

(١٥) تهذيب التهذيب جـ ٢ ص ٤٧ .

(١٦) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٢٥ .

موسى وأبو نعيم بن يعقوب وبمصر عثمان بن صالح وسعيد بن كثير ويحيى بن عبد الله بن بكير وبالجزيرة : أحمد بن بن عبد الملك الحرانى وأحمد بن يزيد وعمر بن خلف ، وقد ميز الحاكم بين كل ناحية وسمى شيوخها من المتقدمين ليستدل على عالى اسناد البخارى[١٧]
واذا نظرنا الى مراتب شيوخ البخارى نرى انهم ينحصرون فى خمس طبقات :

الطبقة الاولى[١٨] : من حدثه عن التابعين مثل محمد بن عبد الله الانصارى حدثه عن حميد ومثل مكى بن ابراهيم حدثه عن يزيد بن أبى عبيد ، ومثل أبى عاصم النبيل حدثه عن يزيد بن أبى عبيد أيضا ومثل عبد الله بن موسى حدثه عن اسماعيل بن أبى خالد ومثل أبى نعيم حدثه عن الأعشى وشيوخ هؤلاء كلهم من التابعين .

الطبقة الثانية : قوم حدثوا عن أئمة حدثوا عن التابعين وهم شيوخه الذين روى عنهم عن ابن جريج ومالك وابن ابى ذئب فى الحجاز وشعبة والاوزاعى وطبقتها بالشام والثورى وحماد وأبى عوانة بالعراق ويعقوب بن عبد الرحمن بمصر وفى هذه الطبقة كثرة .

الطبقة الثالثة : قوم حدثوا عن قوم أدرك زمانهم وأمكنه لقيتهم ، ولكن لم يسمعهم كزيد بن هارون وعبد الرزاق .

الطبقة الرابعة : قوم فى عداد طبقته حدث عنهم عن مشايخه كأبى حاتم بن ادريس الرازى .

الطبقة الخامسة : قوم فى عداد طلبته فى السن والاسناد سمع منهم للفائدة كعبد الله ابن حماد وعبد الله بن أبى العاص الخوارزمى وحسين بن محمد القبانى وغيرهم وقد روى عنهم أشياء يسيرة وعمل فى الرواية عنهم بما روى عثمان بن أبى شيبة عن وكيع قال لا يكون الرجل عالما حتى يحدث عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه ، وعن البخارى أنه قال لا يكون المحدث كاملا حتى يكتب عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه[١٩] .
ولعل مرادهم بذلك زيادة العلم وكثرة التحديث والتمكن فربما يكون عند البعض ماليس عند الآخرين حتى ولو كانوا أدنى منهم .

ولتفصيل هذه الطبقات وبيانها فائدة هامة هى أنه يبتعد عن الالتباس والابهام عن

(١٧) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى جـ ٢ ص ٢١٤ .
(١٨) هدى السارى ص ٤٧٩ .
(١٩) هدى السارى ص ٤٨٠ .

الذى لا معرفة له اذا كان الحديث بإسناد عال مرة ونازل أخرى وبمعرفة الطبقات يمكن ادراك أن الاسناد العالى قد حذف منه أو الاسناد النازل قد زيد فيه[20] يقول ابن طاهر مبينا ذلك : لئلا يظن من لا معرفة له اذا حدث البخارى مثلا عن مكى عن يزيد بن أبى عبيد عن سلمة . ثم حدث فى موضع آخر عن قتيبة عن بكر بن مضر عن عمرو بن الحارث عن بكير بن عبد الله الأشج عن يزيد بن أبى عبيد عن سلمه أن الاسناد الاول سقط منه شىء وعلى هذا سائر الاحاديث إذ لو لم يعرف ذلك لوقع الإلتباس فى كثير من الاحاديث على من لا معرفة له « أ . هـ » .

ومن شيوخ البخارى الذين كان لهم أثرهم : الامام على بن المدينى والامام أحمد بن حنبل والإمام يحيى بن معين والامام اسحاق بن راهويه وسيأتى الحديث عنهم ان شاء الله .

من صفات الامام البخارى :

كان البخارى نحيف الجسم ليس بالطويل ولا بالقصير ويميل لونه الى السمرة[21] وقد جمع مع علمه كثيرا من محامد الفعال وكريم الخصال وعرف بالتقوى والورع ومكارم الاخلاق ، وبتلك المعانى النبيلة والمثل المشرقة التى استقاها من منابع السنة المطهرة احتل مكانة مرموقة بين علماء عصره فجمع بين الحسنيين : علما وعملا ، وكان كثير العبادة والتهجد بالليل وقراءة القرآن الكريم زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة . وذات يوم كان يصلى فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة فلما قضى صلاته قال انظروا أى شىء هذا الذى آذانى فى صلاتى ؟؟ فنظروا فاذا (الزنبور) قد ورمه فى سبعة عشر موضعا ولم يقطع صلاته وقال كنت فى آية فأحببت أن أتمها[22] وفى هذا ما يدل على مدى اتصاله بربه ولذة مناجاته فى صلاته مما لا يجعله ينصرف عن العبادة مهما كانت الاحوال . كما كان حسن المعاملة غاية فى الحياء وعفة اللسان وتحرى القول فى نقد الرجال ، يظهر ذلك واضحا لمن يتأمل كلامه فى الجرح والتعديل فيقول مثلا « سكتوا عنه » ، « فيه نظر » ، (تركوه) (ونحو هذا من العبارات التى يتبين منها دقته وتحريه ، ولذلك كان يقول انى لارجو أن القى الله ولا يحاسبنى أنى اغتبت احدا)[23] ومما اتصف به البخارى كذلك الكرم فقد ورث ثروة

---

(٢٠) البخارى محدثا وفقيها للدكتور الحسينى هاشم ص ٤٠ .

(٢١) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٤٩ .

(٢٢) المرجع السابق ص ٤٧ ، هدى السارى ص ٤٨١ .

(٢٣) هدى السارى ص ٤٨١ .

عظيمة انفق منها على طلبة العلم والفقراء وسائر وجوه البر يقول فى ذلك كنت استغل فى كل شهر خمسمائة درهم فأنفقها فى الطلب وما عند الله خير وأبقى[٢٤] وهكذا وطن البخارى نفسه على معانى النبل والفضيلة ، وكان حريصا على أن يدعو الى ما تحلى به من هذه الاخلاق ومن ذلك دعوته الى اغتنام الوقت فى العبادة والاتعاظ بالموت ومن أشعاره المأثورة فى ذلك .

أغتنم فى الفراغ فضل ركوع	..	فعسى أن يكون موتك بغته
كم صحيح رأيت من غير سقم	..	ذهبت نفسه الصحيحة فلته[٢٥]

كما وطن نفسه على تتبع الرسول ﷺ والتأسى به فى كل الجوانب فاقتدى به فى حب الجهاد والمهارة فى الحرب فأتقن الثقافة الحربية وتعلم استخدام آلات الحرب ، وحذق أساليب الجهاد فى عصره حتى قيل أنه ما أخطأ فى حياته إلا مرتين .

البخارى ومسألة اللفظ

وقدم البخارى نيسابور سنة خمسين ومائتين فاستقبله أهلها بالبشر والترحاب ومعهم شيخه الذهلى ولما دخل البلد نزل دار البخاريين فقال محمد بن يحيى : لا تسألوه عن شىء من الكلام فانه أن أجاب بخلاف ما نحن عليه وقع بيننا وبينه وشمت بنا كل ناصبى ورافضى وجهمى ومرجئى بخراسان[٢٦] وقال الذهلى اذهبوا الى هذا الرجل الصالح العالم فاسمعوا منه فأقبل أناس عليه حتى ظهر الخلل فى مجلس محمد بن يحيى ، فحسده بعد ذلك وتكلم فيه[٢٧] وكان لهذا الحسد نتيجته السيئة بعد ذلك التى عادت على البخارى ، قال أحمد بن عدى ذكر لى جماعة من المشايخ أن محمد بن اسماعيل لما ورد نيسابور واجتمع الناس عنده حسده بعض شيوخ الوقت فقال لأصحاب الحديث : أن محمد بن اسماعيل يقول لفظى بالقرآن مخلوق فلما حضر المجلس قام اليه رجل فقال يا أبا عبد الله ما تقول فى اللفظ بالقرآن مخلوق هو أو غير مخلوق ؟ فأعرض عنه البخارى ولم يجبه فلما ألح عليه قال البخارى القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة ، فشغب الرجل وقال قد قال لفظى بالقرآن مخلوق ، ومنذ حدوث هذا الشغب وزعمهم أنه قال

---

(٢٤) الطبقات الكبرى لابن السبكى جـ ٢ ص ١١ .

(٢٥) هدى السارى ص ٤٨٢ .

(٢٦) هدى السارى ص ٤٩١ .

(٢٧) تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٥٣ ، طبقات الشافعية لابن السبكى جـ ٢ ص ٢٢٨ .

بخلق القرآن حدث الجفاء والقطيعة بينه وبين شيخه الذهلى بصورة واضحة وساعد على ذلك ما كان فى النفوس البشرية من حسد ، فقال الذهلى من زعم : لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم ومن ذهب بعد هذا الى مجلسه فاتهموه ، فانقطع الناس عنه الا مسلم وأحمد بن سلمة ، فقال الذهلى ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا فأخذ مسلم بن الحجاج رداءه وقام على رؤوس الناس فبعث الى الذهلى جميع ما كان كتبه عنه على ظهر حمال[٢٨] .

وفى الحقيقة ان البخارى برىء من هذه التهمة وليس فيما رآه من عيب يؤخذ عليه لكنها العصبية العنيفة والتهييب الشديد من الكلام فى هذا الموضوع مما جعل القوم على هذه الصورة خاصة بعد ما نال أهل السنة وإمامهم أحمد بن حنبل من الفتنة . وما أثير حول البخارى إنما هو وليد الحسد ، واثارة هذه الفتنة قائمة على وجه غير صحيح وهـو عدم التفريق بين القرآن والقراءة ، وقد التزم البخارى منهج السلف فأعرض عن سـائله فى بادىء الامر . ولكنه تحت الالحاح بين أن السؤال فى ذلك بدعة وأجابه اجابة واضحة مبينا الفرق بين القرآن وهو قديم وبين التلفظ والنطق بالألسنة وبين الكتابة بالأيدى وكل ذلك حادث .

رجوعه الى بخـارى :

ولكن البخارى آثر السفر الى بلده « بخارى » خشية اشتعال هذه الفتنة ، وعندما عاد الى بلده استقبلوه استقبالا حارا وفرحوا بمقدمه ، ومكث فى بلده مدة يحدث الناس ويعلمهم وزاد الاقبال عليه ، وسوى بين الجميع فى طلب العلم فلم يخص بدرسه قوما دون الآخرين حتى ولو كان الأمير ، وعلى هذا المنهج عاش البخارى فى بلده حتى وقع بينه وبين أمير بخارى خالد بن أحمد الذهلى ما عكر الصفو وكان السبب المباشر فى ذلك هو اعتزاز البخارى بالعلم ، فقد بعث الامير الى البخارى أن يحمل اليه كتاب الجامع والتاريخ ليسمع منه فقال البخارى لرسوله قل له إنى لا أذل العلم ولا أحمله الى أبواب السلاطين فان كانت لك حاجة الى شىء منه فليحضرنى فى مسجدى أو فى دارى فان لم يعجبك هذا فأنت سلطان فأمنعنى من المجلس ليكون لى عذر عند الله يوم القيامة لأنى لا أكتم العلم[٢٩] فكان هذا هو السبب فى الجفاء والقطيعة بينهما وظل يترقب الامير ويتحين الفرص حتى وصله كتاب محمد بن يحيى الذهلى الذى واصل عداءه بما كتبه للولاة والعلماء بالتشنيع على

---

(٢٨) هدى السارى ص ٤٩٢ .

(٢٩) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٣٣ .

البخارى فى مسألة اللفظ واتهامه بالاعتزال كما كتب الى الامير خالد بن يحيى فانتهز الامير الفرصة للانتقام منه وصرف الناس عنه مستعينا بحديث ابن ابى الورقاء وغيره من أهل بخارى حتى تكلموا فى مذهبه فنفاه عن البلد فخرج الى « خرتنك » وهى قرية من قرى سمرقند « وكان له أقرباء بها فنزل عندهم »(٣٠) فاتفق أن مرض بها وتوفى ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين ودفن بعد ظهر يوم عيد الفطر بعد حياة حافلة بالعلم والعمل فرضى الله عنه وأرضاه .

وقد شهد للامام البخارى بالعلم والفضل والإمامة فى الحديث والفقه كثيرون لا يحصون من شيوخه وأقرانه وتلاميذه قال يعقوب بن ابراهيم الدورقى : محمد بن اسماعيل البخارى فقيه هذه الأمة وقال محمد بن بشار : هو أفقه خلق الله فى زماننا ، ولعظم مكانته فيهم ولشدة حبهم تمنوا أن يفدوه بأرواحهم . قال يحيى بن جعفر : لو قدرت أن أزيد فى عمر محمد ابن اسماعيل لفعلت فان موتى يكون موت رجل واحد وموت محمد ابن اسماعيل ذهاب العلم ، قال ابن حجر : ولو فتحت باب ثناء الأئمة عليه ممن تأخر عن عصره لفنى القرطاس ونفدت الانفاس فذاك بحر لا ساحل له أ هـ . وفى هذا ما يدل على ما كان عليه البخارى من مكانة عظيمة وتقدير بالغ بين عارفيه وجميع أهل عصره .

---

(٣٠) تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٥٢ ، مرآة الجنان لليافعى جـ ٢ ص ١٦٧ .

مؤلفات البخارى

كان للامام البخارى مجال فسيح فى التأليف يدل على أفقه العلمى الواسع ومعرفته الفائقة بأحوال الرواة فكتب فى كل ما يتصل بالسنة النبوية الشريفة ومن هذه المؤلفات :

١ـ الجامع الصحيح .
٢ـ الأدب المفرد .
٣ـ رفع اليدين فى الصلاة .
٤ـ بر الوالدين .
٥ـ التاريخ الكبير .
٦ـ التاريخ الأوسط .
٧ـ التاريخ الصغير .
٨ـ كتاب الضعفاء .
٩ـ كتاب التفسير الكبير .
١٠ـ القراءة خلف الامام .
١١ـ الكنـــى .
١٢ـ العلـــل .
١٣ـ أسامى الصحابة .
١٤ ـ كتاب الأشربة .
١٥ـ كتاب الوحدان وهو من ليس له الا حديث واحد .
١٦ـ كتاب الهبــة .
١٧ـ كتاب المسند الكبير .
١٨ـ كتاب المبسوط .
١٩ـ كتاب الفوائد[٣١] .

ولنتناول الآن أعظم مصنفات هذا الامام الجليل وهو كتابه (الجامع الصحيح) الذى صنفه على الأبواب .

---

(٣١) مقدمة فتح البارى ص ٤٩٣ .

كتاب الجامع الصحيح للامام البخارى

التعريف بالكتاب :

كتاب الجامع الصحيح للامام البخارى هو الكتاب الذى قال فيه العلماء : إنه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى وبه أصبح البخارى أمير المؤمنين فى الحديث وهو أعلى وأهم مؤلفات البخارى ، قطع قبله رحلات واسعة ، وكتب عدة مؤلفات كانت بمثابة المقدمة التى مهدت لكتابه العظيم (الجامع الصحيح) . وقد صنفه البخارى فى روية وأناة ، متحريا العناية التامة والدقة الكاملة ومكث فى تصنيفه ستة عشر عاما . قال البخارى : صنفت الجامع الصحيح لست عشرة سنة وخرجته من ستمائة ألف حديث وجعلته حجة بينى وبين الله عز وجل[٣٢] وكان يتأهب لكتابة كل حديث بالطهارة ، والصلاة يقول البخارى « ما كتبت فى كتاب الجامع الصحيح حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين » وقيل أنه وضع تراجم جامعه بين قبر النبى ﷺ ومنبره وكان يصلى لكل ترجمة ركعتين ، وروى عن البخارى أنه قال : صنفت كتاب الجامع فى المسجد الحرام وما ادخلت فيه حديثا الا بعد ما استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وتيقنت صحته . وقيل صنف كتابه ببخارى ، وقيل صنفه بمكة ، ويمكن الجمع بين هذه الآراء بأن الامام البخارى كان يصنف من كتابه الجامع الصحيح بعضا بمكة والبعض الآخر بالمدينة والبصرة وببخارى ، فقد صنفه فى ست عشرة سنة ويرى الحافظ أنه ابتدأ تصنيفه ووضع التخطيط العام للكتاب كمسودة فى المسجد الحرام ثم أكمله وبيضه فى بخارى وغيرها .

والاسم الكامل لكتاب الجامع الصحيح هو (الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) وقد أطلق عليه صحيح البخارى اختصارا وكان البخارى نفسه يطلق عليه الصحيح اختصارا ، وقد خرج البخارى احاديث جامعه من ستمائة ألف حديث ويبدو أن مراده بالمسند هو تخريج الاحاديث المتصلة الإسناد ببعض الصحابة عن النبى ﷺ سواء اكانت قولا أو فعلا أو تقريرا . وأما ما وقع فى الكتاب مما يخالف ذلك فانما وقع فيه عرضا لا أصلا فهو غير مقصود كالمعلقات والموقوفات التى ذكرها

(٣٢) كشف الظنون جـ ١ ص ٥٤٤ ، تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٤٩ ، هدى السارى ص ٤ ، ٥

استئناسا وتبعا وهى لا تخرج الكتاب عن أصل موضوعه وهو الحديث الصحيح . ولم يفت البخارى أن يسجل فى جامعه بعض الفوائد الفقهية فاستخرج بما وفقه الله من فهم فى المتون المعانى الكثيرة التى فرقها فى أبواب الكتاب بحسب ما يناسبها ، كما عنى بآيات الاحكام التى استنبط منها واستخرج من كنوزها ، فلم يكن مقصوده الاقتصار على الاحاديث فقط بل إنه استهدف الاستنباط منها والاستدلال على بعض الاحكام التى أرادها .

الباعث له على تأليفه

كانت الكتب المؤلفة قبل الجامع الصحيح منها ما هو ممزوج بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومنها ما هو جامع بين الصحيح والحسن والضعيف ، فكان الذى يقرأ هذه الكتب لا يستطيع تمييز الصحيح من غيره الا اذا كان على جانب كبير من الخبرة التامة فى فنون الحديث كما شاعت الأحاديث الضعيفة بل والموضوعة عن طريق القصاص واصحاب البدع والاهواء كما ظهر بعض المنتسبين الى أهل الرأى فأوغلوا فى مخالفتهم بعض السنن الثابتة الصحيحة وظل الوضع هكذا حتى جاء الامام البخارى فاضطلع بدور هام ، وأخذ على عاتقه رسالة جليلة هى أن يخص الأحاديث الصحيحة بالجمع وأن يرتبها على حسب الأبواب الفقهية ، وعلى حسب الموضوعات المختلفة الواردة فى الأحاديث ، لأنه كان يرى الدواوين المؤلفة قبله تجمع بين الاحاديث بدافع حفظها على الأمة وصيانتها ولم يراع أصحابها فيها المناسبات فى ترتيبها فكانت صعبة على من يريد أن يستخرج منها حديثا يتعلق بموضوع من أحكام الشرع ، فدفعه الى هذا العمل العظيم وقوى عزمه فيه ما سمعه من استاذه الامام اسحاق بن راهويه . قال البخارى كنا عند اسحاق بن راهويه فقال : (لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله ﷺ) ، قال فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع الجامع الصحيح ، كما قوى عزمه وشرح صدره لذلك رؤيا منامية رأى فيها النبى ﷺ والبخارى واقف بين يديه وبيده مروحة يذب بها عنه فسأل بعض المعبرين عن ذلك فقال له : انت تذب عنه الكذب . ومع دقة البخارى العلمية وتحريه الكبير فقد كان يطلب التوفيق والعون من الله سبحانه وتعالى ويستلهم الجانب الروحى فى نفسه ، قال الفربرى : يقول البخارى ما كتبت فى كتاب الصحيح حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، ولما ألف البخارى كتابه عرضه على الأئمة : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المدينى وغيرهم فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة إلا فى أربعة أحاديث ، قال العقيلى : والقول فيها قول البخارى وهى صحيحة أ هـ[٣٣] .

---

(٣٣) هدى السارى ص ٥ .

منهج البخارى فى الجامع الصحيح

صنف الامام البخارى كتابه الجامع الصحيح على منهج التأليف على الابواب ، وهو تخريجه على أحكام الفقه وغيرها فجمع ما ورد فى كل نوع من الانواع فى باب خاص بحيث يتميز ما يتعلق من الاحاديث مثلا بالصلاة عما يتعلق منها بالصوم وهكذا ، مقتصرا على ايراد ما صح من الاحاديث فقط فلم يدون فى كتابه الا ما صح سنده واتصل بنقل العدول الضابطين وخلا من الشذوذ والعلة كما كان يتخير الرجال الذين يخرج عنهم فينتقى أكثرهم صحبة لشيخه وأكثرهم معرفة لحديثه .

وإذا نظرنا الى تسمية البخارى لكتابه (الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) يتضح لنا منهج البخارى وشرطه فى كتابه فقوله (الجامع) يتضح به أنه لم يختص بصنف دون صنف ، وإنما أورد فيه الاحكام والفضائل والاخبار وغير ذلك من الآداب . . بما يتضح من قوله (الصحيح) أنه لا يوجد فيه ما ثبت ضعفه عنده ، وأما قوله (المسند) فهو أن الأصل تخريج الاحاديث المتصلة السند بالصحابى عن النبى ﷺ قولا كان ذلك أو فعلا أو تقريرا وأما ما عدا ذلك فقد ذكر فيه تبعا وعرضا لا أصلا مقصودا(٣٤) . وبهذه الطريقة استنتج ابن حجر شرط البخارى فى صحيحه ومنهجه فيه . وقد أكثر الامام البخارى فى كتابه الجامع الصحيح من التراجم فذكر الترجمة التى تناسب الحديث أولا كشرح أو توجيه إلى معنى خفى وغرضه من ذلك : الاستنباط منها والاستبدال لأبواب ارادها من الفقه والاصول والزهد والادب وغيرها وربط كثيرا من احاديثه بآيات القرآن واقوال من السلف وما يستنبطه بفهمه من الاحاديث فكانت بمثابة المفتاح لفهم الحديث .

واذا كان صحيح البخارى يتفق فى منهجه مع موطأ مالك حيث إن الكتابين مرتبان على الأبواب لكن صحيح البخارى يختلف عن الموطأ فى أمرين :

١- تجريد البخارى احاديثه من أقوال الصحابة والتابعين بخلاف الموطأ .

---

(٣٤) النكت لابن حجر مخطوط بمكتبة الأزهر .

٢ـ جمع البخارى لاحاديث الفقه وغيرها من الأنواع بخلاف الموطأ ، فإن أغلبه فى احاديث الاحكام الفقهية . بهذا كان الامام البخارى أول من الف جامعا صحيحا ، لانه جمع فى كتابه معظم الابواب الفقهية وغيرها وهو أول صحيح فى القرن الثالث ، أما الموطأ فهو أول صحيح فى القرن الثانى وكما قال الامام النووى : « أول من صنف الصحيح المجرد البخارى »[٣٥] .

---

(٣٥) تدريب الراوى (٤١) .

شرط البخاري في صحيحه

وأما عن شرط الامام البخارى فى كتابه ، فقد ورد فى ذلك اختلاف لبعض العلماء وذلك لأنه لم يؤثر عن الامام البخارى ، ولا الامام مسلم التصريح بشروطهما فى كتابيهما على وجه التفصيل ، ولذا استنتج العلماء بدراسة الكتب وسبرها شروطا لكل منهما .

وقد اشترط الحافظ أبو بكر الحازمى فى الحديث الصحيح : أن يكون اسناده متصلا ، وأن يكون راويه مسلما صادقا غير مدلس ولا مختلط ، متصفا بصفات العدالة ، ضابطا متحفظا ، سليم الذهن قليل الوهم ، سليم الاعتقاد .

واشترط البخارى أن يكون الحديث صحيح السند متصلا بنقل العدول الضابطين خاليا من الشذوذ والعلة كما سبق واشترط فى المعنعن : اللقاء مع المعاصرة والثقة وعدم التدليس ، فاذا ثبت ذلك حملت العنعنة على السماع ، وطريق ثبوت اللقاء عند البخارى قائم على التصريح بالسماع فى الاسناد ، ثم بين الحازمى مذهب الائمة فى كيفية استنباط مخارج الحديث فقال : (إن[٣٦] مذهب من يخرج الصحيح أن يعتبر حال الراوى العدل فى مشايخه وفيمن روى عنهم وهم ثقات أيضا ، وحديثه عن بعضهم صحيح ثابت يلزمهم إخراجه ، وعن بعضهم مدخول لا يصلح اخراجه الا فى الشواهد والمتابعات وهذا باب فيه غموض ، وطريقه : معرفة طبقات الرواة عن راوى الاصل ومراتب مداركهم ، ولنوضح ذلك بمثال : وهو أن نعلم مثلا أن أصحاب الزهرى على طبقات خمس ، ولكل طبقه منها مزية على التى تليها وتفاوت ، فمن كان فى **الطبقة الأولى** : فهو الغاية فى الصحة وهو غاية مقصد البخارى ، **والطبقة الثانية** : شاركت الاولى فى العدالة غير ان الأولى جمعت بين الحفظ والاتقان وبين طول الملازمة للزهرى حتى كان فيهم من يزامله فى السفر ويلازمه فى الحضر . والطبقة الثانية لم تلزم الزهرى الا مدة يسيرة وكانوا فى الاتقان دون الطبقة الاولى وهم شرط مسلم .

والطبقة الثالثة : جماعة لزموا الزهرى مثل اهل الطبقة الاولى غير انهم لم يسلموا من غوائل الجرح فهم بين الرد والقبول وهم شرط أبى داود والنسائى .

---

(٣٦) شروط الائمة الخمسة للحازمى ص ٤٣ بتعليق الشيخ محمد زاهد الكوثرى .

والطبقة الرابعة : قوم شاركوا أهل الطبقة الثالثة فى الجرح والتعديل وتفردوا بقلة ممارستهم لحديث الزهرى ، لأنهم لم يصاحبوا الزهرى كثيرا وهم شرط أبى عيسى . وفى الحقيقة شرط الترمذى أبلغ من شرط أبى داود ، لأن الحديث اذا كان ضعيفا أو مطلعه من حديث أهل الطبقة الرابعة فانه يبين ضعفه وينبه عليه فيصير الحديث عنده من باب الشواهد والمتابعات ويكون اعتماده على ما صح عند الجماعة ، وعلى الجملة فكتابه مشتمل على هذا الفن فلهذا جعلنا شرطه دون شرط أبى داود .

والطبقة الخامسة : نفر من الضعفاء والمجهولين لا يجوز لمن يخرج الحديث على الأبواب ان يخرج حديثهم الا على سبيل الاعتبار والاستشهاد عند أبى داود فمن دونه فأما عند الشيخين فلا .

فاما أهل الطبقة الاولى : فنحو مالك وابن عيينة وعبيد الله بن عمر ويونس وعقيل الايليان وشعيب بن أبى حمزة وجماعة سواهم .

واما اهل الطبقة الثانية : فنحو عبد الله بن عمر والاوزاعى والليث بن سعد والنعمان بن راشد وعبد الرحمن بن خالد بن مسافر وغيرهم .

والطبقة الثالثة : نحو سفيان بن حسين السلمى وجعفر بن برقان وعبد الله بن عمر ابن حفص والعمرى وزمعة بن صالح المكى وغيرهم .

والطبقة الرابعة : نحو اسحاق بن يحيى الكلبى ومعاوية بن يحيى الصدفى واسحاق ابن عبد الله بن أبى فروة المدنى وابراهيم بن يزيد المكى والمثنى بن الصباح وجماعة سواهم .

والطبقة الخامسة : نحو بحر بن كنيز السقا والحكم بن عبد الله الايلى وعبد القدوس بن حبيب الدمشقى ومحمد بن سعيد المصلوب وغيرهم ، وهم خلق كثير « أ . هـ » .

وأما الطبقة الأولى فهم شرط البخارى ، وقد يخرج من حديث أهل الطبقة الثانية ما يعتمده من غير استيعاب ، وأما مسلم فيخرج حديث الطبقتين على سبيل الاستيعاب ويخرج أحاديث أهل الطبقة الثالثة على النحو الذى يصنعه البخارى فى الثانية وأما الرابعة والخامسة فلا يعرجان عليهما[٣٧] .

---

(٣٧) تدريب الراوى ص ٧٠ .

وقد علق ابن حجر بعد ذكر كلام الحازمى بقوله : « وهذا المثال الذى ذكرناه هو فى حق المكثرين فيقاس على هذا أصحاب نافع وأصحاب الاعشى ، وأصحاب قتادة وغيرهم . فأما غير المكثرين فانما اعتمد الشيخان فى تخريج احاديثهم على الفقه والعدالة وقلة الخطأ لكن منهم من قوى الاعتماد عليه فأخرجا ما تفرد به كيحيى بن سعد الانصارى . ومنهم من لم يقو الاعتماد عليه فأخرج له ما شاركه فيه غيره وهو الاكثر[٣٨] .

ويلاحظ أن الحازمى قارن بين البخارى وغيره من الأئمة فى كلامه ووضع البخارى فى مقدمة الائمة فجعل شرطه أن يخرج من أحاديث أهل الطبقة الاولى التى امتازت بالحفظ والاتقان وطول ملازمتها لشيخها .

ونرى أن ابن حجر فى كتابه « النكت » قد استنتج شرط البخارى من تسمية الكتاب وهو (الجامع الصحيح المسند . .) إلخ ، ومن استقرائه لتصرفه فى تعريف الصحيح ، واشتراط اللقاء مع المعاصرة ، والثقة وعدم التدليس .

وأرى أن رأى ابن حجر يتفق فى المعنى مع ما رآه الحازمى كما سبق . وقد ارتضاهما العلماء ولم يرد عليهما اعتراض فكل من الرأيين ينتهى الى أن البخارى لا يخرج الا الاحاديث الصحيحة المتصلة السند على ما سبق بيانه من شروط .

(٣٨) هدى السارى ص ٧ .

رأى ابن طاهر المقدسى فى شرط البخارى ومسلم

وأما الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى المتوفى سنة ٥٠٧ هـ ، فيرى أن شرط البخارى ومسلم : ان يخرجا الحديث المتفق على ثقة نقلته الى الصحابى المشهور من غير اختلاف بين الثقات ، ويكون اسناده متصلا غير مقطوع ، فان كان للصحابى راويان فصاعدا فحسن وإن لم يكن راو واحد ، فاذا صح الطريق الى ذلك الراوى اخرجاه ، الا ان مسلما اخرج احاديث اقوام كحماد بن سلمة وسهيل بن ابى صالح وداود بن ابى هند ، فلما تكلم فى هؤلاء بما لا يزيل العدالة والثقة ترك البخارى اخراج حديثهم فى الاصول تحريا لشبهة وقعت فى نفسه ، وانما أخرج مسلم حديثهم لزوال الشبهة .

وقد اعترض عليه الحافظ العراقى فى قوله : « المتفق على ثقة نقلته . . » فقال : وليس ما قاله ابن طاهر بجيد : لأن النسائى ضعف جماعة اخرج لهم الشيخان أو أحدهما وأجيب : بأنهما أخرجا من أجمع على ثقته الى حين تصنيفهما، ولا يقدم فى ذلك تضعيف النسائى بعد وجود الكتابين وقال شيخ الاسلام : تضعيف النسائى ان كان باجتهاده أو نقله عن معاصر فالجواب ذلك وإن نقله متقدم فلا ، قال : ويمكن أن يجاب : بأن ما قاله ابن طاهر هو الاصل الذى بنيا عليه أمرهما ، وقد يخرجان عنه لمرجع يقوم مقامه »[٣٩] .

رأى الحاكم النيسابورى : وأما الحافظ الحاكم أبو عبد الله النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ . فقد رأى أن الدرجة الأولى من الصحيح اختيار البخارى ومسلم وهو أن يروى الحديث عن النبى ﷺ صحابى زائل عنه اسم الجهالة ، بأن يروى عنه تابعيان عدلان ، ثم يروى عنه التابعى المشهور بالرواية عن الصحابة وله راويان ثقتان ، ثم يرويه عنه من أتباع التابعين حافظ متقن وله رواة من الطبقة الرابعة ثم يكون شيخ البخارى أو مسلم حافظا مشهورا بالعدالة فى روايته « أ . هـ » .

قال أبو على الغسانى : ليس المراد أن يكون كل خبر روياه يجتمع فيه راويان عن

---

(٣٩) شروط الأئمة للمقدسى ، تدريب الراوى ص ٦٥ .

صحابيه ثم عن تابعيه فمن بعده ، فان ذلك يعز وجوده ، وإنما المراد أن هذا الصحابي وهذا التابعي قد روى عنه رجلان خرج بهما عن حد الجهالة(٤٠) .

والحقيقة أن الشيخين لم يشترطا هذا الشرط ، ولا نقل عن واحد منهما أنه قال ذلك ، والحاكم قدر هذا التقدير وشرط لهما هذا الشرط على ما ظن ، ومن استقرأ الكتابين وجد ما يرد هذه الدعوى ، فمن ذلك حديث مرداس الأسلمي « يذهب الصالحون الأول فالأول » ، الحديث ، وهو حديث تفرد البخاري باخراجه عن يحيى بن حماد عن أبي عوانة عن بيان عن قيس عن مرداس ، وليس لمرداس في صحيح البخاري سوى هذا الحديث ولم يروه عن مرداس غير قيس بن أبي حازم(٤١) .

وقال ابن حجر : والشرط الذي ذكره الحاكم وإن كان منتقضا في حق بعض الصحابة الذين أخرج لهم فانه معتبر في حق من بعدهم ، فليس في الكتاب حديث أصل من رواية من ليس له إلا راو واحد قط(٤٢) أ هـ .

---

(٤٠) تدريب الراوي ص ٦٦ .
(٤١) شروط الائمة الخمسة ص ٢٢ .
(٤٢) هدى الساري ص ٧ .

عدد أحاديث الجامع الصحيح

وجميع أحاديث الجامع الصحيح بالمكرر سوى المعلقات والمتابعات على ما حرره ابن حجر : سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعون حديثا ، وجملة ما فى الكتاب من التعاليق ألف وثلاثمائة وواحد وأربعون حديثا وأكثرها مخرج فى الكتاب أصول متونه ، والمتون التى لم تخرج فى الكتاب مائة وستون حديثا ، وجملة ما فيه من المتابعات والتنبيه على اختلاف الروايات ثلاثمائة وواحد وأربعون حديثا . وجميع ما فى صحيح البخارى من المتون الموصولة من غير تكرار ألفا حديث وستمائة حديث وحديثان ، ومن المتون المعلقة المرفوعة التى لم يوصلها فى موضع آخر من الجامع مائة وتسعة وخمسون حديثا ، فجميع ذلك ألفا حديث وسبعمائة وواحد وستون حديثا .

قال ابن حجر : « فجميع ما فى الكتاب على هذا بالمكرر تسعة آلاف واثنان وثمانون حديثا وهذه العدة خارجة عن الموقوفات على الصحابة والمقطوعات عن التابعين فمن بعدهم[٤٣] ، ورأى ابن حجر فى عدد أحاديث كتاب البخارى هو الذى أرجحه فهو من الدقة والتحرير بمكان بحيث يطمئن اليه الباحث بعد نظره فى كتابه ، ومما ساعد ابن حجر على ذلك انه شرح صحيح البخارى وكان يذكر فى آخر كل كتاب منه عدد الأحاديث .

---

(٤٣) هدى السارى ص ٤٧٠ .

رواة الجامع الصحيح

سمع كتاب الجامع الصحيح رواة كثيرون من أشهرهم أبو عبد الله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفربرى المتوفى سنة ٣٢٠ ، نسبة الى فربر قرية ببخارى ، وكان سماعه للصحيح كله مرتين : مرة بفربر سنة ٢٤٨ ومرة أخرى ببخارى سنة ٢٥٢ ، أى قبل وفاة الامام البخارى بأربع سنين ، ومنهم إبراهيم بن معقل بن الحجاج النسفى المتوفى سنة ٢٩٤ وكان من الحفاظ وله تصانيف وقد فاته من كتاب صحيح البخارى أوراق رواها بالاجازة عن البخارى ومنهم حماد بن شاكر النسوى ، المتوفى سنة ٢٩٠ ومنهم أبو طلحةمنصور بن محمد بن على بن قرينة البزدوى المتوفى سنة ٣٢٩ وهو آخر الذين حدثوا عن الامام البخارى [٤٤] .

وقد تناول تلامذتهم كتاب الجامع الصحيح ثم أخذه عنهم من بعدهم وهكذا تتابعت روايته عن الكثيرين فى كل زمان وتلقته الأمة بالقبول .

---

(٤٤) مقدمة فتح البارى جـ ١ ص ٤ .

الأحاديث الصحيحة والرواة الثقات في كتاب البخارى

سبق بيان أن الامام البخارى تحرى أن يدون فى كتابه الاحاديث الصحيحة ولا يروى الا عن الرواة الثقات الذين اشترط فيهم الشروط السابقة ، ولكنه لم يستوعب الاحاديث الصحيحة كلها ، وقد صرح البخارى بذلك فى قوله : (ما أدخلت فى كتاب الجامع إلاما صح وتركت من الصحاح حتى لا يطول)[٤٥] .

وكان البخارى يحفظ الاحاديث الصحيحة ، والاحاديث غير الصحيحة أيضا لمعرفتها وتمييز الصحيح من غيره . قال : احفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتى ألف حديث غير صحيح وبهذا يتضح أن البخارى لم يثبت فى كتابه كل حديث صحيح كان يحفظه ، ولا كل حديث صحيح على شرطه بل إن الصحيحين لم يستوعبا الاحاديث الصحيحة فى كتابيهما ، وقال الحافظ ابن كثير : ثم إن البخارى ومسلما لم يلتزما باخراج جميع ما يحكم بصحته من الاحاديث فانهما قد صححا أحاديث ليست فى كتابيهما ، كما نقل الترمذى وغيره عن البخارى تصحيح أحاديث ليست عنده بل فى السنن وغيرها[٤٦] .
وبهذا يتبين أن البخارى لم يستوعب الصحيح ولم يلتزم استيعابه كما أنه لم يستوعب الرواة الثقات المتوفرة فيهم صفات القبول والصحة ، قال الحازمى : إن قصد البخارى وضع مختصر فى الحديث وإنه لم يقصد استيعابا لا فى الرجال ولا فى الحديث ، وقد قال : لم أخرج فى هذا الكتاب إلا صحيحا . ولم يخرج الشيخان شيئا فى الصحيحين من حديث الامام أبى حنيفة ولا حديث الامام الشافعى ولا أخرج البخارى من حديث الامام أحمد إلا حديثين ولا أخرج مسلم فى صحيحه عن الامام البخارى ولا عن الامام أحمد الا قدر ثلاثين حديثا ولا أخرج الامام أحمد فى مسنده عن الامام مالك عن نافع بطريق الشافعى وهو أصح الطرق إلا أربعة أحاديث ، وما رواه أحمد عن الشافعى بغير هذا الطريق لا يبلغ عشرين

---

(٤٥) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٨ مقدمة ابن صلاح ص ٨ .
(٤٦) الباعث الحثيث ص ٢٥ .

حديثا . ولعل السبب فى ذلك كما رأى الشيخ زاهد الكوثرى[٤٧] أن ذلك راجع الى أنهم كانوا يرون أن أحاديث هؤلاء فى مأمن من الضياع لكثرة أصحابهم القائمين برواياتها شرقا وغربا . وجل عناية أصحاب الدواوين بأناس من الرواة ربما كانت تضيع أحاديثهم لولا عنايتهم بها لأنه لا يستغنى من بعدهم عن دواوينهم فى أحاديث هؤلاء دون هؤلاء فالاطمئنان على حفظ مروياتهم وعدم الخوف عليها هو الذى حدا بالأئمة الى ترك بعض الرواة ، وأيضا فقد يكون السبب طلب علو الاسناد بأن يكون الحديث من طريق ذلك الامام نازلا ، ومن طريق غيره من الثقات عاليا فيختار صاحب الطريق العالى لقربه من الرسول ﷺ واذا تبين أن صحيح البخارى لم يستوعب الصحيح ولا التزمه فليس لأحد أن يرد حديثا صحيحا أو لا يأخذ به بحجة أنه ليس فى الصحيحين وكما يقول الامام مسلم : إنما أخرجت هذا الكتاب وقلت هو صحاح ، ولم أقل إن ما لم أخرجه من الحديث فى هذا الكتاب ضعيف[٤٨]

(٤٧) شروط الائمة الخمسة ص ٤٣ .
(٤٨) المرجع السابق ص ٦٠ .

تراجم كتاب الجامع الصحيح

تميز الامام البخارى بالحافظة القوية ، والذهن السيال ، الذى وجهه الى فهم الكتاب والسنة واستنباط ما فيهما من كنوز ، فاستخرج ما شاء الله له من الاحكام ، وقد أودع فى تراجم الأبواب ما أداه اليه اجتهاده ، وما اهتدى إليه بعقله العلمى المتفتح ، مما يشهد له كإمام من أئمة الفقه - بالبراعة فى استنباط الأحكام من الأحاديث النبوية ومما زاد البخارى توفيقا فى الفهم والاستنباط أنه كان يتجه الى نصوص القرآن والسنة بطاقاته الروحية ، فيهيىء نفسه بطهارة الجسم والنفس وبجوار صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه . وبهذا السلوك العقلى والروحى وصلت تراجم أبوابه منزلة عالية روى أبو أحمد بن عدى عن عبد القدوس بن همام ، قال : (شهدت عدة مشايخ يقولون : حول البخارى تراجم جامعة - يعنى بيِّضها - بين قبر النبى ﷺ ومنبره ، وكان يصلى لكل ترجمة ركعتين) وقد قسم الامام البخارى كتابه الجامع الصحيح الى كتب وقسم الكتب الى أبواب وبدأه بباب : كيف بدء الوحى الى رسول الله ﷺ وقول الله جل ذكره : (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده)[49] ، ثم ذكر كتاب الإيمان ، ثم العلم ، ثم كتاب الطهارة ، ثم كتاب الصلاة وهكذا ، وبعد أن انتهى من ذكر العبادات والمعاملات ذكر غير ذلك من الأبواب غير الفقهية كالسيرة والمغازى ، والتفسير وغير ذلك ، وبلغ عدد كبير من الأحاديث وفى بعض الأبواب ما فيه حديث واحد وفى بعضها ما فيه آية من القرآن وبعضها لا شىء فيه ، وقيل أنه صنع ذلك ليبين أنه لم يصح عنده حديث بشرطه فى المعنى الذى ترجم عليه ، ومن ثم قام بعض الناسخين للكتاب فضم بابا لم يذكر فيه حديث إلى حديث لم يذكر له باب ، فأشكل فهمه على الناظر فيه .

ويقوم منهج البخارى فى تراجمه على طريقتين :

١ - طريقة ظاهرة . ٢ - طريقة خفية .

---

(٤٩) فتح البارى جـ ١ ص ٥ ، ٦ .

١ - الطريقة الظاهرة

هى أن تكون الترجمة دالة بالمطابقة على ما يورده من الاحاديث ، كأن يقول : هذا الباب الذى فيه كيت وكيت أو باب ذكر الدليل على الحكم الفلانى ، مثلا وقد تكون الترجمة بلفظ المترجم له ، وقد تكون ببعض ألفاظه ، وقد تكون بمعناه ، وهذا النوع من التراجم ، وهو التراجم الظاهرة ذكر ابن حجر أن فائدتها : الاعلام بما ورد فى ذلك الباب[٥٠] ، مثال ذلك : (باب ذكر هند بنت عتبة بن ربيعة رضى الله عنها . وجاء بالاسناد المتصل الى عروة ان عائشة رضى الله عنها قالت : جاءت هند بنت عتبة قالت : يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب الى أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح على ظهر الأرض من أهل خباء أحب الى أن يعزوا من أهل خبائك [٥١] فليس فى هذه الترجمة اجتهاد ، ولكنها مجرد عنوان لما ترجم له .

ومثال الترجمة بلفظ المترجم له : (باب قول النبى ﷺ اللهم علمه الكتاب « وجاء بالحديث المتصل عن ابن عباس قال ضمنى رسول الله ، وقال : اللهم علمه الكتاب »[٥٢] .

فقد جاء فى الترجمة هنا بنفس الحديث المترجم له .

ومثال الترجمة ببعض المترجم له : (باب من يردالله به خيرا يفقهه فى الدين) وجاء بالإسناد المتصل ، قال حميد بن عبد الرحمن : سمعت معاوية خطيبا يقول سمعت النبى ﷺ يقول : (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله)[٥٣] فقد ترجم هنا ببعض عبارات الحديث المترجم له .

---

(٥٠) مقدمة فتح البارى ص ١١ .
(٥١) فتح البارى جـ ٧ ص ٩٧ .
(٥٢) المرجع السابق ص ١٥٥ .
(٥٣) فتح البارى جـ ١ ص ١٥٠ .

ومثال الترجمة التى جاءت تفسيرا لمعنى كلمة فى الحديث . (باب الاغتباط فى العلم والحكمة) وقال عمر تفقهوا قبل أن تسودوا ثم ذكر الحديث المسند عن عبد الله بن مسعود قال قال النبى ﷺ لا حسد الا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها(٥٤) . فقد فسر فى هذه الترجمة المعنى المراد بالحسد وهو الغبطة ومعناها : أن يتمنى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه بخلاف الحسد .

---

(٥٤) فتح البارى جـ ١ ص ١٥١ .

الطريقة الثانية

أن يأتى للحديث العام بترجمة خاصة ، أو يأتى للحديث الخاص بترجمة عـامة ، فمثال الأول : « باب جهر الامام بالتأمين »[٥٥] ثم يأتى بالحديث المسند عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمن الامام فأمنوا فانه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » فليس فى الحديث التصريح بالجهر بالتأمين ولكنه وضح فى الترجمة أن المراد : الجهر بالتأمين فى الصلاة الجهرية ، وأخذ ذلك من قول الرسول ﷺ : إذاأمن الامام فأمنوا ، فتحديدها بوقت تأمين الامام ، لا يعرف إلا حال الجهـر حيث يتمكن المقتدى أن يؤمن ، فبين بالترجمة اذ أن الحديث وإن كان عاما،الا أنه أراد منه الخصوص .

ومثال الثانى وهو ما جاء فيه بترجمة عامة للحديث الخاص : (باب التسمية على كل حال وعند الوقاع) [٥٦] وجاء بالاسناد المتصل عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : لو إن أحدكم إذا أتى أهله قال : « باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضى بينهما ولد لم يضره) . فالحديث ورد خاصا بالحالة المعينة وهى عند الوقاع ، اما الترجمة فجاءت عامة فى هذه الحالة وفى سائر الاحوال ، وذلك للاشارة الى ان التسمية مستحبة عموما ، والحديث وإن جاء خاصا الا انه يراد به العموم ، وهكذا الحال بالنسبة للمطلق والمقيد وشرح المشكل وتفسير الغامض وتأويل الظاهر وتفصيل المجمل .

وقد يأتى بلفظ الترجمة ، ثم يورد بعدها أية أو أثرا لا حديثا مسندا ، فكأنه يقول لم يصح فى الباب شىء على شرطى . وقد يترجم بآية ويأتى بعدها بالحديث ، وقد يترجم بلفظ الاستفهام كقوله : باب هل يكون كذا ؟ أو من قال كذا ؟ وذلك عندما لا يتجه له القطع بأحد الاحتمالين ، ويكون غرضه بيان هل يثبت الحكم أم لا ؟ فترجم على الحكم ومراده ما يفسره بعد ذلك من إثباته أو نفيه أواحتماله لهما ، وربما كان أحد الاحتمالين أظهر ، وغرضه : أن يبقى للنظر مجالا . وقد يترجم بأمر يكون فى الظاهر قليل الجدوى ولكن اذا نظر فيه الناظر وتدبره وجده كثير النفع كقوله : (باب قول الرجل ما صلينا)[٥٧] فانه أشار به الى الرد على من كره ذلك .

---

(٥٥) فتح البارى جـ ٢ ص ١٧٧ .

(٥٦) العينى جـ ٢ ص ٣٦٦ .

(٥٧) صحيح البخارى جـ ١ ص ١٠٩ .

نقد الجامع الصحيح للامام البخارى

تلقت الأمة كتاب الجامع الصحيح للامام البخارى بالقبول واحتل هذا الكتاب النفيس مكانته الجليلة وتقديره العظيم عند أئمة الحديث ولذا عنوا به عناية عظيمة فكان منهم من دفعه اهتمامه بالكتاب وتقديره له الى أن قام بتطبيق ما فيه من الأحاديث على ما اشترطه البخارى فى صحيحه فاذا ما بدا له أن بعض الاحاديث لا تتفق وما اشترطه البخارى ، وتبين له أنها نزلت عن الدرجة العالية التى التزمها ، إذا ما بدا له ذلك تناول هذه الأحاديث بالنقد . وليس معنى نقدهم لها أنها قد وصل بها الضعف الى حد الموضوع أو المنكر ما سيتضح ذلك .

وقد كان من بين الاحاديث المنتقدة على البخارى ما وافقه مسلم على تخريجه وهو اثنان وثلاثون حديثا ، ومنها ما انفرد البخارى بتخريجه وهو ثمانية وسبعون حديثا ، وقبل بيان الرد الاجمالى والتفصيلى على هذا النقد أحب أن أقرر أن الدافع لهؤلاء النقاد الذى حفزهم على هذا النقد هو شدة حذرهم ويقظتهم ، وكمـال اهتمامهم وعنـايتهم بهذه المصنفات النفيسة ، على أساس من الاخلاص وليس بدافع القدح أو الحسد .

الجواب الاجمالى

ذكر ابن حجر فى مقدمة فتح البارى جوابا إجماليا قال فيه : « لا ريب فى تقديم البخارى ثم مسلم على أهل عصرهما ومن بعده من أئمة هذا الفن فى معرفة الصحيح والمعلل فانهم لا يختلفون فى أن على ابن المدينى كان أعلم أقرانه بعلل الحديث وعنه أخذ البخارى ذلك حتى كان يقول : ما استصغرت نفسى عند أحد الا عند على بن المدينى ، ومع ذلك فكان عل ابن المدينى إذا بلغه ذلك عن البخارى يقول : دعوا قوله فانه ما رأى مثل نفسه . وكان محمد بن يحيى الذهلى أعلم أهل عصره بعلل حديث الزهرى وقد استفاد منه ذلك الشيخان جميعا وروى الفربرى عن البخارى قال : ما أدخلت فى الصحيح حديثا إلا بعد أن استخرت الله تعالى وتيقنت صحته ، وقال مكى بن عبد الله : سمعت مسلم بن الحجاج يقول : عرضت كتابى هذا على أبى زرعة الرازى فكل ما أشار أن له علة تركته فاذا عرف وتقرر أنهما لا يخرجان من الحديث إلا ما لا علة له أو له علة إلا أنها غير مؤثرة عندهما فتقدير توجيه كلام من انتقد عليهما يكون قوله معارضا لتصحيحهما ولا ريب فى تقديمها فى ذلك على غيرهما فيندفع الاعتراض من حيث الجملة « أ . هـ » (٥٨) .

---

(٥٨) هدى السارى ص ٣٤٥ .

الجواب التفصيلى

وأما من حيث التفصيل فإن الاحاديث المنتقدة تنقسم الى ستة أقسام :

القسم الأول :

ما تختلف الرواة فيه بالزيادة والنقص من رجال الاسناد ، فان أخرج صاحب الصحيح الطريق المزيدة وعلله الناقد بالطريق الناقصة فهو تعليل مردود كما صرح به الدارقطنى لأن الراوى إن كان سمعه فالزيادة لا تضر لأنه قد يكون سمعه بواسطة عن شيخه ثم لقيه فسمعه منه وان كان لم يسمعه فى الطريق الناقصة فهو منقطع ، والمنقطع من قسم الضعيف والضعيف لا يعلل الصحيح ، وإن أخرج صاحب الصحيح الطريق الناقصة وعلله الناقد بالطريق المزيدة تضمن اعتراضه دعوى انقطاع فيما صححه المصنف فينظر أن كان ذلك الراوى صحابيا أو ثقة غير مدلس قد أدرك من روى عنه إدراكا بينا أو صرح بالسماع إن كان مدلسا من طريق أخرى فان وجد ذلك اندفع الاعتراض بذلك وإلا لم يوجد وكان الانقطاع فيه ظاهرا فحصل الجواب عن صاحب الصحيح أنه إنما أخرج مثل ذلك فى باب ماله متابع وعاضد أو ما حفته قرينة فى الجملة تقوية ويكون التصحيح وقع من حيث المجموع وربما علل بعض النقاد ، أحاديث ادعى فيها الانقطاع لكونها غير مسموعة كما فى الاحاديث المروية بالمكاتبة والاجازة وهذا لا يلزم منه الانقطاع عند من يسوغ الرواية بالاجازة بل فى تخريج صاحب الصحيح لمثل ذلك دليل على صحة الرواية بالاجازة عنده .

القسم الثانى :

ما تختلف الرواة فيه بتغيير رجال بعض الاسناد ، فالجواب عنه إن أمكن الجمع بأن يكون الحديث عند ذلك الراوى على الوجهين جميعا فأخرجهما المصنف ولم يقتصر على احدهما حيث يكون المختلفون فى ذلك متعادلين فى الحفظ والعدد ، وإن امتنع بأن يكون المختلفون غير متعادلين بل متقاربين فى الحفظ والعدد فيخرج المصنف الطريق الراجحة ويعرض عن الطريق المرجوحة أو يشير إليها فالتعليل بجميع ذلك من أجل الاختلاف غير قادح اذ لا يلزم من مجرد الاختلاف اضطراب يوجب الضعف فينبغى الاعراض أيضا طالما هذا سبيله .

القسم الثالث :

ما تفرد بعض الرواة بزيادة فيه دون من هو اكثر عددا أو أضبط ممن لم يذكرها فهذا لا يؤثر التعليل بها الا إن كانت الزيادة منافية بحيث يتعذر الجمع أما إن كانت الزيادة لا منافاة فيها بحيث تكون كالحديث المستقل فلا ، اللهم الا إن وضح بالدلائل القوية أن تلك الزيادة مدرجة فى المتن من كلام بعض رواته فما كان من هذا القسم فهو مؤثر .

القسم الرابع :

ما تفرد به بعض الرواة ممن ضعف منهم وليس فى هذا « الصحيح » من هذا القبيل غير حديثين وتبين أن لكل منهما متابعا احدهما حديث أبى بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده قال : كان للنبى ﷺ فرس يقال له اللحيف ، قال الدار قطنى : وأبى هذا ضعيف قال الحافظ وقد تابعه عليه أخوه عبد المهيمن بن عباس ، وثانيهما : حديث اسماعيل بن أبى أويس عن مالك وعن زيد بن اسلم عن ابيه أن عمر رضى الله عنه استعمل مولى له يدعى هنيا على الخمس ، الحديث . قال الدار قطنى واسماعيل ضعيف قال الحافظ : لم ينفرد به بل تابعه عليه معن بن عيسى فرواه عن مالك كرواية اسماعيل سواء .

القسم الخامس :

ما حكم فيه بالوهم على بعض رواته ، والجواب أن الوهم إنما يؤثر إذا لم يرو الحديث من غير طريق الذى حكم عليه بالوهم وقال ابن حجر وليس فى الصحيح منه بحمد الله شىء وأما اذا روى الحديث من غير طريقه فذلك الوهم لا يؤثر ويكون المعتمد عليه أصل الحديث لا خصوص ذلك الطريق .

القسم السادس :

ما اختلف فيه بتغيير بعض ألفاظ المتن والجواب : إن هذا أكثره لا يترتب عليه قدح لإمكان الجمع فى المختلف من ذلك أوالترجيح أ . هـ . (٥٩) . وبعد أن ذكر ابن حجر الاحاديث المنتقدة وأجاب عنها بين أن هذا هو جميع ما تعقبه الحفاظ النقاد العارفون بعلل الاسانيد . وقد ظهر واضحا أنه ما من حديث الا ورد من طريق آخر وثبتت صحة المتون

(٥٩) هدى السارى .

كلها فضلا عن رد كل نقد وجه الى الاحاديث ولا يغض هـذا النقد من قيمـة الجامـع الصحيح وأصحيته فهو فى الدرجة الاولى من الصحة .

ومن أمثلة الأحاديث المنتقدة :

١ ـ قال الدار قطني : (وأخرجا جميعا ـ أى البخارى ومسلم ـ حديث الاعمش عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس يعنى فى قصة القبرين وأن أحدهما كان لا يستبرىء من بوله قال وقد خالفه منصور فقال عن مجاهد عن ابن عباس وأخرج البخارى حديث منصور على إسقاطه طاوسا ، وهذا الحديث قد أخرجه البخارى فى كتاب الطهارة عن عثمان بن أبي شيبة عن جرير وأخرجه فى كتاب الأدب عن كثير بن سلام عن عبيدة بن حميد كلاهما عن منصور به ، ورواه من طريق أخرى من حديث الاعمش وأخرجه باقى الستـة من حديث الاعمش أيضا وأخرجه أبو داود والنسائى وابن خـزيمة فى صحيحـه من حديث منصور أيضا، وقال الترمذى بعد أن أخرجه : رواه منصور عن مجاهـد عن ابن عباس وحديث الاعمش أصح يعنى المتضمن للزيادة قال الحافظ وهذا فى التحقيق ليس بعلة لأن مجاهدا لم يوصف بالتدليس وسماعه من ابن عباس صحيح فى جملة من الاحاديث ومنصور عندهم أتقن من الاعمش مع أن الاعمش أيضا من الحفاظ والحديث كيفما دار دار على ثقة الأسناد كيفما دار كان متصلا فمثل هذا لا يقدح فى صحة الحديث إذا لم يكن راويه مدلسا ، وقد أكثر الشيخان من تخريج مثل هذا ولم يستوعب الدار قطنى انتقاده) (٦٠) .

٢ ـ قـال الدار قـطنى : وأخرجـا جميعا حـديث ابن جـريـح عن الـزهـرى عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه وعمه عبيد الله بن كعب عن النبى ﷺ كان اذا قدم من سفر ضحى بدأ بالمسجد الحديث . . . وقد خالفه معمر فقال عن الزهرى عن عبد الرحمن ابن كعب عن أبيه وقال عقيل عن الزهرى عن ابن كعب عن أبيه وهو يشبه رواية معمر ، قال الدار قطنى ورواية ابن جريج أصح ولا يضره من خالفه ، قال ابن حجر قول معمر وغيره عن عبد الرحمن بن كعب يحمل على أنه نسبه الى جده فتكون روايتهم منقطعة وهذا الجواب صحيح من الدار قطنى فى أن الاختلاف فى مثل هذا لا يضر (٦١) .

---

(٦٠) هدى السارى .

(٦١) هدى السارى ص ٣٦٢ .

وجه بعض النقاد الطعن فى بعض رجال البخارى الذين خرج لهم فى كتابه « الجامع الصحيح » ومعظمهم من شيوخه الذين لقيهم وجالسهم وخبرهم وميز بين صحيح مروياتهم من سقيمها وقد أخرج لبعضهم فى أصول الكتابة وأخرج لبعضهم الآخر فى المتابعات والشواهد .

وانبرى الحافظ ابن حجر فى مقدمته للاجابة عن تلك الاعتراضات والطعن وتناول الدفاع عنهم واحدا واحدا ورتبهم على حروف المعجم مما يشهد له بدقة النقد العلمى ونزاهته ، يقول الحافظ ابن حجر [٦٢] : ينبغى لكل منصف أن يعلم أن تخريج صاحب الصحيح لأى راو كان . مقتض لعدالته عنده وصحة ضبطه وعدم غفلته ولا سيما ما انضاف الى ذلك من إطباق جمهور الائمة على تسمية الكتابين بالصحيحين وهذا معنى لم يحصل لغير من خرج عنهم فى الصحيح فهو بمثابة إطباق الجمهور على تعديل من ذكر فيهما هذا اذا خرج له فى الأصول فاما إن خرج له فى المتابعات والشواهد والتعاليق فهذا تتفاوت درجات من أخرج له منهم فى الضبط وغيرهم من حصول اسم الصدق لهم ، وحينئذ اذا وجدنا لغيره فى واحد منهم طعنا فذلك الطعن مقابل لتعديل هذا الامام فلا يقبل الا مبين السبب مفسرا بقادح يقدح فى عدالة هذا الراوى وفى ضبطه مطلقا ، أو فى ضبطه لخبر بعينه لأن الاسباب الحاملة للأئمة على الجرح متفاوتة منها ما يقدح ومنها ما لا يقدح وقد كان الشيخ أبو الحسن المقدسى يقول فى الرجل الذى يخرج عنه فى الصحيح هذا جاز القنطرة يعنى بذلك أنه لا يلتفت إلى ما قيل فيه .

وقد وضع ابن حجر مقاييس دقيقة لنقد الرجال يزن بها قيمة رجال الصحيح فقال لا يقبل الطعن فى أحد منهم إلا بقادح واضح لأن أسباب الجرح مختلفة ومدارها على خمسة أشياء .

١ - البدعة .

٢ - المخالفة .

٣ - الغلط .

٤ - جهالة الحال .

---

(٦٢) المرجع السابق ص ٣٨١ .

٥ ـ دعوى الانقطاع فى السند بأن يدعى فى الراوى أنه كان يدلس أو يرسل . فأما جهالة الحال فمندفعة عن جميع من اخرج لهم فى الصحيح لأن شرط الصحيح أن يكون راوية معروفا بالعدالة فمن زعم أن أحدا منهم مجهول فكأنه نازع المصنف فى دعواه أنه معروف ولا شك أن المدعى لمعرفته مقدم على من يدعى عدم معرفته لما مع المثبت من زيادة العلم ومع ذلك فلا تجد فى رجال الصحيح أحدا يسوغ اطلاق اسم الجهالة عليه أصلا وأما الغلط : فتارة يكثر من الراوى وتارة يقل فحيث يوصف بكونه كثير الغلط ينظر فيما أخرج له إن وجد مرويا عنده وعند غيره من رواية غير هذا الموصوف بالغلط علم أن المعتمد أصل الحديث لا خصوص هذه الطريقة وإن لم يوجد إلا من طريقه ، فهذا قادح يوجب التوقف عن الحكم بصحة ما هذا سبيله وليس فى الصحيح بحمد الله من ذلك شىء .

وحيث يوصف بقلة الغلط كما يقال سيىء الحفظ وله أوهام أو له مناكير وغير ذلك من العبارات فالحكم فيه كالحكم فى الذى قبله أى تارة يكثر وتارة يقل وينظر فيما أخرج له . . . إلخ . إلا أن الرواية عن هؤلاء فى المتابعات أكثر منها عند المصنف من الرواية عن أولئك مع عدم التفرد فلا طعن ـ إلا أن الرواية عنهم إنما هى للاستئناس والشواهد وتكثير الطرق فهى معادة .

وأما المخالفة : فيثبت بها الشذوذ والنكارة ، فاذا روى الضابط والصدوق شيئا فرواه من هو أحفظ منه وأكثر عددا بخلاف ما روى الحديث يتعذر الجمع على قواعد المحدثين فهذا شاذ ، وقد تشتد المخالفة بأن يضعف الحفظ فيحكم على من يخالف فيه بكونه منكرا وهذا ليس فى الصحيح منه إلا قدر يسير . وكان البخارى بعد ذكر الروايات جميعها ينبه عليها ويذكر رأيه فلا اعتراض عليه . وأما دعوى الانقطاع فمدفوعة عمن أخرج لهم البخارى كما علم من شرطه . وهو أن العنعنة تفيد الاتصال بشرط المعاصرة واللقاء . ومع ذلك فحكم من ذكر من رجاله بتدليس أو ارسال أن تسبر أحاديثهم الموجودة عنده ، فإن وجد التصريح بالسماع فيها ـ بأن يوجد هذا فى طرق أخرى ـ اندفع الاعتراض وإلا فلا . وقد ثبت السماع فى المعنعن فلا وجه للاعتراض .

أما البدعة : فالموصوف بها إما أن يكون ممن يكفر بها أو يفسق . فالمكفر بها لابد أن يكون ذلك التكفير متفقا عليه من قواعد جميع الأئمة كما فى غلاة الروافض من دعوى بعضهم حلول الألوهية فى على أو غيره أو الإيمان برجوعه الى الدنيا قبل يوم القيامة أو غير ذلك ، وليس فى الصحيح من حديث هؤلاء شىء ألبتة .

والمفسق بها : كبدع الخوارج والروافض الذين لا يغلون ذلك الغلو وغير هؤلاء من الطوائف المخالفين لأصول السنة خلافا ظاهرا لكنه مستند الى تأويل ظاهره سائغ فقد اختلف أهل السنة فى قبول حديث ما هذا سبيله اذا كان معروفا بالتحرز من الكذب مشهورا بالسلامة من خوارم المروءة موصوفا بالديانة والعبادة فقيل يقبل مطلقا وقيل يرد مطالقا والثالث التفصيل بين أن يكون داعية لبدعته أو غير داعية فيقبل غير الداعية ويرد حديث الداعية ، وهذا المذهب هو الأعدل وصارت إليه طوائف من الأئمة وادعى ابن حبان اجماع أهل النقل عليه لكن فى دعوى ذلك نظر فقد روى عن الامام مالك رد روايتهم . ثم اختلف القائلون بهذا التفصيل فبعضهم أطلق ذلك وبعضهم زادهم تفصيلا فقال إن اشتملت رؤية غير الداعية على ما يشيد ببدعته ويزينها ويحسنها ظاهرا فلا تقبل وإن لم تشتمل فتقبل ، هذا وطرد بعضهم هذا التفصيل بعينه فى حق الداعية فقال : ان اشتملت روايته على ما يرد بدعته قبل وإلا فلا وعلى هذا اذا اشتملت رواية المبتدع سواء كان داعية أم لم يكن على مالا تعلق له فى بدعته أصلا هل ترد مطلقا أو تقبل مطلقا ؟

مال أبو الفتح القشيرى إلى تفصيل آخر فيه فقال : إن وافقه غيره فلا يلتفت إليه هو اخمادا لبدعته واطفاء لناره والا لم يوافقه حد ولم يوجد ذلك الحديث إلا عنده مع وصفنا من صدقه وتحرزه عن الكذب واشتهاره بالدين وعدم تعلق ذلك الحديث ببدعته فينبغى أن تقدم مصلحة تحصيل ذلك الحديث ونشر تلك السنة على مصلحة إهانته واطفاء بدعته .

واعلم أنه قد وقع من جماعة الطعن فى جماعة بسبب اختلافهم فى العقائد فينبغى التنبه لذلك وعدم الاعتداد به إلا بحق وكذا عاب جماعة من الورعين جماعة وخذلوا فى الدنيا فضعفوهم لذلك ، ولا أثر لذلك التضعيف مع الصدق والضبط والله الموفق . وأبعد من ذلك كله من الاعتبار تضعيف من ضعف بعض الرواة بأمر يكون الحمل فيه على غيره أو التحامل بين الاقران ، وأشد من ذلك تضعيف من ضعف من هو أوثق منه أو أعلى قدرا أو أعرف بالحديث فكل هذا لا يعتبر به « أ . هـ » .

وقد عقد ابن حجر فصلا مستقلا جمع فيه أسماء الرجال الذين طعن فيهم مع ذكر الطعن الموجه اليهم وسببه وقام بالاجابة عنه ومن أمثلة ذلك :

١ ـ احمد بن بشير الكوفى أبو بكر مولى عمرو بن حريت المخزومى ، قال النسائى : ليس بذاك القوى ، وقال عثمان الدارمى متروك وقواه ابن معين وأبو زرعة وغيرهم وأخرج له البخارى حديثا واحدا تابعه عليه مروان بن معاوية وأبو سلمة وهو فى كتاب الطب أما تضعيف النسائى له فمشعر بأنه غير حافظ ، وأما كلام عثمان الدارمى

فقد رده الخطيب بأنه اشتبه عليه براو آخر اتفق اسمه واسم أبيه وهو كما قال الخطيب رحمه الله تعالى وقد روى له الترمذى وابن ماجه .

٢ - احمد بن شبيب بن سعيد الحبطى روى عنه البخارى أحاديث بعضها قال فيه حدثنا وبعضها قال فيه : قال أحمد بن شبيب ووثقه ابو حاتم الرازى وقال ابن عدى : وثقة أهل العراق ، وكتب عنه على بن المدينى وقال أبـوالفتح الأزدى : منكـر الحديث غـير مرضى ، ولا عبرة بقول الازدى لانه هو ضعيف فكيف يعتمد فى تضعيف الثقات .

وأرى بعد هذا النقد والاجابة عليه : أن كتاب الجامع الصحيح للامام البخارى هو أول الكتب الستة فى الصحة ، ولا يغض من قيمته مثل هذا النقد ، فقد وردت الاحاديث المنتقدة من طرق أخرى ، وقد تبين من الاجابة عليها ، وعلى الرجال المنتقدين ان الامام البخارى كان شديد التحرى بالغ الحيطة ، فى رواية الأحاديث وفى اختيار من يروى عنهم من الرجال حتى أخذ كتابه الصحيح مكانته المرموقة وتبوأ درجته الأولى على قمة أمهات كتب السنة ، حتى قيل فيه أنه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى .

وكما توجه النقد قديما الى صحيح البخارى فقد توجه أيضا النقد حديثا وسنقدم بعض النماذج من الأحاديث التى توجه إليها النقد ثم نجيب عنها .

نقد حديث الذباب ، والاجابة عليه

روى البخارى بمسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا وقع الذباب فى اناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فان فى أحد جناحيه داء وفى الاخر شفاء)[٦٣] .

وقد توجه النقد الى هذا الحديث ، فأنكره الدكتور محمد توفيق صدقى ، وطعن فى صحته لأنه فى نظره لا يوافق العقل والعرف ، كما طعن فى الحديث كذلك أبو رية ناقلا آراء من تقدمه من الطاعنين فى هذا الحديث المستبعدين اجتماع الداء والدواء فى شىء واحد والمستبعدين أن يكون فى الذباب دواء وهو الذى يحوى الجراثيم .

الاجابة على ذلك : والحق ان هذا الحديث صحيح رواه البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه وسنده فى الدرجة العالية من الصحة ، أما ما يستبعده الطاعنون فى صحة الحديث فانه لا أساس له فقد أثبت الطب صدق هذا الحديث النبوى وصححه اذ أن بعض المهرة من الأطباء توصل الى أن فى الذباب مادة قاتلة للميكروب ، فحينما يغمس فى الاناء يطهر مفعول هذه المادة حيث تقوم بافرازات تقضى على ما يحمله الذباب من الجراثيم التى تعلق به ، وتسمى تلك المادة المبيدة للجراثيم (مبعد البكتريا) كما يسميها علماء الطب وتتكون هذه المادة عندما يقع الذباب على بعض الاماكن الملوثة فينقل بعض الجراثيم بأطرافه ، ويتناول بعضها فيأكله فتتكون فى هذه المادة (مبعد البكتريا) ، وقد توصل بعض الأطباء الى ما فى هذه المادة من خصائص ، وأنه لا بقاء للجراثيم فى وجود هذه المادة ويساعد هذه المادة فى عملها أن أحد الجناحين فى الذبابة يقوم بتحويل مبعد البكتريا الى ناحيته وبهذا نرى ان الذباب اذا وقع فى الشراب أو فى الطعام وحمل بعض الجراثيم ونقله فإن المادة المبيدة مبعد البكتريا تقوم بوقاية الشراب أو الطعام من الجراثيم والقضاء عليها فى الحال .

---

(٦٣) اخرجه البخارى فتح البارى جـ ١٠ ص ١٩٦ باب اذا وقع الذباب فى الاناء ، وفى بدء الخلق بلفظ « شراب » وفى حديث ابى سعيد عند النسائى وابن ماجه وصححه ابن حبان اذا وقع فى الطعام ورواه البزار من حديث أنس ورواه أبو داود بلفظ « فان فى أحد » .

وقد حقق كل من الدكتور محمود كامل ، والدكتور محمد عبد المنعم حسين صدق حديث الذباب تحقيقا علميا قاما فيه بدراسة كافية حول خصائص الذباب وتكوينه وما يشتمل عليه من طفيليات ومواد ، وقد وضحا الأمر بالمراجع العلمية وذكرا ان الاستاذ الالمانى (بريفيلد) من جامعة هال بالمانيا وجد فى عام ١٨٧٢ ان الذبابة المنزلية مصابة بطفيلى من جنس الفطريات سماها (اميوزا موسكى) من عائلة (انترموفترالى) من تحت فصيلة (سيجومايسيس) من فصيلة فيكومايسيس ويقضى هذا الفطر حياته فى الطبقة الدهنية داخل بطن الذبابة ، وذكر الاستاذ (لانجيرون) اكبر الاساتذة فى علم الفطريات فى عام ١٩٤٥ ان هذه الفطريات تعيش فى شكل خميرة مستديرة داخل أنسجة الذبابة وهى تفرز انزيمات قوية تحلل وتذيب أجزاء الحشرة الحاملة للمرض كما تم عزل مادة مضادة للحيوية فى كل من سويسرا وبريطانيا وانجلترا تسمى (جافاسين) ومادة أخرى تسمى (كلونتيزين) ومادة تسمى (انياتين) وهذه المواد مضادة للحيوية من مزرعة الفطريات الموجودة على جسم الذبابة وأنها ذات مفعول قوى فى بعض الجراثيم .

إما بخصوص تلوث الذباب بالجراثيم المرضية كجراثيم الكوليرا والتيفود والدوسنتاريا وغيرها التى ينقلها الذباب بكثرة فمكان هذه الجراثيم يكون فقط على أطراف أرجل الذبابة أو فى برازها ، وهذا ثابت فى جميع المراجع البكتريولوجية . . . ويستدل من كل هذا على انه اذا وقعت الذبابة على الاكل فستلمس الغذاء بأرجلها الحاملة للميكروبات المرضية التيفود أو الكوليرا أو الدوسنتاريا أو غيرها ، واذا تبرزت على الغذاء فسيلوث الغذاء أيضا كما ذكرنا بارجلها أو الفطريات التى تفرز المواد المضادة للحيوية والتى تقتل الجراثيم المرضية الموجودة فى براز الذبابة وفى أرجلها فتوجد على بطن الذبابة ولا تنطلق مع سائل الخلية المستطيلة من الفطريات والمحتوى على المواد المضادة للحيوية إلا بعد أن يلمسها السائل الذى يزيد الضغط الداخلى لسائل الخلية ويسبب انفجار الخلية المستطيلة واندفاع البذور والسائل) « أ . هـ »[٦٤] .

وهكذا يتضح لنا الأمر ، ويتبين لنا أن هذا الحديث الذى طعن فيه الطاعنون يعتبر من المعجزات الدالة على صدق الرسول ﷺ ، فقد ظهر فعلا أن فى أحد أجزاء الذبابة داء وفى الآخر شفاء بما تحمله من المواد المضادة للحيوية .

وليس معنى هذا أن نتهاون فى أمر الذباب وأن نتساهل بالنسبة له فى حياتنا ، لا فإن

---

(٦٤) مجلة الأزهر عدد رجب سنة ١٣٧٨ هـ من صحيفة (٥٧٨) .

الاسلام دين النظافة وقد حرص فى كل تشريعاته على وقاية الصحة والبعد عن مواطن الضرر والتهلكة ، وانما لأن الذباب مما يتعذر دفعه كثيرا ، وتتعذر الوقاية منه فى كثير من الأحوال ونحن مع ذلك ينبغى علينا نظافة المكان والمطعم والمشرب من الذباب وأمثاله ولكن اذا دعت الضرورة ووقع فى طعامنا فان الحديث الشريف يكشف لنا عن شىء كان غامضا علينا وهو ما تحتوى عليه الذبابة من مادة مضادة لكثير من الأمراض فان نحن غمسنا الذبابة وخرج السائل قتلت المادة الموجودة فيه تلك الجراثيم المرضية .

واذا كان الطب الحديث قد اكتشف ما فى الذباب من مواد علاجية ، فان الأطباء القدماء قد اكتشفوا مثل ذلك فى الذباب حيث ذكروا ان الاكتحال به مع الأثمد يزيد فى نور البصر ويشد مراكز الاجفان فى حافات العيون . وقد بين ابن قتيبة ان حمل أمر الدين على المشاهدة يعتبر انسلاخا من الدين فقال : (أن من حمل أمر الدين على ما شاهد فجعل « الذباب » لا يعلم موضع السم وموضع الشفاء واعترض على ما جاء فى الحديث مما لا يفهمه : فانه منسلخ من الاسلام مخالف لما جاء به الرسول ﷺ وما درج عليه الخيار من صحابته والتابعون ، ومن كذب ببعض ما جاء به رسول الله ﷺ كان كمن كذب به كله)[٦٥] والحقيقة أن مثل هذه الأمور التى أخبرها بها الرسول ﷺ وإن صدقها العلم الحديث باكتشافاته ، فانها لا يضبطها حدس ولا تخمين ولا يحصرها قياس ولا اكتشاف ، وهى وإن اعطتنا ما نطمئن بصحته فليست وحدها الدليل على صحة الحديث لأن مثل ذلك خاضع للخطأ والصواب خاضع لاختلاف الآراء ، أما ما أخبر به الرسول ﷺ فهو فوق ذلك كله لان المخبر معصوم من الخطأ ولا ينطق عن الهوى . وإضافة الى ما سبق فقد ورد فى رواية أبى داود وصححه ابن حبان من طريق سعيد المقبرى عن أبى هريرة وأنه يتقى بجناحه الذى فيه الداء .

وقال الخطابى « تكلم على هذا الحديث من لا خلق له فقال : كيف يجتمع الشفاء والداء فى جناحى الذباب وكيف يعلم ذلك من نفسه حتى يقدم جناح الشفاء ؟ وما ألجأه الى ذلك ؟ قال : وهذا سؤال جاهل أو متجاهل فان كثيرا من الحيوان قد جمع الصفات المتضادة وقد ألف بينها وقهرها على الاجتماع وجعل منها قوى الحيوان وان الذى ألهم النحلة اتخاذ البيت العجيب الصنعة لتعسل فيه وألهم النملة أن تدخر قوتها أوان حاجتها وأن تكسر الحبة نصفين لئلا تستنبت ، لقادر على إلهام الذبابة أن تقدم جناحا وتؤخر آخر .

---

(٦٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٩٠ .

وقال ابن الجوزى ان النحلة تعسل من أعلاها وتلقى السم من اسفلها والحية القاتل سمها تدخل لحومها فى الترياق الذى يعالج به السم ، والذبابة تسحق مع الاثمد لجلاء البصر . وذكر بعض حذاق الاطباء أن فى الذباب قوة سمية يدل عليها الورم والحكة العارضة عن لسعه وهى بمنزلة السلاح له ، فاذا سقط الذباب فيما يؤذيه تلقاه بسلاحه فأمر الشارع أن يقابل تلك السمية بما أودعه الله تعالى فى الجناح الآخر من الشفاء فتتقابل المادتان فيزول الضرر باذن الله تعالى « أ . هـ »[٦٦]

---

(٦٦) فتح البارى جـ ١٠ ص ١٩٧ .

الطعن فى حديث : (من اصطبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم الى الليل)[٦٧] والاجابة على ذلك

وقد طعن فى هذا الحديث أحمد أمين وغيره ، فقال ان البخارى يثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية والمشاهد التجريبية على أنها غير صحيحة ، وضرب مثلا لذلك بهذا الحديث . الاجابة ـ وقد وضح العلماء معنى الحديث ، وأثبتت اكتشافات العلم الحديث ما يتضمنه من أسرار وما يحتوى عليه من صدق وحقيقة .

ومن العلماء من خصص التمر النافع فى هذه الأحوال بتمر المدينة نظرا للأحاديث التى وردت مقيدة لمعناه ، ومن العلماء من أطلقه سواء كان من المدينة أو من غيرها ولكن الذى ارتضاه أكثرهم أنه خاص بعجوة المدينة .

قال ابن اقيم فى زاد المعاد : (والتمر غذاء فاضل حافظ للصحة ولا سيما لمن اعتاد الغذاء به كأهل المدينة وغيرهم . . .) الى أن قال : ونفع هذا العدد من التمر من هذا البلد من هذه البقعة بعينها من السم والسحر بحيث تمنع اصابته من الخواص التى لو قالها بقراط وجالينوس وغيرهما من الاطباء لتلقاها عنهم الأطباء بالقبول والاذعان والانقياد ، مع أن القائل إنما معه الحدس والتخمين والظن فمن كلامه كله يقين وقطع وبرهان ووحى أولى بأن تتلقى أقواله بالقبول وترك الاعتراض[٦٨] . واذا ما عرفنا أن السحر نوع من الأمراض النفسية ، وللايحاء النفسى أثره الكبير فى العلاج فان أثر الغذاء بالتمر يقى الصحة من الناحية النفسية خاصة وأن الذى أخبر هو الصادق الأمين الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . وما دام سند الحديث صحيحا وما دام متنه كذلك صحيحا ، فلا يضيرنا فى شىء إن كان العلم الحديث اكتشف ما فى التمر من خواص أم لا ، فليس ذلك إلا قصورا فى التقدم العلمى لا غير ، أما الحديث فلا غبار عليه . وقد شاء الله تعالى أن تبرز هذه الحقيقة الى عالم الوجود وتكشف البحوث العلمية الأثر العظيم للتمر وذلك فيما نشرته جريدة الأهرام تحت عنوان[٦٩] : (البلح علاج لأمراض العيون

---

(٦٧) صحيح البخارى بشرح السندى جـ ٤ ص ٢٠ ، فتح البارى جـ ١٠ ص ١٨٧ ، صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٦١٨ ، مسند أحمد جـ ٣ رقم ١٤٤٢ ، ١٥٢٨ عن سعيد بن أبى وقاص .

(٦٨) زاد المعاد ٣ / ٩٤ .

(٦٩) جريدة الأهرام ١٢ ذو الحجة ١٣٨٢ هـ ٢٦ مايو ١٩٦٣ ص ٤

والجلد والأنيميا والنزيف ولين العظام والبواسير ويساعد على الولادة بسهولة : ـ « أثبتت الأبحاث العلمية التى أجريت أخيرا بالمركز القومى للبحوث أن البلح غذاء كامل ويفيد فى وقاية الجسم وعلاجه من أمراض العيون وضعف البصر وعلاج الأمراض الجلدية كالبلاجرا وأمراض الأنيميا وحالات النزيف ولين العظام والبواسير ويساعد المرأة الحامل على الولادة بسهولة . صرح بذلك الدكتور عبد العزيز شرف المشرف على وحدة بحوث الأدوية بالمركز القومى للبحوث . وأضاف قائلا : أن الأبحاث أثبتت كذلك أن البلح يعادل اللحم فى قيمته الغذائية ، ويتفوق عليه بما يعطيه من سعرات حرارية ومواد معدنية وسكرية وذلك بالاضافة الى أنه غنى بالكالسيوم والفسفور والحديد ويحتوى على غالبية الفيناميتات المعروفة) أ . هـ .

ومما سبق يتضح أن الحديث روى بطرق صحيحة ، عن رواة عدول ثقات وأن متن الحديث يفيد ما للبلح من خصائص ومزايا ثبتت قديما ، حيث إنه مفيد فى حالات كثيرة وله فوائد فى لين المعدة وتنشيط أعضاء الجسم ، وما يحتوى عليه من الغذاء الكامل هذا بالاضافة الى ما اكتشفه العلم الحديث من المزايا السابقة ، إذن فالحديث صحيح بالمشاهدة وبأدلة العلم .

وقد أخرج البخارى عقب الحديث السابق حديثا آخر بلفظ : « من تصبح سبع تمرات عجوة لم يضره سم ولا سحر » ويبدو أن هذه الخاصية انما تكون لمتناول التمر أول النهار ، حيث يقع على الريق ، وقال ابن حجر : « وظاهر الاطلاق المواظبة على ذلك » ، وقال النووى : فى الحديث تخصيص عجوة المدينة بما ذكر وأما خصوص كون ذلك سبعا فلا يعقل معناه كما فى أعداد الصلوات ونصب الزكوات أ . هـ . ويمكن أن نستنبط من الحديث الشريف والأقوال العلمية السابقة ثمرة التمر ، وأن خاصيته مشروطة بما اذا كان أول النهار على الريق مع المواظبة على ذلك وتخصيص العدد « بالسبع » انما الخاصية فى هذا العدد لا يعلمها إلا الله أو من أطلقه على ذلك .

نقد حديث : (لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة)

والاجابة على ذلك

وهذا الحديث فهم منه أحمد أمين وغيره من الناقدين أن النبى ﷺ يـريد بـذلك الاخبار بانتهاء الدنيا بعد مائة سنة ومن هنا حكم عليه بالوضع لمخالفته للحوادث التاريخية ومخالفته للواقع والحس والمشاهدة .

الاجابة : وهذا الحديث أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، وهو جزء من حديث رواه البخارى فى باب « السمر فى العلم[٧٠] » وهو أن عبد الله بن عمر قال : صلى النبى ﷺ العشاء فى آخر حياته فلما سلم قام فقال : (أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد) وأخرجه البخارى فى باب السمر فى الفقه والخير بعد العشاء من كتاب الصلاة وهو أن عبد الله بن عمر قال : صلى النبى ﷺ صلاة العشاء فى آخر حياته فلما سلم قام النبى ﷺ فقال : (أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحـد) ورواه مسلم عن جابـر : (ما من نفس منفوسة اليوم تأتى عليها مائة سنة وهى حية يومئذ) وعندما قال الرسول ﷺ هذا الحديث لم يفطن بعض الصحابة الى تقييد الرسول بمن هو على ظهرها اليوم فظنوه على اطلاقه ، وأن الدنيا تنتهى بعد مائة سنة فنبههم ابن عمر الى القيد فى لفظ الرسول وبين لهم المراد منه ، والقيد هو : لا يبقى ممن هو « اليوم » على ظهر الأرض يريد بذلك أنها تخرم ذلك القرن ، واذا نظرنا الى آخر الصحابة موتا وجدناه أبا الطفيل عامر بن واثلة وقد مات سنة عشر ومائة وهى رأس مائة سنة من حديث الرسول ﷺ فيكون الحديث معجزة للرسول ﷺ حيث وقع الأمر كما أخبر به .

وقد أشار الى ذلك ابن حجر فى فتح البارى بقـوله « لا يبقى ممن هـو على ظهـر الأرض » أى الآن موجود أحد إذ ذاك ، قال ابن بطال : إنما أراد رسول الله ﷺ أن هذه المدة تخترم الجيل الذى هم فيه فوعظهم بقصـر أعمارهم وأعلمهم أن أعمـارهم ليست كأعمار من تقدم من الأمم ليجتهدوا فى العبادة أ . هـ .

---

(٧٠) فتح البارى جـ ١ ص ١٨٨ .

وربما يكون الرواة قد أسقطوا كلمة « منكم » نسيانا ، أو أن الرسول ﷺ أخفاها فلم يسمعوها وهى كلمة (منكم) أى لا يبقى ممن حضر ذلك المجلس من الصحابة ، قال (ابن قتيبة) : « ونراه بل لا نشك أنه قال : لا يبقى على الأرض منكم يومئذ نفس منفوسة » .

وقد وضح الرسول ﷺ إن نهاية صحابته رضوان الله تعالى عليهم يكون على رأس المائة ومعلوم أن الأمل معقود بعد هذه المدة على نشر الدين واتساع الفتوحات الاسلامية ونزول الرخاء وغير هذا من الأمور التى أخبر بها الرسول ﷺ وقد فهم الصحابة كما سبق ، ووضح العلماء وشراح الحديث المعنى المقصود ، فكيف يتأول المتأولون معنى غير هذا ؟ وكيف أداهم فهمهم السقيم الى أن المقصود نهاية الدنيا وأن الحديث بهذه الصورة يخالف الحق والمشاهدة فيحكمون عليه بالوضع ؟ إن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بينوا ذلك ، ونبه ابن عمر الى تقييد الرسول ﷺ ، فلم يعد بعد ذلك مجال للكلام فى هذا الحديث ، وتشويه الحقائق ، ومحاولة بتر الحديث .

شروح صحيح البخارى ومختصراته

حظى (صحيح البخارى) بعناية كبيرة من علماء المسلمين ، فتناولوه ، ما بين شارح له ودارس لرجاله ، وكان أعظم شروح صحيح البخارى وأوفاها :

١ - « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » للامام الحافظ أبى الفضل أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى والمولود سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، والمتوفى سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، وقد اشتمل هذا الشرح على فوائد حديثة واستنباطات فقهية ونكات بلاغية وأدبية ، كما امتاز باستقراء الأحاديث التى رويت فى الباب ، وبيان منزلتها من القوة والضعف . وقد نهج ابن حجر فى كتابه بالنسبة للأحاديث المكررة أن يقوم بشرح ما يتصل بمقصد البخارى منها فى كل مناسبة ثم يحيل الباحث على المواضع الأخرى .

ولكتاب « فتح البارى » مقدمة نفيسة تضمنت بحوثا قيمة واشتملت على بيان منزلة صحيح البخارى وبيان التراجم والتعليقات والأحاديث المنتقدة والرجال الذين انتقدوا والاجابة على ذلك وترجمة لحياة الامام البخارى وما الى ذلك . . وقد أخذ كتاب فتح البارى مكانته فى نفوس العلماء والباحثين بحيث يدرك كل واحد منهم عظيم قدره وسمو مادته العلمية ، ولما طلب من الشيخ محمد ابن على الصنعانى الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ صاحب « نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار » أن يشرح صحيح البخارى التزم مكانه وقال : « لا هجرة بعد الفتح » معترفا لابن حجر بالأمانة والمكانة ومعترفا للكتاب بالسبق والعظمة ، ويقع الشرح فى ثلاثة عشر مجلدا ، ومقدمته فى مجلد ، وهو مطبوع فى الهند وفى مصر .

٢ - « أعلام السنن » وهو شرح الامام أبى سليمان أحمد بن محمد بن ابراهيم بن خطاب البستى المشهور بالخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، وهو شرح عظيم ، وفيه من اللطائف والدقائق الكثير ، وقد قام بتأليف هذا الشرح استجابة لطلب أهل « بلخ » ، فعندما فرغ من تأليف كتابه « معالم السنن » شرح سنن أبى داود طلبوا منه أن يصنف لهم شرحا لصحيح البخارى فأجابهم الى ذلك .

٣ - « الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى » شرح العلامة شمس الدين

محمد ابن يوسف بن علي الكرماني المتوفى سنة ٧٨٦ هـ ، عنى فيه بشرح الألفاظ اللغوية ووجوه الاعراب ، وضبط الأسانيد والمتون ، والتوفيق بين الأحاديث التى يوهم ظاهرها التعارض ، وقد انتهى من تأليفه بمكة المكرمة سنة ٧٧٥ هـ .

٤ ـ « عمدة القارى » شرح العلامة بدر الدين محمود بن أحمد العينى الحنفى المولود سنة ٧٦٢ هـ والمتوفى سنة ٨٥٥ هـ عنى فيه بما يؤخذ من الأحاديث من الأحكام الفقهية والآداب ، وبيان النواحى اللغوية والاعرابية ووجوه المعانى والبيان ، ومنهج العينى فى شرحه يقوم على تخريج الحديث وذكر من خرجه من أصحاب الكتب المشهورة ، وعند شرح الأحاديث المكررة ينص على سياق الحديث بأكمله ، ولا يحيل على المواضع الأخرى . وسار فى شرحه على طريقة السؤال والجواب ، وهى طريقة حسنة ومجدية ، وابتدأ فى كتابة هذا الشرح سنة ٨٢١ هـ وانتهى منه سنة ٨٤٧ هـ ، وهذا الشرح مطبوع فى استانبول ومصر .

٥ ـ « ارشاد السارى الى صحيح البخارى » للعلامة الشيخ شهاب الدين بن محمد الخطيب المصرى الشافعى المعروف بالقسطلانى المتوفى سنة ٩٢٢ هـ وهو أوجز من شرح ابن حجر ومن شرح العينى ، وكان يعتمد كثيرا على شرح سابقيه لا سيما « فتح البارى » . وكتب له مقدمة تناول فيها منزلة الحديث وعناية المسلمين به . وقد طبع هذا الكتاب مرارا .

٦ ـ شرح العلامة أبى الحسن بن عبد الهادى السندى نزيل المدينة المنورة المتوفى سنة ١١٣٨ ، اقتصر فيه على تفسير الغامض أو المشكل ، وهذا الشرح على اقتصاره يتضمن فوائد عظيمة .

وهناك شروح كثيرة لكتاب البخارى بعضها لم يتم مثل : شرح الامام النووى وشرح الحافظ ابن كثير وشرح الحافظ ابن رجب الحنبلى وغير ذلك . ومن مختصرات الجامع الصحيح :

١ ـ مختصر الامام جمال الدين أبى العباس أحمد بن عمر الانصارى القرطبى المتوفى سنة ٦٥٦ .

٢ ـ « ارشاد السامع والقارى المنتقى من صحيح البخارى » للعلامة بدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبى المتوفى سنة ٧٧٩ هـ .

٣ - مختصر الامام زين الدين أبي العباس أحمد بن عبد اللطيف الشرجي الزبيدي المتوفى سنة ٨٩٣ هـ ، حذف المكرر منه وحذف الأسانيد واقتصر على الصحابي ، وقد فرغ منه في شعبان سنة ٨٨٩ هـ . وقد شرحه الشيخ عبد الله الشرقاوي معتمدا في شرحه على الشروح السابقة ولا سيما « فتح الباري » .

٤ - ومن المختصرات الهامة : مختصر الصوفي الشيخ أبي محمد عبد الله بن سعد بن أبي جمرة الأندلسي المتوفى سنة ٦٩٥ هـ . وقد شرح مختصره هذا في كتاب سماه « بهجة النفوس وغايتها ، بمعرفة ما لها وما عليها » .

وعنى في هذا الشرح بالمعاني دون الألفاظ ، وتضمن كثيرا من التحقيقات الهامة .

وبهذه الشروح والمختصرات وغيرها من الكتب الأخرى التي تناولت الجامع الصحيح بالدراسة والتحقيق والشرح والتحليل ، كما تناولت بالدراسة والتوضيح ، والتعديل والتجريح رجال البخاري ، بهذا كله نرى كيف كانت عناية الأمة الاسلامية بهذا الكتاب النفيس ، والى أي مدى بذل علماؤنا من الجهود العظيمة ما يشهد لهم بسعة الأفق ، وقوة الايمان وشدة الحب لصاحب السنة المطهرة عليه أفضل الصلاة والسلام .

ومن الكتب التي وجه أصحابها هممهم الى دراسة الرجال « كتاب التعديل والتجريح » لرجال البخاري ألفه القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المتوفى سنة ٤٧٤ هـ ، وكتاب « أسماء رجال البخاري » للامام أحمد بن محمد الكلاباذي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ .

ومن الكتب التي تناولت توضيح المشكلات : كتاب « التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » للامام جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك النحوي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، وكتاب « الافهام بما وقع في البخاري من الابهام » لجلال الدين عبد الرحمن بن عمر البلقيني المتوفى سنة ٨٢٤ هـ ، وكتاب « تعليق التعليق » لابن حجر .

الامام مسلم بن الحجاج

نسبه ونشأته :

هو الامام أبـو الحسن بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كـوشان القشيـرى نسبا النيسابورى وطنا صاحب « المسند الصحيح » وأحد الأئمة والحفاظ المتقنين .

قيل أنه ولد سنة مائتين واثنتين ، وقيل مائتين وأربع ، وقيل مائتين وست ، وأرجح الرأى الأخير وهو أنه ولد سنة ست ومائتين لما روى أنه (توفى مسلم بن الحجاج رحمه الله عشية الأحد ، ودفن يوم الاثنين لخمس بقين من رجب سنة إحدى وستين ومائتين وهو ابن خمس وخمسين سنة رحمه الله ورضى عنه »[71] « أ . هـ » . فاذا ما تبين أن وفاته كانت سنة احدى وستين ومائتين وأنه عاش من العمر خمسا وخمسين سنة فتكون ولادته فى سنة ست ومائتين على الأرجح .

وقد ولد الامام مسلم بنيسابور وهى أحسن مدن خراسان ونشأ شغوفا بالعلم ، طلبه منذ صغره ، وساعده على طلب العلم ما كان يتمتع به من ثروة علمية ، كما كان لمسلم بعض العقارات التى أنفق منها فى شئون الحياة وطلبه للعلم واشتغل فى مطلع حياته بزازا الى جانب طلبه للحديث .

واقتدى مسلم بالبخارى فى تأليف صحيحه ، وكان شديد الحب والتقدير له وعندما جاء البخارى نيسابور لازمه مسلم وترك من أجله شيخه محمد بن يحيى الذهلى الذى كان يقول : (من زعم لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم ومن ذهب بعد هذا الى محمد بن اسماعيل فاتهموه ، فانه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه فانقطع الناس عن البخارى إلا مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة . ولما قال الذهلى : الا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا ، قام مسلم على رؤوس الناس وبعث الى الذهلى جميع ما كان كتبه عنه على ظهر حمال كما سبق بيانه ، فاستحكمت بذلك الوحشة وتخلت عنه

---

(٧١) مقدمة النووى على شـرح صحيح مسلم ص ٧ ط الشعب ، وتهـذيب التهذيب جـ ١٠ ص ١٢٧ .

وعن زيارته [٧٢] ، وقد ترك الامام مسلم الرواية عنه فى الصحيح وغيره . ويعتبر الامام مسلم أحد أركان الحديث الذين ضربوا فيه بسهم وافر واشتركوا فى تدوينه بنصيب كبير ، ومناقبه مشهورة وسيرته عاطرة ، قال فيه شيخه محمد بن عبد الوهاب الفراء : كان مسلم من علماء الناس وأوعية العلم ما علمته الا خيرا ، وكان بزازا ، وكان أبوه الحجاج من المشيخة . وقال ابن الاخرم : انما خرجت مدينتنا هذه من رجال الحديث ثلاثة : محمد بن يحيى ، وابراهيم بن أبى طالب ومسلما . وقال ابن عقدة : قلما يقع الغلط لمسلم فى الرجال لأنه كتب الحديث على وجهه [٧٣] « أ . هـ » .

وهذه الأقوال من شيوخه ومعاصريه إنما تدل على كرم نشأته وطيب منبته وعظيم سيرته ومدى اجتهاده وأمانته فى طلب الحديث الشريف .

حياته العلمية

عاش الامام مسلم حياة مباركة حافلة بالبحث العلمى الجاد والضبط والحفظ والاتقان وشق طريق حياته يساعده على ذلك قوة حافظته وسعة أفقه الفكرى مما جعل الكثيرين من الأئمة يثنون عليه ويقدمونه على مشايخ عصرهم فى معرفة الصحيح [٧٤] ، قال فيه ابن أبى حاتم : كان من الحفاظ كتبت عنه بالرى . وقال أبو قريش الحافظ : حفاظ الدنيا أربعة وذكر منهم مسلما وهو إنما يريد بذلك الذين بلغوا فى الحفظ والاتقان درجة سامية ، ولا غرابة فى ذلك فالامام مسلم تتلمذ على يد الامام البخارى وسار على دربه ونظر فى علمه وأخذ عنه .

شيوخه :

وابتدأ الامام مسلم الاقبال على العلم منذ نعومة أظفاره سنة ثمانى عشرة ومائتين فسمع من شيوخ بلدته ، ثم حج سنة عشرين فسمع من القعنبى بمكة ومن بعض الشيوخ الذين التقى بهم فى البلاد التى سارع فيها ثم أسرع فى العودة الى وطنه وقام قبل سنة ثلاثين برحلة واسعة طوف فيها بمعظم الأقطار الاسلامية ليضم الى علم بلده مرويات أخرى من بلاد غيرها .

---

(٧٢) هدى السارى ص ٤٩٢ ، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١١٩ ، مرآة الجنان لليافعى جـ ٢ ص ١٧٥ .

(٧٣) مقدمة تحفة الاحوذى جـ ١ ص ١٢٢ .

(٧٤) مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم ص ٧ ، تذكرة الحفاظ للذهبى جـ ٢ ص ١٥٠ .

فسمع بخراسان : يحيى بن يحيى ، وإسحاق بن راهويه وغيرهما ، وسمع بالرى : محمد ابن مهران الجمال ، وأبا غسان ، وغيرهما ، وسمع بالعراق : أحمد بن حنبل وعبد الله بن مسلمة القعنبى وغيرهما ، وبالحجاز : سعيد بن منصور وأبا مصعب وغيرهما وبمصر : عمرو بن سواد وحرملة ابن يحيى وغيرهما(٧٥) وشيوخه كثيرون ولا يحصيهم العد .

تلاميذه :

وقد قدم الامام مسلم الى بغداد غير مرة فروى عنه أهلها وكان آخر قدومه سنة تسع وخمسين ومائتين (٧٦) .

وممن روى عن الامام مسلم الكثيرون من أئمة عصره الحفاظ وكان من بينهم جماعات فى درجته منهم : أبو حاتم الرازى ، وموسى بن فضل واحمد بن سلمة ، وأبو عيسى الترمذى ، وأبو بكر بن خزيمة ويحيى بن على وأبو عوانه الاسفراينى وآخرون لا يحصون * .

وقد أجمع العلماء على إمامته فى الحديث وتضلعه فى الرواية . ومن أكبر الدلائل على إمامته وحذقه فى هذه الصنعة كتاب « المسند الصحيح » الذى بلغ فى حسن الترتيب وتلخيص الطرق مبلغا عظيما .

وكان الامام مسلم صنو الامام البخارى فى ضبطه وحفظه وفى ورعه فجمع بين العلم والعمل وكان له فضل كبير فى المحافظة على السنة وعلومها وصيانة الحديث من الأعداء والجهلاء كما تصدى للرد على ما أثير من شبه ضد المحدثين .

وأعترف بفضل الامام مسلم وثقته وصدقه كثير من الأئمة ، يقول ابو بكر الجارودى : حدثنا مسلم بن الحجاج وكان من أوعية العلم . وقال مسلمة بن قاسم ، (ثقة جليل القدر من الأئمة) . وقال ابن أبى حاتم : (كتبت عنه وكان ثقة من الحفاظ له

---

(٧٥) مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم ص ٧ ط الشعب ، تهذيب الأسماء واللغة جـ ٢ ص ٩١ .

(٧٦) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١١٩ .

(*) مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم ص٧ .

معرفة بالحديث ، وسئل أبى عنه فقال : صدوق)[٧٧] أ . هـ . ولما كان للامام مسلم هذه المكانة العلمية الجليلة ، فقد تأثر به كثير من العلماء ، وحاول بعض النيسابوريين أن ينسجوا على منواله فلم يبلغوا شأوه ، وصنفوا المستخرجات على كتابه ، وقد أجمع العلماء على علو مرتبته وحذقه فى هذه الصنعة وتقدمه فيها تقدما عظيما قال النووى : (ومن أكبر الدلائل على ذلك كتابه الصحيح الذى لم يوجد فى كتاب قبله ولا بعده من حسن الترتيب وتلخيص طرق الحديث بغير زيادة ولا نقصان والاحتراز من التحول فى الاسانيد عند اتفاقها من غير زيادة وتنبيهه على ما فى ألفاظ الرواة من اختلاف فى متن أو إسناد ولو فى حرف واعتنائه بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدلسين وغير ذلك مما هو معروف فى كتابه[٧٨] . وفى قول النووى هذا نرى أنه استخلص أكبر الدلائل على حذق الامام مسلم فى الصنعة الحديثية فساقها من استقرائه للكتاب وأجملها فى هذه العبارة وهى دلائل تدل بحق على مكانة المسند الصحيح وعظم شأن صاحبه .

مؤلفاته

يتميز التصنيف بما يتميز به صاحبه ، فهو ثمرة فكره ودليل عبقريته ، وكلما كثرت أنواع التصنيف كلما دلت على سعة أفق صاحبها وخصوبة فكره وعقليته ، وهكذا كان شأن الامام مسلم رحمه الله بالنسبة لمصنفاته فقد كثرت وتنوعت فى فنون مختلفة من فنون الحديث وهذا يدل على تمكنه فى هذا المجال ورسوخ قدمه فيه ، فقد أسهم فى تصنيف الحديث رواية ودراية فوضع مؤلفات فى الحديث وفنونه ومن أجل كتبه (كتاب المسند الصحيح) ، ومن آثاره [٧٩] :

١ - المسند الكبير : وقد رتبه على الرجال
٢ - الجامع وقد رتبه على الأبواب .
٣ - الاسماء والكنى : فى أربعة أجزاء
٤ - الافراد والوحدان .
٥ - مشايخ الثورى .
٦ - تسمية شيوخ مالك وسفيان وشعبة .

---

(٧٧) تذكرة الحفاظ للذهبى جـ ٢ ص ١٨٢ ، مقدمة تحفة الأحوذى جـ ١ ص ٢٣ .
(٧٨) تهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ ٢ ص ٩٠ .
(٧٩) مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم ، تهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ ٢ ص ٩١ .

٧ ـ كتاب المخضرمين .
٨ ـ كتاب أولاد الصحابة .
٩ ـ الطبقات .
١٠ ـ أوهام المحدثين .
١١ ـ كتاب التمييز .
١٢ ـ العلل .
١٣ ـ أفراد الشاميين .

ومؤلفات الامام مسلم تجمع بين طياتها كثيرا من النفائس والمحاسن ولم تزل ميدانا خصبا للباحثين فهو بحق إمام لم يلحقه أحد من بعد عصره .

وبعد الحياة الحافلة بخدمة السنة الممتلئة بأجل الأعمال توفى الامام مسلم عشية يوم الاحد بنيسابور ودفن يوم الاثنين لخمس وقيل لست بقين من شهر رجب سنة احدى وستين ومائة وعمره خمس وخمسون سنة (٨٠) .

وبعد هذه الصحبة المباركة لحياة هذا الامام الجليل يصل بنا المطاف إلى أهم أعماله العلمية وأعظم ثمرات حافظته الحادة وفكره المعطاء ألا وهو كتاب « المسند الكبير » ثانى الكتب الستة وأحد الصحيحين اللذين تلقتهما الأمة الاسلامية بالقبول . عرفانا بأنه أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى .

---

(٨٠) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢ ص ١١٩ تهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ ٢ ص ٩٢ .

الجامع الصحيح للامام مسلم بن الحجاج

التعريف بالكتاب :

هو المسند الصحيح الذى طبقت شهرته الآفاق وتلقته الأمة بالقبول ، انتقاه الامام مسلم من آلاف الروايات ، روى الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى بإسناده لمسلم رحمه الله قال : (صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموع) وبهذا القول يتضح الاسم الأصلى لصحيح مسلم وهو (المسند الصحيح) أخذا من قوله السابق : (صنفت هذا المسند الصحيح) .

وقد تحرى الامام مسلم فى كتابه تمحيص الروايات والموازنة بينها وتحرير ألفاظها وقطع فى سبيل ذلك الرحلات الواسعة واستعان ببعض تلاميذه فى كتاباته وتحريره حتى جاء الكتاب ثمرة طيبة للجهاد والاجتهاد الذى بذله هذا الامام . واستغرق فى تأليفه خمس عشرة سنة ، روى عن أحمد بن سلمة أنه قال : كتبت مع مسلم فى تأليف صحيحه خمس عشرة سنة وهو اثنا عشر الف حديث ومما يدل على تحريه للروايات الصحيحة وشدة نقده وتمحيصه قوله : ما وضعت شيئا فى هذا إلا بحجة وما أسقطت منه شيئا إلا بحجة ، ولشدة حيطته كذلك فيما دون أنه قام بعد الفراغ من تأليفه بعرضه على أئمة المحدثين لينقدوه وليروا فيه رأى الحق وهذه سمة العلماء المخلصين يبتغون الحق ويرون فى الرجوع إليه اذا ظهر فضيلة ، قال الامام مسلم : « عرضت كتابى على أبى زرعة الرازى فكل ما أشار أن له علة تركته وكل ما قال أنه صحيح وأنه ليس به علة خرجته »[81] « أ . هـ » .

---

(٨١) مقدمة صحيح مسلم بشرح النووى ص ١١ ط للشعب .

سبب تصنيف الامام مسلم « للمسند الصحيح »

قام الامام مسلم بتأليف كتابه فى وقت كانت الحاجة فيه ملحة لظهور مثل هذا الكتاب خاصة وقد توجه إليه بعض المعاصرين وسأله أن يلخص مؤلفا فى جملة الأخبار المأثورة عن رسول الله ﷺ فى سنن الدين وأحكامه وما كان منها فى الثواب والعقاب والترغيب والترهيب وغير ذلك بالأسانيد التى نقلت بها وتداولها أهل العلم فيما بينهم .

وقد صادف هذا السؤال من أحد المعاصرين هوى فى نفس الامام اذ كان لديه الاستعداد والرغبة من قبل وكان يحفزه لهذا العمل دافعان :

الأول : رغبته فى القيام بجمع طائفة من الأحاديث الصحيحة المتصلة الى رسول الله ﷺ على وجه يسهل على العامة والخاصة النظر فى وجوه الحديث واستثمارها وتقريبها للباحثين فى الفقه وغيره حتى يمكن الوقوف على كل العطاء الذى تمنحه السنة النبوية ، ذلك لأن المصنفات فى ذلك العصر كانت صعبة المأخذ ممزوجا فيها الصحيح بغيره . ولئن كان الجامع الصحيح للامام البخارى مرتبا على الأبواب إلا أن الكشف فيه يحتاج إلى من له خبرة دقيقة بفنون الحديث لخفاء تراجمه على غير أهل الخبرة .

الثانى : ما كانت عليه الحال آنئذ قبل جمع الصحيحين من اختلاط الأحاديث القوية بالضعيفة والصحيحة بغير الصحيحة ، وما قام به القصاص والزنادقة والجهلاء وأهل الأهواء من أغراء العامة وتشويه الحقائق أمام أعينهم وابراز أخبار منكرة فى صورة أحاديث صحيحة ، كل ذلك كان حافزا للامام مسلم أن يقدم كتابا شاملا للأحاديث الصحاح التى يطمئن الناس إليها ويشتغلون بها ويبتعدون عن تيارات الفساد والتضليل .

واستجابة لهذا كله نهض الامام مسلم بتصنيف كتابه فى بلده وفى حياة الكثير من شيوخه متحريا فى الألفاظ وفى السياق ، ولا يتصدى لما تصدى له البخارى من استنباطات فقهية أو تفريعات علمية وقدم لكتابه بمقدمة علمية تعتبر من المؤلفات المبتكرة فى علم أصول الحديث واحتوت على خطته التى سار عليها فى تصنيف كتابه والباعث الذى دفعه الى هذا التصنيف موضحا أن ضبط القليل المتقن أيسر من معالجة الكثير عند غير

المتخصصين . قال الامام مسلم فى مقدمة صحيحه : (إن ضبط القليل من هذا الشأن واتقانه أيسر على المرء من معالجة الكثير منه ولا سيما عند من لا تمييز عنده من العوام إلا بأن يوقفه على التمييز غيره واذا كان الأمر فى هذا كما وصفناه فالقصد منه الى الصحيح القليل أولى بهم من ازدياد)[٨٢] .

ويتضح مما سبق أن الامام مسلما أراد بتأليفه هذا الكتاب أن يقوم بتقريب السنة النبوية الى الناس على منهج مستساغ مناديا كل محب لها وكل راغب فى الاستشهاد والاستنباط . كما أراد أن يظهر ما صح من أحاديث الرسول ﷺ فى ثوبها الإلهى المشرق بالحق الدامغ لأباطيل الزنادقة والقصاص والجهلة .

---

(٨٢) مقدمة صحيح مسلم ص ٣٧ .

منهج الامام مسلم فى كتابه

تأثر الامام مسلم بالامام البخارى فنهج نهجه فى تأليف صحيحه فجمع الحديث الصحيح المجرد عن أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وبوّبه على أبواب العلم من فقه وغيره إلا أنه اقتصر على سرد المسند دون ذكر الموقوفات إلا نادرا ، ولم يذكر تراجم للأبواب كما صنع البخارى وإنما قام بالتبويب والترجمة من تصدى لشرحه لا سيما الامام أبو زكريا النووى . وقد سلك الامام مسلم فى صحيحه طريقة حسنة ، إذ قام بجمع المتون كلها بطرقها فى موضع فلم يقطع الحديث فى أبوابه كما فعل البخارى ، قال النووى : « وقد انفرد مسلم بفائدة حسنة وهى كونه أسهل متناولا من حيث أنه جعل لكل حديث موضعا واحدا يليق به جمع فيه طرقه التى ارتضاها واختار ذكرها وأورد فيه أسانيده المتعددة وألفاظه المختلفة فيسهل على الطالب النظر فى وجوهه واستثمارها ويحصل له الثقة بجميع ما أورده مسلم من طرقه بخلاف البخارى فانه يذكر تلك الوجوه المختلفة فى أبواب متفرقة ومتباعدة ويذكر الكثير منها فى غير بابه الذى يسبق الى الفهم أنه أولى به وذلك لدقيقة يفهمها البخارى منه فيصعب على الطالب جمع طرقه وحول الثقة بجميع ما ذكره البخارى من طرق هذا الحديث أ . هـ .

والذى سهل للامام مسلم سلوك هذا المنهج فى كتابه أنه لم يقصد فى جمع الاحاديث النبوية عرض ما فيها من أحكام فقهية وغيرها ، أما البخارى فقد قصد ذلك ، ولذا اضطر الى طريقته التى سلكها فى تقطيع الأحاديث وذكرها فى أبواب متعددة ومتباعدة ، ومن دقة الامام مسلم فى كتابه واعتنائه أنه تحرى التمييز بين « حدثنا وأخبرنا » فأما لفظ حدثنا فلا يجوز اطلاقه الا لما سمعه من لفظ الشيخ خاصة ، وأما أخبرنا فأطلقه على ما قرىء على الشيخ ، وهذا هو مذهب الامام الشافعى وأصحابه وجمهور أهل العلم بالمشرق وهو مذهب أكثر أصحاب الحديث. وروى ذلك أيضا عن ابن جريج والأوزاعى وابن وهب والنسائى وصار هو الشائع الغالب على أهل الحديث . وذهب جماعة من العلماء الى جواز اطلاق « حدثنا وأخبرنا » فيما قرىء عن الشيخ وهو مذهب الزهرى ومالك وسفيان ابن عيينة ويحيى بن سعيد القطان وغيرهم من المتقدمين وهو مذهب الامام البخارى ومعظم الحجازيين والكوفيين .

وذهبت طائفة إلى أنه لا يجوز اطلاق « حدثنا ولا أخبرنا » فى القراءة وهو مذهب ابن المبارك ويحيى بن يحيى وأحمد بن حنبل والمشهور عن النسائى .

وكما عنى الامام مسلم بلفظ « حدثنا وأخبرنا » عنى أيضا بضبط ألفاظ الرواة وبيان اختلافها بقوله حدثنا فلان وفلان واللفظ لفلان قال أو قالا حدثنا فلان ، كما كان يبين ما هناك من اختلاف فى حرف من متن الحديث أو صفة الراوى أو نسبه سواء أكان بعض هذه الأمور يتغير به المعنى أو كان لا يتغير به .

ومن تحرى الامام مسلم : دقته فى رواية صحيفة همام بن منبه عن أبى هريرة كقوله حدثنا محمد بن رافع قال : حدثنا عبد الرزاق معمر عن همام قال : هذا ما حدثنا أبوهريرة عن محمد رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها وقال رسول الله ﷺ : « اذا توضأ أحدكم فاستنشق » الحديث ، وذلك لأن الصحائف والأجزاء والكتب المشتملة على أحاديث باسناد اذا اقتصر عند سماعها على ذكر الاسناد فى أولها ولم يجدد عند كل حديث منها وأراد انسان ممن سمع كذلك أن يفرد حديثا منها غير الأول بالاسناد المذكور فى أولها فهل يجوز له ذلك ؟ قال وكيع بن الجراح ويحيى بن معين وأبو بكر الاسماعيلى الشافعى الامام فى الحديث والفقه والأصول : يجوز ذلك ، وهذا مذهب الاكثرين من العلماء ، لأن الجميع معطوف على الأول فالاسناد المذكور أولا فى حكم المعاد فى كل حديث وقال الأستاذ أبو اسحاق الاسفراييني : لا يجوز ذلك فعلى هذا من سمع هكذا فطريقه أن يبين ذلك كما فعله مسلم فمسلم رحمه الله سلك هذا الطريق ورعا واحتياطا وتحريا واتقانا . ومن ذلك تحريه فى مثل قوله « حدثنا » عبد الله بن مسلمه حدثنا سليمان يعنى ابن بلال ـ عن يحيى وهو ابن سعيد فلم يستجز رضى الله عنه أن يقول سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد لكونه لم يقع فى روايته منسوبا فلو قاله منسوبا لكان مخبرا عن شيخه أنه أخبره بنسبه ولم يخبره ، ومن دقته أيضا احتياطه الشديد فى تلخيص الطرق وتحويل الاسانيد فى عبارة موجزة تؤدى المعنى على التمام ، كما امتاز منهجه بروعة الترتيب وجمال التنسيق والدقة العلمية فى قواعد الاسناد والمتن . وهكذا يطالعنا منهج الامام مسلم فى تدوين كتابه على الأمانة مما يعلمه وعلى الدقة الفائقة بفنون الحديث وعلى حسن العرض والتنسيق مما يشهد له بتضلعه فى الحديث وامامته فيه .

وقد قسم الامام مسلم الاحاديث ثلاثة أقسام ، والرجال ثلاث طبقات من حيث العدالة والضبط وذلك دون تكرار إلا لضرورة تقتضى تكرار الحديث كزيادة المعنى فى الطريق الآخر وبيان علة فى اسناد بمقارنته بغيره من الاسانيد .

القسم الأول : ما رواه الحفاظ المتقنون الذين بلغوا أقصى درجات الصحة فى رواياتها .

القسم الثانى : ما رواه المستورون المتوثقون فى الحفظ والاتقان المتصفون بالصدق .

القسم الثالث : ما رواه الضعفاء والمتروكون .

فاذا ما فرغ من القسم الأول اتبعه الثانى وأما الثالث فلا يعرج عليه فذكر فى كتابه حديث الطبقتين الأوليين وأتى بأسانيد الثانية منها على طريق الاتباع للأولى والاستشهاد أو حيث لم يجد فى الأولى شيئا وهذا ما رآه القاضى عياض ، وقد رأى الامامان أبو عبد الله الحاكم وأبو بكر البيهقى رحمهما الله أنه ذكر القسم الأول وعاجلته المنية قبل اخراج القسمين الباقيين وتأول الحاكم أنه انما أراد أن يفرد لكل طبقة كتابا ويأتى بأحاديثهما خاصة ويرى ابن سفيان صاحب مسلم أن مسلما أخرج ثلاثة كتب من المسندات : أحدها هذا الذى قرأه على الناس وقال ابن عساكر أنه رتب كتابه على قسمين وقصد أن يذكر فى الأول أحاديث أهل الثقة والاتقان وفى الثانى أحاديث أهل الستر والصدق[٨٣] .

والذى أراه أن هذا ليس مراد الامام مسلم ولكنه قد خرج أحاديث الطبقتين الأوليين كما هو موجود فى كتابه وكما ظهر من تأليفه ولم يذكر شيئا من أحاديث الطبقة الثالثة وهذا هو ما رجحه القاضى عياض .

رموز كتاب الامام مسلم

سلك الامام مسلم أيضا مسلك الايجاز فى كتابه فقام بجمع الطرق منتهجا طريقة التحويل ورمز اليها بحرف (ح) والمذهب المختار أنها مأخوذة من التحويل لتحوله من الإسناد الى إسناد آخر ، وان القارىء اذا وصل اليها يقول (ح) ويستمر فى قراءة ما بعدها وقيل أنها من حال بين الشيئين اذا حجز لكونها حالت بين الاسناد وأنه لا يلفظ بها عند الانتهاء اليها بشىء وليست من الرواية وقيل أنها رمز الى قوله الحديث ، وأن أهل المغرب كلهم يقولون اذا وصلوا إليها الحديث وقيل أنها رمز الى لفظ (صح) وحسنت كتابتها لئلا يتوهم أنه سقط متن الإسناد الأول وهى كثيرة فى صحيح مسلم قليلة فى صحيح البخارى .

---

(٨٣) كشف الظنون جـ ١ ص ٥٥٦ ، مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم ص ١٦ ـ ١٨ .

ولطريقة التحويل التى انتهجها الامام مسلم فى كتابه ثمرة وهى الايجاز حيث يكون للحديث أكثر من اسناد وبين الأسانيد اتفاق فى بعض الرواة ومغـايرة فى البعض فيـأتى بموضع الاختلاف واذا ما انتهى الى موضع الاتفاق يحول الى اسناد آخر وذلك بدلا من أن يسوق كل رواية على حدة ولم يكثر الامام مسلم رحمه الله فى كتابه من التعليق ، اذ ليس فى كتابه منها إلا اثنا عشر موضعا وهى فى لمتابعات لا الأصول . وكل وما ورد فى الكتاب من التعاليق انما هو موصول من جهات صحيحة .

رواة صحيح مسلم

روى صحيح مسلم رواة ثقات عرفوا بالورع والصلاح والثقة والحفظ وقد ذكر الامام النووى فى مقدمة شرحه أن اسناد سماعه وسماع أهل زمانه لكتاب الامام مسلم فى نهاية العلو بينه وبين مسلم ستة هم :

شيخه أبو اسحاق ، ثم شيخ أبى اسحاق منصور بن عبد المنعم القراوى ثم جد أبى منصور وهو محمد بن الفضل ثم شيخ الفرادى وهو أبى الحسين عبد الغافر الفارسى ثم شيخ الفارسى أبو أحمد الجلودى أبو اسحاق ابراهيم ثم شيخه الامام مسلم بن الحجاج .

أما ابو اسحاق إبراهيم بن أبى حفص عمر بن مضر الواسطى فكان معروفا بالصلاح والكرم والوقار توفى بالاسكندرية فى اليوم السابع من رجب سنة أربع وستين وستمائة .

وأما شيخ أبو اسحاق فهو الامام ذو الكنى أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح منصور بن عبد المنعم الفراوى النيسابورى نسب الى فراوة وهى بلدة من ثغر الخرسان وكان شيخا جليلا فقه سمعه صحيح روى عن أبيه وجده وجد أبيه أبى عبد الله محمد بن الفضل وروى عن غيرهم ، ولد فى رمضان سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وتوفى بنيسابور فى شعبان سنة ثمان وستمائة .

واما أبو عبد الله محمد بن الفضل الفراوى جد أبى منصور النيسابورى فكان بارعا فى الفقه والأصول كثير الروايات بالأساليب الصحيحة العالية وقد سمع المسانيد والصحاح وأكثر عن مشايخ عصره ، توفى فى العشر الأواخر من شوال سنة ثلاثين وخمسمائة وكان قد سمع صحيح مسلم من عبد الغافر فى السنة التى توفى فيها عبد الغافر سنة ثمان وأربعين وأربعمائة بقراءة أبى سعيد البحرى .

وأما شيخ الفراوى فهو أبو الحسين عبد الغافر بن محمد عبد الغافر بن أحمد بن محمد الفارسى النيسابورى التاجر وسمع مسلم من الجلودى سنة خمس وستين وثلاثمائة كان شيخا ثقة صالحا وقرأ الحافظ حسن السمر قندى عليه صحيح مسلم نيفا وثلاثين مرة كما قرأه عليه الكثيرون وتوفى يوم الثلاثاء السادس من شوال سنة ثمان وأربعين وأربعمائة .

أما شيخ الفارسى فهو أبو أحمد بن عيسى بن محمد بن عبد الرحمن بن عمرويه بن منصور الزاهد النيسابورى الجلودى قال الحاكم ابو عبد الله كان صالحا زاهدا من كبار عباد الصوفية توفى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ثمان وستين وثلاثمائة .

وأما شيخ الجلودى فهو أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن سفيان النيسابورى الفقيه الزاهد وكان من الملازمين لمسلم بن الحجاج ، قال ابراهيم فرغ مسلم من قراءة الكتاب فى رمضان سنة سبع وخمسين ومائتين ومات فى رجب سنة ثمان وثلاثمائة .

وأما شيخ ابراهيم بن محمد بن سفيان فهو الامام مسلم صاحب الكتاب .

وهكذا نرى هذا الاسناد المسلسل بالروايات الصحيحة عن الرواة الثقات لهذا الكتاب العظيم المسند الصحيح للامام مسلم . وقال النووى : وحصل لروايتنا لطيفة وهو أنه اسناد مسلسل بالنيسابوريين وبالمعمرين فإن رواته كلهم معمرون وكلهم نيسابوريون من شيخنا أبي اسحاق الى مسلم [٨٤] « أ . هـ » .

---

(٨٤) مقدمة النووى على صحيح مسلم ص ٧ .

عدد أحاديث صحيح مسلم

وعدد أحاديث صحيح مسلم دون المكررة أربعة آلاف ، روى الامام أبو عمرو بن الصلاح بسنده عن أبى قريش الحافظ قال : كنت عند أبى الرازى فجاء مسلم بن الحجاج فسلم على وجلس ساعة وتذاكرا ، فلما قام قلت له : هذا جمع أربعة آلاف حديث فى الصحيح قال أبو زرعة : فلمن ترك الباقى : وقال الشيخ : أراد أن كتابه هذا أربعة آلاف حديث أصول دون المكررات[٨٥] . وأما عدد صحيح مسلم بالمكرر فهو كثير ، روى عن أحمد بن سلمة أنه قال : كتبت مع مسلم فى تأليف صحيحه خمس عشرة سنة وهو اثنا عشر الف حديث وقد انتقى الامام مسلم هذه الاحاديث من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة ، فقد روى عنه أنه قال : « صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة » . وقد وافق الامام مسلم الامام البخارى على تخريج ما فيه إلا ثمانى مائة وعشرين حديثا ، وجملة ما فى صحيح مسلم باسقاط المكرر نحو أربعة آلاف ، قال العراقى : وهو يزيد على البخارى بالمكرر لكثرة طرقه ، قال وقد رأيت عن أبى الفضل أحمد بن سلمة أنه اثنا عشر ألف حديث ، وقال المابنجى : ثمانية آلاف[٨٦] ، وأرجح رأى ابن سلمة ، فهو الذى اشترك مع الامام مسلم فى كتابه الصحيح ومكث معه خمس عشرة سنة فرأى من مارس التدوين مع صاحبه أقرب الى الصحة .

---

(٨٥) مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم ص ١٥ .

(٨٦) تدريب الراوى ص ٥١ .

شروط الامام مسلم فى صحيحه

اشترط الامام مسلم أن يكون الحديث الصحيح السند متصلا بنقل العدول الضابطين ، خاليا من الشذوذ والعلة كما اشترط فى « المعنعن » : المعاصرة ، وقد ضرب الحازمى مثلا بمعرفة طبقات الرواة بأصحاب الزهرى وأنهم على خمس طبقات :

فالطبقة الأولى : « فى غاية الصحة ، وهم شرط البخارى » .

والطبقة الثانية : « شاركت الأولى فى العدالة غير أن الأولى جمعت بين الحفظ والاتقان وبين طول الملازمة للزهرى حتى كان فيهم من يزامله فى السفر ، ويلازمه فى الحضر أما الطبقة الثانية فلم تلازم الزهرى إلا مدة يسيرة فلم تمارس حديثه ، وكانوا فى الاتقان دون الطبقة الأولى وهم شرط الامام مسلم وأهل هذه الطبقة مثل : عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعى والليث بن سعد والنعمان بن راشد ، وعبد الرحمن بن خالد بن مسافر وغيرهم » .

الطبقة الثالثة : « جماعة لزموا الزهرى مثل أهل الطبقة الأولى غير أنهم لم يسلموا من غوائل الجرح فهم بين الرد والقبول وهم شرط أبى داود والنسائى نحو سفيان بن حسين السلمى وجعفر بن برقان » والامام مسلم انما يخرج أحاديث الطبقتين : الأولى والثانية على سبيل الاستيعاب ويخرج أحاديث أهل الطبقة الثالثة على النحو الذى يصنعه البخارى فى الثانية أى أنه يخرج من أحاديث الطبقة الثالثة ما يعتمده من غير استيعاب .

وأما الرابعة والخامسة فلا يعرج عليهما ، وقد سبق بيان ان الامام البخارى اشترط فى الحديث المعنعن اللقاء مع المعاصرة بخلاف الامام مسلم فانه يكتفى بالمعاصرة ولا يشترط اللقاء وهذا يدل على أن مسلما اكتفى من الشروط بما هو دون شروط البخارى ، وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح : شرط مسلم رحمه الله تعالى فى صحيحه أن يكون الحديث متصل الاسناد بنقل الثقة عن الثقة من أوله الى منتهاه سالما من الشذوذ والعلة ، قال : وهذا حد الصحيح فكل حديث اجتمعت فيه هذه الشروط فهو صحيح بلا خلاف بين أهل الحديث ، وما اختلفوا فى صحته من الاحاديث فقد يكون سبب اختلافهم انتفاء

شرط من هذه الشروط ، وبينهم خلاف فى اشتراطه كما اذا كان بعض الرواة مستورا أو كان الحديث مرسلا ، وقد يكون سبب اختلافهم أنه هل اجتمعت فيه هذه الشروط أم انتفى بعضها وهذا هو الأغلب فى ذلك كما اذا كان الحديث فى رواته من اختلف فى كونه شرط الصحيح فاذا كان الحديث رواته كلهم ثقات غير أن فيهم الزبير المكى مثلا أو سهيل بن أبى صالح أو العلاء بن مسلم وليس بصحيح على شرط البخارى لكون هؤلاء عند مسلم مما اجتمعت فيهم الشروط المعتبرة ولم يثبت عند البخارى ذلك منهم « أ . هـ » .

وجاء عن الامام مسلم أنه قال فى الصحيح : ليس كل شىء صحيح عندى وضعته هنا ولكن وضعت ههنا ما أجمع عليه وقد نوقش فى ذلك حيث ان فيه أحاديث انتقدت عليه واختلف فى صحتها لكونها من حديث من اختلف فى صحة حديثه ، وقد أجاب ابن الصلاح على ذلك فقال وجوابه من وجهين :

أحدهما : أن مراده أنه لم يضع فيه الا ما وجد عنده فيه شروط الصحيح المجمع عليه وان لم يظهر اجتماعها فى بعض الأحاديث عند بعضهم .

والثانى : انه أراد : « أنه لم يضع فيه الا ما اختلف الثقات فيه فى نفس الحديث متنا أو إسنادا » ولم يرد « ما كان اختلافهم انما هو فى توثيق بعض رواته وهذا هو الظاهر من كلامه ، فانه قال ذلك لما سئل عن حديث أبى هريرة (فاذا قرىء فأنصتوا) هل هو صحيح ؟ فقال هو عندى صحيح فقيل : لم لم تضعه ها هنا ؟ فأجاب بالكلام المذكور [٨٧] « أ . هـ » .

وعلى كل فشرط الامام مسلم دون شرط الامام البخارى وقد كان للامام مسلم فضل كبير فى ما دون فى صحيحه من الأحاديث الصحيحة التى انتفع العلماء بها فى التشريع والمواعظ وكثير من الأداب تلك الاحاديث التى ما كانت لتأتى لو أنه شدد فى شرط كتابه صحيح .

---

(٨٧) مقدمة صحيح مسلم بشرح النووى ص ١١ ، ١٢ .

ترك الامام مسلم لبعض الأحاديث الصحيحة

اشترط الامام مسلم فى كتابه أن يخرج الاحاديث الصحيحة على شرطه ، ولكنه لم يلتزم استيعاب جميع الاحاديث الصحيحة ، ومن هنا فقد وجدت أحاديث صحيحة كثيرة فى كتب السنن الأربعة لم تخرج فى كتاب مسلم ، ولا فى كتاب البخارى كما وجدت أحاديث صحيحة فى مسند الامام أحمد بن حنبل ومستدرك الحاكم ومعجمى الطبرانى الكبير والأوسط ومسند أبى يعلى وغير ذلك من المسانيد والمعاجم .

وقد سبق توضيح أن الامام اليخارى لم يستوعب الصحيح فى كتابه ولا التزم استيعابه وأما بالنسبة للامام مسلم فقد روى عنه أنه قال : (ليس كل شىء عندى صحيح وضعته ههنا انما وضعت ههنا ما أجمع عليه) ومراده بذلك انه لم يدون فى كتابه الا الاحاديث التى انطبقت عليها شروط الصحيح المجمع عليه وإلا لم يكن هذا الاجتماع ظاهرا فى بعضها عند البعض .

واذا تبين أن الامام مسلما لم يستوعب الصحيح فى كتابه ولا التزم استيعابه فليس لاحد من أهل الأهواء والبدع أن ينكر حديثا من الاحاديث الصحيحة متعللا بأنه ليس فى الصحيحين واحتياطا لمثل ذلك عوتب الامام مسلم على جمع الاحاديث الصحاح فى كتاب فقد روى عن أبى زرعة الرازى أنه قال : أن هذه الطريقة تتيح لأهل البدع أن يجدوا السبيل الى المعارضة اذا احتج عليهم بحديث يقولون ليس هذا من كتاب الصحيح كما عاتبه أبو عبد الله محمد بن مسلم بن وارة وقال له : نحو مما قاله أبو زرعة فقال له مسلم (انما أخرجت هذا الكتاب وقلت هو صحاح ولم أقل أن ما لم أخرجه من الحديث فى هذا الكتاب ضعيف ولكن خرجت هذا من الحديث الصحيح ليكون مجموعا عندى وعند من يكتبه عنى ولا يرتاب فى صحتها ولم أقل أن ما سواه ضعيف) .

ويتضح مما سبق أن الامام مسلما لم يستوعب الصحيح كالبخارى ولا التزم فلا وجه اذا لا لزام من ألزم كل منهما إخراج أحاديث لم يخرجها مع كونها صحيحة على شرطهما كالدار قطنى والبيهقى ، فانهما لم يستوعبا الصحيح وانما قصدا جمع جمل من الصحيح كما يقصد المصنف فى الفقه الى جمع جملة من مسائله[٨٨] .

(٨٨) شروط الأئمة الخمسة ص يـ ٥ ، مقدمة شرح النووى ص كـ ١ .

وكما لم يستوعبا الأحاديث الصحيحة لم يستوعبا كذلك الرواة الذين توافرت فيهم صفات القبول والصحة وهم كثيرون فلا يلزم من عدم تخريج الشيخين لراو من الرواة فى الصحيحين سقوطه أو ضعفه ، وهناك جماعة من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين لم يخرج لهم فى الصحيحين وذلك لأن أحاديثهم كانت فى مأمن من الضياع لكثرة أصحابهم القائمين بروايتها شرقا وغربا وجل عناية أصحاب الدواوين بأناس من الرواة ربما كانت تضيع أحاديثهم لولا عنايتهم بها . وقد يكون السبب فى ترك الشيخين لبعض الرواة أحيانا وجود ضعف فى الاسناد القائم بين هذا الراوى وبين صاحب الصحيح فيترك طريقه وقد يكون السبب طلب الاسناد العالى بأن كان الحديث من طريق هذا الراوى نازلا ويكون من طريق غيره عاليا فيختار صاحب الصحيح الاسناد العالى لقربه .

هل ترجم مسلم لكتابه كالبخارى ؟

نهج الامام مسلم فى تأليف كتابه نهجا حسنا اتسم بحسن التنسيق والتبويب فجمع الاحاديث المتعلقة بموضوع واحد فى موضع واحد ولم يفرقها فى الأبواب ولم يقطعها فى تراجم متعددة أو يكررها الا لحاجة ، وبهذا لم يصنع فى كتابه تراجم للابواب وربما خشى إن ذكر ذلك أن يطول الكتاب ، أو أنه اراد بعدم ذكر التراجم أن يعمل القارىء فكره فى الاستنباط . وقد نهض شراح صحيح مسلم فيها بعد فأولوه العناية التامة ووضعوا له التراجم ، الا أن بعض هذه التراجم كان جيدا والبعض غير جيد وسبب ذلك هو القصور فى عبارة الترجمة وعدم قوة الصياغة فيها وقد حرص الامام النووى على ذلك فقال : وأنا إن شاء الله تعالى أحرص على التعبير عنها ـ أى التراجم ـ بعبارات تليق بها فى مواطنها .

وهكذا قدم لنا الامام النووى كتاب الامام مسلم فى صورة سهلة المأخذ قريبة المنال فذلل كل عسير على القراء ويسر كل صعب على الباحثين .

نقد الرجال فى صحيح مسلم

وجه بعض العلماء النقد الى الامام مسلم فى تخريجه عن بعض الرجال الضعفاء كما وجه النقد فيما سبق الى الامام البخارى فعاب بعضهم الامام مسلما بأنه روى فى كتابه عن بعض الرجال الضعفاء والمتوسطين الذين وقعوا فى الطبقة الثانية الذين ليسوا من شرط الصحيح .

وقد أجاب الامام أبو عمرو بن الصلاح بالآتى :

أولا : أن يكون ذلك فيمن هو ضعيف عند غيره ثقة عنده ولا يقال الجرح مقدم على التعديل لأن ذلك فيما اذا كان الجرح ثابتا مفسر السبب والا فلا يقبل الجرح اذا لم يكن هكذا لأن بعض العلماء قد يجرح من لا يستحق الجرح ، وقد قال الامام الحافظ الخطيب البغدادى وغيره : ما احتج البخارى ومسلم وأبو داود به من جماعة علم الطعن فيهم من غيرهم محمول على أنه لم يكن الطعن المؤثر مفسر السبب .

ثانيا : أن يكون ذلك واقعا فى المتابعات والشواهد لا فى الاصول وذلك بأن يذكر الحديث أولا باسناد نظيف رجاله ثقات ثم يتبعه باسناد آخر أو اسانيد فيها بعض الضعفاء على وجه التأكيد بالمتابعة أو لزيادة فيه تنبه على فائدة فيما قدمه وقد اعتذر الحاكم أبو عبد الله بالمتابعة والاستشهاد فى اخراجه عن جماعة ليسوا من شرط الصحيح منهم مطر الوراق وبقية بن الوليد ومحمد بن اسحاق بن يسار وعبد الله بن عمر العمرى والنعمان بن راشد وأخرج مسلم عنهم فى الشواهد فى اشباه لهم كثيرين .

ثالثا : أن يكون ضعف الضعيف الذى احتج به طرأ بعد أخذه عنه باختلاط حدث عليه فهو غير قادح فيما رواه من قبل زمن استقامته كما فى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب بن أخى عبد الله ابن وهب فذكر الحاكم أبو عبد الله أنه اختلط بعد الخمسين ومائتين بعد خروج مسلم من مصر فهو فى ذلك كسعيد بن أبى عروبة وعبد الرزاق وغيرهما ممن اختلط آخرا ولم يمنع ذلك من صحة الاحتجاج فى الصحيحين بما أخذ عنهم قبل ذلك

رابعا : أن يعلو بالشخص الضعيف اسناده وهو عنده من رواية الثقات نازل فيقتصر على العالى ولا يطول باضافة النازل إليه مكتفيا بمعرفة أهل الشأن فى ذلك وهو خلاف حاله

فيما رواه الثقات أولا ثم اتبعه بما دونهم متابعة وكان ذلك وقع منه على حسب حضور باعث النشاط وغيبته وهذا الوجه مما اعتذر به مسلم لما اعترض عليه ببعض الرواة الذين خرج لهم روى عن سعيد بن عمرو البرذعى انه حضر أبا زرعة الرازى وذكر صحيح مسلم وانكار أبى زرعة عليه روايته فيه عن سباط بن نصر وقطن بن نسير وأحمد بن عيسى المصرى ، قال سعيد بن عمرو فلما رجعت الى نيسابور ذكرت لمسلم انكار أبى زرعة فقال لى مسلم انما ادخلت مَن حديث أسباط وقطن وأحمد ما قد رواه الثقات عن شيوخهم أى ما هو معلوم عند أهل الحديث ، الا أنه ربما وقع الى عنهم بارتفاع ـ وأصل الحديث معروف من رواية الثقات قال ابن الصلاح وفيما ذكرته دليل على أن من حكم لشخص بمجرد رواية مسلم عنه فى صحيحه بأنه شرط الصحيح عند مسلم فقد غفل وأخطأ بل يتوقف ذلك على النظر فى أنه كيف روى عنه على ما بيناه[٨٩] .

(٨٩) مقدمة شرح النووى ص ١٩ .

الاحاديث المنتقدة على صحيح مسلم

انتقد بعض العلماء على الصحيحين عشرة أحاديث ومائتين انفرد البخارى بثمانية وسبعين ، واشترك فى اثنين وثلاثين حديثا وانفرد مسلم بالباقى وهو مائة حديث وقد سقت ما أجاب به ابن حجر عن صحيح البخارى أثناء الحديث عن البخارى وأما من انفرد به مسلم فقد اجاب عنه الامام النووى فى شرحه ، وكان معظم هذه الانتقادات يسيرة فى الجواب مثل وضع راوى ثقة مكان راوى ثقة أو لاختلاف بالزيادة والنقصان أو بالوصل والرفع أو الرواية بالعنعنة من المدلس أو غيرها . ومن أمثلة ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه قال (حدثنا[٩٠] محمد بن المثنى حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا هشام حدثنا قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن أبى طلحة أن عمر بن الخطاب خطب يوم الجمعة فذكر النبى ﷺ وذكر أبا بكر . . . .) الحديث ، قال الامام النووى : وهذا الحديث مما استدركه الدارقطنى على مسلم وقال خالف قتادة فى هذا الحديث ثلاثة حفاظ وهم :

منصور بن المعتبر وحصين بن عبد الرحمن وعمر بن مرة فرووه عن سالم عن عمر منقطعا يعنى من ذكر معدان قال الدارقطنى : وقتادة وإن كان ثقة وزيادة الثقة مقبولة عندنا فانه مدلس ولم يذكر فيه سماعه من سالم فأشبه أن يكون بلغه عن سالم فرواه عنه .

---

(٩٠) شرح النووى على صحيح مسلم ج ٥ ص ٥١ .

قال الامام النووى : هذا الاستدراك مردود لأن قتادة وان كان مدلسا الا أن مارواه البخارى ومسلم عن المدلسين وعنعنوه أى رووه بالعنعنة فهو محمول على أنه ثبت من طريق آخر بالسماع لذلك المدلس ممن عنعنه عنه وأكثر هذا وكثير منه يذكر مسلم وغيره سماعه من طريق آخر متصلا به ، وقد اتفقوا على أن المدلس لا يحتج بعنعنته ، ولاشك عندنا فى أن مسلما رحمه الله يعلم هذه القاعدة ويسلم تدليس قتادة فلولا ثبوت سماعه عنده لم يحتج به ومع هذا كله فتدليسه لا يلزم منه أن يذكر معدانا من غير أن يكون له ذكر ، والذى يخاف من المدلس أن يحذف بعض الرواة أما زيادة من لم يكن فهذا لا يفعله المدلس وانما هذا فعل الكاذب المجاهر بكذبه وانما معدان زيادة ثقة فيجب قبولها ، والعجب من الدارقطنى رحمه الله فى كونه جعل التدليس موجبا لاختراع رجل لا ذكر له ونسبه الى مثل قتادة الذى محله من العدالة والحفظ والعلم بالغاية العالية) « أ . هـ » .

وقد وردت بعض انتقادات قليلة كان فى الجواب عنها بعض تكلف ولكنها هنات يسيرة لا أثر لها يذكر ، فكتاب الامام مسلم من الدرجة العالية من الصحة وهو من أمهات كتب السنة النبوية المعتمدة .

قال الشيخ ابو عمرو بن الصلاح رحمه الله : جميع ما حكم مسلم رحمه الله بصحته فى هذا الكتاب فهو مقطوع بصحته والعلم النظرى حاصل بصحته فى نفس الامر وهكذا ما حكم البخارى فى صحته فى كتابه وذلك لأن الأمة تلقت ذلك بالقبول(٩١) .

---

(٩١) مقدمة شرح النووى ص ١٤ .

شروح صحيح مسلم

حظى صحيح مسلم كصحيح البخارى بعناية علماء المسلمين به ، فقاموا بشرحه واختصاره ودراسة رجاله ، ولئن كانت العناية بصحيح مسلم لم تبلغ مبلغ العناية بصحيح البخارى الا أن ما لدينا من شروح صحيح مسلم يدل دلالة كبيرة على مدى ما قام به العلماء من اجتهاد وجد فى سبيل شرحه واستنباط ما فى أحاديثه من أحكام وأسرار ومن أشهر هذه الشروح .

١ ـ شرح الامام أبى زكريا محيى الدين بن شرف النووى ، ولد فى المحرم سنة احدى وثلاثين وستمائة ، وتوفى فى الرابع والعشرين من رجب سنة ست وسبعين وستمائة فى قرية « نوى » بالشام واليها نسب فقيل « ابو زكريا النووى » . وسمى هذا الشرح : « المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج » نقل عن القاضى عياض والمارزى فى هذا الشرح ، وقد راعى النووى التوسط حيث لا يكون مختصرا مخلا ولا طويلا مملا ، وقد وضح منهجه فى المقدمة التى أبان فيها مقصده من شرح صحيح مسلم ، وهو أن يكون شرحا وسطا ، يوضح فيه الاحكام والعقائد والاخلاق والآداب ، ويقوم بضبط الاسماء وشرح اللغات ، ويوفق بين ما ظاهره التعارض من الاحاديث مع ذكر الادلة كما تضمنت مقدمته شرحا لكثير من علوم الحديث .

والقارىء لشرح النووى يرى أنه أطال فى بعض المواضع وبسط القول بما فيه الاجادة والافادة واختصر فى بعض المواضع مكتفيا بشرح مجمل للحديث قد لا يروى غلة الصادى وعلى كل فهو شرح جليل ومفيد ، أبرز فيه الامام النووى الموضوعات ، وما تضمنته من أحكام فقهية فى نسق رائع ونظام ييسر للباحثين نشدان ضالتهم ، وذلك بما قام به من تبويب حسن للاحاديث . وقد طبع هذا الشرح فى الهند والقاهرة كثيرا .

٢ ـ « المعلم بفوائد كتاب مسلم » للامام أبى عبد الله المارزى المتوفى سنة ٥٣٦ هـ .

٣ ـ « إكمال المعلم فى شرح صحيح مسلم » للامام القاضى عياض بن موسى اليحصبى المالكى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ .

٤ ـ شرح أبى الفرج عيسى بن مسعود الزواوى ، المتوفى سنة ٧٤٤ هـ وهو شرح كبير استوفى مادته من الشروح السابقة كالمنهاج والمعلم وإكمال المعلم .

٥ - « إكمال إكمال المعلم » للامام أبى عبد الله محمد بن خليفة الأبى الوشناني المتوفى سنة ٨٢٧ ، وقد ضمن هذا الشرح شروح المازرى وعياض والقرطبى والنووى ورمز بالحروف الى أصحاب هذه الشروح فرمز « بالميم » الى المازرى و « بالعين » الى القاضى عياض ، وبالطاء الى « القرطبى » وبالدال الى « محيى الدين النووى » وأبان فيه كثيرا من تفريعات الفقه خاصة مذهب المالكى ، واشتمل هذا الشرح على كثير من الفوائد وأورد فيه كثيرا من آراء شيخه ابن عرفة فيقول : « قال الشيخ » ومراده شيخه ابن عرفة .

٦ - شرح الامام ابى عبد الله محمد بن محمد بن يوسف السنوسى الحسنى ، توفى سنة ٨٩٥ ، اختصر شرح الابى وزاد عليه بعض الفوائد ، وأشار الى الكتب التى نقل عنها واستفاد منها فرمز بحرف الميم الى المازرى وبالعين الى القاضى عياض وبالطاء الى القرطبى وبالحاء الى محيى الدين النووى ، وبالباء الى الابى واسم هـذا الشرح (مكمـل اكمال الاكمال) وقد طبع هذا الشرح مع شرح الابى فى كتاب واحد سنة ١٣٢٨ . وهناك غير ذلك شروح كثيرة مثل الديباج على شرح مسلم بن حجاج للحافظ جلال الدين السيوطى توفى بسنة ٩١١ ، وكتاب الابتهاج ، للعلامة احمد ابن محمد الخطيب القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ وشرحه لم يتم ، وشرح القاضى زين الدين زكريا بن محمد الانصارى المتوفى سنة ٩٢٦ ، وشرح الشيخ على القارىء الهروى الحنفى المتوفى سنة ١٠١٤ فى أربعة مجلدات .

وهناك أيضا كثير من المختصرات التى تناولت اختصار صحيح مسلم وشرحه منها :

١ - مختصر الامام أحمد بن عمر بن ابراهيم القرطبى المتوفى سنة ٦٥٦ ، وبعد أن لخص صحيح مسلم ، ورتبه وبوبه قام بشرح غريبه وسمى شرحه : « المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم » .

٢ - مختصر الشيخ أبى عبد الله شرف الدين محمد بن عبد الله المرسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

٣ - مختصر الحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦ وقد قام عثمان بن عبد الملك المصرى المتوفى سنة ٧٣٨ ، بشرح هذا المختصر .

والى جوار هذه الشروح والمختصرات قام بعض العلماء ببيان زوائد صحيح مسلم على صحيح البخارى كما فعل سراج الدين عمر بن على بن الملقن الشافعى تـوفى سنة ٨٠٤ ، كما قام بعضهم بالتأليف فى أسماء رجال مسلم مثل أبى بكر أحمد على الاصبهانى توفى سنة ٢٧٧ .

وهكذا تطلعنا هذه الشروح والمختصرات وغيرها من المستدركات والمستخرجات على عناية الامة الاسلامية بالسنة النبوية وما استهدفته جهودهم المخلصة من بيان ما تضمنته السنة من عقائد وأحكام وتشريعات وآداب ، ولاسيما عنايتهم بصحيحى البخارى ومسلم .

وفى هذا دلالة على أهمية الصحيحين وأنهما يحتلان منزلة سامية فى النفوس ، وكيف لا وهما الكتابان النفيسان والصحيحان الجامعان اللذان تلقتهما الأمة بالقبول .

موازنة بين صحيحى البخارى ومسلم

اتفق العلماء على أن أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى الصحيحان للامامين الجليلين البخارى ومسلم ، وتلقتهما الأمة بالقبول ، وازدهرت بهما رياض السنة النبوية فى القرن الثالث الهجرى حتى أصبح هذا القرن أزهى القرون فى جمع السنة وتدوينها ، وقد التزم كل واحد من هذين الامامين أن يخرج فى كتابه الاحاديث الصحيحة فهما إذاً مشتركان فى أصل الصحة .

وللموازنة بين كتابيهما ينبغى توضيح الآتى : -

أولا : ذكر أقوال بعض الأئمة والعلماء فى كل منهما وتوضيح آرائهم حتى تتبين لنا المكانة العلمية لكل واحد من الامامين ، وتتبين درجة كل كتاب ومنزلته عنده .

ثانيا : بيان ما تميز به كل كتاب من الشروط والمقاييس .

أما بالنسبة الى كتاب صحيح البخارى :

١ - أقوال الأئمة وشهادات أهل الفن فيه : روى الحافظ ابن حجر بالاسناد الصحيح عن أبى عبد الرحمن النسائى أنه قال : (ما فى هذه الكتب كلها أجود من كتاب محمد بن اسماعيل) والنسائى لا يعنى بالجودة إلا جودة الأسانيد كما هو المتبادر الى الفهم من اصطلاح أهل الحديث . ومثل هذا القول من النسائى غاية فى الوصف مع شدة تحريه وتوقيه وتثبته فى نقد الرجال وتقدمه فى ذلك على أهل عصره أ . هـ . (٩٢) . وقال الحاكم أبو أحمد النيسابورى رحم الله محمد بن اسماعيل فانه ألف الأصول يعنى أصول الأحكام من الاحاديث وقد وضح للناس ذلك ، وكل من عمل بعده فانما أخذه من كتابه كمسلم بن الحجاج ، وقال الدار قطنى لما ذكر عنده الصحيحان : لولا البخارى لما ذهب مسلم وما جاء وقال : وأى شىء صنع مسلم انما أخذ كتاب البخارى فعمل عليه مستخرجا وزاد فيه زيادات .

وهكذا نرى أقوالا كثيرة للعلماء غير هذه فى بيان منزلة صحيح البخارى وبعض هذه

---

(٩٢) مقدمة فتح البارى لابن حجر ص ٨ .

الآراء على ما فيها من المبالغة انما تدل على ما تميز به صحيح البخارى من منزلة بلغت فى سموها درجة عالية .

٢ ـ وأما من حيث ما تميز به صحيح البخارى فذلك بفحص مقاييس الصحة فيه وما أشترطه فى كتابه ويرجع ذلك الى ثلاثة أمور :

الأمر الأول : اتصال السند ـ الأمر الثانى : اتقان الرجال ـ الامر الثالث : السلامة من الشذوذ والعلة .

١ ـ **أما اتصال السند** : فيرى البخارى أن الحديث المعنعن لا يكون متصلا إلا اذا ثبت اجتماع المعنعن ولقاؤه ولومرة بمن عنعن عنه وقد التزم الامام البخارى فى كتابه بهذا الشرط بخلاف مسلم فان مذهبه أن الاسناد المعنعن يأخذ حكم الاتصال اذا تعاصر المعنعن ومن عنعن عنه وإلا لم يثبت اجتماعهما إلا أن كان المعنعن مدلسا وهذا الشرط هو الذى رجح به كتاب الامام البخارى على كتاب الامام مسلم لأن شرط اللقاء أوضح فى الاتصال اذ أن فيه تقوية ثبوت السماع وتأكيده ، وهذا الشرط انما التزمه البخارى فى كتابه خاصة لا فى الصحيح مطلقا .

٢ ـ **وأما ما يتعلق باتقان الرجال** فقد رجح كتاب البخارى من حيث اتقان الرجال بأمور هامة :

أولا : أن الذين انفرد البخارى بالاخراج لهم أربعمائة وبضع وثلاثون رجلا المتكلم فيهم بالضعف ثمانون رجلا ، والذين انفرد مسلم بالاخراج لهم دون البخارى ستمائة وعشرون رجلا والمتكلم فيه بالضعف منهم مائة وستون رجلا والتخريج عمن لم يتكلم فيه أصلا أولى من التخريج عمن تكلم فيه وإلا لم يكن الكلام قادحا .

ثانيا : أن الامام البخارى لم يكثر من التخرج عمن انفرد بهم ممن حصل فيهم كلام بخلاف الامام مسلم فقد أخرج كثيرا ، كأبى الزبير عن جابر وسهيل عن أبيه وعلاء بن عبد الرحمن عن أبيه وحماد بن سلمة عن ثابت وغيرهم .

ثالثا : أن أكثر من انفرد بهم البخارى ممن تكلم فيهم أكثرهم من شيوخه الذين عرفهم وجالسهم وخبرهم وعرف كيف يميز بين جيد حديثهم وغيره بخلاف الامام مسلم فان أكثر من تكلم فيهم ممن انفرد بالتخريج لهم كانوا متقدمين عن عصره من التابعين ومن بعدهم .

رابعا : ما سبق بيانه من تقسيم الطبقات وأن الامام البخارى يخرج أعلاها فى الحفظ وطول الملازمة وهى الطبقة الأولى ولا يخرج أحاديث الطبقة الثانية الا انتقاء بخلاف الامام مسلم فيخرج أحاديث الثانية استيعابا فى أصل موضوع كتابه .

٣ - ما تعلق بالسلامة من الشذوذ والعلة أن البخارى قد اختص بثمانية وسبعين حديثا من الأحاديث المنتقدة . وأما مسلم فاختص بمائة ، وما كان قليل الانتقاد يكون أرجح من كثيره(٩٣) .

هذه هى أقوال العلماء وآراؤهم فى كتاب صحيح البخارى وهذه هى مميزات الكتاب ومقاييس صحته من حيث اتصال السند وإتقان الرواه والسلامة من الشذوذ والعلة ولنتجه الى « صحيح الامام مسلم » .

١ - أما من حيث أقوال الأئمة وشهادة العلماء :

فقد سبقت كلمات كثيرة من أهل الحديث ذكر فيها تقديم كتاب البخارى على كتاب مسلم إلا أنه ذهب أبو على النيسابورى الى ترجيح « صحيح مسلم » ، روى عنه أنه قال : ما تحت أديم السماء كتاب أصح من كتاب مسلم بن الحجاج ، وبهذا قال بعض العلماء المغاربة .

وأما من حيث مميزات صحيح مسلم فانه تميز بتصنيفه فى حياة كثير من شيوخه ، فكان يتحرز فى الألفاظ ويتحرى فى السياق ولا يتصدى لما تصدى له البخارى من استنباط الأحكام ليبوب عليها ولزم من ذلك أنه قطع الحديث فى أبواب متفرقة ، أما الامام مسلم فقد جمع الطرق كلها فى مكان واحد كل حسب موقعه ، واقتصر على الأحاديث دون الموقوفات فلم يعرج عليها الا فى بعض المواضيع ، كما تميز بحسن السياق وجودة الوضع وروعة الترتيب وغير ذلك كما سبق بيانه عند الكلام على هذا الكتاب وتحقيق القول فى ذلك أنه بالموازنة بين آراء العلماء فى كل واحد من الكتابين ، وبالموازنة بين مقاييس كل واحد وشرطه فى كتابه أرى أن كتاب الامام البخارى أصح الكتابين فمقاييسه أشد وثوقا ، وشرطه أقوى وآكد فى ثبوت السماع حيث اشترط اللقاء ولم يكتف بالمعاصرة كما اكتفى الامام مسلم ، وأما ما رآه بعض القائلين بتفصيل صحيح مسلم ، فان أرادوا الترجيح فيما يرجع الى حسن البيان والسياق وجودة الوضع والترتيب بجمع الطرق كلها فى مكان واحد

---

(٩٣) هدى السارى ص ١٠ .

وعدم تقطيع الحديث وما الى ذلك فلا نزاع فى هذا ، وأما ان أرادوا أن ترجيح مسلم يرجع الى الشروط التى قامت عليها الصحة فهذا القول مردود لما سبق توضيحه لمقاييس الصحة وما تميز به صحيح البخارى من كونه أشد اتصالا وأوثق رجالا وأبعد عن الشذوذ والعلة وقد اتفق العلماء على أن أصح الكتب بعد القرآن الصحيحان وتلقتهما الأمة بالقبول وكتاب البخارى أصحهما وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة وغامضة ، وقد صح أن مسلما كان ممن يستفيد من البخارى ويعترف بأنه ليس له نظير فى علم الحديث ، وترجيح كتاب البخارى هو المذهب المختار الذى قاله الجماهير .

هل تفيد أحاديث الصحيحين العلم أو الظن

لا خلاف بين العلماء فى أن الاحاديث المتواترة لفظا أو معنى قطعية الثبوت وأما غير المتواترة من الأحاديث الصحيحة فقد اختلفوا فيها :

ويرى ابن الصلاح : أن ما أخرجه الشيخان أو أحدهما بالاسناد الصحيح المتصل مقطوع بصحة نسبته الى قائله والعلم اليقينى النظرى حاصل بصحته فى نفس الأمر وذلك لتلقى الأمة لكتابيهما بالقبول . واستثنى من هذا الحكم أحاديث يسيرة تكلم فيها بعض النقاد كالدار قطنى وغيره .

ومما ينبغى الاشارة اليه أن أحاديث الكتابين كلها صحيحة ليس فيها ضعف وانما كان نقد الناقدين موجها الى بعض أحاديث لم تصل فى صحتها الدرجة العليا التى التزمها كل واحد منهما فى كتابه . قال الشيخ ابن الصلاح : (جميع ما حكم مسلم رحمه الله بصحته فى هذا الكتاب فهو مقطوع بصحته والعلم النظرى حاصل بصحته فى نفس الأمر وهكذا ما حكم البخارى بصحته فى كتابه ، وذلك لأن الأمة تلقت ذلك بالقبول سوى من لا يعتد بخلافه ووفاقه فى الاجماع قال : والذى نختاره أن تلقى الأمة للخبر المنحط عن درجة التواتر بالقبول يوجب العلم النظرى بصدقه) أ . هـ .(٩٤) .

ففى رأى ابن صلاح أن أحاديث الصحيحين تفيد اليقين والقطع ما عدا الأحاديث المنتقدة عليهما لعدم اجتماع الأمة على تلقيها بالقبول ، وهذا ما ذهب اليه ابن كثير قال : وأنا مع ابن الصلاح فيما عول عليه وأرشد إليه .

وقد وافق ابن الصلاح أيضا الامام ابن تيمية قال : نقل القطع بالحديث الذى تلقته الأمة بالقبول عند جماعات الأئمة : منهم القاضى عبد الوهاب المالكى والشيخ أبو حامد الاسفرائينى ، والقاضى أبو الطيب الطبرى والشيخ أبو اسحاق الشيرازى من الشافعية ، وابن حامد ، وأبو يعلى بن الفراء ، وأبو الخطاب وأمثالهم من الحنابلة . وشمس الدين

---

(٩٤) مقدمة شرح النووى ص ١٤ .

السرخسى من الحنفية وهو قول أكثر أهل الكلام من الأشعرية وغيرهم وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ومذهب السلف عامة أ . هـ . (٩٥) وذهب داود الظاهرى والحسين بن على الكرابيسى والحارث بن أسد المحاسبى الى أن الحديث الصحيح غير المتواتر يفيد العلم اليقينى سواء أكان فى أحد الصحيحين أو فى غيرهما وهذا المذهب هو الذى اختاره ابن حزم وذهب اليه قال : إن خبر الواحد العدل عن مثله الى رسول الله ﷺ يوجب العلم والعمل معا أ . هـ . (٩٦) .

وذهب النووى إلى أن أحاديث الصحيحين التى لم تتواتر ثابتة بالظن لا بالعلم ، لأنها من قبيل الآحاد ، والآحاد طريقها ظنى ، وهذا ما ذهب إليه المحققون الأكثرون من العلماء من غير تفريق بين البخارى ومسلم وغيرهما فى ذلك ، وتلقى الأمة بالقبول انما أفادنا وجوب العمل بما فيهما ، وهذا متفق عليه فإن اخبار الآحاد التى فى غيرهما يجب العمل بها اذا صحت أسانيدها ولا تفيد إلا الظن ، وكذا الصحيحان ، وانما يفترق الصحيحان وغيرهما من الكتب فى كون ما فيهما صحيحا لا يحتاج الى النظر فيه بل يجب العمل به مطلقا ، وما كان فى غيرهما لا يعمل به حتى ينظر وتوجد فيه شروط الصحيح ولا يلزم من اجماع الأمة على العمل بما فيهما اجماعهم على أنه مقطوع بأنه كلام النبى ﷺ (٩٧) .

وقد رد العلماء هذا الكلام باتفاقهم على وجوب العمل بكل ما صح ولو لم يخرجه الشيخان فلم يبق للصحيحين فى هذا مزية والاجماع حاصل على أن لهما مزية فيما يرجع الى نفس الصحة وليس ذلك الا افادة أحاديثهما العلم والقطع كما قال ابن صلاح .

وقال ابن حجر فى شرح النخبة : الخبر المحتف بالقرائن يفيد العلم خلافا لمن أبى ذلك قال : وهو أنواع منها ما أخرجه الشيخان فى صحيحيهما مما لم يبلغ التواتر فانه احتفت به قرائن منها جلالتهما فى هذا الشأن وتقديمهما فى تمييز الصحيح على غيرهما وتلقى العلماء لكتابيهما بالقبول وهذا التلقى وحده أقوى فى افادة العلم أ . هـ .

ومما سبق يتضح أن آراء العلماء فى افادة الأحاديث الصحيحة غير المتواترة العلم ثلاثة أقسام :

---

(٩٥) الباعث الحثيث ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٩٦) الأحكام لابن حزم جـ ١ ص ١١٩ .
(٩٧) مقدمة شرح النووى ص ١٥ .

١ - إفادة أحاديث الصحيحين العلم اليقينى وهذا ما ذهب إليه ابن الصلاح ومن تبعه .

٢ - عدم افادة الصحيحين العلم اليقينى وهذا ما ذهب إليه النووى وغيره .

٣ - افادة الأحاديث الصحيحة العلم القطعى سواء أكانت فى أحد الصحيحين أم فى غيرهما وهذا ما ذهب إليه ابن حزم ومن وافقه ، وهذا العلم اليقينى علم نظرى قائم على البرهان يحصل للعالم المتبحر فى الحديث الخبير بأحوال الرواة والعلل .

وأرجح ما ذهب إليه ابن الصلاح ، أن أحاديث الصحيحين غير التى انتقدت عليهما تفيد العلم النظرى ويدل على ذلك تلقى الأمة لكتابيهما بالقبول والأمة بعيدة عن الخطأ فى اجماعها ، وهذا العلم لا يحصل إلا للعالم بالحديث المتضلع فى فنونه .

تخريج صاحبى الصحيحين أحاديث أهل البدع

شبهة : وقد يعترض على صاحبى الصحيحين بأنهما أخرجا أحاديث بعض أهل البدعة وهذا يعتبر اخلالا منهما بشروطهما فى الرجال الذين يرويان عنهم .

الاجابة : وللاجابة على ذلك ، لابد أن يبين حكم الرواية عن أهل البدع ، فالبدعة على ضربين : **الأول** : أن تكون بمكفر ، كأن يعتقد صاحبها ما يستلزم الكفر ، وقد اختلف العلماء فى حكمها :

١ - يرى الجمهور : أن رواية صاحب البدعة بمكفر غير مقبولة .
٢ - وقيل إذا اعتقد حرمة الكذب تقبل روايته لأن اعتقاد حرمة الكذب تمنعه منه
٣ - وقيل تقبل مطلقا . قال الحافظ بن حجر :(٩٨) التحقيق أنه لا يرد كل مكفر ببدعته لأن كل طائفة تدعى أن مخالفتها مبتدعة وقد تبالغ فتكفر مخالفتها فلو أخذ ذلك على الاطلاق يستلزم تكفير جميع الطوائف . والمعتمد أن الذى ترد بدعته روايته من أنكر أمرا متواترا من الشرع معلوما من الدين بالضرورة أو اعتقد عكسه ، وأما من لم يكن كذلك وأنضم الى ذلك ضبطه لما يرويه مع ورعه وتقواه فلا مانع من قبوله » أ . هـ .

الثانى : أن تكون البدعة بمفسق لم يكفر فى بدعته وقد اختلف فيها كذلك : -

١ - قيل ترد روايته مطلقا لأنه فاسق ببدعته وهذا الرأى يروى عن مالك والعلة فى ذلك أن فى الرواية عن المبتدع بما لا يكفر ترويجا لأمره وتنويها بذكره وهذا الرأى بعيد مخالف للشائع عن أئمة الحديث الذين امتلأت كتبهم بالرواية عن المبتدعة غير الدعاة كما سنوضح ذلك .

٢ - وقيل يقبل اذا لم يكن ممن يستحل الكذب فى نصرة مذهبه أو لأهل مذهبه سواء أدعا الى بدعته أم لا ، وان كان ممن يستحل الكذب لم تقبل روايته وقد عزى هذا القول

---

(٩٨) نزهة النظر بتوضيح نخبة الفكر لابن حجر ص ٢٤ .

للشافعى قال : أقبل شهادة أهل الأهواء الا الخطابية من الرافضة لأنهم يرون الشهادة بالزور لموافقيهم .

٣ - وقيل يقبل من لم يكن داعية الى بدعته ، لأن تزيين بدعته قد يحمله على تحريف الروايات وتسويتها على ما يقتضيه مذهبه وهذا الرأى هو ما ذهب اليه الامام أحمد(٩٩) والأكثرون على قبول غير الداعية الا أن روى ما يقوى بدعته فيرد على المذهب المختار قال ابن الصلاح وهذا أعدل الأقوال وأولاها ، والقول بالمنع مطلقا بعيد مخالف لما رواه الأئمة فى كتبهم عن المبتدعة غير الدعاة ففى الصحيحين من حديثهم فى الشواهد وفى الأصول كثير(١٠٠) .

فاحتجاج صاحبى الصحيحين وغيرهما بكثير من المبتدعة غير الدعاة مما يضعف رأى القائلين بمنع القبول فى بدعة غير المكفر .

ولا يعترض بأن الشيخين احتجا بالدعاة الى البدعة مثل عمران بن حطان الخارجى مادح عبد الرحمن بن ملجم قاتل على ومثل عبد الحميد بن عبد الرحمن الحمانى رمى بالارجاء وكان داعية .

فالجواب على ذلك أن أبا داود قال : (ليس فى أهل الأهواء أصح حديثا من الخوارج لأن الكذب عندهم من الكبائر ، ثم ذكر عمران بن حطان وأبا حسان الأعرج ، قال ولم يحتج مسلم بعبد الحميد بل أخرج له فى المقدمة وقد وثقه ابن معين ، والمبتدعة الذين أخرج لهم الشيخان أنواع :

١ - منهم من رمى بالارجاء : وهو تأخير القول فى الحكم على مرتكب الكبائر بالنار مثل ابراهيم بن طهمان وعبد الحميد بن عبد الرحمن أبو يحيى الحمانى .

٢ - ومنهم من رمى بالنصب : وهو بغض على رضى الله عنه وتقديم غيره عليه مثل بهز بن أسد وحصين بن نمير وقيس بن أبى حازم .

٣ - ومنهم من رمى بالتشيع : وهو تقديم على على الصحابة مثل عبد الرزاق بن همام والفضل بن دكين وعبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن ابن أبى ليلى .

---

(٩٩) فتح المغيث للحافظ العراقى ص ٢٦ .

(١٠٠) الباعث الحثيث لابن كثير ص ١٩٩ .

٤ ـ ومنهم من رمى بالقدر : وهو زعم أن الشر من خلق العبد ، مثل صالح بن كيسان وهارون بن موسى الأعور النحوى ووهب بن منبه .

٥ ـ ومنهم من رمى برأى أبى جهم : وهو نفى صفات الله تعالى والقول بخلق القرآن مثل بشر بن السرى .

٦ ـ ومنهم من رمى برأى الحرورية : وهم الخوارج الذين أنكروا على على التحكيم وتبرأوا منه ومن عثمان وذويه وقاتلوهم مثل عكرمة مولى ابن عباس والوليد بن كثير .

٧ ـ ومنهم من رمى بالوقف : وهو ألا يقول القرآن مخلوق أو غير مخلوق مثل على بن هشام .

٨ ـ ومنهم من يرون الخروج على الأئمة ولايباشرون ذلك ويسمون بالقاعدية مثل عمران بن حطان [١٠١] .

ورأيى أن البخارى ومسلما إذ يخرجان للمبتدعة انما يخرجان لهم بشروط يمكن الوقوف عليها بسبر الرجال الذين أخرجا لهم واستقراء الأحوال فى ذلك ، ويمكن أن أحصر هذه الشروط فيما يأتى :

١ ـ الا تكون البدعة بمكفر .
٢ ـ ألا يكون المبتدع ممن يستحل الكذب .
٣ ـ ألا يكون داعيا لبدعته .
٤ ـ ألا يكون راويا لما يقوى بدعته .
٥ ـ أن يكون الراوى معروفا بالصدق والضبط .
٦ ـ أن يكون معروفا بالأمانة والثقة فى الدين والخلق .

إذ أن الملاحظ لأحوال الرواة والمستقرىء لصفاتهم يجد أن الكثير منهم يكون ثقة كما قال الذهبى فى ترجمة أبان بن تغلب الكوفى (شيعى جلد لكنه صدوق فلنا صدقه وعليه بدعته)[١٠٢] . كما أن المتتبع لأهل البدع الصغرى كالتشيع بلا غلو يرى كثيرا منهم فى التابعين وتابعى التابعين موصوفا بالصدق ومعروفا بالتقوى فلو لم نقبل أحاديثهم لترتب على ذلك إهمال مجموعة كبيرة من الأحاديث النبوية .

(١٠١) تدريب الراوى ص ٢١٧ .

(١٠٢) الميزان للذهبى جـ ١ ص ٤ .

وبالاضافة الى ما سبق ينبغي أن نتعرف على من رمى بالبدعة ، وذلك بالرجوع الى مصنفات رجالها حتى يظهر الأصيل فى بدعته من غيره ، فلا نحكم على أحد ببدعة ما بمجرد ما قيل فيه ، بأنه مثلا خارجي أو شيعي ، فقد يكون ذلك تقولا وافتراء ، وعلى هذا الطريق عد علماء الجرح والتعديل فى مصنفاتهم كثيرا ممن رمى بالبدعة بناء على ما قيل فيهم ، وان كثيرا من رواة الصحيحين قد رمى بالبدعة وهو منها براء ، يقول القاسمي « وقد راجعت من كتب الشيعة . . . كما رأيت ممن رماهم السيوطى نقلا عمن سلفه بالتشيع فى كتابه التقريب ممن خرج لهم الشيخان وعدهم خمسة وعشرين إلا راويين وهما : أبان بن تغلب وعبد الملك بن أعين ، ولم أر للبقية فى ذينك الكتابين ذكرا » أ . هـ . [١٠٣] .

---

(١٠٣) قواعد التحديث القاسمي ص ١٩٥ .

البحث الثانى

السنن

الامام أبو داود السجستانى

سبق الحديث فى البحث الأول عن صحيحى البخارى ومسلم اللذين تلقتهما الأمة بالقبول وكانا أعلى كتب الحديث درجة من الصحة والثقة ، وقد ظهر فى القرن الثالث الهجرى أربعة من كتب الحديث النبوى لم تصل الى ما وصل اليه الصحيحان فى دقة الانتقاء ولم يسم مؤلفوها فى شروط الرجال بالدرجة التى سما بها البخارى ومسلم ولكن هذه الكتب رغم ذلك احتلت درجة عالية من الصحة وحازت مكانة مرموقة جعلتها تضارع الصحيحين أو تقاربهما حتى أصبحت تضم إليهما فى اصطلاح بعض المحدثين وسميت جميعها كتب الصحاح الستة ومن هذه الكتب كتاب السنن للامام أبى داود السجستانى .

نسبه ونشأته :

هو الامام أبو داود سليمان بن الاشعث بن اسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدى السجستانى [1] والأزدى نسبة الى الازد أبى قبيلة باليمن والسجستانى نسبة الى سجستان وينسب اليها سجزى أيضا على غير قياس ، وهى مدينة بخراسان[2]

وقد ولد الامام أبو داود سنة أثنتين ومائتين[3] ، ونشأ مفطورا على محبة العلم وملازمة أهله ، فنهض يتعلم منهم وينهل من مواردهم كما أخذ نفسه بالورع والعبادة حتى كان فى الدرجة العالية من النسك والصلاح[4] وحظى تاريخ هذا الامام بالثناء العاطر من العلماء

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات للنووى جـ ٢ ص ٢٢٤ ، وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٦٨ .

(٢) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ١١ .

(٣)تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٥٦ .

(٤) وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٦٨ .

والتقدير الكامل لما كان عليه من الورع والتقوى والحفظ التام والفهم الثاقب فى الحديث وغيره ، يقول الحافظ أحمد بن محمد بن ياسين الهروى : كان أبو داود أحد حفاظ الاسلام لحديث رسول الله ﷺ وعلمه وعلله . وقال موسى بن هارون خلق أبو داود فى الدنيا للحديث وفى الآخرة للجنة [٥] وذلك لجمعه بين العلم والعمل وبين الانفاق والورع ، وبهذه النشأة الطاهرة المبرورة كان أبو داود موضع حب العلماء وتقديرهم ، يرحلون اليه ويتيمنون به ، جاء سهل بن عبد الله التسترى فقيل له : يا أبا داود هذا سهل بن عبد الله قد جاءك زائرا ، فرحب به وأجلسه فقال له : يا أبا داود لى اليك حاجة ، قال وما هى ؟ قال : حتى تقول قضيتها مع الامكان ، قال : قضيتها مع الامكان ، قال : أخرج لسانك الذى حدثت به عن رسول الله ﷺ حتى أقبله .

قال : فأخرج لسانه فقبله [٦] وإنها لمحبة متلهفة وشوق متواصل وعاطفة جياشة واكبار من معاصريه لما قام به من خدمة للسنة النبوية ، فلقد كان هذا الامام بحق قمة من قمم الحديث والفقه ، ذا جلالة وحرمة ، وصلاح وورع [٧] ، وقال علان بن عبد الصمد : كان أبو داود من فرسان هذا الشأن ، وقال أبو حاتم بن حبان : أبو داود أحد أئمة الدنيا فقها وعلما وحفظا ونسكا واتقانا جمع وصنف وذب عن السنن . وهكذا تطلعنا شهادات العلماء على ما كان عليه هذا الامام من علم وعمل ، كما تلقى أضواء كاشفة على جوانب العظمة فى نشأته من حفظ واتقان وورع ونسك .

حياته العلمية

عاش أبو داود حياة خصبة ، لازم فيها مجالس العلم فى بلده ، وشمر عن ساعد الجد فى تدوين الكثير ، ولكن نفسه التواقة للعلم المحبة للمعرفة تجعله يشد رحاله فى سبيل العلم ، فطوف بكثير من البلاد ، وأخذ عن علماء الحجاز والشام ومصر والعراق والجزيرة وخراسان ، وقد مكنته رحلاته العلمية من لقاء كثير من شيوخ الامصار التى كانت تموج بالعلم والعلماء ، قال الحاكم أبو عبد الله كان أبو داود إمام أهل الحديث فى عصره بلا مدافعة سمعه بمصر والحجاز والشام وخراسان والعراق وكتب بخراسان قبل خروجه الى العراق ، وكتب ببغداد عن قتيبة وبالرى عن ابراهيم بن موسى الا أن أعلى اسناده

---

(٥) تهذيب الاسماء واللغات للنووى جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٦) تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ١٧٢ ، وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٦٨ .

(٧) مرآة الجنان لليافعى جـ ٢ ص ١٩٠ .

موسى بن اسماعيل والقعنبى ومسلم بن ابراهيم[٨] . وبهذه الرحلات تمكن أبو داود من تدوين كثير من الأحاديث التى أودع خلاصتها فى كتابه العظيم « السنن » . وقدم بغداد غير مرة وكانت آخر زياراته لها سنة اثنتين وسبعين ومائتين ثم دعاه بعد ذلك الخليفة الموفق أن ينزل بالبصرة ويتخذها له مقاما عسى أن يبعث فيها هو وتلاميذه الحياة والنشاط بعد أن ضعفت وركدت ريحها من أثر فتنة الزنج فنزل بها وتوفى فيها يوم ١٦ شوال سنة ٢٧٥ هـ[٩] وقيل مات بالبصرة سنة خمس وسبعين ومائتين لأربع عشرة بقيت من شوال .

شيوخه وتلاميذه :

أما شيوخ أبى داود الذين روى عنهم ونهل من منبعهم فهم كثيرون منهم من شارك البخارى ومسلما فيهما كأحمد بن حنبل وعثمان بن أبى شيبة وقتيبة بن سعيد ، ومنهم كذلك عبد الله بن مسلمة القعنبى وموسى بن اسماعيل ومسلم بن ابراهيم وأبو الوليد الطيالسى وأحمد بن يونس وقتيبة بن سعيد وعثمان بن أبى شيبة واسحاق بن راهويه واحمد بن أبى شعيب ويزيد بن عبد ربه وغيرهم[١٠] وقد عده الشيخ ابو اسحاق الشيرازى فى طبقات الفقهاء من جملة أصحاب الامام أحمد ، وكذلك ذكره فى طبقات الحنابلة القاضى أبو الحسين محمد بن القاضى أبى يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ هـ ولعل ذلك راجع الى أن الامام أحمد كان من شيوخ أبى داود وقيل أنه كان شافعيا .

وأرى أنه كان من المحدثين المجتهدين . ومما يشهد باجتهاده عمله الجليل فى كتابه السنن . واما تلاميذه : فكثيرون منهم الترمذى والنسائى وأبو عوانة وابنه ابو بكر بن أبى داود وأبو على اللؤلؤى وأبو بكر بن داسه وهما اللذان يرويان عنهم كتاب السنن[١٢] وبحسبه فضلا أن روى عنه شيخه الامام احمد بن حنبل حديثا وهو ما رواه أبو داود من حديث حماد ابن سلمه عن أبى معشر الدارمى عن أبيه أن رسول الله ﷺ سئل عن العتيرة فحسنها[١٣] وقال عنه محمد بن مخلد كان أبو داود يفى بمذاكرة مائة ألف حديث ولما صنف السنن وقرأه على الناس صار كتابه لأهل الحديث كالمصحف يتبعونه ، وأقر له أهل زمانه

---

(٨) تهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٩) تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار جـ ٣ ص ١٨٦ .

(١٠) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٥٩ ، وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٦٨ .

(١١) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٢٩٤ .

(١٢) تهذيب الأسماء واللغات جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(١٣) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٢٩٤ .

بالحفظ أ . هـ .[١٤] وفى هذا ما يدل على قوة حفظه واتقانه وثقة معاصريه فيما يرويه ، وما يشهد له بالقدرة العلمية الفائقة .

مؤلفاته :

ولأبى داود مؤلفات كثيرة تدل على غزارة علمه وعلى دقة بحثه ألفها فى مجالات مختلفة منها كتاب السنن ، وكتاب المراسيل ، وكتاب القدر ، وكتاب دلائل النبوة ، وكتاب ابتداء الوحى ، وكتاب فضائل الاعمال ، وكتاب الزهد ، وكتاب الدعاء ، وكتاب المسائل ، وأعظم هذه المصنفات هو كتاب السنن الذى قال فيه الخطابى أن كتاب السنن لأبى داود كتاب شريف لم يصنف فى حكم الدين كتاب مثله ، وقد رزق القبول من الناس كافة فصار حكما بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم وعليه معول أهل العراق ومصر والمغرب وكثير من أقطار الأرض[١٥] .

وقد اتسمت حياة أبى داود العلمية بالعزة ، والنظرة الى مساواة الناس أمام العلم لا تمييز بينهم ولا طبقية فيهم قال أبو سليمان حدثنى عبد الله بن محمد السبكى قال : حدثنى أبو بكر بن جابر خادم أبى داود قال : (كنت معه فى بغداد فصلينا المغرب اذ قرع الباب ففتحته فاذا خادم يقول هذا الامير أبو احمد الموفق يستأذن فدخلت الى أبى داود فأخبرته بمكانه فأذن له فدخل وقعد ، ثم أقبل عليه أبو داود وقال : ما جاء بالأمير فى مثل هذا الوقت ؟ قال : خلال ثلاث قال : وما هى ؟ قال : الأرض قال هذه واحدة ، هات الثانية قال : تروى لأولادى كتاب السنن قال : نعم ، هات الثالثة . فقال : تفرد لهم للرواية . فان أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة فقال : أما هذه فلا سبيل إليها فان الناس شريفهم ووضيعهم فى العلم سواء . قال ابن جابر : فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون ويضرب بينهم وبين الناس ستر فيسمعون مع العامة) « أ . هـ »[١٦] وفى هذا ما يدل على اعتزازه بكرامة العلم والعلماء التى لا يفرق فيها بين الناس فى طلب العلم وبعد هذه الجولة الطيبة فى حياة أبى داود الناضرة الخصبة نلتقى مع أهم مصنفاته فى الحديث ألا وهو كتاب (السنن) .

---

(١٤) تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ١٧٢ .

(١٥) تهذيب الاسماء واللغات جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(١٦) مقدمة تحفة الاحوذى جـ ١ ص ١٢٩ .

سنن أبى داود

التعريف بالكتاب :

كانت الكتب المصنفة فى الحديث قبل سنن أبى داود يدون فيها أصحابها الاحاديث فى شتى الموضوعات من أحكام وآداب وفضائل ومواعظ وقصص الى أن جاء أبـو داود فصنف كتابه السنن وسار فيه على طريق التخصص فحدد جانبا من جوانب السنة المطهرة وهو الجانب الفقهى . فجمع فيه السنن والاحكام وانتقاه من خمسمائة ألف حديث وبلغت أحاديثه أربعة آلاف وثمانمائة حديث كلها فى الاحكام حتى جاء الكتاب حافلا بأبواب الفقه وبالاحاديث التى يحتاج اليها الفقهاء فى استدلالهم حتى قيل : « أنها تكفى المجتهد بعد كتاب الله تعالى » .

وسمى مصنفه : (السنن) ، لأنه جمع أحاديثه من وجهة نظر فقهية فلم يضمنه غير أحاديث الفقه والتشريع مما ورد فى الاخلاق والكلام والزهد ونحو ذلك [١٧] ولما انتهى أبو داود من تصنيف كتابه عرضه على الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه فاستجازه واستحسنه ، وقال ابراهيم الحربى : لما صنف أبو داود كتاب السنن ألين لابى داود الحديث كما ألين لداود الحديد ، وقال أبو داود : كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ماضمنته هذا الكتاب يعنى السنن ، جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث ذكرت الصحيح وما يشبهه وما يقاربه[١٨] .

ويقول الامام أبو سليمان الخطابى : (اعلموا رحمكم الله تعالى أن كتاب السنن لابى دادو كتاب شريف لم يصنف فى علم الدين كتاب مثله وقد رزق القبول من كافة الناس فصار حكما بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم فلكل منه ورد ومنه شرب وعليه معول أهل العراق وأهل مصر وبلاد المغرب وكثير من الأقطار فأما أهل خراسان فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن اسماعيل ومسلم بن الحجاج ومن نحا نحوهما فى جمع الصحيح على شرطهما فى السبك والانتقاء إلا أن كتاب أبى داود أحسن وضعا وأكثر فقها وكتاب أبى عيسى كتاب حسن والله يغفر لجماعتهم ويحسن على جميل النية . ومن أقوال العلماء السابقة يتضح فضل الامام أبى داود ومنزلة مصنفه النفيس الذى بلغ درجة عظيمة فى صنعة الحديث ذلل بها الصعب ويسر العسير وقرب البعيد .

---

(١٧) تاريخ الادب العربى ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص ١٨٦ .

(١٨) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٢٦٨ ، طبقات الشافعية جـ ٢ ص ١٩٥ .

وقد سبق بيان عدد ما فى كتاب السنن من الاحاديث وأنها أربعة آلاف وثمانمائة حديث وقد قسم أبو داود كتابه الى كتب والكتب الى أبواب وقد عد بعض العلماء أحاديث السنن فبلغت خمسة آلاف ومائتين وأربعة وسبعين حديثا . وهذا الاختلاف راجع لأمرين **الأول** : أن بعض النسخ المحققة اختلفت بالزيادة والنقصان والتقديم والتأخير فى بعض الاحاديث . **الثانى** : أن النسخة التى زاد تعداد الاحاديث فيها اعتبر محققها الاحاديث المكررة أحاديث مستقلة وعد جمع المتون حتى ولو كانت بلفظ واحد أو متقارب مادامت الاسانيد مختلفة وعلى ذلك فيمكن التوفيق بين رأى الامام أبى داود فى عدد الاحاديث وبين رأى بعض المحققين وذلك بأن أبا داود أراد بما ذكره الاحاديث الاصلية دون المكرر .

ومن أشهر رواة كتاب السنن لأبى داود :

١ - أبو بكر محمد بن بكر بن محمد عبد الرزاق الثمار المصرى المعروف بابن داسه المتوفى سنة ٣٤٦ هـ وروايته هى أكمل الروايات وهى الرائجة بالمغرب .

٢ - أبو عيسى اسحاق بن موسى بن سعيد الرملى وراق أبى داود وروايته تقارب رواية ابن داسة .

٣ - أبو على محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤى البصرى وهى من أصح الروايات لأنها من آخر ما أملى أبو داود عليها مات كان ذلك فى المحرم سنة ٢٧٥ هـ وهى مشهورة فى المشرق .

٤ - أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر المعروف بابن الاعرابى المتوفى سنة ٣٤٠ هـ وفيها بعض أبواب ساقطة ونقص كبير . وقد عنى العلماء بكتاب السنن فقام كثير منهم بشرحها واتجهت عناية البعض الى اختصارها وتهذيبها وهذه العناية وان لم تبلغ درجة الصحيحين إلا أنها تدل على جهود مشكورة لعلماء السنة تجاه هذا المصنف الجليل ومن أهم هذه الشروح :

١ - معالم السنن لابى سليمان أحمد - وقيل حمد - بن محمد بن ابراهيم الخطابى المتوفى فى سنة ٣٨٨ هـ اهتم فيه بتحقيق الروايات واللغات وتفسير المعانى الغامضة واستنباط الاحكام الفقهية وهو مطبوع بمصر وغيرها .

٢ - شرح الشيخ سراج الدين عمر بن على بن الملقن الشافعى المتوفى سنة ٨٠٤ هـ شرح زوائده على الصحيحين فى مجلدين .

٣ ـ شرح الشيخ قطب الدين أبي بكر اليمنى الشافعى المتوفى سنة ٦٥٢ هـ فى أربعة مجلدات كبار .

٤ ـ شرح الشيخ ولى الدين أحمد بن عبد الرحيم العراقى المتوفى سنة ٨٢٦ هـ ولكنه لم يكمله وتوسع فى الشرح والتحليل من أوله إلى سجود السهو .

٥ ـ شرح العلامة بدر الدين محمود بن أحمد العينى الحنفى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ ولم يكمل .

٦ ـ مرقاة الصعود الى سنن أبى داود شرح الحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ .

٧ ـ فتح الودود شرح سنن أبى داود لأبى الحسن محمد بن عبد الحميد السندى المتوفى سنة ١١٣٨ هـ .

٨ ـ عون المعبود على سنن أبى داود للشيخ عبد الرحمن شرف الحق ابن محمد أشرف بن أمير بن على حيدر المتوفى فى القرن الرابع عشر الهجرى وطبع شرحه فى الهند فى أربعة أجزاء .

٩ ـ عناية المقصود فى حل سنن أبى داود لابى الطيب محد شمس الحق العظيم أبادى ولد سنة ١٢٧٣ هـ وشرحه شرح جامع وافى .

١٠ ـ المنهل العذب المورود شرح سنن الامام أبى داود للشيخ محمود بن محمد خطاب السبكى عنى فيه بتراجم رجال الحديث وشرح الألفاظ وتوضيح المعانى واستنباط الاحكام الفقهية وذكر من اخرج الحديث وبيان درجة الحديث من الصحة وقد وافاه الاجل فى الرابع عشر من ربيع الأول ١٣٥٢ هـ قبل اتمام هذا الشرح . وغير ذلك كثير من الشروح ، وممن قام باختصاره الحافظ عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ فى كتاب سماه المجتبى من سنن أبى داود وكان المنذرى دقيقا فى مختصره اذ كان يذكر عقب كل حديث من اتفق مع أبى داود على تخريج الحديث من الائمة الخمسة كما وضح علل بعض الأحاديث وألف السيوطى على هذا المختصر كتابا سماه (زهر الربا على المجتبى) وله عليه حاشية أيضا وهذبه محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلى المتوفى سنة ٧٥١ هـ وزاد فى الكلام عن بعض العلل التى سكت عنها المنذرى أو لم يكملها وتصحيح بعض الاحاديث التى لم يضمها وبسط العديد فى كثير من الجوانب الهامة[١٩]

(١٩) كشف الظنون جـ ٢ ص ١٠٠٥ ، تاريخ الأدب العربى . أعلام المحدثين للدكتور محمد أبو شهبه . الحديث والمحدثون .

رسالة أبى داود فى وصف سننه

واذكر هنا رسالة الامام أبى داود فى وصف سننه وهى الرسالة التى كتبها الى أهل مكة وغيرها جوابا لهم ، وقد تضمنت هذه الرسالة منهجه فى السنن وشرطه وهذا نصها :

« سلام عليكم فانى احمد اليكم الله الذى لا إله إلا هو وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ﷺ كلما ذكر .

أما بعْد ، عافانا الله وإياكم عافية لا مكروه معها ولا عقاب بعدها فانكم سألتم أن أذكر الاحاديث التى فى كتاب السنن أهى أصح ما عرفت فى البـاب ووقفت على جميـع ما ذكرتم فاعلموا أنه كذلك كله ، إلا أن يكون قد روى من وجهين صحيحين فأحدهما أقدم اسنادا ، والآخر صاحبه قدم فى الحفظ فربما كتبت ذلك (أى الأقوم فى الاسناد لعلو سنده) ولا أرى فى كتابى من هذا عشرة أحاديث ولم أكتب فى الباب إلا حديثا أو حديثين وان كان فى الباب أحاديث صحاح لأنه يكثر وانما أردت قرب منفعته ، واذا أعدت الحديث فى الباب من وجهين وثلاثة فانما هو من زيادة كلام فيه ، وربما فيه كلمة زيادة على الاحاديث وربما اختصرت الحديث الطويل لأنى لو كتبته بطوله لم يعلم بعض من سمعه ولا يفهم موضع الفقه منه فاختصرته لذلك .

وأما المرسل فقد كان يحتج به العلماء فيما مضى مثل سفيان الثورى ، ومالك بن أنيس والاوزاعى ، حتى جاء الشافعى فتكلم فيه وتابعه على ذلك أحمد بن حنبل وغيره رضوان الله عليهم ، فاذا لم يكن مسند ضد المرسل ولم يوجد مسند فالمرسل يحتج به وليس هو مثل المتصل فى القوة .

وليس فى كتاب السنن الذى صنفته عن رجل متروك الحديث شىء ، واذا كان فيه حديث منكر بينت أنه منكر ، وليس على نحوه فى الباب غيره .

وهذه الأحاديث ليس منها فى كتاب ابن المبارك ولا كتاب وكيع إلا الشىء اليسير ، وعامته فى كتاب هؤلاء مراسيل ، وفى كتاب السنن من موطأ مالك بن أنس شىء صالح ، وكذلك من مصنفات حماد بن سلمة وعبد الرزاق ، وليس ثلث هذه الكتب فيما أحسبه فى

كتب جميعهم أعنى مصنفات مالك بن أنس وحماد بن سلمة وعبد الرزاق وقد ألفته نسقا على ما وقع عندى ، فان ذكر لك عن النبى ﷺ سنة ليس مما خرجته فاعلم أنه حديث واه إلا أن يكون فى كتابى من طريق آخر فانى لم أخرج الطرق لأنه يكثر على المتعلم .

ولا أعرف أحدا جمع على الاستقصاء غيرى ، وكان الحسن بن على الخلال قد جمع منه قدر تسعمائة حديث ، وذكر أن ابن المبارك قال : السنن عن النبى ﷺ نحو تسعمائة حديث فقيل له : أن أبا يوسف قال : هى ألف ومائة قال ابن المبارك : أبو يوسف يأخذ بتلك الهنات من هنا وهنا نحو الاحاديث الضعيفة وما كان فى كتابى من حديث فيه وهن شديد فقد بينته ، وفيه ما لا يصح سنده ، وما لم أذكر فيه شيئا فهو صالح ، وبعضها أصح من بعض . وهذا لو وضعه غيرى لقلت أنا فيه أكثر ، وهو كتاب لا يرد عليك سنة عن النبى ﷺ باسناد صالح إلا وهى فيه الا أن يكون كلاما استخرج من الحديث ولا يكاد يكون هذا ، ولا أعلم شيئا بعد القرآن الزم للناس أن يتعلموا من هذا الكتاب . ولا يضر رجلا أن لا يكتب شيئا من العلم بعد ما يكتب هذه الكتب . واذا نظر فيه وتدبره وتفهمه حينئذ بعلم مقداره .

وأما هذه المسائل مسائل الثورى ومالك والشافعى فهذه الاحاديث أصولها ويعجبنى أن يكتب الرجل مع هذه الكتب من رأى أصحاب النبى ﷺ ويكتب أيضا مثل جامع سفيان الثورى فانه أحسن ما وضع الناس فى الجوامع .

والاحاديث التى وضعتها فى كتاب السنن أكثرها مشاهير ، وهى عند كل من كتب شيئا من الحديث إلا أن تمييزها لا يقدر عليه كل الناس والفخر بها أنها مشاهير فانه لا يحتج بحديث غريب ولو كان من رواية مالك ويحيى ابن سعيد والثقات من أئمة العلم ، ولو احتج رجل بحديث غريب وجدت من يطعن فيه ولا يحتج بالحديث الذى قد احتج به اذ كان الحديث غريبا شاذا ، فأما الحديث المشهور المتصل الصحيح فليس يقدر أن يرده عليك أحد ، وقال ابراهيم النخعى : كانوا يكرهون الغريب من الحديث . وقال يزيد بن أبى حبيب : اذا سمعت الحديث فانشده كما تنشد الضالة فان عرف والا فدعه .

وان من الاحاديث فى كتابى السنن ماليس بمتصل وهو مرسل ومدلس وهو إذا لم توجد الصحاح عند عامة أهل الحديث على معنى أنه متصل وهو مثل الحسن عن جابر ، والحسن عن أبى هريرة والحكم عن مقسم عن ابن عباس وليس بمتصل ، وسماع الحكم من مقسم عن ابن عباس وليس بمتصل ، وسماع الحكم من مقسم أربعة أحاديث .

وأما أبو اسحاق عن الحارث عن على فلم يسمع أبو اسحاق عن الحارث الا أربعة أحاديث ليس فيها سند واحد . واما ما كان فى كتاب السنن من هذا النحو فقليل ولعله ليس للحارث الاعور فى كتاب السنن الا حديث واحد فانما كتبته بـأخره وربمـا كان فى الحديث ما تثبت صحة الحديث منه اذا كان يخفى ذلك على فـربما تـركت الحديث اذ لم أفقهه ، وربما كتبته وبينته ، وربما لم أقف عليه ، وربما أتوقف عن مثل هذه لأنه ضرر على العامة أن يكشف لهم كل ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث لأن علم العامة يقصر عن مثل هذا .

وعدد كتب هذه السنن ثمانية عشر جزءا مع المراسيل منها جـزء واحد مـراسيل وما روى عن النبى ﷺ من المراسيل منها ما لا يصح ومنها ما هو مسند عن غيره وهو متصل صحيح ولعل عدد الذى فى كتبى من الاحاديث قدر أربعة آلاف وثمانمائة ، ونحو ستمائة حديث من المراسيل فمن أحب أن يميز هذه الاحاديث مع الالفاظ فربما يجىء حديث من طريق وهو عند العامة من طريق الائمة الذين هم مشهورون غير إنه ربما قلب اللفظة التى يكون لها معانٍ كثيرة وممن عرفت نقل فى جميع هذه الكتب فربما يجىء الاسناد فيعلم من حديث غيره أنه غير متصل ، ولا يتبينه السامع الا بان يعلم الاحاديث ويكون له فيه معرفة فيقف عليه مثل ما يروى عن ابن جريج ، قال اخبرت عن الزهرى ويرويه البرسانى عن ابن جريج عن الزهرى فالذى يسمع يظن انه متصل ولا يصح عنه فانما تركناه لذلك ، لان أصل الحديث غير متصل ولا يصح ولم أصنف فى كتاب السنن الا الاحكام ولم اصنف كتب الزهد وفضائل الاعمال وغيرها فهذه الاربعة آلاف والثمانمائة كلها فى الاحكام والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله وسلم تسليما وحسبنا الله ونعم الوكيل « أ . هـ »[٢٠] .

---

(٢٠) رسالة الامام ابى داود السجستانى فى وصف تأليفه لكتاب السنن رواية أبى الحسين بن جميع عن محمد بن عبد العزيز الهاشمى عنه بتقديم وتعليق الاستاذ محمد زاهد الكوثرى طبع مطبعة الانوار بالقاهرة سنة ١٣٦٩ هـ .

منهج أبي داود في كتاب السنن

كان منهج أبي داود في كتابه متجها الى تدوين الحديث في جانب من جوانب السنة النبوية وهو الجانب الفقهي فجعل كتابه خاصا بالاحكام والسنن وأبرز فيه هذه الثروة الفقهية العظيمة التي امتاز بها على من عداه فقسم مصنفه الى كتب وقسم الكتب الى أبواب كما سبق بيان ذلك وجمع في هذه الأبواب الاحاديث التي يستدل بها الفقهاء ويبنون عليها الاحكام كما سجل التراجم على الاحاديث مما يشهد له بالمعرفة الدقيقة لمذاهب العلماء والاحاطة الكاملة بطرقهم في الاستدلال .

ولم يلتزم أبو داود بتخريج الصحيح فحسب بل خرج الصحيح والحسن لذاته ولغيره وما لم يجمع الائمة على تركه وأما ما فيه وهن شديد فقد بينه ونبه عليه قال أبو داود « وجمعت فيه الصحيح وما يشبهه ويقاربه وما ذكرت في كتابي حديثا أجمع الناس على تركه . وما كان من حديث فيه وهن شديد فقد بينته وما لم اذكر فيه شيئا فهو صالح » (أ . هـ) .

ومما سبق يتبين أنواع ما جمعه من الاحاديث في سننه :

أولا : (الصحيح) ويجوز أن يريد به الصحيح لذاته .

ثانيا : (ما يشبهه) ويمكن أن يريد به الصحيح لغيره فهو الذي يشبه الصحيح لذاته ومرتبته بعده .

ثالثا : (ما يقاربه) ويحتمل أن يريد به الحسن لذاته .

رابعا : (ما كان فيه وهن شديد) .

خامسا : ما لم يذكر فيه شيئا . وهذا النوع يحتمل ان يكون حسنا لغيره إن اعتضد ويحتمل ان يكون فيه وهن غير شديد فهو صالح للاعتبار فقط .

ويقول الامام أحمد المعروف بشاه ولي الله الدهلوي عن كتاب السنن ومنهج أبي داود فيه (وكانت همته جمع الاحاديث التي استدل بها الفقهاء ودارت فيهم وبنى عليها الاحكام علماء الأمصار فصنف سننه وجمع فيها الصحيح والحسن واللين والصالح للعمل . قال أبو داود : ما ذكرت في كتابي حديثا أجمع الناس على تركه » وما كان منها ضعيفا صرح بضعفه وما كان فيه علة بينها بوجه يعرفه الخائض في هذا الشأن وترجم على كل حديث بما قد

استنبط منه عالم وذهب اليه ذاهب ولذلك صرح الغزالى وغيره بأن كتابه كاف للمجتهد »[٢١]

وقال أبو عمرو بن الصلاح معلقا على طريقة أبى داود فى سننه : « فعلى هذا ما وجدناه فى كتابه مذكورا مطلقا وليس فى واحد من الصحيحين ولا نص على صحته أحد ممن يميز بين الصحيح والحسن عرفنا بانه من الحسن عند أبى داود وحكى أبو عبد الله بن منده الحافظ أنه سمع محمد بن سعد البارودى بمصر يقول : كان من مذهب ابى عبد الرحمن النسائى ان يخرج عن كل من يجمع على تركه أى فى سننه الكبرى . قال ابن منده : وكذلك أبو داود السجستانى يأخذ مأخذه ويخرج الاسناد الضعيف اذا لم يجد فى الباب غيره ، لأنه أقوى عنده من أى الرجال [٢٢] .

وقال السيوطى : فعلى ما نقل عن ابى داود يحتمل أن يريد بقوله : « صالح » الصالح للاعتبار دون الاحتجاج فيشمل الضعيف أيضا وروى ابن كثير عن أبى داود قال : « وما سكت عنه فهو حسن »[٢٣] فإن صح ذلك فلا اشكال .

وقال الحافظ ابن حجر : « ان قول ابى داود : وما فيه وهن شديد بينته يفهم منه ان ما يكون فيه وهن غير شديد لم يبينه ومن هنا يتبين لك ان جميع ما سكت عنه أبو داود لا يكون من الحسن الاصطلاحى بل هو على أقسام :

منها ما هو صحيح أو على شرط الصحة ، ومنها ما هو حسن لذاته ومنها ما هو حسن لغيره وهذان القسمان كثيران فى كتابه جدا ، وفيه ما هو ضعيف ولكنه من رواية من لم يجمع على تركه غالبا ، وكل من هذه الأقسام تصلح عنده للاحتجاج بها كما نقل ابن منده عنه [٢٤] .

ونستطيع ان نخلص من هذه الآراء العلمية فى منهج ابى داود بالآتى :

أولا : انه يخرج فى الباب أصح ما عرفه فيه .

ثانيا : اذا خرج حديثا فيه ضعف شديد فقد اشترط ان ينبه على ضعفه أو علته .

---

(٢١) حجة الله البالغة للدهلوى جـ ١ ص ١٢١ .
(٢٢) مقدمة ابن الصلاح ص ١٥ .
(٢٣) تدريب الراوى ص ٩٧ .
(٢٤) المنهل العذب المورود جـ ١ ص ١٨ .

ثالثا : أن ما ذكره باطلاق من غير أن ينبه عليه او يبينه فهو - فى رأيه - صالح ، وقد حمل بعض العلماء كلمة « صالح » على أنه حسن أخذا من قوله : « وما سكت عنه فهو حسن » ، وحملها البعض على الصلاحية للاعتبار لا للاحتجاج فيشمل الضعيف .

وأرى أن ما أطلقه أبو داود ، ولم يبين درجته ينبغى أن نبحث عن درجته وان نحققه ثم بعد ذلك يتضح الحكم عليه بما يليق به صحة أو حسنا أو ضعفا ، فان مقاييس العلماء تختلف باختلاف وجهة نظرهم فى الشروط وفهمهم لها ، فما يكون من الاحاديث صالحا عند بعضهم للاحتجاج قد يكون فى نظر غيرهم ليس صالحا .

وهكذا اتضح لنا أن منهج ابى داود فى تدوين الحديث ينم عن معرفة دقيقة لمذاهب العلماء وطرقهم وعن رسوخ قدمه فى الصناعة الحديثية ومعرفة العلل واستنباط ما فى الحديث من دقائق وأحكام ولئن دون فى كتابه بعضا من الاحاديث التى فيها ضعف أو علة فانه إنما دونها لأنها كانت تدور بين العلماء ونبه على ما فيها من ضعف كما إنه وضح ما فيه علة بالوجه الذى يعرفه أهل الشأن فى ذلك وأما ما لم يوضحه فهو صالح كما قال وتركه لمعرفة أهل الشأن به والتمييز بينه وبين غيره .

شرطه فى السنن

اشترط الامام أبو داود أن يذكر فى كل باب أصح ما عرفه فى ذلك الباب وقد سبق ما قاله أبو عبد الله ابن منده عنه أنه يخرج الضعيف اذا لم يجد فى الباب غيره لأنه أقوى عنده من رأى الرجال . وكما سبق فى رسالة أبى داود أنه اشترط أن يخرج أصح ما عرف فى الباب ثم قال : « الا أن يكون قد روى من وجهين صحيحين فأحدهما أقدم اسنادا والآخر صاحبه قدم فى الحفظ فربما كتبت ذلك ولا أرى فى كتابى من هذا عشرة أحاديث » والاشارة تعود على الاقدم فى الاسناد لعلو سنده وأما قوله « وليس فى كتاب السنن الذى صنفته عن رجل متروك الحديث شىء واذا كان فيه حديث منكر بينت أنه منكر » فمراده أنه لم يخرج لمتروك الحديث عنده على ما ظهر له أو متروك متفق على تركه فانه قد أخرج لمن هم فى عداد المتروكين عند بعضهم كعمرو بن واقد الدمشقى ومحمد بن عبد الرحمن البيلمانى واسحاق ابن عبد الله بن أبى فروة وقد رأى ابن ظاهر أن كتاب ابى داود والنسائى ينقسم على ثلاثة أقسام :

القسم الاول : الصحيح المخرج فى الصحيحين : **القسم الثانى** : صحيح على شرطهما حكى أبو عبد الله بن منده ان شرط ابى داود والنسائى اخراج أحاديث أقوام لم يجمع على تركهم اذا صح الحديث باتصال الاسناد من غير قطع ولا ارسال فيكون هذا القسم من الصحيح الا أنه طريق دون طريق ما أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما .
القسم الثالث : أحاديث اخرجوها من غير قطع منهما بصحتها وربما أبانا علتها بما يفهمه أهل المعرفة وانما أودعا هذا القسم فى كتابيهما لأنه رواية قوم لها واحتجاجهم بها فأورداها وبينا سقمها لتزول الشبهة وذلك اذا لم يجدا اليها طريقا غيره لأنه أقوى عندهما من رأى الرجال (٢٥) .

وقد ضرب الحازمى مثلا لمعرفة طبقات الرواة لاصحاب الزهرى وانهم على خمس طبقات وجعل الطبقة الثالثة جماعة لزموا الزهرى مثل أهل الطبقة الأولى غير أنهم لم يسلموا من غوائل الجرح فهم بين الرد والقبول وهم شرط أبى داود والنسائى نحو سفيان بن حسين السلمى وجعفر بن برقان .

---

(٢٥) شروط الأئمة الستة ص ١٢ .

مثال للاحاديث التى بها وهن وبينه أبو داود

فى الجزء الأول من سنن أبى داود ، وفى كتاب الطهارة ، تحت عنوان [٢٦] : « باب الخاتم يكون فيه ذكر الله يدخل به الخلاء » قال : حدثنا نصر بن علـى ، عن أبى على الحنفى ، عن همام عن ابن جريج عن الزهرى عن أنس قال : « كان النبى ﷺ اذا دخل الخلاء وضع خاتمه » قال ابو داود هذا حديث منكر ، وانما يعرف عن ابن جريج عن زيادة ابن سعد عن الزهرى عن أنس أن النبى ﷺ « اتخذ خاتما من ورق ثم ألقاه » والوهم فيه من همام ، ولم يروه الا همام .

فهذا الحديث بينه أبو داود وأصدر فيه حكمه وفاء بشرطه الذى التزمه أن ما كان فيه وهن بينه وقد خرج النسائى هذا الحديث ، وقال عنه : « غير محفوظ » وهمام بن يحيى هذا ثقة واحتج به أهل الصحيح ، ولكنه خالف الناس فروى عن ابن جريج هذا المتن بهذا السند ، وانما روى الناس عن ابن جريج الذى أشار اليه أبو داود ، ولهذا حكم عليه أبو داود بالنكارة .

واما الترمذى فقال فيه : حديث حسن صحيح غريب وذلك لأن الترمذى أجرى حكمه على ظاهر الاسناد ، وقول أبى داود والنسائى أولى بالصواب .

وقد ورد الحديث من غير رواية همام ، فقد رواه الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى سننه من رواية يحيى بن المتوكل عن ابن جريج ، وصححه الحاكم على شرط الشيخين وضعفه البيهقى ، فقال : هذا شاهد ضعيف ، وكأن البيهقى ظن أن يحيى بن المتوكل هو أبو عقيل وهو ضعيف عندهم وليس هو به ، وانما هو باهل يكنى أبا بكر ذكره ابن حبان فى الثقات ، ولا يقدح فيه قول ابن معين ، لا أعرفه ، فقد عرفه غيره وروى عنه نحو من عشرين نفسا الا أنه اشتهر تفرد همام به عن ابن جريج [٢٧] .

---

(٢٦) سنن أبى داود جـ ١ ص ٥ ط مطبعة مصطفى محمد .

(٢٧) فتح المغيث للعراقى جـ ١ ص ٩٣ تعليق الأستاذ محمود ربيع .

مثال لما سكت عنه أبو داود

فى الجزء الثانى من سنن أبى داود من كتاب الزكاة تحت عنوان [٢٨] : « باب حق السائل » قال : حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، ثنا مصعب بن محمد بن شرحبيل حدثنى يعلى بن أبى يحيى ، عن فاطمة بنت حسين ، عن حسين بن على قال : قال رسول الله ﷺ : « للسائل حق وان جاء على فرس » وقد أخرج الامام أحمد فى مسنده هـذا الحديث : عن وكيع وعبد الرحمن بن مهدى كلاهما عن سفيان عن مصعب بن محمد بن يعلى بن أبى يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها حسين بن على عن النبى ﷺ ، وهو اسناد جيد ، ويعْلى وإن جهله أبو حاتم فقد وثقه أبو حاتم ابن حبان ، وأما مصعب فوثقه يحيى بن معين وغيره . وهذا الحديث سكت عنه أبو داود ، وما سكت عنه فهو صالح ، وقد أخرجه أبو داود أيضا من حديث على قال : حدثنا محمد بن رافع ثنا يحيى بن آدم ثنا زهير عن شيخ قال : رأيت سفيان عنده عن فاطمة بنت حسين عن أبيها عن على عن النبى ﷺ ، مثله ، وفى هذا الاسناد ما لم يسمه أبو داود .

---

(٢٨) سنن أبى داود جـ ٢ ص ١٢٦ ط مطبعة مصطفى محمد .

درجة أحاديث السنن

بين ولى الله الدهلوى فى كتابه (حجة الله البالغة) درجة احاديث كتاب أبى داود ، فجعل سننه من كتب الطبقة الثانية وهى الكتب التى عرف مصنفوها بالثقة والضبط والعدالة والتبحر فى فنون الحديث ، ولم يتساهلوا فيما اشترطوه على انفسهم فى تدوين أحاديث هذه الكتب فتلقاها المحدثون والفقهاء بالقبول ، وعنوا بها طبقة بعد طبقة ، وعدها من هذه الطبقة الثانية التالية للصحيحين وفى رأيه أنها لم تبلغ مبلغ الصحيحين ولكنها تتلوهما[٢٩] وصرح الدهلوى فى موضع آخر بدرجات الأحاديث المدونة فى سنن أبى داود ، فقال : « جمع فيها الصحيح والحسن واللين والصالح للعمل »[٣٠] أ . هـ .

وقد أبرز أبو داود أهمية كتابه ، ودرجته فى السنة : ولا أعلم بعد القرآن شيئا ألزم للناس أن يتعلموه من هذا الكتاب ، ويكفى الانسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث أحدها : (انما الأعمال بالنيات) الثانى : (من حسن اسلام المرء تركه ما لايعنيه) الثالث : (لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه) الرابع : (الحلال بين والحرام بين وبين ذلك مشتبهات) أ . هـ . وقول أبى داود هذا يوضح منزلة الكتاب ، لأنه اذا كان هذا حال أربعة أحاديث فقط فما ظن القارىء بباقى الكتاب ؟ وعلى ما فى قوله من المبالغة ، فان فى هذه الأحاديث الأربعة الكفاية اجمالا لطلب النجاة والفوز كما وجهها بعض العلماء فالحديث الأول يوضح أن الأعمال الشرعية لا يعتد بها الا بالنية الخالصة ، والثانى : يوجه المسلم الى ما ينفعه فى الدين والدنيا وترك ما لا نفع فيه والثالث : يوضح علاقة المسلم بأخيه والرابع : أصل فى معرفة الحلال والحرام[٣١] وقال ابن السبكى فى طبقاته : (وهى ـ أى سنن أبى داود ـ من دواوين الاسلام . والفقهاء لا يتحاشون من اطلاق لفظ الصحاح عليها وعلى سنن الترمذى لاسيما سنن أبى داود)[٣٢] أ . هـ .

---

(٢٩) حجة الله البالغة للدهلوى جـ ١ ص ١٠٧ .

(٣٠) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٣١) كشف الظنون جـ ٢ ص ١٠٠٥ ، وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٦٨ .

(٣٢) اعلام المحدثين للدكتور محمد ابو شهبة ص ٢٢٢ .

وقد انتقد الحافظ ابن الجوزى بعض احاديث من سنن أبى داود وعدها من الموضوعات وهى تبلغ(٣٣) تسعة احاديث وقد أجاب عنها الامام السيوطى ، وحتى لو سلم لابن الجوزى الحكم عليها ، فهى قليلة بالنسبة الى مجموع أحاديث السنن وممن دافع عن كتاب ابى داود ونفى وجود الموضوع فيه الامام الخطابى قال : « كتاب أبى داود جامع لنوعى الصحيح والحسن وأما السقيم فعلى طبقات شرها الموضوع ثم المقلوب ثم المجهول ، وكتاب أبى داود خلا منها برىء من جملة وجهها أ . هـ . وقد ذكر الذهبى أن اعلى ما فى كتاب أبى داود من الثابت ما أخرجه الشيخان وذلك نحو شطر الكتاب ، ثم يليه ما اخرجه الشيخان ورغب عنه الآخر ثم يليه ما رغب عنه وكان اسناده جيدا سالما من علة وشذوذ ثم يليه ما كان صالحا ، وقبله العلماء لمجيئه من وجهين لينين فصاعدا ، ثم يليه ما ضعف اسناده لنقص حفظ راويه فمثل هذا يسكت عنه أبو داود غالبا وقد يسكت عنه بحسب شهرته ونكارته(٣٤) .

(٣٣) التعقبات على الموضوعات للسيوطى ص ٦٠ .

(٣٤) قواعد التحديث ٢٤٦ القاسمى .

الامام الترمذى

نسبه ونشأته :

هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمى الضرير البغوى الترمذى الحافظ ، أحد الأئمة المقتدى بهم فى علم الحديث والسلمى نسبة الى بنى سليم قبيلة من عيلان والبغوى نسبة الى بوغ قرية من قرى ترمذ على فراسخ منها ، وقد ولد مبصرا على أصح الآراء ثم كف بصره فى آخر عمره بعد أن رحل وحفظ وأتقن وصنف[٣٥] وكان جد أبى عيسى مروزيا وانتقل إلى ترمذ فأقام بها وولد بها حفيده أبو عيسى ولم يحدد المؤرخون تاريخ مولده وانما حصروا سنة ميلاده فى العقد الأول من القرن الثالث .

والذى أرجحه أنه ولد سنة تسع ومائتين ، وذلك لأن معظم المؤرخين متفقون على أنه توفى لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب ليلة الاثنين سنة تسع وسبعين ومائتين بترمذ ، ويرى الذهبى انه كان من ابناء السبعين[٣٦] فدل هذا على أن مولده سنة تسع ومائتين .

وما أن شب الترمذى عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال إلا وأخذ يستقى العلم من منابعه فتتلمذ على شيوخ بلدته وغيرها وأخذ عن ائمة الحديث وكبار الشيوخ وجمع بين العلم والعمل فكان حافظا ثقة وتقيا ورعا مشهودا له بالامانة والضبط . ونشأ الترمذى محبا للسنة منذ صغره ، وساعده على الوصول الى الدرجة العلمية السامية ورعه وتقواه وقوة حافظته وسيلان ذهنه ، ومما يشهد له بذلك ما رواه الحافظ ابن حجر : (عن أحمد بن عبد الله بن ابى داود قال : سمعت ابا عيسى الترمذى يقول : كنت فى طريق مكة وكنت كتبت جزءين من أحاديث شيخ فمر بنا ذلك الشيخ فسألته عنه فقالوا : فلان فرحلت اليه وأنا أظن أن الجزءين معى وانما حملت معى فى محملى جزءين غيرهما شبههما فلما ظفرت به سألته فأجاب واخذ يقرأ من حفظه ثم لمح فرأى البياض فى يدى فقال : أما يستحى منى ؟ فقصصت عليه القصة وقلت له : انى احفظه كله : فقال : اقرأ فقرأته عليه على الولاء

---

(٣٥) وفيات الاعيان جـ ١ ص ٦١٢ ، تذكرة الحفاظ ، تهذيب التهذيب .

(٣٦) ميزان الاعتدال جـ ٢ ص ١١٧ ، وفيات الاعيان جـ ١ ص ٦١٢ .

قال : هل استظهرت قبل أن تجيء الى ؟ قلت : لا . ثم قلت له حدثني بغيره فقرأ على أربعين حديثا من غرائب حديثه ثم قال : هات فقرأت عليه من أوله الى آخره فقال : ما رأيت مثلك(٣٧) . وفى هذا ما يدل على قوة حفظه وحدة ذكائه حتى كان يضرب به المثل فى الحفظ ويقال فيه أنه من أوعية العلم .

حياته العلمية :

حبب الى الامام الترمذى العلم منذ صغره فشغل حياته بطلبه وكان شغوفا به فتتلمذ على شيوخ بلدته ثم أراد أن يجمع العلم من البلاد الأخرى ليضمه الى ما اخذه عن شيوخ بلدته فطوف فى كثير من البلاد كما هو شأن غيره من الائمة والعلماء رَحل فى طلب الحديث الى الامصار بعد أن جاوز العشرين من عمره ، فذهب الى خراسان وتتلمذ على الشيوخ اسحاق بن راهويه ومحمد بن عمر والسواق ، وما لبث أن رحل الى العراق فسمع الحفاظ من شيوخ الحديث ثم رحل الى الحجاز وغير ذلك من البلاد وفى خلال هذه الرحلات العلمية التى قام بها الترمذى كان لا يدع فرصة يمكنه أن يحصل فيها على العلم الا اغتنمها فكان يتلقى عن العلماء ويدون الحديث ويناظر كبار الائمة ويناقشهم وخصوصا الامام البخارى الذى كان له أكبر الأثر فى حياة الترمذى العلمية ولاسيما فى فقه الحديث فقد لازمه مدة طويلة وأخذ منه وتخرج عليه . قال ابن خلكان : (وهو تلميذ ابى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى وشاركه فى بعض شيوخه مثل قتيبة بن سعيد وعلى بن حجر وابنه بشار وغيرهم أ . هـ (٣٨))

وهكذا كان البخارى الشيخ والموجه للترمذى فحصل على يديه من الحديث والفقه ومذاهب العلماء الكثير وكتابه الجامع أكبر شاهد على تمكنه من الحديث والفقه فى كل باب وعلى سعة باعه فى هذا المجال .

شيوخه وتلاميذه :

أخذ الترمذى عن كثير من الشيوخ وكان لشيخه البخارى اليد الطولى فى التأثير ، وقد تفوق وبرزت ملكاته العلمية ومواهبه الفطرية وهو مازال فى تلقى العلم والاخذ عن الشيوخ . ومما يدل على مكانته العلمية ان الامام البخارى اخذ عنه بعض الاحاديث

---

(٣٧) تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٣٨٧ .

(٣٨) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٦١٢ .

وللترمذى شيوخ كثيرون منهم البخارى ومسلم وأبو داود وقد شاركهم فى بعض شيوخهم وقتيبة بن اسحاق بن موسى ومحمد بن غيلان وسعيد بن عبد الرحمن ومحمد بن بشار وعلى ابن حجر وأحمد بن منيع ومحمد بن المثنى وسليمان بن وكيع وغيرهم .

وممن روى عنهم أبو حامد أحمد بن عبد الله بن داود المروزى ومكحول بن الفضل ومحمد بن محمود بن عنبر وحماد بن ساكر وعبد بن محمد انسفيون والهيثم بن كليب الشاش راوية الشمائل وأحمد بن على بن حسناويه ومحمد بن المنذر بن سعيد الهروى وأحمد بن يوسف النسفى وأبو العباس محمد بن محبوب المحبوبى راوية كتابه الجامع وغيره .

مؤلـفاتـه : ومن مؤلفاته :

١- كتاب الجامع .
٢- كتاب العلل فى آخر جامعه .
٣- كتاب التاريخ .
٤- كتاب الشمائل النبوية .
٥- كتاب الزهد .
٦- كتاب الاسماء والكنى .

وقد ادعى ابن حزم أن الترمذى مجهول ولم يعرفه ولكن هذا قول متسرع ورأى لا أساس له من الصحة وقد سجل ابن حزم بهذا على نفسه عدم الاطلاع ولا يعتذر له بأنه لم يدر بوجود الجامع والعلل التى للترمذى لأنها لم تدخل الأندلس حين ذاك ، فان عدم علمه بالجامع والعلل لا يعنى عدم معرفته بالترمذى . وقد ذكره صاحب كتاب المؤتلف والمختلف ونبه على قدره فكيف فات ابن حزم الوقوف عليه ولكن الامر كما قال ابن حجر « ان هذا الرجل قد اطلق هذه العبارة فى خلق من المشهورين من الثقات الحفاظ كأبى قاسم البغوى واسماعيل بن محمد الصغار وأبى العباس الاصم وقال ابن كثير (وجهالة ابن حزم لابى عيسى لا تضره حيث قال فى المحلى : (ومن محمد بن عيسى بن سورة) فان جهالته لا تضع من قدره عند أهل العلم بل وضعت منزلة ابن حزم عند الحفاظ .

وكيف يصح فى الاذهان شىء اذا احتاج النهار الى دليل

والآن لنضع ايدينا على أهم ثمرات قلبه وفكره وهو كتابه النفيس (الجامع)

جامع الترمذى

التعريف بالكتاب :

هو أحد الكتب الستة وأشهر المصنفات للامام الترمذى الذى أصبح به اماما فى الحديث وقد رتبه على أبواب الفقه وغيرها ، ودون فيه الأحاديث الصحيحة وغيرها مبينا درجة كل حديث فى موضوعه كما بين مذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الامصار ، واختصر طرق الحديث ، وألحق به كتابا للعلل سجل فيه كثيرا من الفوائد الهامة ولما ألفه عرضه على علماء الحجاز والعراق وخراسان فوضع موضع القبول ، روى عنه انه قال صنفت هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز والعراق وخراسان فرضوا به ومن كان فى بيته فكأنما فى بيته نبى يتكلم[39] « أ . هـ » وقد جاء هذا الكتاب حافلا بالاحاديث النبوية المشتملة على الاحكام والمواعظ والآداب والتفسير والمناقب وغير ذلك .

وقد عنى الترمذى بالتراجم فأورد تراجم عامة تشتمل على احاديث تتضمن مسائل متعددة وأبوابا كثيرة ، لذا نراه يعنون بمثل هذه الترجمة العامة يقول : (ابواب) مثل ابواب الصلاة على رسول الله ﷺ كما أورد تراجم خاصة وهى التراجم الجزئية التى يضعها لمسألة معينة ويعنون لها بقوله (باب) مثل : باب ما جاء ان مفتاح الصلاة الطهور وبعد أن يذكر الترمذى الاحاديث فى الترجمة يتبع ذلك بذكر آراء الفقهاء فى المسألة وبيان درجة الحديث ، ويتكلم على الرجال والاسانيد وما يتعلق بكل ذلك ، كما يذكر ما للحديث من طرق ، وان كانت هناك احاديث أخرى تناسب الترجمة اشار اليها ولا يكتفى بذلك فحسب وانما يوازن بين ما يورده فى الترجمة من الاحاديث ويوضح رأيه فى أقوال العلماء .

وقد أطلق الحاكم على كتاب الترمذى (الجامع الصحيح) وأطلق الخطيب عليه وعلى كتاب النسائى اسم (الصحيح) بل ان الحافظ أبا طاهر احمد بن محمد بن السلفى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ كان يطلق على كتب السنن اسم الصحيح ولاشك ان فى هذه التسمية تجاوزا وتساهلا لان فى السنن الصحيح والحسن والضعيف ، قال السيوطى ومن اطلق عليها أى على السنن الصحيح كقول السلفى فى الكتب الخمسة اتفق على صحتها علماء المشرق والمغرب وكاطلاق الحاكم على الترمذى الجامع الصحيح واطلاق الخطيب عليه وعلى النسائى اسم الصحيح فقد تساهل[40] « أ . هـ » . ويسمى كتاب الترمذى ايضا

(٣٩) كشف الظنون جـ ١ ص ٥٥٩ .

(٤٠) تدريب الراوى ص ٩٥ .

(بالجامع الكبير) وهذه التسمية قليلة الاستعمال ويسمى (بالسنن) نظرا لاشتماله على احاديث الاحكام مرتبة ترتيبا فقهيا ولكن الكتاب لم يتضمن احاديث الاحكام فقط وانما يشتمل عليها وعلى غيرها ففى هذه التسمية ايضا تساهل وتجاوز . وسمى الكتاب (بالجامع) واشتهر (بجامع الترمذى)[41] وهذا هو الاكثر نظرا لاستيعابه كثيرا من ابواب السنة وفنون الحديث ونظرا لعمل تقييده بقيد الصحة ، لذا كان هذا الاسم اولى بالإطلاق على هذا الكتاب وقد وضح الامام الترمذى موضوع كتابه والباعث له على تأليفه على هذا الوضع فقال وإنما حملنا على ما بينا فى هذا الكتاب من قول الفقهاء وعلل الحديث لانا سئلنا عن هذا فلم يغفله زمانا ثم فعلناه لما رجونا فيه من منفعة الناس لانا قد وجدنا غير واحد من الائمة تكلفوا من التصنيف مالم يسبقوا اليه ، منهم : هاشم بن حسان وعبد الله بن عبد العزيز بن جريج وسعيد بن ابى عرويه ومالك بن انس وحماد بن سلمة وعبد الله بن مبارك ويحيى بن زكريا بن ابى زائدة ووكيع بن الجراح وعبد الرحمن بن مهدى وغيرهم من أهل العلم والفضل صنفوا فجعل الله فى ذلك منفعة كثيرة فنرجو لهم بذلك الثواب الجزيل عند الله لما نفع الله المسلمين فبهم القدوة فيما صنفوا « أ . هـ » وقول الترمذى هذا يدل على أمرين : الامر الأول : موضوع كتابه وهو تدوين الاحاديث النبوية واستنباط الاحكام منها وتوضيح اراء الفقهاء واقوالهم وبيان علل الحديث . والأمر الثانى : وهو الباعث له على تأليف كتابه على هذا الوضع وهو رغبته فى انتفاع المسلمين وحيث انه سئل عن هذا فلم يفعل ثم حفز همته وقوى عزمه لهذا الصنيع ما رغب فيه من نفع الناس وما رآه من سابقيه من الائمة الذين صنفوا مالم يسبقوا اليه وفيهم القدوة له .

ومعلوم ان الامام البخارى والامام مسلما قد تقدما الامام الترمذى وسبقاه فى تدوين الحديث فلما جاء بعدهما وضع كتابه وجمع فيه فوائد الصحيحين واضاف من مجهوده الشخصى ما جعله يتميز عن غيره . وقد أبرز شخصيته العلمية بصورة واضحة فيما قدمه من الصناعة الحديثة وقد نحا منحى الامام مسلم فى كتابته مقدمة لصحيحه بين فيها منهجه فى الكتاب وتوضيح بعض المسائل الهامة المناسبة له فوضع كتاب (العلل) الا أنه أتى به آخر الكتاب . ويعتبر كتاب العلل ضمن كتاب الجامع كجزء منه وبيان لمنهجه فيه وقد أورد فيه بعض مسائل طرقها مسلم واخرى تفرد بها هو ولهذه البحوث أهمية كبيرة فى علم الحديث وقد بين فيها احوال احاديث الكتاب اجمالا وعلوم الرجال والتحمل والاداء ونبه على اختلاف العلماء فى جرح بعض الرجال وتعديلهم وتفسير كثير من الاصطلاحات وقد عنى كثير من العلماء بكتاب الترمذى فتناولوه بالشرح والاختصار ومن هذه الشروح :

(٤١) الرسالة المستطرفة ص ١١ كشف الظنون جـ ١ ص ٥٥٩

١ - شرح الحافظ أبي بكر محمد بن عبد الله الاشبيلي المعروف بابن العربي المالكي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ وسماه عارضة الاحوذي في شرح سنن الترمذي تكلم فيه على الرجال والاسانيد وفنون النحو والعقائد والاحكام وتوجيه الاقوال ولاسيما مذهب امامه مالك وهو مطبوع بمصر والهند .

٢ - شرح الحافظ ابي الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري الشافعي المتوفى سنة ٧٣٤ هـ بلغ فيه نحو ثلثي الجامع ثم كمله زين الدين عبد الرحيم بن حسين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ هـ .

٣ - شرح سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني المتوفى سنة ٨٠٥ هـ وسماه (العرف الشذى على جامع الترمذي) شرح منه البعض ولم يكمله .

٤ - شرح زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن النقيب الحنبلي وقد احرق شرحه في الفتنة .

٥ - شرح الحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ وسماه (قوت المغتذى على جامع الترمذي) وضع في أوله مقدمة لبيان منزلة الجامع واصطلاحاته وهو مطبوع بالهند .

٦ - شرح الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ هـ .

٧ - شرح الشيخ ابي الحسن عبد الهادي السندي المتوفى سنة ١١٣٨ هـ وهو مختصر .

٨ - تحفة الاحوذي بشرح جامع الترمذي لعبد الرحمن المباركفوري ، كما اختصر جامع سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي المتوفى سنة ٧١٠ هـ[٤٢] .

وممن روى عن الامام الترمذي كتابه الجامع ستة من العلماء :

١ - ابو العباس محمد بن احمد بن محبوب وروايته هي الرواية المعروفة الشهيرة .

٢ - أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاش ، وبروايته روى أبو بكر محمد بن خير بعض أحاديث من الجامع وكتاب العلل وذكر اسناده بذلك الى الترمذي من طريقه .

---

(٤٢) كشف الظنون جـ ١ ص ٢٢٨ ، ٢- الحديث والمحدثون د. محمد أبو زهو ص ٤١٧ ، اعلام المحدثين د. محمد ابو شهبة ص ٢٥١ .

٣ - ابو ذر محمد بن ابراهيم .
٤ - أبو محمد الحسن بن ابراهيم القطان .
٥ - أبو حامد أحمد بن عبد الله التاجر .
٦ - أبو الحسن الوازرى . ولم تتصل هذه الروايات كلها الى عصرنا هذا بل اتصلت منها برواية المحبوبى للكتاب(٤٣) .

منهج الترمذى فى جامعه

دون الامام الترمذى فى جامعه الحديث الصحيح والحسن والضعيف والعلل ووضح علته ولم يلتزم تخريج الصحيح وحده وإنما التزم أن يخرج الاحاديث التى عمل بها الفقهاء ، وقد روى عنه قال : جميع ما فى هذا الكتاب هو معمول به وبه اخذ بعض أهل العلم ما خلا حديثين احدهما حديث (انه ﷺ جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء من غير خوف ولا سفر) وثانيهما حديث (فان عاد - أى شارب الخمر - فى الرابعة فأقتلوه) وقد نهج ابو عيسى الترمذى فى تدوين احاديث كتابه منهج المحدثين فى الرواية من الاسناد فوفاه حقه وذكر طرق الحديث وبين اختلاف الرواة واتفاقهم بل وزاد الترمذى من سبقه الاشارة الى أسانيد الحديث وتلخص منهج الترمذى فى أربع طرق :

١ - طريقة جمع أسانيد الحديث فى سياق واحد وذلك بأن يذكر الطرق التى روى بها الحديث كلها فى سياق واحد وهذه الطريقة يستعملها عندما تستوى مراتب رواة الحديث وتتفق رواياتهم لفظا ومعنى . وحينما ينتقل من اسناد الى آخر يذكر الحرف (ح) على نحو ما كان يصنع الامام مسلم واذا كان بين الرواة اختلاف ولو يسيرا فى اللفظ فانه يحذف الفاظه ويوضح اختلافاتهم كأن يقول (حدثنا فلان وفلان المعنى واحد) ويقصد بهذه الجملة أنه ذكر لفظ احد الرواة ولكنه لم يعين صاحبه وتارة يعين صاحب اللفظ فيقول (حدثنا فلان وفلان واللفظ لفلان) وتارة أخرى يذكر لفظ كل من الرواة كما كان ينبه أيضا على اختلاف ألفاظ الاداء لدى الرواة فيميز بين قول بعضهم حدثنا وقول غيرهم اخبرنا .

٢ - طريقة تعداد الاسانيد وذكر المتن بعد أول اسناد وذلك بأن يروى الترمذى الحديث بسنده ومتنه ثم يذكر بعد ذلك الاسانيد الاخرى ولا يعيد ذكر المتن اختصارا وانما يكتفى بالاشارة اليه كأن يقول مثله أو نحوه وقد قيل ان هاتين الكلمتين معناهما واحد ولكن الحاكم فرق بينهما فخص (مثله) اذا اتفق الحديثان فى اللفظ (ونحوه) اذا كان بمعناه(٤٤) .

---

(٤٣) مقدمة تحفة الاحوذى ص ١٧٨ الامام الترمذى للدكتور نور الدين عتر .
(٤٤) تدريب الراوى ص ٢٢٨ .

٣ ـ أن يفرد كل اسناد مع متنه فى الرواية وهذه الطريقة يذكر الترمذى فيها الحديث بالاسانيد المتعددة ثم يذكر بعد كل اسناد المتن الذى روى به وفى هذه الطريقة تقوية لدرجة الحديث بتكرار السند وبما يزيد فى أحد المتنين عن الآخر حتى تتضح درجة الحديث بزيادة أو اختلاف بين رواته أو بيان لعلة فيه .

٤ ـ اشارة الترمذى الى اسانيد الحديث . وفى هذه الطريقة يخرج الترمذى الحديث بسنده ثم يكتفى بالاشارة الى الاسانيد الاخرى لشهرتها ، بأن يعلق هذه الطرق فيذكر موضع الاستشهاد منها من متابعة أو غير ذلك ، مثل قوله : (حدثنا أحمد بن منيع والحسن ابن الصباح البزار وأحمد بن محمد بن موسى ـ المعنى واحد قالوا حدثنا اسحاق بن يوسف الأزرق عن سفيان الثورى عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريده عن أبيه قال أتى النبى ﷺ رجل فسأله عن مواقيت الصلاة . . . . فذكر الحديث ثم قال (وقد رواه شعبه عن علقمة ابن مرثد أيضا) فذكر متابعة شعبة لسفيان الثورى معلقة وهكذا ولم يذكر الاسناد كله .

وقد يخرج الحديث باسناده ويشير الى وروده من طرق اخرى بقوله (وقد روى من غير وجه نحوه)(٤٥) .

وهذه الطريقة الرابعة تفرد بها الامام الترمذى أما الطرق الثلاثة السابقة فقد شاركه فيها الامام مسلم كما سلك الترمذى فى تدوين الاحاديث الدالة على الباب برواية بعضها بأسانيدها والاشارة الى بعض أحاديث فى معنى ما خرجه فى الباب فيذكر روايتها عن الصحابة فيقول (وفى الباب عن فلان وفلان) .

شرط الترمذى فى جامعه

سبق بيان رأى الحازمى فى شروط الأئمة وتوضيح كل طبقة من الطبقات التى قسمها وأن الطبقة الرابعة قوم شاركوا الثالثة فى الجرح والتعديل وتفردوا بقلة ممارستهم لحديث الزهرى لانهم لم يلازموه كثيرا وهم شرط الترمذى(٤٦) ومن المعروف أن أهل هذه الطبقة لم يسلموا من غائلة الجرح لهذا جاءت احاديث جامع الترمذى منها الصحيح والحسن والضعيف والغريب والمعلل الذى يوضح علته فالترمذى إذا خرج أحاديث الطبقة الأولى والثانية والثالثة والرابعة ولكنه لم ينزل الى ما دون ذلك فلم يدون فى كتابه الواهى

(٤٥) الترمذى والموازنة بين جامعه وبين الصحيحين د. نور الدين عتر ص ٨٧ .
(٤٦) تدريب الراوى ص ٦٨ ـ شروط الأئمة الخمسة .

ولا الموضوع لانه التزم فى كتابه الا يخرج الا الاحاديث التى عمل بها الفقهاء أو احتج بها المحتجون والأئمة لم يحتجوا بالواهى ولا بالموضوع ولئن كان فى هذا الشرط متسع لتخريج الصحيح وغيره الا أنه تكلم على كل حديث بما يقتضيه قال أبو عيسى فى علل الجامع : جميع ما فى الكتاب من الحديث فهو معمول به وقد اخذ به بعض أهل العلم ما خلا حديثين «أ . هـ» . وفى قول الترمذى السابق لا يفهم أنه لا يخرج كل حديث احتج به محتج صحيحا كان أو غير صحيح انما يفهم هذا لو أنه قال بأنه يحتج بكل حديث احتج به الفقهاء وبين التعبيرين فرق لأنه من الجائز أن يقوم الترمذى فينتقى مما يحتج به الفقهاء بعض الاحاديث التى توافرت فيها الشروط الخاصة عنده . ويقول الحافظ بن رجب فى شرح علل الترمذى (اعلم ان الترمذى خرج فى كتابه الحديث الصحيح والحديث الحسن وهو ما نزل عن درجة الصحيح وكان فيه بعض ضعف والحديث الغريب والغرائب التى خرجها فيها بعض المناكير ولاسيما فى كتاب الفضائل ، ولكنه يبين ذلك غالبا ولا يسكت ولا أعلم أنه خرج عن متهم بالكذب متفق على اتهامه حديثا باسناد منفرد الا أنه يخرج حديثا مرويا من طرق أو مختلفا فى اسناده وفى بعض طرقه متهم وعلى هذا الوجه خرج حديث محمد بن سعيد المصلوب ، ومحمد بن السائب الكلبى ، نعم قد يخرج عمن هو سيء الحفظ وعمره غلب على حديثه الوهم ويبين ذلك غالبا ولا يسكت عنه وقد شاركه أبو داود فى التخريج عن كثير من هذه الطبقة مع السكوت على حديثهم كإسحاق ابن أبى فروه وغيره)[٤٧] .

---

(٤٧) شروط الأئمة الخمسة ص ٥٤ .

درجة أحاديثه

جعل ولى الله الدهلوى جامع الترمذى فى درجة سنن ابى داود ومجتبى النسائى وعده معها فى الطبقة الثانية وهى كتب لم تبلغ مبلغ الموطأ والصحيحين ولكنها تتلوها[٤٨] ثم ذكر فى موضع آخر ان الترمذى استحسن طريقة الشيخين وطريقة أبى داود فنسج فى كتابه على منوال هؤلاء . وزاد بيان مذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار فجمع كتابا جامعا واختصر طريق الحديث اختصارا لطيفا فذكر واحدا وأومأ الى ما عداه . وبين أمر كل حديث من أنه صحيح أو حسن أو ضعيف أو منكر وبين وجه الضعف ليكون الطالب على بصيرة من أمره فيعرف ما يصلح للاعتبار عما دونه وذكر أنه مستفيض أو غريب وذكر مذاهب الصحابة وفقهاء الامصار وسمى من يحتاج الى تسمية وكنى من يحتاج الى الكنية ولم يدع خفاء لمن هو من رجال العلم[٤٩] فرأى الدهلوى يتلخص فى وضع كتب السنن الثلاثة للترمذى وأبى دادو والنسائى فى رتبة واحدة بعد الصحيحين والموطأ .

وهناك رأى آخر يرى فيه بعض العلماء ان كتاب جامع الترمذى على أربعة أقسام :

١ - قسم مقطوع بصحته وهو ما وافق فيه البخارى ومسلم .

٢ - قسم على شرط أبى داود والنسائى .

٣ - قسم أبان علته .

٤ - قسم أبان عنه فقال ما اخرجت فى كتابى هذا الا حديثا عمل به بعض الفقهاء سوى حديث (فان شرب فاقتلوه فى الرابعة)[٥٠] وحديث (جمع بين الظهر والعصر بالمدينة من غير خوف ولا سفر)[٥١] .

ففى هذا القسم الرابع اخرج ما اخذ به بعض الفقهاء وليس فى الموضوع غيره[٥٢] .

---

(٤٨) حجة الله البالغة جـ ١ ص ١٠٧ .

(٤٩) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٥٠) اخرجه الجماعة من حديث أبى هريرة وغيره .

(٥١) اخرجه الشيخان واصحاب السنن من حديث ابن عباس بالفاظ مختلفة .

(٥٢) تذكرة الحفاظ ص ٦٣٤ ، شروط الائمة الستة للمقدسى ص ١٣ ، قواعد التحديث ص ٢٤٦ .

والرأى الثانى هو الذى أميل اليه وأرجحه وذلك لأن فيه تحديدا لدرجة احاديث جامع الترمذى ببيان كل قسم على حدة ، فولى الله الدهلوى وإن أشار الى هذه الاقسام (بقوله عن الترمذى انه بين أمر كل حديث من أنه صحيح أو حسن أو ضعيف أو منكر) الا أنه وضعه فى درجة واحدة مع كتابى ابى داود والنسائى وهى الطبقة الثانية ، أما الرأى الثانى ففيه بيان درجة كل نوع من هذه الانواع ، فليس كتاب الترمذى كله على شرط أبى داود والنسائى وليست احاديثه كلها فى درجتهما بل فيه أمثال القسم الأول وهو المقطوع بصحته وعلى أية حال فان شرط الترمذى وهو تدوين كل حديث عمل به الفقهاء شرط واسع وهو الذى حمله أن يخرج هذه الانواع الكثيرة من الاحاديث ولكنه أبرز مجهوده العلمى العظيم بتمييزه الدقيق لكل حديث فبين نوعه ودرجته من الصحة وكشف عما يقدح فى بعض الاحاديث وتكلم عن الاسانيد والرواة وهذه الهمة العالية خصيصة للترمذى .

وللترمذى حديث ثلاثى واحد علا الترمذى فيه حتى صار بينه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاثة رواة قال الترمذى فيه : حدثنا اسماعيل بن موسى قال : حدثنا عمر ابن شاكر عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يأتى على الناس زمان الصابر منهم على دينه كالقابض على الجمرة) وكتاب الترمذى أصل فى معرفة الحسن وهو الذى نوه باسمه وأكثر من ذكره فى جامعه[٥٣] .

وكان أكثر المتقدمين يقسم الحديث الى قسمين : صحيح ، وضعيف واما الحسن فمنهم[٥٤] من يدرجه فى الصحيح لاشتراكهما فى الاحتجاج مع بيان أنه دونه فى الاحتجاج به وذكر ابن تيمية انهم كانوا يدرجونه فى الضعيف قال فى منهاج السنة : كان الحديث فى اصطلاح من قبل الترمذى اما الصحيح واما ضعيف والضعيف اما متروك واما ضعيف ليس بمتروك وبين أن الضعيف غير المتروك وهو الحسن وأرى أن الحديث الحسن عرف قبل الترمذى الا انه لم يكن مشهورا بين العلماء ، ووجد فى كلام بعض شيوخ الترمذى والطبقة التى قبله كالامام على بن المدينى والامام البخارى[٥٥] قال الكشميرى ان البخارى وعلى بن المدينى ممن يفرقان بينهما ـ أى الصحيح والحسن ـ حتى جاء الترمذى ، وتبع فى ذلك شيخه البخارى فشهره ونوه بذكره[٥٦] . واذا كان البخارى لم يرد منه ذكر للحديث الحسن فى

---

(٥٣) مقدمة ابن الصلاح ص ٣٨ .

(٥٤) قواعد التحديث للقاسمى ص ١٠٦ .

(٥٥) تدريب الراوى ص ٩٦ قواعد التحديث ص ١٠٣ .

(٥٦) فيض البارى جـ ١ ص ٥٧ .

كتابه فذلك راجع الى انه التزم ان يخرج الحديث الصحيح لذاته فى أصل موضوع الكتاب ، لا أنه لم يفرق بينهما . فالترمذى اذًا هو الذى شهر هذا القسم وهو (الحسن) وأكثر منه ، وأظهر هذا التقسيم الثلاثى للحديث (صحيح وحسن وضعيف) ولم يؤلف قبل الترمذى كتاب قسمت أحاديثه هذه القسمة ، حتى ان بعض العلماء نسب هذا التقسيم الى الترمذى كابن تيمية .

بعض اصطلاحات الترمذى :

دارت فى كتاب جامع الترمذى بعض اصطلاحات لانواع الحديث يمزج بينها ويجمع بين اثنين منها أو أكثر فى الحكم على الحديث فيقول مثلا : (صحيح غريب) ، (حسن صحيح) ، (حسن غريب) ، (حسن صحيح غريب) .

أما قوله : « حديث صحيح غريب » فهذا يدل على انه ليس فيه اشكال بل هو سهل ، وذلك لأن الحديث الغريب ينقسم الى صحيح وغيره[٥٧] . والحديث الصحيح لا يشترط فيه تعدد لاسناده فالصحة والغرابة قد يجتمعان وهذا ما يقصده الترمذى بهذا الاصطلاح .

واما قوله : « حديث حسن غريب » لا نعرفه الا من هذا الوجه فقد استشكله البعض لأن الترمذى فسر الحسن بتعدد الاسناد ، والغرابة فيها تفرد الاسناد فبينهما تناقض ، والجواب ما قاله بعض العلماء . وهو ان الترمذى استعمل الحسن لذاته فى المواضع التى يقول فيها (حسن غريب) ونحو ذلك فاشتراط التعدد حين يطلق « الحسن » دون تقييد بوصف أما حين يقيد بالغرابة فيعلم أن التعدد غير ملاحظ فيه .

وأما ما يقول فيه : (حسن) فقط فقد اقتصر على تعريفه لغموضه ، أو لأنه اصطلاح جديد ، ولذا قيده بقوله : (عندنا) ولم ينسبه الى اهل الحديث ، قال : وما قلنا فى كتابنا : حديث حسن فانما أردنا حسن اسناده عندنا ، اذ كل حديث يروى لا يكون راويه متهما بكذب ويروى من غير وجه نحو ذلك ، ولا يكون شاذا ، فهو عندنا : (حديث حسن)[٥٨] « أ . هـ » .

وأما قوله : (حسن صحيح) فهذا مما استشكل ، لأن الحسن قاصر عن الصحيح فكيف يجتمع اثبات القصور ونفيه فى حديث ؟ فمعناه كما يرى ابن الصلاح - أنه روى بإسنادين : أحدهما يقتضى الصحة والآخر يقتضى الحسن فصح ان يقال فيه ذلك أى

(٥٧) تدريب الراوى ص ٣٧٦ .

(٥٨) قواعد التحديث للقاسمى .

حسن باعتبار اسناد صحيح باعتبار اخر ولكن هذه الاجابة لا تطرد فى جميع الاحاديث إذ أن بعض الاحاديث يقول فيها بعد ذلك لا نعرفه الا من هذا الوجه .

وهناك جواب ثان وهو أن المراد بالحسن اللغوى دون الاصطلاحى فهو حسن باعتبار المتن صحيح باعتبار الاسناد ، ولكن يعترض على هذا الجواب ، بما قاله الترمذى : وما قلنا فى كتابنا حديث حسن فانما أردنا به حسن اسناده عندنا . فهذا القول ينفى أن المراد بالحسن الحسن اللغوى ، كما يرد هذا الجواب أيضا : ما يلزم عليه من جواز اطلاقه على الحديث الموضوع اذا كان حسن اللفظ ، وهذا مردود من الجميع لم يقل به أحد .

والجواب الثالث : ما قاله ابن دقيق العيد وهو أن الحسن لا يشترط فيه القصور عن الصحة الا حيث انفرد الحسن اما اذا ارتفع الى درجة الصحة فالحسن حاصل لا محالة تبعا للصحة لأن وجود الدرجة العليا وهى : الحفظ والاتقان لا ينافى وجود الدرجة الدنيا كالصدق ، فيصح ان يقال حسن باعتبار الصفة الدنيا صحيح باعتبار العليا ، ويلزم على هذا أن كل صحيح حسن(٥٩) .

وقد أورد ابن سيد الناس اعتراضا على هذا الجواب فى قوله : (قد بقى عليه انه اشترط فى الحسن أن يروى نحوه من وجه آخر ، ولم يشترط ذلك فى الصحيح فانتفى أن يكون كل صحيح حسنا)

وقد أجاب « العراقى » على اعتراض ابن سيد الناس بأن الترمذى انما يشترط فى الحسن مجيئه من وجه آخر اذا لم يبلغ رتبة الصحيح فان بلغها لم يشترط ذلك بدليل قوله فى مواضع هذا حديث حسن غريب ، فلما ارتفع الى درجة الصحة أثبت له الغرابة باعتبار فرديته(٦٠) أ . هـ .

وأرى أن الاعتراض على جواب ابن دقيق العيد مازال قائما لأن الصحيح والحسن مختلفان ، والمتبع لكلام الترمذى وعباراته يرى أنه فرق بينهما فأحيانا يجمع الوصفين فى عبارة واحدة (حسن صحيح) وأحيانا أخرى يفرد كل واحدة على حدة فعلم من ذلك أنهما مختلفان وليس الحسن عاما .

---

(٥٩) تدريب الراوى ص ٩٤ .

(٦٠) فتح المغيث لشرح ألفية الحديث للعراقى جـ ١ ص ٥٣ .

والجواب الرابع : أن الجمع بين الصحة والحسن درجة متوسطة بين الصحيح والحسن ، قال ابن كثير (فما نقول فيه حسن صحيح أعلى رتبة من الحسن ودون الصحيح) وقد رد على هذا بأنه تحكم لا دليل عليه وهو بعيد .

الجواب الخامس : ان الحديث ان كان له سندان فمعنى ذلك انه روى بسند صحيح وآخر حسن ، والمعنى (حسن وصحيح) فيكون أقوى مما قيل فيه صحيح فقط لأنه ليس له الا سند واحد وان كان له سند واحد فمعنى هذا أن العلماء اختلف رأيهم فى الرواة أو ترددوا فى الحكم بين الصحة والحسن . ويكون المعنى حسن أو صحيح وعلى ذلك فما قيل فيه حسن صحيح دون ما قيل فيه صحيح لأن الجزم أقوى من التردد[٦١] وهذا ما ذهب اليه الحافظ ابن حجر .

وهذا الرأى هو ما أرجحه ، لأنه يتمشى مع تفسير الترمذى للحسن بتعدد الاسناد فكلمة (صحيح) بعد كلمة (حسن) افادت ارتفاع الحديث الى الصحة ، اما اذا لم يكن له الا سند واحد ففيه احتياط فى الحكم عليه أهو حسن أم صحيح . ولهذا كانت رتبته دون رتبه المتعدد الاسناد .

هذا وقد انتقد بعض الحفاظ على الترمذى بعض احاديث موجودة فى جامعه ، وحكموا عليها بالوّضع كابن الجوزى ، وابن تيمية ، والذهبى ، فابن الجوزى انتقد على الترمذى بعض الاحاديث ونازعه فيها السيوطى فى كتابه (التعقبات على الموضوعات) والحق أن اغلبها فى الفضائل ومعظمها لا يسلم الحكم عليه بالوضع وعلى اية حال فإنها قليلة لا تنقص من درجة هذا الكتاب العظيم .

---

(٦١) تدريب الراوى ص ٩٤ .

نقد حديث الكمأة من المن .. والرد على ذلك :

وقد ورد نقد من الكتاب المحدثين يطعن فى هذا الحديث الذى رواه الامام (الترمذى) فى جامعه يقول أحمد أمين عن رجال الحديث : « لم يتوسعوا كثيرا فى النقد الداخلى فلم يعرضوا لمتن الحديث هل ينطبق على الواقع أم لا ؟ مثال ذلك ما رواه الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهى شفاء من السم) ، فهل اتجهوا فى نقد الحديث الى امتحان الكمأة ؟ وهل فيها مادة تشفى العين ؟ أو العجوة وهل فيها ترياق ؟ نعم انهم رووا أن ابا هريرة قال : (اخذت ثلاث اكمؤ أو خمسا أو سبعا فعصرتهن فى قارورة وكحلت به جارية لى عمشاء فبرأت) ولكن هذا لا يكفى لصحة الحكم فتجربة جزئية نفع فيها شىء مرة لا تكفى لاثبات الشىء فى ثبت الأدوية انما الطريقة ان تجرب مرارا [٦٢] أ هـ .

الاجابة على ذلك :

ان هذا الحديث رواه الترمذى عن ابى هريرة ، ورواه احمد فى مسنده عن سعيد بن يزيد ، وهو حديث ثابت فى الصحيحين ، وليس فى سنده جرح ولا ضعف وانما سنده صحيح قوى هذا من ناحية « السند » اما ما يتعلق (بالمتن) فان ابا هريرة قام بتجربة هذه الخاصية التى فى الكمأة فوجدها سليمة ، كما جربها غيره من بعده والامام النووى روى ان بعض علماء زمانه قد أصيب بذهاب بصره فلما اكتحل بماء الكمأة شفى بإذن الله كما اعترف بصحة الحديث كثير من اطباء المسلمين الذين قاموا ببحثه وتجربته ، وأثبتت بحوثهم اثر الكمأة فى تقوية الجفن وزيادة البصر ، ومع ذلك كله فقد تصدى للطعن فى هذا الحديث بعض أهل الزيغ وطلبوا التجربة مرارا وقد جربت مرارا ، ومع هذا لم يقتنعوا أو لم يصدقوا وذلك لأنهم طلبوا أمور الدين بالمشاهدة وارادوا أن يأخذوها بالطريقة المادية طريقة الحس والمشاهدة الخاضعة للخطأ والصواب ، ومع أنها قد أصابت بالنسبة للحديث وأثبتت صحته الا أنهم فى ضلالهم يعمهون ولو أنهم طلبوا صحة الحديث من يقين

---

(٦٢) ضحى الاسلام : احمد أمين جـ ٢ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

القلب ، والتصديق بصاحب السنة أولا فلاشك أنهم كانوا يحسون بالايمان قد وقر فى القلب ، وبالتصديق بصحيح سنته التى جاء بها وحيا يوحى .

وقد جاء فى سبب ورود هذا الحديث : ان جابر بن عبد الله رضى الله قال : كثرت الكمأة على عهد رسول الله فقال بعض الصحابة « ان الكمأة من جدرى الأرض » فامتنعوا من أكلها فبلغ ذلك النبى ﷺ فخرج فصعد المنبر فقال : الا ما بال أقوام يزعمون ان الكمأة من جدرى الأرض الا انها ليست من جدرى الأرض الا أن الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين الا وأن العجوة من الجنة وهو شفاء من السم(٦٣) .

« والكمأة » نبات لا ورق لها ولا ساق ، توجد فى الأرض من غير أن تزرع ، قيل سميت بذلك لاستتارها ، يقال كمأ الشهادة إذا كتمها ، ومادة الكمأة من جوهر أرضى بخارى يحتقن نحو سطح الأرض ببرد الشتاء وينميه مطر الربيع فيتولد ويندفع(٦٤) .

وقد ورد فى المراد « بالمن » ثلاثة آراء :

الأول : انها من المن الذى انزل على بنى اسرائيل وهو الطل الذى يسقط على الشجر فيجمع ويؤكل ومنه الترنجبين ، فكأنه شبه به الكمأة بجامع ما بينهما من وجود كل منهما عفوا بغير علاج .

الثانى : انها من المن الذى من الله به على عباده عفوا بغير علاج ، وقال هذا الرأى أبو عيد وجماعة .

الثالث : قال الخطابى : ليس المراد أنها نوع من المن الذى انزل على بنى اسرائيل فان الذى انزل على بنى اسرائيل كان كالترنجبين الذى يسقط على الشجر ، وانما المعنى ان الكمأة شىء ينبت من غير تكلف ببذر ولا سقى فهو من قبيل المن الذى كان ينزل على بنى اسرائيل فيقع على الشجر فيتناولونه ، ثم اشار الى أنه يحتمل أن يكون الذى أنزل على بنى اسرائيل كان أنواعا منها ما يسقط على الشجر ومنها ما يخرج من الأرض فتكون الكمأة منه .

---

(٦٣) أسباب ورود الحديث جـ ١ ص ٣١٢ لابن حمزة الحسينى وأخرج الحديث الطحاوى فى مشكل الاثار عن جابر بن عبد الله ورواه البخارى جـ ١ ص ١٢٦ من فتح الباري باب المن شفاء للعين .

(٦٤) فتح البارى جـ ١ ص ١٢٦ .

والتوفيق بين الآراء السابقة : أرى أن الكمأة مما امتن الله تعالى به على العباد عفوا دون معالجة واذا نظرنا الى الرأى **الأول** نرى أن المراد تشبيه الكمأة بالمن واذا نظرنا الى الرأى **الثانى** نرى انها مما امتن الله به على العباد واذا نظرنا الى الرأى **الثالث** وجدنا ان المراد انها من قبيل (المن) وليس المراد انها نوع منه ، فكأن الاراء الثلاثة تتفق فى أن « الكمأة » ليست هى عين « المن » .

فمن لاحظ فى معنى المن أنه الذى انزل على بنى اسرائيل كالرأى الاول والثالث اراد : ان الكمأة تشبهه أو تكون من قبيله فيتفقان مع الرأى الثانى فى أنها غيره والرأى الثانى الذى لاحظ فى معنى المن أنه الذى امتن الله به يتفق مع الرأيين فى خروج الكمأة عفوا بغير علاج .

وذكر ابن القيم ان فضلاء الأطباء اعترفوا بأن ماء الكمأة يجلو العين كابن سينا وغيره وقال ابن حجر : « واستعمال كل ما وردت به السنة بصدق ينتفع به من يستعمله ويدفع الله عنه الضرر بنيته » [٦٥] .

---

(٦٥) المرجع السابق ص ١٢٨ .

الامام النسائى

نسبه ونشأته :

هو[٦٦] أبو عبد الرحمن أحمد بن على بن شعيب بن على بن بحر النسائى الحافظ ، صاحب السنن الصغرى والكبرى .

ولد بنساء ـ من بلاد خرسان ـ سنة خمس عشرة ومائتين ، وقيل اربع عشرة ومائتين ونشأ محبا للعلم ، فطوف بكثير من الاقطار الاسلامية ، ورحل الى قتيبة وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقال : أقمت عنده سنة وشهرين ، واستطاع بجهوده المخلصة للعلم وبما منحه الله تعالى من مواهب فطرية أن يحتل مكانة سامية فى الحفظ والاتقان والدقة العالية ، والتحرى الشديد حتى قال فيه ابو على الحافظ النيسابورى : للنسائى شرط فى الرجال أشد من شرط مسلم .

وجمع النسائى بين العلم والعمل ، فكان يجتهد فى العبادة ليلا ونهارا ويكثر من العبادة حتى قيل : انه كان يصوم يوما ويفطر يوما ، كما كان مواظبا على الحج والجهاد شجاعا متمرسا على اساليب الحرب ، خرج مع أمير مصر غازيا ، فوصفوا من شهامته وشجاعته وإقامته السنن المأثورة فى فداء المسلمين واحترازه من مجالس الامير الذى معه الشىء الكثير الذى يشهد بمكانته وعظمته .

حياته العلميه :

كان النسائى محبا للعلم والعلماء شغوفا بالمعرفة والتحصيل ، وما ان بلغ الخامسة عشرة الا ورحل الى العلماء فى بلاد كثيرة ، فرحل[٦٧] الى قتيبة بن سعيد البلخى ، ومكث عنده سنة وشهرين ، وأخذ عنه الحديث وشارك فى السماع منه أئمة الحديث البخارى

---

(٦٦) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٥ كشف الظنون جـ ٢ ص ١٠٦ .

(٦٧) الحديث والمحدثون ص ٣٥٨ .

ومسلم وأبي داود ورحل الى الحجاز والعراق والشام ومصر والجزيرة ، وضم ما سمعه من علماء بلده الى ما سمعه من علماء هذه الامصار ، فجمع ثروة علمية هائلة وبرع فى الحديث حتى قيل أنه أحفظ من مسلم بن الحجاج . وقدم مصر ، وطاب له المقام بها فأقام طويلا ، وظل يمارس نشاطه العلمى بها ، وأخذ عنه الناس ثم خرج من مصر قبيل وفاته سنة ٣٠٢ ، وتوجه الى دمشق .

شيوخه وتلاميذه :

ومن شيوخه الذين تلقى عنهم ونهل من مواردهم : قتيبة بن سعيد واسحق بن ابراهيم بن راهويه ، وحميد بن مسعدة ، وعلى بن خشرم ، ومحمد بن عبد الاعلى والحارث ابن مسكين ، وهناد بن السرى ، ومحمد بن بشار ، ومحمود بن غيلان ، وأبو داود السجستانى والترمذى صاحب الجامع ، وهشام بن عمار ، ومحمد بن النظر المروزى وأبو كريب ، وسويد بن نصر .

ومن تلاميذه :

الذين أخذوا عنه الحديث ، وتلقوا عنه : ابو بشر الدولابى وأبو القاسم الطبرانى صاحب المعاجم الثلاثة ، وأبو جعفر الطحاوى ، ومحمد بن هارون ابن شعيب وأبو الميمون بن راشد ، وابراهيم بن محمد صالح بن سنان وأبو على الحسين بن محمد النيسابورى وحمزه الكنانى ، وأبو بكر أحمد ابن اسحاق السنى الحافظ ، وهو راوية السنن وغيرهم[٦٨] .

وكان الامام النسائى الى جانب مكانته العلمية فى السنة وعلومها فقيها ، ظاهر الاجتهاد ، ومما يدل على خبرته وعمقه فى هذا الجانب انتقاؤه للتراجم ومختاراته من الاحاديث حتى قال فيه الدارقطنى : (كان أفقه مشايخ عصره فى مصر . واعلمهم بالحديث والرجال) وقال الحاكم ابو عبد الله : « أما كلام أبى عبد الرحمن على فقه الحديث فأكثر من أن نذكر ، ومن نظر فى كتابه (السنن) تحير فى حسن كلامه »

---

(٦٨) تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ٢٤١ .

ومن مؤلفاته :

١ ـ السنن الكبرى .
٢ ـ السنن الصغرى المسماة « المجتبى » .
٣ ـ الخصائص .
٤ ـ فضائل الصحابة .
٥ ـ المناسك .

واتهم النسائى بالتشيع ، وربما كان أساس هذا الاتهام انه ألف كتاب الخصائص فى فضل على وآل البيت .

وأرى أن النسائى براء من هذه التهمة أما الباعث له على تأليف كتاب الخصائص فهو ما ذكره فى اجابته على بعض السائلين ، فقد قيل له : كيف تركت تصنيف فضائل الشيخين ؟ فقال : « دخلت الى دمشق . والمنحرف عن على رضى الله عنه كثير فصنفت كتاب الخصائص رجاء أن يهديهم الله تعالى » ثم صنف بعد ذلك فضائل الصحابة رضى الله عنهم(٦٩) .

وقال محمد بن اسحاق الاصبهانى : سمعت مشايخنا بمصر يقولون : ان ابا عبد الرحمن فارق مصر فى آخر عصره ، وخرج الى دمشق ، فسئل عن معاوية وما روى من فضائله فقال : اما يرضى معاوية أن يخرج رأسا برأس حتى يفضل ؟ وفى رواية اخرى : ما أعرف له فضيلة ، ولعلهم كانوا يرغبون ان يؤلف فى فضائل معاوية ، فلما كان جوابه هكذا كان ذلك سببا فيما لاقاه من محنة ، وقال الحافظ ابو الحسن الدارقطنى : لما امتحن النسائى بدمشق قال : احملونى الى مكة ، فحمل اليها ، فتوفى بها .

وقد شهد للنسائى كثير من العلماء بالثقة والحفظ وعرفوا له مكانته العلمية قال الدارقطنى : « كان أبو بكر بن الحداد الفقيه كثير الحديث ، ولم يحدث عن أحد غير ابى عبد الرحمن النسائى فقط ، قال : رضيت به حجة بينى وبين الله تعالى(٧٠) .

وقال ابن خلكان : توفى يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاثمائة بمكة حرسها الله تعالى .

---

(٦٩) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى جـ ٣ ص ١٥ .
(٧٠) تهذيب التهذيب لابن حجر جـ ١ ص ٣٨ .

وقيل : توفى بالرملة من أرض فلسطين .

والراجح انه توفى بالرملة ـ بلدة بفلسطين ، وصوب الذهبى هذا الرأى ، وجزم به ابن يونس وممن قال بوفاته بفلسطين : أبو جعفر الطحاوى وأبو بكر بن نقطة رحمهم الله(٧١) .

وبعد هذه الجولة الطيبة فى حياة هذا الامام الجليل نرى أنها قد ألقت أضواء مشرقة على أهم مناحى العظمة فى حياته العلمية ، والان نتناول جانبا من جوانب تراثه الخالد الا وهو كتابه « المجتبى » .

---

(٧١) وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٥ ، البداية والنهاية جـ ١١ ص ١٢٤ .

المجتبى للنسائى

التعريف بالكتاب :

صنف النسائى رحمه الله فى السنن كتابين : احدهما السنن الكبرى والثانى : السنن الصغرى ، وكتاب السنن الكبرى يشتمل على الصحيح والمعلول ثم اختصره فى كتاب السنن الصغرى ، وسماه « المجتبى » وهذا هو الاسم المشهور به وقيل : المجتنى ، والمعنى قريب ، وهو صحيح عند النسائى ، وروى محمد بن معاوية الاحمر عن النسائى انه قال : كتاب السنن كله صحيح وبعضه معلول الا انه لم يبين علته والمنتخب المسمى « بالمجتبى » صحيح كله ولعله أراد بكلمة « كله صحيح » صحته من ناحية المتن ، ولكن بعض اسانيده معلول ، لانه لا يلزم من صحة المتن صحة السند . أو لعله اراد ان معظمها أو أكثرها صحيح ، ويكون فى كلامه نوع من التساهل فى العبارة وهذا قول على حسب اجتهاده وغالب ظنه وقد جاء فى سبب تصنيفه لكتابه المجتبى انه لما صنف السنن الكبرى اهداها الى أمير الرملة فقال له : أكل ما فيها صحيح ؟ فقال لا قال : فجرد الصحيح منه ، فصنف له المجتبى ، وترك كل حديث أورده فى الكبير مما تكلم فى اسناده بالتعليل .
واذا اطلق أهل الحديث على النسائى انه روى حديثا فانما يريدون روايته فى السنن الصغرى المسماة بالمجتبى[٧٢] الا ما كان من صنيع بعض المؤلفين فى الحديث كما نبه على ذلك صاحب عون المعبود فى شرح سنن أبى داود حيث قال فى آخر كتابه : « واعلم ان قول المنذرى فى مختصره وقول المزى فى الاطراف : (الحديث اخرجه النسائى ، فالمراد به السنن الكبرى للنسائى وليس المراد به السنن الصغرى الذى هو مروج الان فى اقطار الأرض) ثم قال : فالحديث الذى قال فيه المنذرى والمزى : اخرجه النسائى وما وجدته فى السنن الصغرى فاعلم انه فى الكبرى ، ولا تتحير لعدم وجدانه ، فان كل حديث فى الصغرى موجود فى الكبرى ولا عكس . ويقول المزى فى كثير من المواضع اخرجه النسائى فى التفسير وليس فى السنن الصغرى تفسير والسنن الكبرى من رواية ابن حيويه ، وابن الاحمر وابن

---

(٧٢) تدريب الراوى ص ٤٩ كشف الظنون جـ ٢ ص ١٠٠٦ الحديث والمحدثون ص ٤١٠ .

القاسم والسنن الصغرى مشهورة من رواية ابن السنى ، وهو رواية السنن المتوفى سنة ٣٦٤ هـ .

وأهم شروح كتاب السنن هى :

١ - شرح الحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ ، وهو شرح موجز سماه (زهر الربا على المجتبى) وعنى فيه بضبط أسماء الرواة وشرح الألفاظ وذكر كثير من الاحكام والآداب ، وكان كثيرا ما ينقل عمن سبقه من العلماء كابن حجر .

٢ - شرح العلامة أبى الحسن محمد بن عبد الهادى الحنفى المشهور بالسندى نزيل المدينة المنورة المتوفى سنة ١١٣٨ هـ ، اهتم فيه بضبط اللغة وشرح الغريب والإعراب وهذا أوفى من شرح السيوطى ، وقد طبع هذا الشرح فى الهند ومصر .

٣ - شرح الشيخ العلامة سراج الدين عمر بن على بن الملقن الشافعى المتوفى سنة ٨٠٤ هـ وهو شرح على زوائده على الصحيحين وأبى داود والترمذى ويقع فى مجلد .

منهج النسائى فى كتابه

نهج الامام النسائى فى كتابه السنن نهجا دقيقا ، فرتبه على الأبواب الفقهية والتزم الدقة والتحرى فى نقد الرجال والتشدد فى قبول المرويات حتى قيل : انه كان أحفظ من مسلم بن الحجاج بل قال حافظ خراسان أبو على النيسابورى : حدثنا الامام فى الحديث بلا مدافعة أبو عبد الرحمن النسائى وكان يقول : للنسائى شرط فى الرجال أشد من شرط مسلم بن الحجاج وقال ابن طاهر : سألت سعد بن على الترنجانى عن رجل فوثقه ، فقلت : قد ضعفه النسائى ، فقال : يابنى أن لابى عبد الرحمن شرطا فى الرجال أشد من شرط البخارى ومسلم . وأرى أن فى هذا الكلام مبالغة ومغالاة حيث أن لكل من صحيح البخارى وصحيح مسلم شروطا أعلى من شروط غيرهما وبالتحقيق لا يسلم مثل هذا القول ، ولكنه على ما فيه من المبالغة يدل على شدة تحرى النسائى ودقته وعلمه بعلل الحديث ، وقد كان هذا المنهج الذى التزم فيه التحرى الشديد ، والدقة البالغة داعيا له ان يترك أحاديث ابن لهيعه ، قال أحمد بن نصر الحافظ : « من يصبر على ما يصبر عليه النسائى ؟ كان عنده حديث ابن لهيعة ترجمة فما حدث عنه بشىء » وقال ابن حجر : وكان عنده عاليا عن قتيبة عنه ـ يعنى ابن لهيعة ـ ولم يحدث به لا فى السنن ولا فى غيرها ولم يحدث النسائى بحديث ابن لهيعه وكان من كبار الحفاظ الا أنه اختلط فى آخر عمره .

كما كان أيضا شديد التحرى فى الالفاظ فلا يتساهل فى وضع كلمة مكان أخرى فلا يضع « حدثنا » مكان « أخبرنا » ولا العكس ، وفى طريقة روايته عن الحارث بن مسكين ما يدل على شدة حيطته وورعه فقد كان بينه وبين الحارث هذا شىء لم يمكنه من حضور مجلسه ، وكان الحارث يتولى القضاء بمصر ، فكان يستتر فى موضوع ويسمع حيث لا يراه ولم يقل فى روايته عنه « حدثنا » و« أخبرنا » وانما قال الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا اسمع[٧٣] وقد جمع النسائى فى سننه كل ما يتعلق بالحياة الدينية من أحاديث على وجه التفصيل والاستقصاء حتى لقد ذكر جميع الأدعية التى تقال فى الركعات والسجدات وما بين ذلك ، كما روى أحاديث كثيرة لما يقال فى الاستعاذات ونحوها وأورد فى أبواب التشريع صيغا ونصوصا مما يجرى فى جميع أنواع المعاملات وما شاكل ذلك[٧٤] .

---

(٧٣) اعلام المحدثين ص ٢٦٤ .

(٧٤) تاريخ الادب العربى : بركلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار جـ ٣ ص ١٩٦ ط دار المعارف .

شرط الامام النسائى فى كتابه

تشدد الامام النسائى فى نقد الرجال ، وعرف بشدة التحرى والدقة حتى قيل كما سبق : أن له شرطا فى الرجال أشد من شرط مسلم والبخارى .

وذكر ابن الصلاح فى مقدمته عن ابن منده أنه سمع محمد بن سعد الباردوى يقول : كان من مذهب ابن عبد الرحمن النسائى أن يخرج عن كل من لم يجمع على تركه ، ثم قال : فمراده والله أعلم - صنيعه فى السنن الكبرى .

ويرجع اختلاف العلماء فى بيان الشروط الى اختلاف انظارهم فى الجرح والتعديل ، والاختلاف فى شروط التضعيف قوة ولينا .

والقائلون بأن له شرطا فى الرجال أشد من شروط صاحبى الصحيحين ، انما مرجع قولهم هذا الى المبالغة فى تحرى النسائى فقط ، وليس قولا مسلما به ، بل وليس بالصحيح الذى يثبت امام النقد والتحقيق فاننا اذا نظرنا الى بعض رجاله ، وجدنا أن فيه رجالا مجهولين إما عينا أو حالا وفيهم المجروح وفيه أحاديث ضعيفة ، قال العلامة ابن كثير « وقول الحافظ ابى على بن السكن وكذا الخطيب البغدادى فى كتاب السنن للنسائى انه صحيح ، فيه نظر وأن له شرطا فى الرجال أشد من شرط مسلم غير مسلم فان فيه رجالا مجهولين إما عينا أو حالا وفيهم المجروح وفيه أحاديث ضعيفة ومعللة ومنكرة [٧٥] فشرطه اذا ليس أعلى من شرط البخارى ومسلم ، وانما كان شديد التحرى والدقة . وقال أحمد بن محبوب الرملى : سمعت أبا عبد الرحمن بن شعيب النسائى يقول : لما عزمت على جمع كتاب السنن استخرت الله تعالى فى الرواية عن شيوخ كان فى القلب منهم بعض الشىء فوقعت الخيرة على تركهم فنزلت فى جملة من الحديث كنت أعلو فيه عنهم .

هذا وقد سبق الكلام فى شرط البخارى عن الحافظ أبى بكر الحازمى : أن الطبقة الأولى هم شرط البخارى وأن مسلما يخرج أحاديث الطبقتين الأولى والثانية والثالثة ما يعتمده من غير استيعاب .

وأن أبا داود والنسائى يخرجان من احاديث الطبقة الأولى والثانية والثالثة ولا يتجاوزانها الى الرابعة فى الاصول بخلاف المتابعات والشواهد[٧٦] .

---

(٧٥) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٣١ .

(٧٦) الحديث والمحدثون ص ٤١٠ الدكتور محمد ابو زهو .

ومعلوم أن الطبقة الثالثة التى يخرج النسائى أحاديثها لم يسلم أصحابها من غوائل الجرح فهم بين الرد والقبول كمعاوية بن يحيى الصدفى ، واسحاق بن يحيى الكلبى ، والمثنى ابن الصباح . واذا تبين ذلك كله فلا يمكن أن يسلم ما ادعاه القائلون بأن شرطه أشد من شرط البخارى ومسلم . وأما الحافظ أبو الفضل بن طاهر فقال(٧٧) : كتاب ابى داود والنسائى ينقسم على ثلاثة أقسام :

١ - **القسم الأول** : الصحيح المخرج فى الصحيحين .

٢ - **القسم الثانى** : صحيح على شرطهما ، حكى أبو عبد الله بن منده أن شرط أبى داود والنسائى اخراج أحاديث أقوام لم يجمع على تركهم اذا صح الحديث باتصال الاسناد ومن غير قطع ولا إرسال فيكون هذا القسم من الصحيح الا أنه طريق دون طريق ما أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

٣ - القسم الثالث : أحاديث أخرجاها من غير قطع منهما بصحتها ، وربما ابانا علتها بما يفهمه أهل المعرفة ، وانما أودعا هذا القسم فى كتابيهما ، لأنه رواية قوم لها واحتجاجهم بها ، فاورداها وبينا سقمها لتزول الشبهة ، وذلك اذا لم يجدا له طريقا غيره ، لانه أقوى عندهما من رأى الرجال .

ويرى العراقى أن مذهب النسائى بهذه الصورة فيه متسع ، ولكن المتبادر الى الذهن غير الواقع ، لأن النسائى تجنب اخراج حديث أقوام أخرج لهم أبو داود والترمذى بل وتجنب اخراج حديث جماعة من رجال الصحيحين(٧٨) .

ونخلص مما سبق بأن تحرى الامام النسائى ودقته فى الشروط انما كان خاصا بالسنن الصغرى وهى المعتمدة عند المحدثين وأما السنن الكبرى فكان من شرطه فيها أن يخرج عن كل من لم يجمع على تركه .

---

(٧٧) شروط الائمة الستة ص ١٢ .

(٧٨) زهر الربا على المجتبى جـ ١ ص ٢ .

مثال لما رواه النسائى وطعن فيه والدفاع عنه

قال الرسول ﷺ « من قرأ آية الكرسى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة الا أن يموت » حكم ابن الجوزى على هذا الحديث بالوضع لتفرد محمد بن حمير به وهو فى نظره ليس بالقوى .

وقال السيوطى : كلا [٧٩] بل قوى ثقة من رجال البخارى ، والحديث صحيح على شرطه ، واخرجه ابن حبان فى صحيحه ، وابن السنى فى عمل يوم وليلة وصححه الضياء المقدسى فى المختارة .

وقال الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث المشكاة : غفل ابن الجوزى فأورد هذا الحديث فى الموضوعات وهو أصح ما وقع له . وقال الحافظ شرف الدين الدمياطى فى جزء جمعه فى تقوية هذا الحديث : محمد بن حميد القضاعى السايحى الحمصى كنيته أبو عبد الحميد احتج به البخارى فى صحيحه . وكذلك محمد بن زياد الالهانى أبو سفيان الحمصى احتج به البخارى أيضا وقد تابع ابا أمامة على بن أبى طالب وعبد الله بن عمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة وجابر وأنس فردوه عن النبى ﷺ وأورد حديث على من الطريقين السابقين وحديث ابن عمر والمغيرة وجابر وأنس من الطريق التى ما نريدها ثم قال : واذا ضمت هذه الاحاديث بعضها الى بعض أخذت قوة . وقال الذهبى فى تاريخه نقلت من خط السيف احمد بن أبى المجد الحافظ قال : صنف ابن الجوزى كتاب الموضوعات فاصاب فى ذكره أحاديث مخالفة للنقل والعقل ، ومما لم يصب فيه اطلاقه الوضع على أحاديث بكلام بعض الناس فى أحد رواتها كقوله : فلان ضعيف أو ليس بالقوى وليس ذلك الحديث مما يشهد القلب ببطلانه ، ولا فيه مخالفة ولا معارضة كتاب ولا سنة ولا اجماع ولا حجة بأنه موضوع سوى كلام ذاك الرجل فى راويه . فتبين أن السبب فى ايراد ابن الجوزى هذا الحديث فى الموضوعات هو قول يعقوب بن سفيان فى راويه محمد بن حميد : ليس بالقوى ومحمد هذا روى له البخارى فى صحيحه ووثقه احمد وابن

---

(٧٩) اللآلىء المصنوعة جـ ١ ص ١١٩ .

معين أ . هـ . ولم يخرج له في الاحتجاج وقد ضعفه كثير من الائمة فقال يحيى بن معين عنه : ضعيف وقال أبو حاتم بن حبان : لا يحتج به ، وقال العقيلي لا يتابع على حديثه . وأورد له عدي أربعة أحاديث مناكير ، وأما قول ابن الصلاح عنه : وهو شيخ صالح[٨٠] ، فانما أخذه من كلام أبي يعلى الخليلي ، ثم إنه لا يلزم من صلاحه الاحتجاج بما يرويه .

---

(٨٠) مقدمة ابن الصلاح ص ٣٠

درجة أحاديث السنن

صنف الامام النسائى السنن الصغرى بعد السنن الكبرى ولخصه منه ، وتحرى فيه الدقة البالغة ولا يكاد يوجد فى هذا الكتاب حديث موضوع فقد سار فى تـأليفه بمنتهى الحيطة ، وتجنب الرواية عن كل من تكلم فيه ، حتى قيل عنه : أن درجة السنن الصغرى بعد الصحيحين ، لأنه أقل السنن بعدهما ضعفا ، وإن قال أبوالفرج ابن الجوزى : ان فيها عشر أحاديث موضوعة فقد نازعه فى ذلك السيوطى فى كتابه التعقبات على الموضوعات « ولو سلمنا برأى ابن الجوزى فهذا عدد يسير بالنسبة الى مثل هذا الكتاب العظيم الذى يعد من دواوين السنة المعتمدة ولا ينقص من عظمته ما ذكر فيه : وهناك رأيان فى صحة ما فى الكتاب :

الأول : ما يراه الدار قطنى وابن منده وابن السكن وابو على النيسابورى وابو احمد ابن عدى أن كل ما فى السنن صحيح ، ووافقوا فى ذلك النسائى .

الثانى : ما يراه بعض العلماء كابن كثير أن فيه رجالا مجهولين إما عينا أو حالا وفيهم المجروح ، وفيه أحاديث ضعيفة ومعللة ومنكرة .

وأرى أن ابن الجوزى يقصد السنن الصغرى ، وعلى فـرض ما قيـل فيه ، فهـو لا ينقص من قيمة هذا الكتاب النفيس ، ولا يغض من درجته العلميـة ، وخاصـة أن النسائى كان يذكر حكمه على درجة الحديث اذا كان منكرا وهكذا .

مثال من سنن النسائى ، مما حكم عليه بأنه منكر

اخرج النسائى من رواية أبى بكير يحيى بن محمد بن قيس عن هشام ابن عمرو عن أبيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « كلوا البلح بالتمر ، فان ابن آدم اذا أكله غضب الشيطان » .

الحديث ، قال النسائى هذا حديث منكر ، قال ابن الصلاح[81] تفرد به أبو زكير وهو شيخ صالح أخرج عنه مسلم فى كتابه غير أنه لم يبلغ مبلغ من يحتمل تفرده « أ . هـ » . وانما اخرج له مسلم فى المتابعات .

---

(٨١) مقدمة ابن الصلاح (٣٠) .

الامام ابن ماجه

نسبه ونشأته :

هو الامام ابو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الريعى القزوينى و« ماجه » ليس جده ، وانما هو لقب أبيه يزيد « لأن أغلب المترجين له قالوا : محمد بن يزيد ابن ماجه ، واشتهر بذلك « القزوينى » نسبة الى أقليم قزوين ، لأن به مولده ونشأته . ولد سنة تسع ومائتين من الهجرة ، ونشأ محبا للعلم ، فتوجه بهمة عالية الى مجالس العلماء وحلقاتهم يأخذ عنهم ، ويتعلم منهم ، فسار على الدرب الذى سار عليه من سبقه من ائمة الحديث إقبالا على العلم ، وتدوينا للسنة النبوية ونمى ثروته العلمية ، بتتبع مدارس الحديث المختلفة فى بلاد كثيرة طوف بها فاخذ عن علمائها واستفاد من مناهجها ، وكانت نشأة البخارى قائمة على أساس من العلم والعمل والأخذ والعطاء ، فتعلم وحصل وعمل بما علم فكان تقيا ورعا مخلصا فى رسالته ، ودرس وحفظ وألف ودون ، ولم يقتصر نشاطه العلمى على التأليف بل تعداه الى التدريس والتعليم وكان له تلاميذ رووا عنه .

وقد حصل الكثير حتى أصبح إماما فى الحديث عارفا بعلومه ، وجميع ما يتعلق به .

حياته العلمية

قام ابن ماجه برحلات علمية يستهدف تزويد ثقافته ، وتدوين الكثير من الاحاديث الى جانب ما جمعه من بلده فطوف بكثير من الاقطار والبلاد فرحل الى العراق والحجاز والشام ومصر وغيرها من البلاد ، ولقى كثيرا من ائمة الحديث ، وسمع من أصحاب مالك والليث حتى أصبح أماما من الائمة الاعلام . وقد شهد له بالثقة والحفظ كثير من الائمة قال أبو يعلى الخليل بن عبد الله القزوينى : ابن ماجه ثقة كبير متفق عليه محتج به له معرفة وحفظ ، ووصفه الذهبى بأنه الحافظ الكبير المفسر(٨٢) .

شيوخه وتلاميذه :

أتاحت لابن ماجه رحلاته العلمية التى اتسمت بالهمة العالية فى تدوين الحديث أن يلتقى بكثير من شيوخ البلاد الذين أخذ عنهم فسمع من أبى بكر بن أبى شيبة ومحمد بن

---

(٨٢) كشف الظنون جـ ٢ ص ١٠٠٤ ، مرآة الجنان لليافعى جـ ٢ ص ١٨٨ ، تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٥٣١ .

عبد الله بن نمير ، وجبارة بن المغلس وهشام بن عمر ، ومحمد بن بشار وعمر بن عثمان ابن سعيد وغيرهم من أئمة الحديث .

وروى عنه : على بن سعيد بن عبد الله ، وابراهيم بن دينار الجرش ، الهمدانى واحمد بن ابراهيم القزوينى وسليمان بن يزيد القزوينى ، ومحمد بن عيسى الصفاء وابو عمرو احمد بن محمد بن حكيم المدنى الاصبهانى وغيرهم .

مؤلفاته :

ولابن ماجه مؤلفات كثيرة منها :

١ ـ كتاب السنن المتداول الآن ، وهو أحد الكتب الستة .
٢ ـ تفسير القرآن وهو تفسير حافل كما قال ابن كثير .
٣ ـ كتاب التاريخ : أرخ فيه من عصر الصحابة الى وقته .

وبعد حياة حافلة بالعلم والعمل ممتلئة بالبحث والتأليف ، توفى ابن ماجه فى ٢٢ رمضان سنة ٢٧٣ هـ وصلى عليه اخوه أبو بكر ، وتولى دفنه اخواه أبو بكر وعبد الله وابنه عبد الله[٨٣] .

ومن أعظم مؤلفاته كتابه القيم « السنن » الذى سنتناول دراسته الآن .

---

(٨٣) تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٥٣١ ، مرآة الجنان جـ ٢ ص ١٨٨ .

سنن ابن ماجه

تعريف بالكتاب :

صنف ابن ماجه كتاب السنن على الأبواب ورتبه ترتيبا فقهيا كشأن الكتب السابقة ، وقد قسم « السنن » الى كتب وأبواب فبلغت سبعة ألف باب ، وكان مجموع أحاديثه أربعة آلاف حديث فى الصحيح والحسن ، وثلاثين كتابا عدا المقدمة وعدد الأبواب ١٥١٥ خمسة عشر وخمسمائة والضعيف ، بل والمنكر ، والموضوع على قلة .

وقد ابتدأ ابن ماجه كتابه بباب اتباع سنة رسول الله ﷺ وساق فيه الاحاديث الدالة على حجية السنة ووجوب اتباعها والعمل بها . وقد عَـدَّ أحاديث السنن الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقى الذى حققه فكان جملة أحاديثه ٤٣٤١ أربعة آلاف وثلاثمائة وواحدا وأربعين حديثا منها ٣٠٠٢ اثنان وثلاثة آلاف حديث أخرجها أصحاب الكتب الخمسة أما باقى الاحاديث وعددها ١٣٣٩ ألف وثلاثمائة وتسعة وثلاثون حديثا فهى الزوائد على ما جاء بالكتب الخمسة ، ومن هذه الاحاديث الزوائد ٤٢٨ أربعمائة وثمان وعشرون حديثا رجالها ثقات ، صحيحة الاسناد ، ومنها ١٩٩ تسعة وتسعون ومائة حديث حسنة الاسناد ومنها ٦١٣ ثلاثة عشر وستمائة حديث ضعيفة الاسناد أو منكرة أو مكذوبة .

وقد علا ابن ماجه فى بعض الاحاديث حتى صار بينه وبين النبى ﷺ ثلاثة رجال وهى ما تعرف بالثلاثيات .

وقد روى كتاب السنن عن ابن ماجه : أبو الحسن القطان وسليمان ابن يزيد وأبو جعفر ومحمد بن عيسى وأبو بكر حامد الابهرى ولكتاب السنن شروح أهمها :

١ - شرح الشيخ كمال الدين محمد بن موسى العميرى الشافعى المتوفى سنة ثمان وثمانمائة ٨٠٨ هـ فى خمس مجلدات واسم هذا الشرح : الديباجة .
٢ - شرح الشيخ ابراهيم بن محمد الحلبى المتوفى سنة واحد وأربعين وثمانمائة .
٣ - شرح الحافظ السيوطى واسم هذا الشرح « مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجه »

واختصر شرح السيوطى على بن سليمان الدمناتى الباجمعاوى فى « نور الصباح » وطبع فى القاهرة سنة ١٢٩٦ هـ .

٤ - شرح الشيخ السندى المدنى المتوفى سنة ١١٣٨ وهو شرح وجيز .

٥ - شرح العلامة سراج الدين عمر بن الملقن الشافعى المتوفى سنة ٨٠٤ أربع وثمانمائة واسم هذا الشرح : « ما تمس إليه الحاجة على سنن ابن ماجه » واقتصر فيه على شرح زوائد سنن ابن ماجه على الكتب الخمسة[٨٤] .

---

(٨٤) تاريخ الأدب العربى جـ ٣ ص ١٩٩ ، أعلام المحدثين ص ٢٨٥ .

منهجه ودرجة أحاديثه

نهج ابن ماجه فى تصنيف كتابه نهجا سلك فيه سبيل من قبله بتبويبه تبويبا فقهيا : وترتيبه ترتيبا حسنا ، فامتاز كتابه بحسن التنسيق وسعة الجمع ، وجمال الترتيب ، ولم يشترط فى كتابه الصحة ، وإنما أخرج فيه الصحيح والضعيف بل والمنكر والموضوع على قلة كما أخرج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب وسرقة الأحاديث وبعض تلك الاحاديث لا تعرف الا من جهتهم وقد عد كثير من العلماء المتقدمين ، وبعض المحققين من بعدهم أصول كتب الحديث الخمسة :

صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن الترمذى ، ولم يضم إليها سنن ابن ماجه لتأخر رتبة السنن عن هذه الكتب .

ولكن بعض العلماء اللاحقين أضاف إليها كتاب السنن لابن ماجه وجعلها سادسا ، لما فيها من جمال الترتيب وحسن الانتقاء ، وكثرة ما فيها من النفع فى أبواب الفقه وكثرة زوائدها على الكتب الخمسة بخلاف الموطأ فان احاديثه موجودة فى الكتب الخمسة الا القليل .

وأول من ضم سنن ابن ماجه الى الكتب الخمسة ابن طاهر المقدسى ، وتابعه أصحاب الأطراف وغيرهم [٨٥] وقد خالف فى ذلك بعض العلماء كالعلائى وابن حجر ورأى أن يجعل سادس الكتب كتاب الدارمى لأن ابن ماجه اخرج أحاديث رجال المتهمين بالكذب وسرقة الاحاديث أما سند الدارمى فأكثر صحة منه ، وأحاديثه مسندة ، ولذا سمى مسندا ، وأيضا فى كتاب الدارمى قليل من الرجال الضعفاء ونادر من الاحاديث المنكرة والشاذة ، وان كان فيه كثير من الاحاديث المرسلة والمنقطعة والمعضلة والمقطوعة[٨٦] .

---

(٨٥) تدريب الراوى ص ٤٩ .

(٨٦) مقدمة ابن الصلاح ص ٤٢ تدريب الرواى ص ١٠٠

وذهب بعض العلماء منهم رزين السرقسطى ، والمجد بن الاثير أن سادس الكتب الستة « الموطأ » للامام مالك لصحة الموطأ وعظم شأنه .

والحق ان كتاب « الموطأ » أولى بذلك من سنن ابن ماجه ، فان فى أحاديث السنن ما حكم عليه بالبطلان والنكارة ، أما الموطأ فهو أعلى درجة من سنن ابن ماجة .

وروى عن ابن ماجه انه قال : « عرضت هذه السنن على أبى زرعة الرازى ، فنظر فيها وقال : لعله لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثا فى أسناده ضعف » وذكر المقدسى أنها بضعة عشر حديثا ونحوها [٨٧] . ولكن الامام أبا عبد الله بن رشيد تكلم عن سنن ابن ماجه اثناء حديثه عن كتاب النسائى ـ وبين ان ابن ماجه تفرد باخراج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب ورد على قول ابى زرعة السابق بقوله : « واما ما حكاه ابن طاهر عن أبى زرعة الرازى أنه نظر فيه فقال : لعله لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثا مما فيه ضعف فهى حكاية لا تصح لانقطاع سندها ، وان كانت محفوظة فلعله أراد ما فيه من الاحاديث الساقطة الى الغاية ، أو كان ما رأى من الكتاب الا جزءا منه فيه هذا القدر[٨٨] « أ . هـ » .

وانتقد الحافظ ابن الجوزى أيضا بعض أحاديث دونها ابن ماجه فى كتابه وعددها ثلاثون حكم عليها ابن الجوزى بالوضع وقد دافع عنها السيوطى فى كتابه « التعقبات » وأرى أن فى سنن ابن ماجه بعض الموضوع الا أن بعض هذه الاحاديث الموضوعة وضع غلطا مثل ما روى : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » فهذا موضوع عن غير تعمد فقد رواه ابن ماجه عن اسماعيل بن محمد الطلحى عن ثابت بن موسى الزاهد عن شريك عن الاعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر مرفوعا ، فقد غلط ثابت بن موسى فظنه حديثا وليس بحديث والسبب فى هذا الغلط : ما ذكره الحاكم قال : دخل ثابت بن موسى على شريك بن عبد الله القاضى والمستملى بين يديه ، وشريك يقول : حدثنا الاعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ولم يذكر المتن ، فلما نظر شريك الى ثابت ابن موسى قال : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » وانما أراد شريك مدح ثابت لزهده وورعه ، فظن ثابت أنه روى هذا الحديث مرفوعا بهذا الاسناد ، فكان ثابت يحدث به عن شريك بهذا الاسناد غلطا ، وقد سرقه منه جماعة ضعفاء وحدثوا به عنه وهذه القصة

(٨٧) تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ١٨٩ ، شروط الائمة الستة ص ١٦ .
(٨٨) زهر الربا على المجتبى جـ ١ ص ٣ .

انما تدل على بعد نظر نقاد الحديث ودقتهم فى معرفة علل الحديث ، حيث أنهم كانوا على إحاطة ويقظة ليعرفوا ويميزوا الاحاديث الصحيحة من غيرها وعلى كل فـإن الاحاديث الموضوعة التى فى هذا الكتاب قليلة بالنسبة الى ما دونه فى كتابه القيم العظيم فهى لا تنقص من مكانته العلمية ونفعه المثمر ، وانه من دواوين السنة النبوية ولكن الواجب على كل باحث ودارس فى هذا الكتاب العظيم ألا يأخذ من الاحاديث التى انفرد بها الامام ابن ماجه فى هذا الكتاب إلا بعد التمحيص والنظر الدقيق والتحرى عن الرواة ليتأكد من صحة الحديث للاحتجاج به .

وسأقدم هنا نموذجا من الاحاديث التى انتقدها المتأخرون من سنن ابن ماجه وهى صحيحة مما طعن فيها (أبو رية) وغيره حديث « خمروا الآنية وأوكئوا الاسقية واجيفوا الأبواب » ، واكتفوا صبيانكم عن النساء « هكذا نقله والصواب : عند العشاء » فـإن للجن انتشارا وخطفه وأطفئوا المصابيح عند الرقاد فان الفويسقة أى الفأرة ربما اجترت الفتيلة فأحرقت البيت » فقد تحامل « أبو رية » على راوية الاسلام « أبى هريرة » الذى روى هذا الحديث فطعن فى صحته ، فى كتابه « أضواء على السنة المحمدية ووصل به تحامله على هذا الصحابى الجليل الى حد أراد فيه أن يشوه الحقائق ويبدل هذه المحاسن والفضائل الى رذائل .

الاجابة على ذلك :

وهذا الحديث الذى رواه أبو هريرة وهو من الاحاديث الصحيحة التى أخرجها ابن ماجه فى كتابه السنن لم ينفرد به ابن ماجه وانما رواه البخارى فى بدء الخلق فى باب « خمس من الدواب فواسق . . . » من رواية جابر بن عبد الله كما رواه مسلم فى صحيحه أيضا عن جابر فإسناد الحديث صحيح ، فهو مروى من طرق عدة ولم يتفرد ابن ماجه بتخريجه وانما أخرجه البخارى ومسلم .

وأما من ناحية نقد المتن :

فان الحديث دعا الى جملة من المبادىء تعد من محاسن الاسلام وفضائله التى تعود ثمرتها بالمحافظة على النفس والمال والولد من كل ضرر وعبث وفساد وقـوله : (خمـروا الأنية) أى غطوها ، وفى تغطية الآنية صيانة للطعام والشراب مما يترتب عليه المحافظة على

الصحة . وقوله « وأوكئوا الاسقية » أى شدوا القرب بالوكاء واربطوها ، وهى محافظة على الماء الذى نشربه وصيانة لدوام نقائه » .

وقوله : « وأجيفوا الأبواب » أى أغلقوها وهذه دعوة للمحافظة على النفس والمال والولد من كل فساد وأضرار .

وقوله : « وأكتفوا صبيانكم عند العشاء » بمعنى أن تضموهم وتحافظوا عليهم . . . وتمنعوهم من الخروج فى مثل هذا الوقت لأن للجن انتشارا وخطفة . وقوله (واطفئوا المصابيح عند الرقاد) وذلك حتى لا يترتب على تركها ضرر يلحق الانسان فى أهله وماله ، إنها اذا مبادىء سامية وفضائل عظيمة المغزى كلها محافظة وصيانة للنفس والولد والمال ولها من الثمرات ما يترتب عليه الامان بين الناس والطمأنينة فى حياتهم . . . فهل فى هذا المتن ما يدعو الى الغرابة ؟؟ هذا هو النقد الداخلى لمتن هذا الحديث وهذه هى الفضائل التى يدلنا عليها فهل فيها ما يتناقض مع العقل السليم أو المنطق ؟ ولو كان عند أولئك الطاعنين شىء من علم أو رغبة فى البحث فليضعوا هذه المثل الرشيدة السديدة أمام الباحثين الاجتماعيين وليبسطوها على بساط البحث وتحت مجهر النقد الحديث ليروا ماذا تكون النتيجة وليعلموا أن تعاليم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بلغت القمة فى سموها وأثرها على حياة الناس ونفوسهم وأن هؤلاء الطاعنين انما يتصدون لبعض روايات الحديث ما يحاولون بافترائهم تشويهه باخلادهم الى الأرض واتباعهم أهواءهم .

منزلة المسانيد من السنن

وبما سبق من بيان درجة أحاديث كل كتاب من كتب السنن ، بقى أن يعرف درجة المسانيد ومنزلتها من السنن :

ومن المعلوم أن المسند : هو ما أفرد فيه حديث كل صحابى على حدة من غير نظر للأبواب كمسند أبى دواد الطيالسى ، ومسند أحمد بن حنبل ، وأبى بكر بن أبى شيبة وأبى بكر البزار ، وأبى القاسم البغوى وغيرهم . وواضح أن من يجمع مسندا من المسانيد لصحابى ، انما يقوم بجمع ما يقع له من حديث سواء كان صالحا للاحتجاج أم لا لهذا كانت منزلة المسانيد تلى كتب السنن فى الرتبة لأن أصحابها لم يتقيدوا بكون الحديث محتجا به أم لا ، فلا تلتحق بالاصول الخمسة وما أشبهها[٨٩] .

(٨٩) فتح المغيث جـ ١ ص ٥٠ ، تدريب الراوى ص ١٩ .

الموازنة بين الكتب الستة

يقوم منهجنا فى الموازنة بين هذه الكتب على أساسين :
الأول : طريقة كل إمام من الائمة فى تدوين الحديث النبوى فى مصنفه .
الثانى : شرط كل واحد منهم فى كتابه من حيث الصحة وغيرها .

١ - نرى أن البخارى فى صحيحه انتهج طريقة التدوين على المصنفات كالتى اتبعها الامام مالك فى « الموطأ » الا أن البخارى تميز عنه بتجريد صحيحه من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وهذه الميزة « وهى تجريد الحديث وتخليصه من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين » شاركه فيها أصحاب المسانيد كالامام أحمد بن حنبل فى مسنده ولكن البخارى جمع بجانب ذلك ميزة أخرى هى : أنه أفرد بالجمع الاحاديث الصحيحة فقط دون غيرها ، وهذه الميزة لا توجد فى المسانيد قبله ، ثم استهدف فى كتابه المقصد الفقهى فرتب كتابه ترتيبا موضوعيا ، وبوبه تبويبا فقهيا ، ولهذا قلما يتعرض البخارى لتعداد الاسانيد وطرق الحديث فى الباب الواحد الا فى حال تقوية الحديث فجاء فى كتابه : بالتعليق والاختصار والتفريق على الأبواب ، وما ذكره من التعليقات فانما ذكره فى التراجم فقط ، لأنها ليست على شرطه فلم يجعلها من أصول الكتاب ، فامتاز بالناحية الفقهية ودقة التراجم الى جانب تدوين الصحيح فقط .

٢ - واما بالنسبة الى الإمام مسلم : فقد جمع فى المكان الواحد طرق الحديث وأسانيده ، ولم يقطع الحديث أو يكرره فى الأبواب ، وعنى بتحرير ألفاظ الرواة مما جعل الرجوع إليه سهلا .

٣ - وأما جمع الترمذى ، فقد أخذ من طريقه كل من الكتابين السابقين فجمع الطرق والاسانيد فى موضع واحد منبها على اختلاف الالفاظ ، كما جاء بالفوائد الفقهية دون أن يكرر الحديث أو يقطعه على الأبواب إلا فى القليل ، إلا أن تراجمه لم تبلغ مبلغ تراجم البخارى فى الدقة والتفنن ، وبعد الغوص ، فقد كانت تراجم الترمذى واضحة الدلالة قليلة الاستنباط ولكنه تميز بفنون الصناعة الحديثية ، كما سبق بيان ذلك فى الحديث على جامعه . . .

٤ - وأما أبو داود : فقد عنى بالاحاديث التى تدور عليها أحكام الشريعة ، واستوفى منها ما لم يستوفه غيره ، وتميز فى تدوينها بحسن الترتيب ، ولعناية أبى داود بالناحية الفقهية واشتمال الحديث على عدة أحكام كرر أحاديث كثيرة باسناد واحد فى موضعين أو أكثر من أبواب الكتاب .

٥ - وأما النسائى : فقد بوب كتابه أيضا على الابواب الفقهية ، ورتبه ترتيبا موضوعيا وسلك المسالك العميقة .

٦ - وأما ابن ماجه : فقد رتب كتابه كذلك ترتيبا فقهيا ، وامتاز بحسن التنسيق والترتيب وسعة الجمع .

وقال أبو جعفر بن الزبير : (لأبى داود فى حصر أحاديث الاحكام واستيفائها ما ليس لغيره وللترمذى فى فنون الصناعة الحديثية ما لم يشاركه غيره ، وقد سلك النسائى أعمق تلك المسالك وأجلها)[٩٠] « أ . هـ » .

وهكذا نرى ان الاساس الأول من الموازنة أبرز لنا ما تميز به كل كتاب عن غيره وما اشترك فيه كل كتاب مع نظيره .

وأما الثانى ، وهو شرط كل واحد فى كتابه : فقبل بيان الموازنة بين تلك الشروط ، أقدم تقسيم الجمهور للحديث الصحيح ، وآراء بعض الأئمة فى هذه الكتب وطبقاتها لأستأنس بها فى الحديث عن الموازنة :

قسم الجمهور الحديث الصحيح بالنظر الى تفاوت الأوصاف المقتضية للصحة الى سبعة أقسام كل قسم منها أعلى مما بعده .

فالأول : ما أخرجه البخارى ومسلم ، وهذا القسم هو أعلى الاقسام ويسمى بالمتفق عليه .

والثانى : ما انفرد به البخارى ، ووجه تأخره عما اتفقا عليه اختلاف العلماء أيهما أرجح ، ولئن كان الأكثر والأصح وما عليه الجمهور أن كتاب البخارى أرجح ، ولكن ما اتفقنا عليه يكون أكثر قوة مما انفرد به البخارى لأن كثرة الطرق تقوى الحديث .

---

(٩٠) تدريب الراوى ص ٩٩ .

والثالث : ما أنفرد به مسلم .

والرابع : ما كان على شرطهما ، مما لم يخرجه واحد منهما ، ووجه تأخره عما أخرجه احدهما تلقى الأمة بالقبول له .

والخامس : ما كان على شرط البخارى .

والسادس : ما كان على شرط مسلم .

والسابع : ما صححه أحد الأئمة المعتمدين غير البخارى ومسلم .

وترجيح كل قسم من هذه الأقسام السبعة على ما بعده إنما هو من قبيل ترجيح الجملة على الجملة لا ترجيح كل واحد من أفراده على كل واحد من أفراد الآخر ، فيسوغ أن يرجح حديث فى مسلم على آخر فى البخارى اذا وجد موجب الترجيح .

قال الزركشى : ومن هنا يعلم أن ترجيح كتاب البخارى على مسلم انما المراد به ترجيح الجملة لا كل فرد من أحاديثه على كل فرد من أحاديث الآخر(٩١) .

ونلاحظ على هذا التقسيم أنه لم يرد تصريح من العلماء فيه بترتيب كتب الحديث من حيث الصحة إلا بكتاب البخارى أولا ، ثم كتاب مسلم ثانيا ثم ما كان على شرطهما ، وما صححه أحد الائمة المعتمدين غير البخارى ومسلم .

وقد قام بترتيب طبقات كتب الحديث الشيخ المحدث أحمد المعروف بشاه ولى الله الدهلوى فقسم الكتب الى طبقات :

١ - **الطبقة الأولى** : وتنحصر بالاستقراء فى ثلاثة كتب : الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم .

٢ - **الطبقة الثانية** : كتب لم تبلغ مبلغ الموطأ والصحيحين ، ولكنها تتلوها ، كان مصنفوها معروفين بالوثوق والعدالة والحفظ والتبحر فى فنون الحديث ، ولم يرضوا فى كتبهم هذه بالتساهل فيما اشترطوا على أنفسهم فتلقاها من بعدهم بالقبول ، واعتنى بها المحدثون والفقهاء طبقة بعد طبقة واشتهرت فيما بين الناس ، وتعلق بها القوم شرحا لغريبها وفحصا عن رجالها ، واستنباطا لفقهها ، وعلى تلك الأحاديث بناء عامة العلوم كسنن أبى داود وجامع الترمذى ومجتبى النسائى .

---

(٩١) مفتاح السنة ص ٣٥ ، تدريب الراوى ص ٦٤ .

وقال : (أما الطبقة الأولى والثانية فعليها اعتماد المحدثين وحول حماهـا مرتعهم ومسرحهم)[٩٢] . وأرى أن تقسيم الدهلوى لم يرد فيه ترتيب للكتب حسب صحتها كتابا كتابا وإنما قسمها من حيث الطبقات ، فوضع الموطأ والصحيحين فى الطبقة الأولى ، ووضع سنن أبى داود وجامع الترمذى ومجتبى النسائى فى الطبقة الثانية ، وليس فى تقديمه كتاب الموطأ فى الذكر تقديمه من حيث الصحة عليهما كما قال الشافعى : (ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك) فهذا القول من الشافعى انما هو قبل وجود الكتابين . وقال الذهبى ردا على ابن حزم الذى أخر الموطأ عن الصحيحين وكتب السنن والمسانيد فى الرتبة قال ما أنصف ابن حزم رتبة الموطأ أن يذكر تلو الصحيحين مع سنن أبى داود والنسائى[٩٣] .

والآن قد اتضح الأمر ، وأن كتب السنن فى الطبقة الثانية ، وأنها بعد الصحيحين أما ترتيبها : فاذا نظرنا الى عدد الاحاديث التى انتقدها ابن الجوزى على كتب السنن هى : تسعة أحاديث انتقدها على كتاب أبى داود ، وعشرة أحاديث انتقدها على كتاب النسائى ، وثلاثون حديثا انتقدها على كتاب الترمذى ، وثلاثون حديثا انتقدها على كتاب ابن ماجه ، اذا نظرنا من حيث الاحاديث المنتقدة فالأكثر وهكذا فيأتى :

أولا : سنن أبى داود .
ثانيا : سنن النسائى .
ثالثا : جامع الترمذى .
رابعا : سنن ابن ماجه .

وقد تأخر ابن ماجه عن كتاب الترمذى ، مع أن الاحاديث المنتقدة عليهما عددها واحد ، لأن ابن ماجه تفرد باخراج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب وسرقة الاحاديث ، وبعض تلك الاحاديث لا تعرف إلا من جهتهم[٩٤] ، لذا جاء ترتيبه آخر كتب السنن .

وأما اذا نظرنا الى الكتب الستة من ناحية شروط أصحابها ، فان كتاب البخارى يأتى أولا ثم يأتى بعده كتاب مسلم ، وهذا هو الترتيب المعتمد ، لما سبق من بيان شرط كل منهما

---

(٩٢) حجة الله البالغة جـ ١ ص ١٠٦ وما بعدها .
(٩٣) فتح المغيث للعراقى جـ ١ ص ١٦ ، تدريب الراوى ص ٥٤ ، مقدمة الموطأ ص ١٥ .
(٩٤) قواعد التحديث ص ٢٤٧ .

والموزانة بينهما ، وما اتضح أن شرط البخارى أعلى من شرط مسلم لاشتراطه اللقاء مع المعاصرة ، وتخريجه رجال الطبقة الأولى استيعابا كما سبق بيانه .

وأما ثالث هذه الكتب : فبتحقيق أقوال العلماء وآراء الأئمة ، والموازنة بين شرط كل منها تتضح الحقيقة :

يرى الامام الدهلوى أن سنن أبي داود ، ومجتبى النسائى ، وجامع الترمذى فى الطبقة الثانية .

وأما الحازمى : فذكر أن أبا داود والنسائى يخرجان من أحاديث الطبقة الأولى والثانية والثالثة ولا يتجاوزانها الى الرابعة ، وأما الترمذى فيخرج أحاديث الطبقة الرابعة[٩٥] . فقد رأى الحازمى تقديم كتاب أبي داود على جامع الترمذى . وهذا الرأى هو ما أميل إليه وأرجحه ، لأن الترمذى نزل درجة عن كل من أبي داود والنسائى حيث خرج حديث الطبقة الرابعة ، أما أبو داود والنسائى فيخرجان أحاديث الطبقة الأولى والثانية والثالثة ، ولا يتجاوزانها الى الرابعة ، والحازمى وإن صرح بقوة شرط الترمذى لبيانه لدرجة الحديث ـ إلا أنه أخره فى الرتبة لما سبق . يقول الحازمى : (. . . وفى الحقيقة شرط الترمذى أبلغ من شرط أبي داود لأن الحديث اذا كان ضعيفا أو مطلعه من حديث أهل الطبقة الرابعة ، فانه يبين ضعفه ، وينبه عليه ، فيصير الحديث عنده من باب الشواهد والمتابعات ، ويكون اعتماده على ما صح عند الجماعة ، وعلى الجملة ، فكتابه مشتمل على هذا الفن ، فلهذا جعلنا شرطه دون شرط أبي داود[٩٦] « أ . هـ » فبين السبب فى تأخيره جامع الترمذى بأنه اشتمل على حديث الطبقة الرابعة وأما تأخيره عن كتاب أبي داود فلأنه وإن اشترك معه فى التخريج عن الطبقة الثانية والثالثة الا أن أبا داود تميز ببيان ما فيه وهن ، أما النسائى فيخرج كل من لم يجمع على تركه ، والضعيف دون تنبيه عليه[٩٧] . وأما تقديمه على الترمذى فلما سبق من تخريج الترمذى حديث أهل الطبقة الرابعة بخلاف النسائى الذى لا يتجاوز الثالثة فهو أعلى منه وعلى ذلك فيكون ترتيب الكتب الستة كالاتى :

١ ـ الجامع الصحيح للامام البخارى .

---

(٩٥) تدريب الراوى ص ٦٩ .

(٩٦) شروط الائمة الخمسة ص ٤٤ .

(٩٧) فتح المغيث جـ ١ ص ٥٩ .

٢ - المسند الصحيح للامام مسلم .
٣ - سنن أبي داود .
٤ - سنن النسائى .
٥ - جامع الترمذى .
٦ - سنن ابن ماجه .

وبعد بيان كل ما سبق أحب أن أبرز هنا نتيجتين هامتين :

الأولى : أن هذه الشروط التى اشترطها العلماء لهؤلاء الأئمة قد تبين من سير كتبهم واستقراء طرقهم فى تدوين الحديث وترتيبهم لمصنفاتهم أن كل ذلك اجتهاد منهم فى دراسة هذه الاعمال الجليلة والمؤلفات النفيسة التى اضطلع بها هؤلاء الاعلام . وأن هذا انما يدل على تقدير اللاحقين لجهود المتقدمين ، ولا يعنى تأخير واحد منهم عن ركب هؤلاء الأئمة ، ولا إهمال مصنف من هذه المصنفات .

الثانية : أن ترجيح كل كتاب من هذه الكتب وتقديمه على ما بعده فى الرتبة ، انما المراد به ترجيح الجملة ، لا ترجيح كل فرد من أحاديثه على كل فرد من أحاديث الآخر ، فقد يسوغ ترجيح حديث فى مسلم على آخر فى البخارى وهكذا . . . فجزاهم الله جميعا خير الجزاء ، على ما قدموا من خدمات جليلة للسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

الرد على مطاعن المستشرقين وأتباعهم

وأورد بعد ذلك ردودا على بعض الطعون التى وجهها المستشرقون وأتباعهم الى الكتب الستة وإلى ما دون فيها من الحديث النبوى ، وقبل أن اتصدى للرد على هذه الطعون أعطى فكرة سريعة عن مراحل الاستشراق وأهدافه ، حتى نتبين دخيلة هؤلاء الطاعنين :

مراحل الاستشراق وأهدافه :

١ - المرحلة الأولى :

بدأت المرحلة الأولى من مراحل الاستشراق عندما تبوأت الحضارة الاسلامية فى الاندلس مكانتها المرموقة بفضل ما لها من خصائص ومقومات لا تضاهيها حضارة أخرى فأعجب الغرب بحضارة العرب ، وأخذوا الكثير من ثقافتهم واغترفوا من مناهلهم الصافية ، إلا أنهم رأوا أن هذه الثقافة وذلك التقدم الحضارى يهدد سلطانهم ويقضى على تأثيرهم فقام بعض الرهبان بدراسة الحضارة الاسلامية لحاجة فى أنفسهم ، يبتغون تتبع العورات وتلمس الهنات ، وتضاعف هذا النشاط ، ومثل هؤلاء الرهبان النواة الأولى للاستشراق ، حيث أخذوا يشيعون الاباطيل المفتراة ويؤلفون كتبا تطفح بالمثالب ، ورغم ذلك كله ، فقد استمرت الحضارة الاسلامية مشرقة بثقافتها ، متدفقة بمعارفها حتى عجزت حيل الرهبان ، وضل سعيهم وفتر نشاطهم ، وهنا بدأت المرحلة الثانية :

٢ - المرحلة الثانية :

حاولت الكنيسة أن تضرب هذه الثقافة الاصيلة الضربة القاضية وتجتثها من جذورها ، فكانت « الحملات الصليبية » ، وقامت هذه الحروب بدافع العصبية العمياء من رجال الكنيسة لتخليص مهد المسيح من أيدى المسلمين مستغلين اسم الدين فى سبيل الاطماع التوسعية ، ومستهدفين استغلال ثروات المسلمين ، وتقويض حضارة الاسلام

ولكن هذه الحملات باءت الفشل الذريع وهزمت الجيوش الصليبية وهنا بدأت المرحلة الثالثة من مراحل الاستشراق .

٣ - المرحلة الثالثة :

وهى التى لا تزال مستمرة حتى الآن ، فهم يستخدمون السلاح حين يمكنهم استخدامه فاذا لم يمكنهم استخدموا غيره من الاسلحة ، فاتجهوا الى دراسة تراث المسلمين وعقيدتهم ، « وهدف الاستشراق افساد ما يمكن افساده من الدين وبالتالى من الخلق[٩٨] وساعدهم على ذلك أن أوربا قد نهضت وتخلف المسلمون عن مكانتهم ، فألفت الجمعيات المسيحية واليهودية واهتموا بدراسة أصول الاسلام وكان من هؤلاء المستشرقين من تظاهر بالاشادة بالاسلام ليطمئن القارىء لافكاره ، ثم يدس جزئية فى ثنايا بحثه تحمل السم الخطير بالنسبة للاسلام ، وكان المستشرقون من اليهود قد اقبلوا على الاسلام لاسباب دينية » وهى محاولة اضعاف الاسلام والتشكيك فى قيمه لاثبات فضل اليهودية على الاسلام بادعاء أن اليهودية فى نظرهم هى مصدر الاسلام الأول ، ولاسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولا ثم دولة ثانيا[٩٩] . ومن هؤلاء المستشرقين المستشرق اليهودى المجرى « جولد تسيهر » وقد افترى هذا المستشرق كثيرا على الاسلام فحاول التشكيك فى الكتب الستة مرة وهدم السنة بأسرها مرة أخرى وهكذا فى كل آرائه المسمومة .

الطعن فى الكتب الستة والرد على ذلك

قال جولد تسيهر : « ومن السهل أن يفهم أن وجهات نظرهم - يعنى المسلمين - ليست كوجهات النظر عندنا تلك التى تجد لها مجالا كبيرا فى النظر فى تلك الاحاديث التى اعتبرها النقد الاسلامى صحيحة غير مشكوك فيها ووقف حيالها لا يحرك ساكنا ولقد كان من نتائج هذه الأعمال النقدية الاعتراف بالكتب الستة أصولا ، وكان ذلك فى القرن السابع الهجرى فقد جمع فيها علماء من رجال القرن الثالث الهجرى أنواعا من الاحاديث كانت مبعثرة ، رأوها أحاديث صحيحة[١٠٠] .

---

(٩٨) القرآن والنبى للدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٧٠ .

(٩٩) المبشرون والمستشرقون فى موقفهم من الاسلام ص ١٢ الدكتور محمد البهى ط مطبعة الأزهر .

(١٠٠) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ٥٠ : جولد تسيهر ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وزملائه .

الرد على ذلك : أن فى هذا الكلام محاولة للتشكيك فى قيمة الكتب الستة وقد بنى ذلك على ادعائه ضعف موازين النقد عند المسلمين ، وأن وجهة نظر نقادهم تختلف عن وجهة نظر النقاد الاجانب الذين لا يسلمون بصحة كثير من الاحاديث ، ثم رتب بعد ذلك نتيجته الخبيثة وهى : أنه كان من نتائج هذه الأعمال النقدية الاعتراف بالكتب الستة . . . إلخ .

اما بالنسبة لاختلاف وجهة نظر النقد المسلمين عن وجهة نظر النقاد الاجانب فهذا أمر طبيعى .

أولا : لأن نقاد الاسلام يؤمنون بالله وبرسوله ويصدقون بكل ما جاء به الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه ، فسلموا - بعد التحقيق العلمي - بصحة كثير من أحاديث الغيبيات والعقائد بخلاف الاجانب الذين لا يؤمنون برسالة الرسول .

ثانيا : ان النقد الاسلامى قام على قواعد دقيقة وأصول ثابتة لها قيمتها ووزنها العلمى ولا تعرف الدنيا أدق من موازين النقد التى وضعها المسلمون لقبول السنن أو ردِّها وقد شهد بذلك الكثير من الاجانب ، وما دام الأمر كذلك ، فماذا يضيرنا اختلاف وجهة نظرهم ؟؟

اما ما أورده هذا المستشرق من أمر الكتب الستة ، وان أحاديثها كانت مبعثرة فضمها مؤلفوها فى القرن الثالث ورأوا أنه صحيحة - فهى شبهة واهية لا أساس لها لأنها تؤدى الى انكار الجهود المخلصة التى بذلها علماء الاسلام فى القرنين : الأول والثانى من أجل حفظ السنة وحمايتها .

فالسنة ما كانت مبعثرة ، وانما معظمها كان عمليا يطبقه المسلمون ، ويهتدون به ويحفظونه فى قلوبهم الواعية ، وكتبهم الصادقة الأمينة . وهكذا انتشرت السنة من عهد الصحابة والتابعين ، وفى القرن الأول والقرون التالية وظلت السنة محفوظة فى القلوب وفى الصحف حتى دونت فى الكتب المصنفة فى منتصف القرن الثانى الهجرى .

وبما أن الكتب الستة قد سبقها فى القرن الثانى كتب مصنفة ، ومسانيد دونت بعد هذه الكتب وقبل الكتب الستة ، وبما سبق بيانه فى دراسة الكتب الستة ومناهج تدوينها والشروط التى التزمها مصنفوها ، ونقدهم للمتون وللرجال الذين يروون عنهم ، كل ذلك يفىء علينا يقينا صادقا أن الأئمة الستة اختاروا هذه الاحاديث التى دونوها فى كتبهم من الالوف التى كانت عند الائمة الحفاظ متوخين جمع الصحيح منها .

دعوى أن التدوين كان بعد منتصف القرن الثالث

ومن تبع المستشرقين فى جرأتهم وفريتهم « أبو رية » حيث قال فى ذكر اطوار التدوين : وبهذا يخلص لك أن التدوين الصحيح لم يكن ألا بعد منتصف القرن الثالث إلى القرن الرابع[101] .

الرد على هذه الشبهة :

وهذه الدعوى السابقة ان كان يريد بها كاتبها ان التدوين العام لم يكن الا بعد منتصف القرن الثالث الى القرن الرابع ، فهو غير صحيح ، لأن التدوين انما بدأ فى اوائل القرن الثانى واتسع فى آخر هذا القرن ثم ازدهر بعد ذلك فى القرن الثالث من أوله لا من منتصفه ، ولدينا من الكتب المدونة ما يشهد تاريخ وفاة أصحابها بما يرد هذه الدعوى من أساسها ، مثل كتاب الموطأ « للامام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ » ألفه فى القرن الثانى ، والمسند للامام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ألفه قبل منتصف القرن الثالث ، واما ان كان صاحب هذه الدعوى يريد ان تدوين الحديث الصحيح لم يكن الا بعد منتصف القرن الثالث : فكلامه غير صحيح أيضا لأن تدوين الحديث الصحيح على حدة انما كان على يد الامام البخارى ومسلم ، وهما فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى وكونه يذكر امتداد التدوين الى القرن الرابع ، فهذا غير مسلم ، لأن القرن الرابع لم يكن عصر التدوين ، وانما عصر التهذيب والتنسيق والاستخراج والاستدراك وما الى ذلك .

---

(١٠١) أضواء على السنة ص ٢٣٣ أبو رية .

اعتراف بعض المستشرقين بصحة بعض السنة

اعترف « دوزى » المستشرق بصحة قسم كبير من السنة النبوية التى حفظت فى الصدور ودونت فى الكتب بدقة بالغة وعناية لا نظير لها . وما كان يعجب لكثير من الموضوعات والمكذوبات تتخلل كتب الحديث فتلك كما يقول طبيعة الأشياء نفسها - بل للكثير من الروايات الصحيحة الموثوقة التى لا يرقى اليها الشك . « ونصف صحيح البخارى على الاقل جدير بهذا الوصف عند أشد المحدثين غلوا فى النقد مع انها أى الروايات الصحيحة - تشتمل على أمور كثيرة يود المؤمن الصادق لو لم ترد فيها »[(٢١٠٢)]

هذا هو ملخص الدعوى كما أوردها الدكتور صبحى الصالحى مشيرا الى أن عبارة دوزى فى الاصل أشد وقاحة من أن يوردها وأشار الى مرجعها بالفرنسية .

الاجابة : نرى هنا أن هذا المستشرق حاول أن ينصب الشرك حول بحوثه ، حيث مال الى الاعتراف بصحة قسم كبير من السنة النبوية ، بقصد غير شريف ، وفرض غير خالص للعلم ، وانما لمحاولة التجريح والنقد ، وهذا هو دأب المستشرقين يموهون الامور ويصطنعون الانصاف المزيف للاسلام ليطمئن الباحث الى أفكارهم ثم يعمد الواحد منهم فيدس السموم للاسلام وأصوله . .

ولكن لم يعد خافيا عنا اعتراف المستشرقين بصحة بعض السنة النبوية أو اشادتهم ببعض محاسن الاسلام فاننا لا ننتظر منهم اعترافا بشىء من ذلك ولا إطراء لبغض مبادىء الاسلام ومحامدة .

فإننا أعلم بتراثنا ، وأدرى بحقائق ديننا ، وخصائص أصوله .

ولقد وضح لنا من البحوث السابقة ، درجة كل كتاب من الكتب الستة وفى مقدمتها صحيح البخارى وأصبح الامر من الوضوح بمكان بحيث لم يبق لدينا مجال لشىء آخر ، من تمويه المستشرقين وتلبيسهم الأمور .

(٢١٠٢) علوم الحديث ومصطلحه د / صبحى الصالحى (٣٥) .

الباب الثالث

الجهود المتممة لأعمال علماء القرن الثالث

وفيه فصلان :

الفصل الأول : نهضة بعض الاعلام من العلماء بتدوين السنة وبالصناعة الحديثية فى القرن الثالث الهجرى .

الفصل الثانى : علوم ومصنفات صاحبت تدوين السنة فى هذا القرن .

الفصل الأول

نهضة بعض الاعلام من العلماء بتدوين السنة والصناعة الحديثية فـــى القرن الثالث الهجـرى

قامت فى القرن الثالث الهجرى نهضة علمية شاملة عمت شتى الاقطار الاسلامية فى مكة والمدينة ، والعراق والاندلس والكوفة والبصرة وأصبهان ، والرى والشام ومصر ، واليمن وخراسان والجزيرة وغيرها وبرز فى هذا القرن اعلام كانت لهم جهودهم العلمية الهائلة التى يرجع لها الفضل فى التوجيه العلمى وإثراء الثقافة الاسلامية بدواوين السنة المعتمدة ـ وبالصناعة الحديثية الناهضة ، ومن بين هؤلاء الاعلام شيوخ للائمـة الستة اخذوا منهم ورووا عنهم كالأئمة : على بن المدينى ، ويحيى بن معين ، وابى بكر بن أبى شيبة وأبى زرعة ، الرازى ، واسحاق بن راهويه ، وابن خزيمة ، والدارمى .

ومنهم من ليسوا شيوخا لهم ، كالائمة : بقى بن مخلد وابن سعد والطبرى .

وكان من حق الشيخ ان يقدم على التلميذ ، وسيرا مع الترتيب التاريخى كذلك أن يقدم هؤلاء الاعلام على الائمة الستة ، لانهم شيوخهم ولان بعضهم اسبق زمنا وأكبر سنا . ولكن منهجنا هنا ليس معنيا بالترتيب الزمنى اكثر ما هو معنى بالاعمال الحـديثية وتدوين السنة النبوية .

ولما كان الأئمة قد اضطلعوا بمهام علمية مجيدة فى جوانب السنة النبوية ، اشرقت بكتبهم الصحاح التى كادت لا تدع من صحيح الحديث النبوى الا النزر اليسير لهذا رأيت أن أقدم الدراسة لهم عن هؤلاء الاعلام ، لان الدراسة لمصنفاتهم تعتبر دراسة عن تدوين

السنة فى هذا القرن جملة ، فقد اعتمد العلماء على كتبهم فى الاستنباط واستخرجوا منها أدلة الاحكام والاداب والمواعظ ، وتلقت الامة كتبهم بالقبول .

وكان من تتمة البحث أن أضم الى جهودهم جهود هؤلاء الشيوخ الاعلام الذين كانت لهم قدم راسخة فى تدوين السنة ، وفى الصناعة الحديثية سندا ومتنـا وكانت لهم مصنفاتهم النفيسة ، فهم بحق يعتبرون مشيدين ومقيمين لسلسلة المحدثين الذين ازدهر بهم هذا القرن . . .

وبالاضافة الى ما سبق فان دراسة جهود الائمة الستة اعطتنا فكرة عن هؤلاء الشيوخ اذ ان التعرف على الاستاذ من خلال تلميذه النابه يكون اوثق فى المعرفة واوقع فى النفس . وفى حديثنا عن هؤلاء الاعلام سنعرض مواقف مجيدة ترينا كيف قام هؤلاء الائمة بجهود مضنية وشاقة وتحملوا فى سبيلها ما تحملوا ، وتمرسوا على خشونة العيش وشظف الحياة ، وركبوا فى سبيل غايتهم المركب الصعب ، حتى صانوا هذا التراث النبوى الخالد حفظا فى الصدور ، وتدوينا فى الكتب ، ونقدا للرجال ومن هؤلاء الامام يحيى بن معين .

الامام يحيى بن معين

نسبه ونشأته :

هو أبو زكريا يحيى بن معين بن عون ـ وقيل غياث بدل عون ـ بن زياد بن بسطام بن عبد الرحمن المرى ـ نسبة إلى مرة غطفان قبيلة كبيرة مشهورة ـ البغدادى الحافظ ، قيل انه من قرية نحو الانبار تسمى : « نقياى » وولد فى سنة ثمان وخمسين ومائة ١٥٨ هـ بهذه القرية ، وكان ابوه كاتبا لعبد الله بن مالك وقيل أنه كان على خراج الرى فمات فخلف لابنه يحيى ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم ، فانفق جميع المال على الحديث . ونشأ محبا للعلم والعمل فكان مثالا عظيما فى التقوى والورع ، يقول الحق ولا يخشى فى الله لومة لائم ، يقول ابن الرومى : (ما سمعت احداً قط يقول الحق فى المشايخ غير يحيى بن معين وغيره كان يتحامل بالقول) وقال يحيى : ما رأيت على رجل قط خطأ ألا سترته وأحببت أن أزين أمره وما استقبلت رجلا فى وجهه بأمر يكرهه ولين أبين له خطأه فيما بينى وبينه فان قبل ذلك والا تركته ، وكان يقول كتبنا عن الكذابين وسجرنا به التنور وكثيرا ما كان ينشد :

المال يذهب حله وحرامه ... طرا ويبقى فى غد آثامه
ليس التقى بمتق لإلهه ... حتى يطيب شرابه وطعامه
يطيب ما يحوى وتكسب كفه ... ويكون فى حسن الحديث كلامه
نطق النبى لنا به عن ربه ... فعلى النبى صلاته وسلامه

كل ذلك يدل على ما كان عليه من ورع وتقوى ، وشدة التحرى والفحص للرجال . . . وكان بينه وبين الامام أحمد رضى الله عنه من الصحبة والألفة والاشتراك فى الاشتغال بعلوم الحديث ما هو مشهور ، ولاشك ان هذه الالفة نتيجة توافق الشخصيتين علما وعملا وورعا بالغا .

ومات الامام يحيى بن معين لسبع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، وعاش خمسا وسبعين سنة على الاصح ، وقيل سبعا وسبعين سنة الا بعض ايام ورثاه بعض المحدثين بقوله :

ذهب العليم بعيب كل محدث ... وبكل مختلف من الاسناد
وبكل وهم فى الحديث ومشكل ... يعيابه علماء كل بلاد

وكانت وفاته بمدينة النبى ﷺ ، وغسل على الاعواد التى غسل عليها النبى ﷺ ، وقيل . إنه لما خرج من المدينة سمع فى النوم هـاتفا يقـول : يا أبـا زكريـا اترغب عن جوارى ؟ فرجع وأقام بها ثم توفى واذا صح هذا الخبر ، فانه يوضح مدى العلاقة الروحية التى تربط الامام يحيى بن معين بصاحب السنة المطهـرة عليه افضـل الصلاة والسـلام بالاضافة الى خدماته الجليلة للسنة النبويـة قال أبـو حاتم : يحيى بن معـين امام وقـال النسائى : هو أبو زكريا الثقة المأمون احد الائمة فى الحديث[1] .

حياته العلمية :

كان ابن معين احد الائمة الاربعة الذين انتهت اليهم الزعامة فى الحديث وهم : احمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المدينى وأبو بكر بن أبى شيبة وقال إنه أول من صنف كتابا - بعد طبقات ابن سعد فى تراجم المحدثين وتاريخ حياتهم .

وكان إماما حافظا متقنا لا يشق له غبار ، كتب كثيرا من الحديث وخلف من الكتب مائة قمطر ، وقال على بن المدينى : انتهى العلم بالبصرة الى يحيى بن ابى كثير وقتادة ، وعلى الكوفة الى اسحق والاعمش ، وانتهى علم الحجاز الى ابن شهاب وعمرو بن دينار وصار علم هؤلاء الستة بالبصرة الى سعيد بن ابى عروية وشعبة ومعمر وحماد بن سلمة وأبى عوانة ، ومن أهل الكوفة : سفيان بن عيينه ومالك وسفيان الثورى ، ومن أهل الشام الى الاوزاعى ، وانتهى علم هؤلاء الى محمد بن اسحاق وهشام ويحيى بن سعيد بن ابى زائدة ووكيع وابن المبارك وهو اوسع هؤلاء علما ، وابن مهدى ويحيى بن آدم وصار علم هؤلاء جميعا الى يحيى بن معين ، وقال احمد بن حنبل كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث وكان يقول : ها هنا رجل خلقه الله لهذا الشأن يظهر كذب الكذابين يعنى يحيى ابن معين . وبذلك يتضح لنا أن يحيى بن معين كان إماما فى الحديث عالما بكل جوانب السنة ، فقد استوعب الكثير وحصله فكانت له مكانته فى نفوس العلماء ، وكان له التقدير العظيم منهم ، وظل مرجعا لكبار الائمة اذا اختلفوا فى شىء رجعوا اليه .

ومن مؤلفاته :

١ - كتاب التاريخ والعلل وهو مرتب على حروف المعجم

٢ - كتاب معرفة الرجال وقد بلغ يحيى بن معين درجة سامية فى معرفة الـرجال ونقدهم ، وقال عبد المؤمن بن خلف النسفى سألت ابا على صالح بن محمد : من أعلم

(١) وفيات الاعيان جـ٢ ص ٢٨٤ ، النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢٧٢ . مرآة الجنان جـ٢ ص ١٠٨ .

بالحديث ؟ يحيى بن معين أم أحمد بن حنبل ؟ فقال : أما احمد فأعلم بالفقه والاختلاف ، وأما يحيى فأعلم بالرجال والكنى . ويؤخذ من ذلك ان كل واحد من هذين الامامين قد تخصص فى ناحية فحذقها وأتقنها ، فالامام احمد برع فى مسائل الفقه ، الاحكام الشرعية وما يستتبعها من الاختلاف ، وأما الامام يحيى بن معين ، فانه كان أعلم بالرجال والكنى ، يسبر أغوار الرجال ويحلل شخصياتهم ، ويعرف الثقات منهم ويقف على أحوال الرجال والحكم عليهم .

ومع هذا فلم يطلق ابن معين العنان لنفسه فيروى ما شاء من الاحاديث مطمئنا الى حفظه ومستندا الى معرفته بالرجال وانما كان يتحرى الدقة فى روايته ، والحيطة فيها مخافة الخطأ قال يحيى إنى لأحدث بالحديث فأسهر له مخافة ان أكون قد اخطأت فيه[٢] .

وكان يحيى بن معين مرجع الأئمة فى معرفة الرجال ، قال العباسى ابن محمد الدوى « رأيت أحمد بن حنبل يسأل يحيى بن معين عند روح بن عبادة من فلان ؟ وما اسم فلان ؟ »

فابن حنبل اذن كان يسأل ابن معين ، ويستفسر منه عن الرجال الذين لا يعرفهم ، وما ذلك الا لاحاطة ابن معين الكاملة بمعرفة الرجال ومكانتهم وأحوالهم ، ولذا شهد له ابن حنبل فقال : « يحيى بن معين اعلمنا بالرجال » كما شهد له النسائى بالامامة فى الحديث والثقة والامانة .

وكيف لا ، وقد وقف على معرفة الرجال فألم بكل ما يتعلق بهم جرحا وتعديلا ، ودون من الاحاديث عددا هائلا يدل على أمانته واحاطته ، وتضلعه فى السنة ورجالها ، يقول يحيى بن معين « كتبت بيدى الف الف حديث »[٣]

شيوخه وتلاميذه :

كان من شيوخ ابن معين الذين روى عنهم : عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدى وهيثم ووكيع ، ويحيى القطان وغيرهم .

---

(٢) تاريخ بغداد جـ ١٤ ، ص ١٨٤ وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢٨٤ ، مرآة الجنان جـ ٢ ص ١٠٨ ، تاريخ الادب العربى جـ ٣ ص ١٦١ ، الحديث والمحدثون ص ٣٤٤ .

(٣)تذكرة الحفاظ للذهبى جـ ٢ ص ٤٢٩ ، الجرح والتعديل لأبن ابى حاتم ، القسم الثانى من المجلد الرابع .

ومن تلاميذه الذين رووا عنه ، وسمعوا منه ، كبار أئمة الحديث أبو عبد الله محمد ابن اسماعيل البخارى وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى ، وأبو داود السجستانى ، وأبو زرعة الرازى ، وأبو حاتم الرازى ، واحمد بن حنبل ومحمد بن سعد كاتب الواقدى ويعقوب بن شيبة .

وقد أجمع العلماء على إمامته وجلالته فى هذا الشأن لاسيما فيما يتعلق بالجرح والتعديل وكشف حال الكذابين مع التثبت والتمكن ، وقد دفعه صدقه وشدة تحريه فى سماعه وروايته وتمكنه من نفسه أنه استقبل القبلة ورفع يديه يقول : « اللهم ان كنت تكلمت فى رجل ليس هو عندى كذابا فلا تغفر لى » وهذا يدل على ثقته واحاطته بالحديث وعلله والجرح والتعديل وتثبته فى التتميز بين صحيح الحديث وسقيمه ونبوغه فى هذا الفن مما جعل الامام أحمد بن حنبل يقول فيه « سماع من يحيى بن معين شفاء لما فى الصدور » وروى عنه هو وأبو خيثمة وكانا من اقرانه ، وقد عده الحاكم فى كتابه : (علوم الحديث) من فقهاء المحدثين ، وبهذا نرى مدى منزلته العلمية فى نفوس الأئمة الكبار من معاصريه(٤)

(٤) وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢٨٤ .

منهج ابن معين فى نقد الرجال

كان يحيى بن معين ممن يتقيه الرجال ويخافونه ، فلا يستقبلونه الا بالاحاديث المستقيمة ومن أجل هذا وثق ابن معين رجالا لسماعه منهم جملة من الاحاديث المستقيمة ، وفى الواقع انهم لا يبعد الخلط عنهم . ولما كان كذلك ، فان ائمة النقد نظروا فيمن وثقه يحيى بن معين للتأكد من صحة هذا التوثيق . فقد يقرونه ، الا انهم لم يردوا توثيقه كما ردوا توثيق ابن حيان والحاكم لانه لم يبلغ فى التساهل ما بلغاه .

ويمكننا تحديد منهجه فى النقد باستقراء آراء بعض الائمة المحققين ، ونقدهم للرجال ، وبيان موقفهم من توثيق يحيى بن معين لكثير من المجرحين .

مثال ذلك : محمد بن قيس الهمذانى ، عن ابن عمرو عن ابراهيم النخعى ، وعنه سفيان بن سعيد وأبو عوانة ، وضعفه احمد بن حنبل ، اما يحيى بن معين فوثقه .

ومثل : محمد بن كثير بن قرشى الكوفى ابى اسحاق عن ليث والحارث بن حصيرة ، قال احمد بن حنبل مزقنا حديثه ، وقال البخارى : كوفى منكر الحديث ، وقال بن المدينى كتبنا عنه عجائب ، وخططت على حديثه ، يقول الذهبى : ومن مناكيره عن عطية عن ابى سعيد مرفوعا « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله »[٥] فرواه ابن وهب عن الثورى عن عمرو بن قيس قال : كان يقال : اتقوا . . . . الخ ، فذكره . اما يحيى بن معين فيقول فيه شيعى ولم يك به بأس .

ومثل محمد بن مسلم ، ويقال محمد بن مهران بن مسلم بن المثنى عن جده ابى المثنى قال الفلاس روى عنه داود الطيالسى مناكير ، وقال ابن مهدى لين الحديث ، قال الذهبى قد وثقه ابن معين فيما حكاه ابن القطان .

مثل النضر ابن عربى ابى روح العامرى الجزرى : قال عثمان بن سعيد الدارمى ليس بذاك وقال ابن سعيد لم يكن بذاك وقال النسائى : ليس بالقوى ، وقال ابن معين ثقة

---

(٥) ميزان الاعتدال حرف « الميم » .

وقد قرر الشيخ المحدث عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني : (أن عادة بن معين فى الرواة الذين أدركهم انه اذا اعجبته هيئة الشيخ يسمع منه جملة من احاديثه فاذا رأى احاديث مستقيمة ظن أن ذلك شأنه فوثقه ، وقد كانوا يتقون يحيى بن معين ويخافونه ، فقد يكون احدهم ممن يخلط عمدا ولكنه حين يعلم ان فى مجلسه يحيى بن معين استقبله باحاديث مستقيمة ، ولما يبعد الخلط عنه فاذا وجدنا ممن ادركه ابن معين من الرواة من وثقه ابن معين وكذبه الاكثرون أو طعنوا فيه طعنا شديدا فالظاهر انه من هذا الضرب ، فانما يزيده توثيق ابن معين وهنا لدلالته على أنه كان يتعمد ، ويفيد هذا فى ان من لينه يحيى بن معين أو ضعفه فانما يكون ذلك بعد استنفاد كل وسائل الاعذار ويكون من هذا شأنه انما حكم عليه يحيى بعد تدبر وتقص ومن ثم يكون حكمه بجرحه لا يثلم بحال)(٦) .

شبهة على منهج ابن معين فى التوثيق :

من المعلوم ان التعديل مراتب ولكل مرتبة ألفاظ ، واصطلاحات خاصة بها فمثال المرتبة الاولى قولهم (ثقة ثقة) بتكرار اللفظ ومثال الثانية (ثقة) بدون تكرار ومثال الثالثة (لا بأس به) وهكذا . . . وقد اشتبه على البعض أن يحيى بن معين لا يفرق بين المرتبة الثانية والثالثة من مراتب التعديل وإنما يسوى بينهما ، وبنوا الحكم على قول ابن خيثمة : قلت ليحيى بن معين : انك تقول « فلان ليس به بأس » وفلان « ضعيف » ؟ قال اذا قلت لك ليس به بأس فهو ثقة ، واذا قلت لك : هو ضعيف فليس هو بثقة لا تكتب حديثه . ففهم البعض من ذلك أن درجة من يقول فيه (ليس به بأس هى درجة من يقول فيه (ثقة) .

الجواب على ذلك : هو أنه لا يؤخذ من قول ابن معين السابق ، ان من يقول فيه ليس به بأس مثل من يقول فيه (ثقة) ، وان مقالته السابقة لا تفيد المساواة بين العبارتين ، وليس هذا مراد ابن معين ، وانما مراده ـ والله اعلم ـ ان من قال فيه (ليس به بأس) فهو داخل فى مضمون الثقة وهى مراتب كما سبق بيانها وان مرتبة ثقة اعلى من مرتبة (ليس به بأس) فهما مختلفان وان اشتركا فى مطلق الثقة (٧) .

---

(٦) مجلة الازهر عدد صفر سنة ١٣٩٢ هـ من بحث للاستاذ محمد نجيب المطيعى .
(٧) فتح المغيث جـ ٢ ص ٣٩ .

على بن المدينى

نسبه ونشأته :

هو أبو الحسن على بن عبد الله بن جعفر ابن يحيى بن بكر بن سعيد ، وقيل : جعفر بن نجيح بن بكر المدينى ثم البصرى الحافظ الثقة . ولد سنة احدى وستين ومائة من الهجرة ونشأ على العلم والعمل . وكانت له مناقبه الجمة ، لولا انه كدر ذلك بتعلقه بشىء من مسألة خلق القرآن ، ولكنه تخلى بعد ذلك عن هذا القول ، وندم على ما كان منه فى هذا الموقف .

وكان الامام احمد بن حنبل يقدره ويجله ، قال أبو حاتم : كان ابن المدينى علما فى الناس فى معرفة الحديث والعلل وما سمعت أحمد بن حنبل سماه قط ، وانما كان يكنيه تبجيلا له وقد شهد له بالفضل شيوخه الذين أخذ عنهم ، ومن هؤلاء شيخه سفيان بن عيينة الذى كان بينه وبين ابن المدينى من المحبة والاكبار الشىء الكثير حتى قال ابن عيينه : (يلوموننى على حب على بن المدينى والله لقد كنت اتعلم منه أكثر مما يتعلم منى) وقد رأى ابن المدينى فيما يرى النائم ما يبشر له المكانة العالية كما فسر ذلك بعض العلماء ، قال ابو قدامة السرخسى : سمعت على بن المدينى يقول رأيت فيما يرى النائم كأن الثريا نزلت حتى تناولتها ، قال أبو قدامة فصدق الله رؤياه ، فبلغ فى الحديث مبلغا لم يبلغه أحد [8] .

ونشأ على بن المدينى نشأة علمية يرجع فيها الى كبار العلماء ويذاكر الأئمة العظماء حتى بلغ مبلغا عظيما فى العلم فقدره العلماء أيما تقدير وشهدوا له بالفضل والامامة ، ومن ذلك التقدير ما شهد به البخارى لشيخه على اذ يقول : ما استصغرت نفسى الا عند على ابن المدينى .

وقد عرف ابن المدينى بالعلم والفضل ، واما ما قيل فيه من أنه أجاب الى القول بخلق القرآن كما سبقت الاشارة اليه فذلك راجع الى أنه انما اجاب خشية السيف . قال

---

(٨) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٣٥٢ ، ص ٣٥٧ ، تاريخ الادب العربى جـ ٣ ص ٢٢٠ . طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٢٤٦ ، تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٨٢ .

ابن عدى سمعت بن ابى يوسف القلوسى ، سمعت ابى يقول (قلت لابن المدينى : مثلك فى علمك يجيب الى ما أجبت اليه ؟ فقال : يا أبا يوسف ما أهون عليك السيف . وقال : خفت أن أقتل ولو ضربت سوطا واحدا لمت ، هذا مع ملاحظة انه رجع عما قال واظهر توبته من ذلك .

حياته العلمية :

عاش ابن المدينى حياة علمية خصبة كثر فيها انتاجه ، وزادت مؤلفاته ، وأصبح من ائمة الحديث الكبار وخاصة ما يرجع الى الرجال والعلل ، ولهذا عرف العلماء له فضله ، وشهدوا له بالمعرفة والتقدم ولا غرابة فى هذا فهو من بيت علم وفضل .

شـيوخه وتلامـيذه :

ومن شيوخه الذين اخذ عنهم ، أبوه ، وحماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة وهيثم وابن وهب ، وعبد الوارث ، والوليد بن مسلم ، ويحيى القطان ، وعبد الرحمن المهدى ، وابن علية وعبد الرزاق وغيرهم .

ومـن تـلاميذه : محمـد بن يحيى الذهـلى ، والبخارى ، وابـو داود ، والنسائى والترمذى وابن ماجه وأبو يعلى الموصلى ، واحمد بن حنبل ، وعبد الله البغوى وآخرهم موتا عبد الله بن محمد بن أيوب الكاتب .

ولابن المدينى تصانيف كثيرة نحو مائتين ، قال العلامة محيى الدين النووى ، لابن المدينى نحو مائتى مصنف ، منها « كتاب معرفة من نزل من الصحابة سائر البلدان » فى خمسة أجزاء لطيفة . وذكر الحاكم فى معرفة علوم الحديث جملة وافرة من مؤلفاته تدل على رسوخ قدمه واتساع أفقه فى علوم السنة ، فمن ذلك « كتاب الاسامى والكنى » ثمانية اجزاء (وكتاب الضعفـاء) عشرة اجـزاء (وكتاب المـدلسين) خمسـة أجزاء (وكتـاب الطبقات) عشرة أجزاء (وكتاب علل المسند) ثلاثون جزءا (وكتاب علل حديث ابن عيينة) ثلاثة عشر جزءا و (كتاب من لا يحتج بحديثه ولا يسقط) جزءان (وكتاب العلل المتفرقة) ثلاثون جزءا ، (وكتاب مذاهب المحدثين)[٩] وغير ذلك .

وهذه المؤلفات النفيسة الكثيرة تدل على تبحره فى هذا العلم وتمكنه وسعة افقه وقد

---

(٩) الرسالة المستطرفة ص ١٢٧ .

كان متقنا لدرجة عالية . روى ابن ابى حاتم الرازى عن محمد بن مسلم بن وارة ، وسئل عن على بن المدينى ويحيى بن معين : أيهما احفظ ؟ قال : كان على أسرد وأتقن ، وكان يحيى بن معين أفهم بصحيح الحديث وسقيمه . وكان ابن المدينى المرجع للعلماء اذا اختلفوا فى شىء تكلم فيه ، قال صاعقة : كان ابن المدينى اذا قدم بغداد تصدر الحلقة ، وجاء يحيى واحمد بن حنبل والناس يتناظرون ، فاذا اختلفوا فى شىء تكلم فيه ابن المدينى وما هذا الا لمعرفتهم قدره ، ولأنه بلغ فى العلم مبلغا عظيما يرجع اليه فيه . وتوفى ابن المدينى سنة أربع وثلاثين ومائتين ليومين بقيا من ذى القعدة (١٠) .

---

(١٠) الكمال فى اسماء الرجال جـ ٢ ص ٢٣٩ . مخطوط بدار الكتب المصرية ، تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ٤٢٨ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ١٤٦

الامام أبو بكر بن أبى شيبه

نسبه ونشأته :

هو الامام الحافظ عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عثمان ، أبو بكر العبسى المعروف بابن ابى شيبه من أهل الكوفة . ولد سنة ١٥٩ هـ تسع وخمسين ومائة .

ونشأ نشأة علمية ، شهد له العلماء بالعلم والفضل ، قال ابن حيان : كان متقنا حافظا دينا ممن كتب وجمع وصنف وذاكر ، وكان أحفظ أهل زمانه ، وقال أبو زرعة : ما رأيت احفظ منه ، وقال نفطويه لما قدم أبو بكر بن ابى شيبه بغداد فى أيام المتوكل حرزوا مجلسه بثلاثين الفا (أ . هـ) .

وهذا يدل على انه كان على قدم راسخة فى العلم ، كما يدل على محبة الناس له ، واقبالهم على مجالسه العلمية ، ولا غرابة فى ذلك فهو أحد الائمة الاعلام ، وصاحب التصانيف الكبار[١١] .

حياته العلمية :

قال ابو عبيد القاسم : انتهى العلم الى أربعة : فأبو بكر أسردهم له ، واحمد افقههم فيه ، ويحيى أجمعهم له ، وعلى أعلمهم به . وقال أبو زرعة الرازى : ما رأيت أحفظ من أبى بكر بن أبى شيبه . وبهذا يتبين لنا من شهادات الائمة له انه كان على قدم راسخة فى العلم والحفظ والاتقان .

شيوخه وتلاميذه :

روى عن ابى الاحوص وابن المبارك وشريك وهيثم وجرير بن عبد الحميد ووكيع وابن عطية ، وابن مهدى والقطان ، وابن عيينه ، وأبى خالد الاحمر ، وعبد الاعلى بن عبد الاعلى ومحمد بن فضيل ويزيد بن هارون وغيرهم .

---

(١١) تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٢ ، مرآة الجنان جـ ٢ ص ١١٦ .

وروى عنه : البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه . وروى له النسائى بواسطة احمد ابن على القاضى وابن ابى شيبه ابراهيم واحمد بن حنبل ومحمد بن سعد وأبو زرعة وأبو حاكم وعبد الله بن أحمد بن حنبل وابراهيم الحربى وكثيرا [١٢] .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : ربانيو الحديث أربعة : فأعلمهم بالحلال والحرام احمد بن حنبل ، وأحسنهم سياقة وأداء له على بن المدينى وأحسنهم وضعا لكتاب ابن ابى شيبه ، وأعلمهم بصحيح الحديث وسقيمه يحيى بن معين .

وقال صالح بن محمد : أعلم من أدركت بالحديث وعلله على بن المدينى ، وأعلمهم بتصحيف المشايخ يحيى بن معين ، واحفظهم عند المذاكرة أبو بكر بن ابى شيبه .

وهكذا تطالعنا أقوال الائمة والحفاظ وشهادات أهل الخبرة والتوثيق على أن أبا بكر ابن أبى شيبة كان أحد هؤلاء الائمة الذين انتهى الحديث اليهم حفظا وتدوينا وبلغوا فى فهمه مبلغا عظيما ، ولما كان لهؤلاء الائمة مكانتهم العظيمة فى النفوس فان العلماء قد درسوا معارفهم وبينوا تخصصاتهم ، وما يتميز به كل واحد منهم فى الحفظ وفى معرفة الرجال ، أو فى علل الحديث وهكذا . . .

ولقد كان ابو بكر بن أبى شيبة موضع ثقة العلماء ، قال أبو عبد الله محمد بن عمر بن العلاء الجرجانى سمعت يحيى بن معين ـ وسألته عن سماع أبى بكر بن أبى شيبه من شريك فقال : أبو بكر عندنا صدوق ولو ادعى السماع من أجل من شريك لكان مصدقا فيه .

وتوفى رضى الله عنه سنة ٢٣٥ هـ ، قال محمد بن عبد الله الحضرمى ، مات عبد الله بن محمد بن ابى شيبه وقت العشاء الآخرة ليلة الخميس لثمان مضت من المحرم سنة خمس وثلاثين ومائتين [١٣] .

وقال عمر بن على : ما رأيت أحفظ للحديث من أبن أبى شيبة ، قدم البصرة فاجتمع مع ابن المبارك وابن الشاذكونى فجرى ذكر الشيبانى فسرد أبو بكر أربعمائة حديث حفظا للشيبانى .

إنها إذًا لحياة حافلة بجهود مذكورة مشكورة فى خدمة السنة النبوية تشهد لهذا الامام الجليل بالتبحر والتضلع وبالامامة والفضل .

---

(١٢) تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٢ ، الرسالة المستطرفة ص ٤٠ ، مقدمة تحفة الأحوذى جـ ١ ص ٣٣٤ .

(١٣) الكمال فى اسماء الرجال جـ ٢ ص ١١٧ مخطوط بدار الكتب المصرية ، تاريخ بغداد جـ ١٠ ص ٦٩ .

مصنف الامام أبى بكر بن أبى شيبه

يعتبر مصنف ابن ابى شيبة من أعظم الكتب المصنفة فى احاديث الاحكام دون فيه الاحاديث النبوية بأسانيدها ، وهو من الآثار الهامة ، ويقع فى ثمانية مجلدات وهى موجودة فى مكتبة محمد مراد البخارى المعروف بمراد ملا فى جهاز شنبة فى حى الفاتح فى استانبول تحت رقم ٥٩٤ ـ ٦٠١ ، وتوجد نسخة من مصنف ابن ابى شيبة محفوظة فى مكتبة السلطان احمد الثالث تحت رقم ٢٦٠ فى استانبول ايضا الا أنها ينقصها المجلد الثامن ، وفى الهند نسخ أخرى كما فى نوادر المخطوطات وتوجد بعض أجزاء منه مخطوطة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٨٠٢ . ويعتبره كثير من الباحثين أنه أجمع كتاب الف فى احاديث الاحكام .

منهج أبى بكر بن ابى شيبه فى مصنفه :

نهج الامام ابو بكر بن ابى شيبه فى تأليف مصنفه منهج التأليف على الابواب فرتبه على الابواب الفقهية ، ودون فى كل باب من أبوابه ما ورد فيه من الاحاديث ، سواء كانت مرفوعة أو مرسلة أو موقوفه ، مع ضم أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، ويذكر فى المسألة أقوال أهل العلم فيها مما يسهل على الباحث معرفة الحكم فى مسألة ما إن كانت اجماعية أو خلافية .

وقد سار على منهج ابن ابى شيبه تلميذه بقى بن مخلد الاندلسى فى مصنفه ، وعندما ادخل المصنف لابن ابى شيبة فى الاندلس ثار المالكية من أهل الاندلس لأنهم تعودوا الا يصغوا لغير حديث « الموطأ » وأحاديث أهل المدينة .

اشتمل كتاب ابن أبى شيبه على باب خاص عقده للرد على الامام أبى حنيفة فى خمس وعشرين ومائة مسألة بآثار يسردها فى كل باب ثم يذكر عقب كل باب العبارة الآتية : « وذكر ان ابا حنيفة قال كذا » وقد انتقد بعض العلماء ردود ابن أبى شيبة فى عدم ذكر المسند الى أبى حنيفة عندما يعزو اليه بعض الآراء ، قال الاستاذ محمد زاهد الكوثرى رحمه الله فى ابن أبى شيبه انه « لا يسند الرأى الذى يعزوه الى ابى حنيفة بسند يسوقه ، ولو فعل هذا لكان أبرأ لذمته وأتم فائدة »[١٤] .

---

(١٤) النكت الطريفة للتحدث عن ردود ابن أبى شيبة على ابى حنيفة للاستاذ محمد زاهد الكوثرى ط مطبعة الانوار الطبعة الاولى سنة ١٣٦٥ هـ .

شرطه فى المصنف :

لم يرد عن الامام أبى بكر بن ابى شيبه تصريح بشرطه فى مصنفه ، ولكنه من الممكن استنتاج شرطه من سبر بعض احاديث الكتاب ، وما قيل فيه من آراء علمية منصفة .

فان الامام ابا بكر بن أبى شيبه لم يشترط فى كتابه تخريج الصحيح فقط ، وانما اخرج الصحيح وغيره ، فأخرج المرفوع ، والمرسل ، والمقطوع ، والموقوف ، وأقوال الصحابة والتابعين وقد وضعه « ولى الله الدهلوى » فى الطبقة الثالثة من طبقات كتب الحديث : حيث جعل **الطبقة الاولى** فى الموطأ والصحيحين .

وجعل الطبقة الثانية : منحصرة فى سنن أبى داود وجامع الترمذى ومجتبى النسائى وكاد مسند أحمد يكون من جملة هذه الطبقة .

وجعل الطبقة الثالثة : « مسانيد وجوامع ومصنفات صنفت قبل البخارى ومسلم وفى زمانهما وبعدهما جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف والمعروف والغريب والشاذ والمنكر والخطأ والصواب والثابت والمقلوب ولم تشتهر فى العلماء ذلك الاشتهار وإن زال عنها اسم النكارة المطلقة [١٥] وذكر أمثلة لذلك مثل مسند أبى يعلى ومصنف عبد الرزاق ، ومصنف أبى بكر بن أبى شيبة .

ويتضح مما سبق أن الإمام أبا بكر بن أبى شيبة قد شارك فى طريقة تأليف مصنفه الامام مالكا فى « الموطأ » حيث رتبه ترتيبا فقهيا ، وبوبه تبويبا موضوعيا ومزجه بأقوال الصحابة والتابعين الا أنه اختلف عن الموطأ فى درجة الاحاديث ، لان الموطأ أعلى منه فى درجة أحاديثه ، كما أنه شارك أيضا الامام أبا داود فى « سننه » حيث رتبه نفس الترتيب الفقهى وجمع أحاديث الاحكام الا أن درجة سنن أبى داود أعلى من درجة مصنف ابن أبى شيبة ، وقد جعله « الدهلوى » كما سبق ضمن الطبقة الثالثة .

---

(١٥) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٠٧ .

أمثلة من المصنف

وقد عقد ابن أبي شيبة كما سبق بابا بعنوان : (هذا ما خالف به أبو حنيفة الأثر الذى جاء عن رسول الله ﷺ) ومن أمثلة ما أورده :

١ - قال : « حدثنا ابن عيينة عن الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن محمد بن النعمان عن أبيه أن أباه نحله غلاما ، وأنه أتى النبى ﷺ ليشهده ، فقال : « أكل ولدك نحلت مثل هذا ؟ » قال : لا . قال : فاردده .

حدثنا عباد عن حصين عن الشعبى قال سمعت النعمان بن بشير يقول : أعطانى أبى عطية فقالت أمى - عمرة بنت رواحة - لا أرضى حتى تشهد النبى ﷺ ، قال : فأتى النبى ﷺ فقال : انى أعطيت ابنى من عمرة عطية فأمرتنى ان أشهدك . قال : « أعطيت كل ولدك مثل هذا ؟ قال : لا . قال : فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم .

حدثنا ابن مسهر عن أبى حيان عن الشعبى عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ انه قال : « لا أشهد على جور . »[١٦] وذكر أن أبا حنيفة قال : لا بأس به » فالامام أبو بكر بن أبى شيبة فى هذا الموضع أورد الحديث ، وذكر قول أبى حنيفة فى المسألة وهو : « لا بأس به » .

واذا نظرنا الىٰ رأى الجمهور فى المسألة نرى أنهم يحملون الامر بالتسوية على الندب ، منهم مالك والليث والثورى والشافعى وأبو حنيفة وأصحابه ، وأجازوا أن يخص بعض بنيه دون بعض بالنحلة والعطية ، والتسوية أحب الى الجميع . ويرى البعض وجوب التسوية بينهم فى العطية ومن هؤلاء ابن المبارك وأحمد والظاهرية وبعض المالكية ، لظاهر بعض الالفاظ ولأن التسوية مقدمة الواجب لأن قطع الرحم والعقوق محرمان فما يؤدى اليهما يكون محرما ، والتفضيل مما يؤدى اليهما .

وسبب اختلاف الفقهاء فى حمل تلك الاحاديث على الوجوب أو على النـدب هو اختلاف الفاظها فقوله : فى هذا (فارجعه) وقوله فى الآخر : (أشهد على هذا غيرى)

(١٦) أخرج الحديث ابن أبى شيبة ، والطبرانى بلفظ « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » .

وفى آخر (أيسرك أن يكونوا فى البر سواء ؟) تدل على الندب ، وهناك الفاظ تؤذن بالوجوب مثل : (لا أشهد على جور) الا اذا حمل الجور على مجرد الميل لقرائن قائمة ، قال القاضى عياض : والجمع بين أحاديث الباب أولى من طرح بعضها ، ومن توهين الحديث بالاضطراب فى ألفاظه ، ووجه الجمع : أن تحمل كلها على الندب [١٧].

وأرى أنه يجوز أن يخص بعض ابنائه بشىء ، بشرط أن يكون سائر الاولاد راضين وأن التسوية أفضل ، والامر بها فى الحديث محمول على الندب ، وليس على الوجوب لجواز هبة المرء بعض ماله للغريب ، ومما يؤيد ذلك عمل الخليفتين أبى بكر وعمر بعد النبى ﷺ ، وبعدم التسوية ، أما أبو بكر فرواه الموطأ باسناد صحيح عن عائشة أن أبا بكر قال لها فى مرض موته : إنى كنت نحلتك نحلا فلو كنت اخترتيه لكان لك ، وانما هو اليوم للوارث ، وأما عمر فذكره الطحاوى وغيره أنه نحل ابنه عاصما دون سائر ولده ، وقد أجاب عروة عن قصة عائشة بأن إخوتها كانوا راضين بذلك ويجاب بمثل ذلك عن قصة عمر [١٨] .

٢ - وقال فى مصنفه : « حدثنا[١٩] ابن عيينة الزهرى عن عبيد اللّٰه عن أم قيس بنت محصن قالت : دخلت بابن على النبى ﷺ لم يأكل الطعام فبال عليه ، فدعا بماء فرشه .

حدثنا أبو الاحوص عن سماك عن قابوس بن المخارق عن لبابة بنت الحارث قالت : بال الحسين بن على على النبى ﷺ ، فقلت : أعطنى ثوبك والبس غيره فقال : « إنما ينضح من بول الذكر ، ويغسل من بول الانثى » .

حدثنا وكيع عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبى ﷺ أتى بصبى فبال عليه ، فأتبعه الماء ولم يغسله .

---

(١٧) النكت الطريفة ص ٢٢ للاستاذ محمد زاهد الكوثرى .

(١٨) فتح البارى جـ ٥ ص ١٣٢ .

(١٩) وممن أخرجه غير ابن أبى شيبة « البخارى » بنحوه ، من حديث أم قيس بنت محصن فتح البارى جـ ١ ٢٨١ وأخرجه مالك فى الموطأ ص ٤١ ، والترمذى جـ ١ ص ١٠٥ تحقيق أحمد شاكر ، والامام احمد فى المسند جـ ٦ ص ٣٥٥ ، وابن سعد فى الطبقات جـ ٨ ص ١٧٦ من طريق صالح بن كيسان عن الزهرى « وفيه فنضح عليه ولم يغسله » ورواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه والطيالسى . ورواه الحاكم وصححه عن أم الفضل بنت الحارث والبيهقى فى الشعب بنحوه وأقره المنذرى والذهبى وقال ابن حجر حديث حسن .

حدثنا وكيع عن ابن أبى ليلى عن جده أبى ليلى قال : كنا عند النبى ﷺ جلوسا فجاء الحسين بن على يحبو جلس على صدره ، فبال فابتدرنا لنأخذه ، فقال النبى ﷺ : « ابنى ابنى ثم دعا بماء فصبه عليه . وذكر ان أبا حنيفة قال بغسله » .

فنرى ان الامام ابا بكر بن أبى شيبة هنا قد اشار الى رأى أبى حنيفة فى المسألة وهو الغسل بعد أن أورد من الاحاديث ما يدل على الفرق بين بـول الأنثى حيث لا يكتفى بالنضح بل لابد من الغسل ، وبين بول الذكر حيث يكتفى بالنضح .

وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة مذاهب ، هى اوجه للشافعية :

الأول : وهو أصح المذاهب الاكتفاء بالنضح فى بول الصبى لا الجارية ، وهو قول على وعطاء والحسن والزهرى وأحمد واسحاق وابن وهب وغيرهم .

الثانى : ان يكتفى بالنضـح فى بول كـل من الصبى والجاريـة ، وهـو مـذهب الاوزاعى ، وحكى عن مالك والشافعى .

الثالث : ان بول كل من الصبى والجارية سواء فى وجوب الغسل وبهذا الرأى قال الحنفية والمالكية وقد ذكر العلامة ابن القيم وجه التفرقة بين بول الصبى والصبية فقال : « والفرق بين الصبى والصبية من ثلاثة اوجه : احدها : كثرة حمل الرجال والنساء للذكر فتعم البلوى ببوله فيشق غسله . والثانى : ان بوله لا ينزل فى مكان واحد بل ينزل متفرقا ههناو ههنا فيشق غسل ما أصابه كله بخلاف بول الانثى والثالث ان بول الانثى اخبث وانتن من بول الذكر وسببه حرارة الذكر ورطوبة الانثى فالحـرارة تخفف من نتن البول وتذيب منها ما لا يحصل مع الرطوبة[٢٠] « أ . هـ » .

واذا نظرنا الى ما ذكره ابن القيم من التفرقة بين بول الصبى والصبية ، نجد أنه ذكر الامور السابقة كأسباب من أجلها اكتفى بالنضح من بول الذكر ، والغسل من بول الأنثى وقبل مناقشة كلام ابن القيم فى ذلك ، والادلاء برأينا فى المسألة ، لابد من ذكر شرط هام فى ذلك وهو ألا يطعم الطبى الطعام . ففى الحديث ان أم قيس بنت محصن أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام كما رواه البخارى ، وكما روى ابن أبى شيبة أنها قالت : « دخلت بابن لى على النبى ﷺ لم يأكل الطعام » والمراد بالطعام هو ما عدا اللبن الذى يرتضعه ، والتمر الذى يحنك به ، وما يتعاطاه للمداواة بحيث لم يحصل له الغذاء بغير اللبن .

---

(٢٠) اعلام الموقعين جـ ٢ ص ٣١ .

ولنعد الى مناقشة كلام ابن القيم : أما ما ذكره أولا من كثرة حمل الرجال والنساء للذكر فليس حملهم للذكر عاما عند الجميع ، فالنفوس مختلفة الطبائع ، متباينة الأمزجة ، وميول الناس ليست متفقة فى ذلك وقد يحب البعض حمل الانثى اكثر من الذكر ، ولو كانت هذه العلة لاقتضى الامر الا يجب غسل ثياب النساء من بول الصبية لكون الابتلاء بذلك اشد فى حقهن لاختصاصهن بالحمل للاولاد . وأما ما ذكره من أن بول الانثى اخبث من بول الذكر فقد صدق هذا الطب نظرا لاشتمال بول الانثى على بعض الافرازات (٢١) واما ذكره من ان بول الصبى لا ينزل فى مكان واحد بل ينزل متفرقا ههنا وههنا فيشق غسل ما اصابه كله بخلاف بول الانثى ، فهذا السبب لا تختلف فيه ظروف الصبى فى كل مرة لتكوينه الخلقى ، وأيضا فقد اخرج الطحاوى عن ابن المسيب : « الرش من الرش والصب من الصب » يريد أن مخرج البول من الصبى ضيق فيكون بوله رشا فيكتفى فيه بالرش على موضع الاصابة ، ومن الصبية واسع فيكون بولها صبا فيصب فيه الماء على موضع الاصابة (٢٢) ، وعلى ذلك أرى ترجيح هذين السببين الاخيرين وهما خبث بول الانثى ونزول بول الصبى رشا متفرقا ، والله تعالى يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر .

وأما بالنسبة لمذاهب العلماء التى ذكرت وملخصها :

١ - النضح فى بول الذكر والانثى ٢ - الغسل منهما .

٣ - نضح بول الذكر وغسل بول الانثى .

فاننا نرجح المذهب القائل بالنضح فى بول الصبى والغسل من بول الصبية لورود الاحاديث الصريحة الصحيحة فى ذلك : ففى حديث البخارى : « فنضحه ولم يغسله » وفى حديث مالك : « فنضح عليه ولم يغسله » وهذا يرد قول من ذهب الى وجوب الغسل فيهما وفى الموطأ قال محمد : قد جاءت رخصة فى بول الغلام اذا كان لم يأكل الطعام وأمر بغسل بول الجارية وغسلهما جميعا أحب الينا وهو قول أبى حنيفة وحديث لبابة بنت الحرث عند أحمد وابى داود وابن ماجه مرفوعا : « انما ينضح من بول الذكر ويغسل من بول الانثى » وحديث ابى السمح عند أبى داود والنسائى وابن ماجه مرفوعا يغسل من بول الجارية ويرش من بول الغلام وهذا يرد فيقول من ذهب الى الاكتفاء بالنضح فيهما ، ولا مجال بعد هذا الى حمل البعض النضح والرش على الغسل ، أو حملهم « لم يغسله » على الغسل المبالغ فيه ، خاصة بعد وضوح الاحاديث السابقة .

---

(٢١) لأن بول الأنثى عند خروجه يكون مختلطا ببعض افرازات المهبل الملاصق لقناة مجرى البول . من الناحية الخلفية .

(٢٢) تبيين الحقائق شرح كنوز الدقائق للزيلعى جـ ١ ص ٦٩ ، النكت الطريفة للكوثرى ص ٤٨ .

٤ - أبو حاتم الرازى

نسبه ونشأته :

هو محمد بن ادريس بن المنذر بن داود بن مهران أبو حاتم الحنظلى الرّازى أحد الأئمة الحفاظ الاثبات العارفين بعلل الحديث والجرح والتعديل وهو قرين أبى زرعة .

ولد سنة خمس وتسعين ومائة ونشأ على نور العلم والمعرفة فسمـع الكثير وطـاف الاقطار وروى عن كثير من الائمة الكبار . جاء عنه أنه قال لابنه عبد الرحمن : يا بنى مشيت على قدمى فى طلب الحديث أكثر من ألف فرسخ[٢٣] .

وأبو حاتم من قرية جزء بأصبهان وكان محبا للعلم من صغره فأنفق جميع ما يملك فى سبيله وتحمل كثيرا من المشاق حتى حصل على طلبته قال عبد الله بن محمد بن يعقوب : سمعت أبا حاتم يقول : نحن من أهل أصبهان من قرية جزء وكان أهلنا يقدمون علينا فى حياة أبى ثم انقطعوا عنا وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم : (سمعت أبى يقول : أول سنة خرجت فى طلب الحديث أقمت سنين أحصيت ما مشيت على قدمى زيادة على الف فرسخ ثم تركت العدد بعد ذلك) [٢٤].

وقال : سمعت أبى يقول : بقيت بالبصرة فى سنة أربع عشرة ومائتين ثمانية أشهر وكان فى نفسى أن اقيم سنة فانقطعت نفقتى فجعلت أبيع ثيابى شيئا بعد شىء حتى بقيت بلا نفقة ومضيت أطوف مع صديق لى الى المشيخة واسمع منهم الى المساء فانصرف رفيقى ورجعت الى بيت خال فجعلت أشرب الماء من الجوع ثم أصبحت من الغد وغدا لى رفيقى فجعلت أطوف معه فى سماع الحديث على جوع شديد فانصرف عنى وانصرفت جائعا فلما كان الغدا على فقال : مر بنا على المشائخ فقلت أنا ضعيف لا يمكننى قال : وما ضعفك ؟؟ قلت : لا أكتمك امرى قد مضى يومان ما طعمت فيهما فقال لى رفيقى : معى دينار فأنا

(٢٣) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٢٠٧ تاريخ ابن كثير جـ ١١ ص ٥٩ معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٧٦ .

(٢٤) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٧ ص ٢٠٨ .

اواسيك بنصفه وتجعل النصف الآخر فى الكراء فخرجنا من البصرة فأخذت منه النصف دينار . كما عرف أبو حاتم بالعلم والورع وعرف الجميع فضله وتقواه وزهده فى الدنيا .

فلم يكن لها من سلطان عليه ، ولا سبيل الى نفسه ، يقول محمد بن هارون الرازى : انشدنا ابو حاتم الرازى :

تفكرت فى الدنيا فأبصرت رشدها وذللت بالتقوى من الله خدها
أسأت بها ظنا فاخلفت وعدها واصبحت مولاها وقد كنت عبدها (٢٥)

---

(٢٥) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٧٤ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٢١٠ .

حياته العلمية

وقد أجمع العلماء على علو شأنه فى الحديث وعلله ، وعده الحاكم من فقهاء الحديث ، وكان بارع الحفظ واسع الرحلة من اوعية العلم ، جاريا فى مضمار البخارى وأبى زرعة رحمة الله عليهم .

وكان عارفا بعلل الحديث والجرح والتعديل ، ومن الأئمة الرحالين ، رحل الى خراسان والعراق والحجاز واليمن والشام ومصر [٢٦] .

شيوخه وتلاميذه :

ومن شيوخ أبى حاتم الذين روى عنهم محمد بن عبد الله الانصارى ، وابو زيد النحوى وعثمان بن الهيثم المؤذن وهوذة بن خليفه وعبد الله موسى وعقاب بن زياد وأبو مسهر الدمشقى وأبو الجماهير محمد بن عثمان التنوخى وسعيد بن أبى مريم المصرى وأبو اليمان الحمصى ، وأمثالهم ، وكان أول كتبه الحديث سنة تسع ومائتين .

وروى عنه : يونس بن عبد الاعلى والربيع بن سليمان المصريان وهما اكبر منه سنا وأقدم سماعا ، وابو زرعة الرازى والدمشقى ، ومحمد بن عوف الحمصى ، وقدم بغداد وحدث بها وروى عنه من اهلها احمد منصور الرمادى ، وابراهيم بن اسحاق الحربى ، وقاسم بن زكريا المطرز ، وعبد الله بن محمد بن ناجية ، وأحمد بن اسحاق بن صالح ، وأبو بكر بن أبى الدنيا ، والقاضى المحاملى ومحمد بن مخلد الدروى والحسين بن يحيى بن عياش القطان وغيرهم .

وكانت حياة أبى حاتم العملية مكتملة التحصيل ممتلئة ، وحصل كل ما كان موجودا لديه يمكن الحصول عليه حتى بلغت ثقته بكثرة ما جمعه أن قال يوما : من أغرب على حديثا غريبا مسندا صحيحا لم أسمع به فله على درهم يتصدق به . . . ثم يفسر مقصد مقالته فيقول « ومرادى ان يلقى على ما لم اسمع به ليقولوا هو عند فلان فأذهب فأسمع ، وكان

(٢٦) مرآة الجنان جـ ٢ ص ١٩٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٧٧ .

مرادى كذلك أن استخرج منهم ما ليس عندى فما تهيأ لاحد منهم ان يغرب على حديثا » ويمكن أن نستنتج من هذا الخبر ان ابا حاتم قد حصل وحفظ كل حديث مسند صحيح فى زمنه وانه لم يكن موجودا بينهم من احاط بشيء أكثر منه ، وقال احمد بن سلمة : ما رأيت بعد اسحاق بن راهويه ومحمد بن يحيى احفظ للحديث ، ولا أعلم بمعانيه من أبي حاتم محمد بن ادريس وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : سمعت يونس بن عبد الاعلى يقول : أبو زرعة وأبو حاتم اماما خراسان ودعا لهما ، وقال : بقاؤهما صلاح للمسلمين ، وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : سمعت موسى بن اسحاق يقول : ما رأيت أحفظ من أبيك ، وقال عبد الرحمن بن شعيب النسائى : محمد بن ادريس ابو حاتم الرازى ثقة : وقال هبة الله بن الحسن الطبرى : كان ابو حاتم الرازى اماما عالما بالحديث حافظا له متقنا متثبتا .

وهذه الشهادات والآراء تنبىء عن مكانته العلمية ، ومدى فضله ومنزلته التى كان عليها فى الثقة والحفظ والاتقان ، وسعة احاطته بمعرفة الحديث وتمكنه ورسوخ قدمه .

وقد رسم أبو حاتم منهجه فى الاشتغال بالعلم تدوينا وحفظا ومذاكرة ، قال ابن ابى حاتم الرازى : سمعت أبي يقول : « اكتب احسن ما تسمع ، واحفظ أحسن ما تكتب ، وذاكر بأحسن ما تحفظ » وفى هذه العبارة الموجزة وضع ابو حاتم كيفية تدوين العلم وهى ان يتحرى كتابة اصح ما يسمع ، وحفظ أحسن ما يكتب وأن يذاكر ويدرس للناس بأحسن ما يحفظ وذلك ليكون آكد فى التثبيت وأجدى فى المعرفة وقد ذكر كتاب التراجم أن لابى حاتم كتاب « طبقات التابعين » .

وأبو حاتم من اقران البخارى ومسلم ، وتوفى بالرى سنة خمس أو سبع وسبعين ومائتين قال ابو نعيم : سمعت ابا محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان يقول : سمعت احمد بن محمود بن صبيح يقول : سنة سبع وسبعين ومائتين فيها مات ابو حاتم الرازى بالرى ، وقيل فى شهر شعبان من السنة السابقة[٢٧] .

(٢٧) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٧٦ ، مرآة الجنان جـ ٢ ص ١٩٢ .

مهارة أبى حاتم فى معرفة صحيح الحديث وسقيمه

كان الامام ابو حاتم الرازى ماهرا فى معرفة الصحيح والسقيم من الحديث ، وقد رزقه الله تعالى موهبة نادرة ، وعلما وافرا . فكان شديد الملاحظة ، قوى الذاكرة سريع المعرفة والتمييز لصحيح الاخبار من سقيمها .

جاءه أحد اصحاب الرأى ومعه بعض الاحاديث التى دونها فى دفتره ، فلما عرضها على أبى حاتم قال فى بعضها : هذا حديث خطأ قد دخل لصاحبه حديث فى حديث وقال فى غيره : هذا حديث باطل وقال فى آخر : هذا حديث منكر وقال فى بعض آخر : هـذا حديث كذب وسائر ذلك أحاديث صحاح ، فقال له الرجال من اين علمت ان هذا خطأ وان هذا باطل وأن هذا كذب ؟ اخبرك راوى هذا الكتاب بـأنى غلطت وأنى كذبت فى حديث كذا ؟ فقال : لا ، ما ادرى هذا الجزء من رواية من هو ؟ غير أنى أعلم ان هذا الحديث خطأ ، وأن هذا الحديث باطل وأن هذا الحديث كذب فقال : تدعى الغيب ؟ فأجابه ابو حاتم قائلا : ما هذا ادعاء الغيب . ثم وجهه أبو حاتم الى من يحسن معرفة هذا الفن ، وهو الامام ابو زرعة ، ليتثبت الرجل من حكم أبى حاتم ، ويضم الى علم علم أبى زرعة كذلك ، فأخذ الرجل الاحاديث وتوجه الى الامام أبى زرعة ولما عاد الى أبى حاتم - وقد كتب ما تكلم به أبو زرعة فى تلك الاحاديث رأى ان ما قال فيه أبو حاتم : انه باطل قال فيه أبو زرعة : هو كذب ، وما قال فيه أبو حاتم : انه كذب قال فيه ابو زرعة : هو باطل ، قال ابو حاتم : « الكذب والباطل واحد » . حووجد ما قال فيه ابو حاتم منكر قال : هو منكر ، وما قال أنه صحاح قال ابو زرعة صحاح .

فقال الرجل : ما اعجب هذا ! تتفقان من غير مواطأة فيما بينكما . فقال ابو حاتم : انا لم نجازف وانما قلناه بعلم ومعرفة قد اوتيناه ، والدليل على صحة ما نقوله بأن دينارا بهرجا يحمل الى الناقد فيقول هذا دينار بهرج ، ويقول لدينار : هو جيد ، فان قيل له : من أين قلت أن هذا بهرج هل كنت حاضرا حين بهرج هذا الدينار ؟ قال : لا ، فان قيل له : فاخبرك الرجل الذى بهرجه انى بهرجت هذا الدينار ؟ قال : لا قيل : فمن أين قلت ان هذا بهرج ؟ قال : علما رزقت ، وكذلك نحن رزقنا معرفة ذلك . ثم قال ابو حاتم : « فتحمل فص ياقوت الى واحد من البصراء من الجوهريين فيقول : هذا زجاج ، ويقول

لمثله : هذا ياقوت ، فان قيل له من آين علمت ان هذا زجاج وان هذا ياقوت ؟ هل حضرت الموضع الذى صنع فيه هذا الزجاج ، قال لا ، قيل له : فهل اعلمك الذى صاغه بأنه صاغ هذا زجاجا ؟ قال : لا ، قال : فمن اين علمت ؟ قال : هذا علم رزقت وكذلك نحن رزقنا علما لا يتهيأ لنا ان نخبرك كيف علمنا بأن هذا الحديث كذب وهذا حديث منكر الا بما نعرفه [٢٨] .

وهكذا ترى ان الامام ابا حاتم الرازى كان على جانب عظيم من العلم الذى ألهمه اللّٰه تعالى إياه ، وتضلع فيه ، بحيث أصبح تمييز الصحيح من السقيم لديه أمرا يدركه لأول وهلة ، فهو يرى للحديث الصحيح ضوءا كضوء النهار ، يعرفه به ، ويرى للحديث السقيم ظلمة كظلمة الليل ينكره بها ، وينفر قلبه منه .

وكما قال البلقينى : « وشاهد هذا أن انسانا لو خدم انسانا سنين وعرف ما يحب وما يكره فادعى انسان أنه كان يكره شيئا يعلم ذلك انه يحبه ، فبمجرد سماعه يبادر الى تكذيبه »[٢٩] .

فمعرفة أبى حاتم الصحيح من السقيم معرفة الناقد الخبير ، له فى ذلك علم واسع وملكة قوية ، ومقاييس سليمة دقيقة ، وكما تعرف جودة الدينار بالقياس الى غيره فإن تخلف عنه فى الحمرة والصفاء ، وباقى الصفات علم أنه مغشوش ، كذلك يقاس صحة الحديث بعدالة ناقليه وان يكون كلاما يصلح ان يكون من كلام النبوة ، ويعلم سقمه وانكاره بتفرد من لم تصح عدالته بروايته[٣٠] كما قال بعض العلماء .

---

(٢٨) تقدمه الجرح والتعديل ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .
(٢٩) الباعث الحثيث لابن كثير تعليق الشيخ أحمد شاكر ص ٨٣ .
(٣٠) تقدمة الجرح والتديل ص ٣٥١ .

٥ - اسحاق بن راهويه

نسبته ونشأته :

هو أبو يعقوب اسحاق بن أبى الحسن ابراهيم بن مخلد بن ابراهيم ابن عيد اللّه بن مطر بن عبيد اللّه ابن غالب بن عبد الوارث بن عبيد اللّه بن عطية بن مرة بن كعب بن همام أبن اسد بن مرة بن عمرو بن حنظلة بن مالك ينسب اليه بطن من تميم ، والمروزى نسبة الى مرو وزيدت الزاى فى النسب للفرق بينه وبين المروى . ولقب أبوه براهويه ، لانه ولد فى طريق مكة ، والطريق بالفارسية (راه وويه) ومعناه وجد فكأنه وجد فى الطريق ، قال أحمد بن سلمه : سمعت اسحاق بن ابراهيم يقول : قال لى عبد اللّه بن طاهر : لم قيل لك ابن راهويه ؟ وما معنى هذا ؟ وهل تكره ان يقال لك هذا ؟ قال : اعلم ايها الامير أن ابى ولد فى طريق فقال المراوزة : راهوى ، لانه ولد فى الطريق وكان أبى يكره هذا وأما أنا فلست أكرهه . وهذا يؤيد السبب فى اطلاق هذا اللقب عليه ، وهو ولادته فى الطريق .

وقد ذكر ابن خلكان فى تاريخ مولده ثلاثة آراء : الاول : سنة احدى وستين ومائة ، والثانى : سنة ثلاث وستين ومائة ، والثالث : سنة ست وستين ومائة .

وأرجح انه ولد سنة احدى وستين ومائة ، ومما يؤكد ذلك ، ما قاله أبو يزيد محمد بن يحيى بن خالد وهو أنه مات ليلة الخميس سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، وهو ابن سبع وسبعين سنة ، وهذا يرجح ان مولده كان فى سنة احدى وستين ومائة ، وقد ولد اسحاق بن راهويه مثقوب الاذنين[٣١] فمضى به ابوه الى الفضل بن موسى فسأله عن ذلك فقال : « يكون ابنك رأسا إما فى الخير وإما فى الشر » وقد شاء اللّه لاسحاق أن يكون رأسا فى الخير ، فأصبح أحد أئمة المسلمين ، وعلما من اعلام الدين فكان عالما عاملا ، جمع بين الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد .

وقد عرف أصحاب الحديث فى زمنه مكانته وفضله ، بل وعرف له ذلك الامراء ، وكانوا يعتقدون فيه اعتقادا حسنا ، لما كان معروفا به من الصلاح وصيانة العلم ، ويدلنا

---

(٣١) وفيات الاعيان جـ ١ ص ٨٠ الرسالة المستطرفة ص ٦٥ ، مرآة الجنان جـ ٢ ص ١٢١ وتاريخ بغداد جـ ٦ ص ٣٤٥ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٨٥ .

على ذلك ما رواه ابن عدى قال : ركب اسحاق بن راهويه دين ، فخرج من مرو ، وجاء نيسابور ، فكلم أصحاب الحديث يحيى بن يحيى فى امر اسحاق ، فقال : ما تريدون ؟ قالوا : تكتب الى عبد اللّه بن طاهر رقعة ، وكان عبد اللّه امير خراسان ، وكان بنيسابور ، فقال يحيى : ما كتبت اليه قط ، فألحوا عليه فكتب فى رقعة الى عبد اللّه بن طاهر : أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم رجل من أهل العلم والصلاح . فحمل اسحاق الرقعة الى عبد اللّه بن طاهر ، فلما جاء الى الباب ، قال للحاجب : معى رقعة يحيى بن يحيى الى الأمير ، فقال : يحيى بن يحيى ؟ قال : نعم ، قال : أدخله فدخل اسحاق وناوله الرقعة فاخذها عبد اللّه وقبلها ، واقعد اسحاق بجانبه ، وقضى دينه ثلاثين الف درهم ، وصيره من ندمائه .

ويقول ابن السبكى معلقا على ذلك : « انظر ما كان أعظم اهل العلم عند الامراء ، وانظر ما أدنى هذه الكلمة واقصر هذه الرقعة ، وما ترتب عليها من الخير ، وما ذلك الا لحسن اعتقاد ذلك الامير وصيانة أهل العلم » .

وقال محمد بن عبد الوهاب : « كنت مع يحيى بن يحيى واسحاق نعود مريضا ، فلما جاذبنا الباب تأخر اسحاق ، وقال ليحيى : تقدم ، فقال يحيى لاسحاق : بل انت تقدم ، فقال يا أبا زكريا أنت اكبر منى قال : نعم ، انا اكبر منك ، ولكنك أعلم منى ، قال : فتقدم اسحاق »[٣٢] .

وفى هذه الرواية ما يدل على ما كان عليه اسحاق من منزلة عظيمة فى نفس يحيى بن يحيى وغيره كما يدل على التقدير والاجلال للعلماء ، وان مقياس التقدم والافضلية انما هو العلم لاسيما العلم المصحوب بالعمل .

---

(٣٢) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ .

وقد عاش ابن راهويه حياته العلمية جامعا بين الفقه والحديث والورع والتقوى ، وكان يسمع قبل رحلته فى طلب العلم ـ من ابن المبارك ومن الفضل الشيبانى ، والنضر بن شميل ، وأبى نميلة يحيى بن واضح وعمر بن هارون . وابتدأ رحلته العلمية سنة أربع وثمانين ومائة وهو ابن ثلاث وعشرين سنة فرحل الى العراق والحجاز والشام واليمن [٣٣] وقد ورد بغداد غير مرة وجالس حفاظ أهلها ، وذاكرهم وعاد الى خراسـان فاستـوطن نيسابور إلى أن توفى بها وانتشر علمه عند الخراسانيين .

شيوخه وتلاميذه :

وقد سمع من جرير بن عبد الحميد ، وسفيان بن عيينه ، وعبد العزيز الدراوردى وفضيل بن عياض ومعتمر بن سليمان وإسماعيل بن علية ، وبقية بن الوليد وحفص بن غياث وعبد الرحمن بن مهدى ، وعبد الوهاب الثقفى ، والوليد بن مسلم ، وعبد العزيز ابن عبد الصمد ، وأسباط بن محمد وحـاتم بن إسماعيـل ، وعتاب بن بشـير الجزرى وعبد الرزاق بن همام ، وأبى بكر بن عياش وغيرهم .

وروى عنـه : البخارى ومسلم وأبـو داود والترمـذى والنسـائى ويحيى بن نصـر المروزى ، واحمد بن سلمة ، وابنه محمد بن اسحاق بن راهويه وخلق سواهم ، آخرهم أبو العباسى السراج ، وروى عنه من قدماء شيوخه يحيى بن آدم وبقية بن الوليد [٣٤] وهذا يدل على تضلعه فى العلم ورسوخ قدمه ويشهـد له بمكـانته العلميـة فى نفوس شيـوخه وتلاميذه .

حفظه واتقانه :

وكان ابن راهويـه يحفظ سبعين الف حـديث ، ويذاكـر الف حديث ، وقـال : ما سمعت شيئا قط الا حفظته ، ولا حفظت شيئا فنسيته .

---

(٣٣) تـاريخ بغـداد جـ ٦ ص ٣٤٥ ، وفيات الاعيـان جـ ١ ص ٨٠ ، طبقات الشـافعيـة جـ ٢ ص ٨٤ .

(٣٤) طبقات الشافعية جـ ٢ ص ٨٤ ، تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٣٤٥ .

وهذا يدل على عقلية لماحة ، وذاكرة حافظة واعية .

وقد بلغ ابن راهويه فى الحفظ والاتقان درجة عالية ، وكان مجموع الاحاديث التى استوعبها فى الكتب يعرف مكانها كأنه ينظر اليها ، وما يحفظه منها يحفظه عن ظهر قلبه ، بل إنه حفظ أربعة الاف حديث مزورة ، ليستطيع التمييز بينها وبين الصحيح ، وقد وردت اقوال وآراء للعلماء توضح مدى حفظه واتقانه ، وتشهد له بالثقة والصدق والعلم والامامة .

قال الدارمى : « ساد اسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه » فهذه شهادة من الدرامى بصدق اسحاق ، وسيادته اهل المشرق والمغرب بسبب صدقه . وقال مرة وقد سئل عن اسحاق : مثل اسحاق تسأل عنه ؟ اسحاق عندنا امام[٣٥] .

وهذه شهادة اخرى بامامته ، وأنه بلغ درجة لا يسأل عنه فيها : وقال أبو يزيد محمد ابن يحيى بن خالد : سمعت اسحاق بن ابراهيم الحنظلى يقول : « اعرف مكان مائة الف حديث كأنى انظر اليها ، واحفظ سبعين الف حديث عن ظهر قلبى ، واحفظ أربعة الاف حديث مزورة ، فقيل له : ما معنى حفظ المزورة ؟ قال : اذا مر بى حديث فى الأحاديث الصحيحة فليته منها فليا »[٣٦] . وقال أحمد بن سلمة : سمعت أبا حاتم محمد بن ادريس الرازى يقول : « ذكرت لابى زرعة اسحاق بن ابراهيم الحنظلى وحفظه للأسانيد والمتون ، فقال أبو زرعة : ما رؤى احفظ من اسحاق قال ابو حاتم : « والعجب من اتقانه وسلامته من الغلط مع ما رزق من الحفظ » وقال أبو داود الخفاف : « أملى علينا اسحاق بن راهويه أحد عشر الف حديث من حفظه ثم قرأها علينا فما زاد حرفا ولا نقص حرفا »[٣٧] .

فأية مكانة تلك التى كان عليها اسحاق بن راهويه ؟ هذا الامام الحافظ الثقة الصدوق الذى عرف فضله القاصى والدانى ، وشهد له كبار الأئمة ، وروى عنه بعض شيوخه .

إنها اذا مكانة جليلة ، وهبة من اللّه تعالى عظيمة ، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء .

---

(٣٥) مرآة الجنان جـ ٢ ص ١٢٢ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٦٨ .
(٣٦) تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٣٥٢ .
(٣٧) تذكرة الحفاظ للذهبى جـ ٢ ص ٤٣٤ ، تاريخ بغداد ص ٣٥٣ ، ص ٣٥٤ .

بين الشافعى واسحاق :

ذكر الدار قطنى اسحاق فيمن روى عن الشافعى رضى اللّٰه عنه ، وعده البيهقى فى أصحاب الشافعى ، وكان اسحاق بن راهويه قد ناظر الشافعى فى مسألة كراء بيوت أهل مكة كما ناظره فى جلود الميتة اذا دبغت ، وقد رجع اسحاق الى حكم الشافعى بعد نهاية المناظرة وأفتى به وهو أن دباغها طهورها(٣٨) .

وقد لازم ابن راهويه الشافعى وأعجب به واتبع مذهبه . وهذا الموقف يرينا أريحية نفسه وحبه للعلم ورجوعه الى الحق . وهذا شأن المخلصين والباحثين عن الحقيقة .

ابن قتيبة واسحاق :

وقد تأثر ابن قتيبة بأستاذه اسحاق بن راهويه فى عنايته بالحديث واشتغاله به ، كما تأثر به فى تفسير القرآن الكريم . وكان ابن قتيبة يلتقى باسحاق فى نيسابور وبغداد واخذ عنه علوم الدين ، كما تأثر به فى الورع والسلوك الحميد ، فقد بث فيه من أخلاقه وسجاياه الطيبة الكثيرة ، ونلاحظ توافق ابن قتيبة واسحاق ، وتقارب الاتجاهين فى الدفاع عن الحديث حيث ان اسحاق قدم للحديث مجهودا ضخما فقام بتنقيته من الدخيل عليه ، وتجريده من مسائل الفقه والتفسير .

البخارى واسحاق :

وممن تأثر باسحاق تأثرا كبيرا الامام البخارى الذى استفاد من المجهودات الضخمة التى قام بها اسحاق من النظر فى الاحاديث ونقدها متنا واسنادا وتصحيحها ، وترتيب انواع الحديث فمهد بهذا العمل الطريق للبخارى الذى سار على نهجه فى التأليف والنقد ، والف البخارى كتابه الجليل « الجامع الصحيح » بمشورة استاذه ابن راهويه قال ابو عبد اللّٰه محمد ابن اسماعيل البخارى : « كنا عند اسحاق بن راهويه فقال : لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول اللّٰه ﷺ ؟ قال : فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع الجامع الصحيح »(٣٩). وبهذا يتضح ما كان للبخارى من منزلة عند استاذه الذى كان يعرف فيه مقدرته على هذا العمل العظيم ، ويأنس فيه الكفاءة الممتازة .

---

(٣٨) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ١٩ وما بعدها .

(٣٩) هدى السارى لابن حجر ص ٥ .

ويلاحظ أن البخارى واسحاق تشابها فى المنهج العلمى الذى سار عليه كل منهما فى الدفاع عن الحديث وتصفيته والقيام بنقد السند والمتن واستنباط الاحكام الفقهية دون اكثار من الرأى فيه .

اسحاق وأهل الرأى :

وكان اسحاق يذكر أصحاب الرأى ، ويظهر بغضه لهم لشذوذ أقاويلهم وينبه على بعض منها ، وكان يقول : نبذوا كتاب الله تعالى ، وسنن رسوله ﷺ ، ولزموا القياس [٤٠] وكان يرى ان اهل الرأى يؤولون الاحاديث تأويلا لا يقره العقل . ويلقى التبعة فى ذلك على أتباع مذهب ابى حنيفة ، ممن جاء بعده من اهل النظر والقياس بانهم الذين يحملون اوزار ما أوجدوه ، ولا شك ان رأى الامام أبى حنيفة برىء من ذلك ، وكان ابن قتيبة يطلق على هؤلاء الأتباع اسم العصابة[٤١] .

مصنفاتـه :

ومن مصنفات ابن راهويه :

١ ـ كتاب المسند « ويوجد الجزء الرابع منه فى دار الكتب المصرية » « مخطوطا » تحت رقم (٤٥٤ حديث) وأصل الكتاب ستة مجلدات ، ومن رواته : أبو محمد عبد الله ابن محمد النيسابورى . وهو مرتب على أسماء الصحابة ، وقد ذكر ابو زرعة الرازى : انه يخرج فيه امثل ما ورد من احاديث الصحابة « والامثل ليس بلازم أن يكون صحيحا بل انما يكون افضل مما تركه ، ولهذا وقع فيه الضعيف كما وقع فى غيره »[٤٢] .

---

(٤٠) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٦٥ .

(٤١) البخارى محدثا وفقيها للدكتور الحسينى هاشم ص ٤٩ .

(٤٢) ألفية السيوطى بتعليقات الاستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد .

٦ - ابن خزيمة

نسبه ونشأته :

هو محمد بن اسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر امام الائمة ابو بكر السلمى النيسابورى ولد فى صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وعنى منذ حداثته بالحديث وسمعه فى صغره بنيسابور ، ونشأ منذ طلبه العلم يستلهم الجانب الروحى . قيل لابن خزيمة يوما : من اين اوتيت العلم ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « ماء زمزم لما شرب له » وإنى لما شربت ماء زمزم سألت الله علما نافعا(٤٣) وكان يقوم بالسنة تطبيقا وعملا ، فعاش زاهدا ورعا ، استمد قدوته الحسنة من الرسول ﷺ فهو يحب التيامن فى كل شىء تأسيا بالنبى ﷺ ، قال الحاكم : سمعت ابا عمرو بن اسماعيل يقول : كنت فى مجلس ابن خزيمة فاستمد مدة فناولته بيسارى اذ كانت يمينى قد اسودت من الكتابة ، فلم يأخذ الطلب وامسك ، فقال لى بعض اصحابه لو ناولت الشيخ بيمينك فأخذت القلم بيمينى ، فناولته فاخذ منى . فنرى هنا أن ابن خزيمة قد امسك ان يأخذ القلم من يسار ابى عمرو بن اسماعيل لانه يحب التيامن فى كل شىء ولئن كان هذا الامر هينا ، الا أنه بالنسبة لابن خزيمة عظيم لأنه يقتدى فى كل شىء بصاحب السنة عليه الصلاة والسلام ، ولقد تنبأ له معاصروه بالمكانة العلمية الجليلة وباحيائه لسنة النبى صلوات الله وسلامه عليه . قال ابو بشر القطان : رأى جار لابن خزيمة من اهل العلم كأن لوحا عليه صورة نبينا محمد ﷺ وابن خزيمة يصقله فقال المعبر : هذا رجل يحيى سنة رسول الله ﷺ (٤٤) .

ومن صفات ابن خزيمة ومحامده التى تحلت نشأته بها أنه كان جوادا ، بلغ فى الكرم درجة عالية فلم يدخر شيئا وكان ينفق على أهل العلم والفقراء .

حياته العلمية

كانت حياة ابن خزيمة العلمية تتسم بطابع الجد والاجتهاد وكانت ثروته العلمية الهائلة موردا للقريب والبعيد وهو قبلة للعلماء والعلم الذى يأتم به الهداة المخلصون .

---

(٤٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣١١ .

(٤٤) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٣ ص ١١٠ ، ١١١ ، ١١٨ .

كـالبـحر يقـذف للغـريب لآلئـا .. كرما ويـبعث للقـريـب سحائبـا

شيوخه وتلاميذه :

سمع من شيوخ كثيرين منهم : اسحاق بن راهويه ، ومحمد بن حميد الرازى . ولم يحدث عنهما لكونه سمع منهما فى الصغر ، ولكن حدث عن محمود بن غيلان ، ومحمد بن أبان المستملى واسحاق بن موسى الخطمى وعتبة بن عبد الله المحمدى وعلى بن حجر وأبى قدامه السرفسى وأحمد بن منيع وبشر بن معاذ وابى كريب وعبد الجبار بن العلاء ويونس بن عبد الاعلى ومحمد بن اسلم الزاهد والزعفرانى ، وهصر بن على الجهضمى ، وعلى ابن خشرم وغيرهم .

وفى سبيل تحصيل العلم وتدوين الحديث النبوى عن الشيوخ قام ابن خزيمة برحلات علمية الى الرى وبغداد والبصرة والكوفة والشام والجزيرة ومصر وواسط . **وقد روى عنه** من الأئمة الكبار للبخارى ومسلم خارج الصحيح ومحمد بن عبـد اللّه بن عبد الحكم شيخه وابو عمرو وأحمد بن المبارك والمستملى وابراهيم بن أبى طالب . وهؤلاء أكبر منه ، ويحيى بن محمد بن صاعد وابو على النيسابورى واسحاق بن سعد النسوى وابو عمرو بن ضدان ، وأبو حامد أحمد بن محمد بالويه وابو بكر احمد بن مهران المغرى ومحمد بن احمد بن على بن نصير العدل وحفيده محمد بن الفضل بن محمد بن اسحاق وخلائق [٤٥] .

ضبطه وتحريه :

وكان ابن خزيمة شديد التحرى والضبط للحديث حتى ليتوقف فى التصحيح لأدنى كلام يقال فى الاسناد ، روى الحاكم عن ابن العباس بن شريح أنه قال فيه انه يخرج النكت من حديث رسول اللّه ﷺ بالمنقاش وهذا كناية عن دقته الفائقة فى الاستنباط وتحريه الشديد فى فقه الحديث . وكان متقنا فى هذه الناحيـة وهى حفظ الفقهيات من حـديثه ـ غـاية الاتقان ، قال ابو على الحافظ كان ابن خزيمة يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القارىء السورة كما كان حافظا للسند والمتن حفظا جيدا ، قال ابن حبان لم ار مثل ابن خزيمة فى حفظ الاسناد والمتن[٤٦] فهو إذًا قـد جمع بـين حفظ السند والمتن وحفظ الفقهيـات من الاحاديث وانها لمقدرة فذة استحق بها ان يلقب بامام الأئمة . وقال ابو بكر بن بالويـه

---

(٤٥) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٣ ص ١١٠ .

(٤٦) مرآة الجنان لليافعى جـ ٢ ص ٢٦٤ .

سمعت ابن خزيمة يقول : كنت عند الامير اسماعيل بن محمد فحدث عن أبيه بحديث وهم فى اسناده فرددته عليه فلما خرجت من عنده قال أبو ذر القاضى : قد كنا نعرف أن هذا الحديث خطأ منذ عشرين سنة فلم يقدر واحد منا ان يرده عليه ، فقلت له : لا يحل ان اسمع حديثا لرسول الله ﷺ فيه خطأ او تحريف فلا ارد . وكانت معرفته فائقة بمختلف الحديث روى عنه أنه قال : لا اعرف انه روى عن النبى ﷺ حديثا باسنادين صحيحين متضادين فمن كان عنده فليأتى لأؤلف بينهما(٤٧) .

قال الحاكم فى كتابه علوم الحديث ان مصنفاته تزيد على مائة واربعين كتابا سوى المسائل . والمسائل المصنفة مائة جزء وله فقه بريرة فى ثلاثة اجزاء وكتابه الصحيح وهو اجل الكتب وانفعها ومن مؤلفاته كتاب التوحيد واثبات صفات الرب وكتاب الفقه . وهكذا كانت مؤلفاته وعلمه فقد بلغ رتبة الاجتهاد وان كان يذكره المؤلفون فى طبقات الشافعية شافعيا روى عنه انه قال :

ما قلدت احدا منذ بلغت ستة عشر . وكان يرى رأى السلف فى الصفات والقرآن وإن كان لم يسلم من تقول المفترين عليه وقد كذبهم فيما يدعون عليه (٤٨) .

وقد نسب إليه المشبهة والملاحدة امورا هو منها برىء وذلك واضح فى كتبه وفى كلامه . قال ابو عاصم : قال ابن خزيمة فى معنى قوله ﷺ : « ان الله خلق آدم على صورته » فيه سبب وهو أن النبى ﷺ رأى رجلا يضرب وجه رجل ، فقال : « لا تضرب على وجهه فان الله تعالى خلق آدم على صورته » وكون الضمير عائدا على رجل مضروب قاله غير ابن خزيمة ايضا ،ولكنه من ابن خزيمة شاهد صحيح على انه برىء عما ينسب اليه المشبهة وتفتريه عليه الملاحدة(٤٩) . ولقد كان فى كل حياته لا يصدر الا عن عبادة سليمة ، وتقوى من الله يستلهم الجانب الروحى فى كل شئونه ، قال ابو عثمان الحيرى : حدثنا ابن خزيمة قال : كنت اذا اردت ان اصنف الشىء دخلت فى الصلاة مستخيرا حتى يقع لى فيها ، فهو إذن كان على جانب كبير من الصلاح والورع مما دفع ابا عثمان الزاهد الى القول فيه « ان الله يدفع البلاء عن اهل نيسابور بابن خزيمة » وبعد حياة حافلة ممتلئة توفى إمام الأئمة ابن خزيمة سنة احدى عشر وثلاثمائة(٥٠) .

---

(٤٧) طبقات الشافعية جـ ٣ ص ١١٠ ، مقدمة ابن الصلاح ص ١١٦ .
(٤٨) تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ٢٦٤ ، اعلام المحدثين ص ٢٩٩ للدكتور محمد أبى شهبة .
(٤٩) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٣ ص ١١٩ .
(٥٠) مرآة الجنان جـ ٢ ص ٢٦٤ ، مقدمة تحفة الأحوذى جـ ١ ص ١٥٠ .

٧ - أبو زرعة الرازى

نسبه ونشأته :

هو الحافظ عبد اللّٰه بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ القرشى مولاهم الرازى ، منسوب الى الرى بزيادة الزاى ، مدينة مشهورة من أمهات البلاد .

وولد أبو زرعة سنة مائتين بالرى [٥١] .

وقد نشأ أبو زرعة محبا للعلم ، معروفا بالحفظ والورع ، شهد له الكثيرون بالتفوق على أقرانه ، وكان فى شبيبته اذا اجتمع بأحمد بن حنبل اقتصر على الصلوات المكتوبات ، ولا يفعل المندوبات اكتفاء بمذاكرته ، وهذا من أكبر الشواهد على إتقانه وحفظه وضبطه .

وكان معروفا منذ صغره بعقلية علمية نادرة ، وذكاء منقطع النظير ، روى فى معرفة علوم الحديث لما انصرف قتيبة بن سعيد الى الرى سألوه أن يحدثهم فامتنع وقال : احدثكم بعد أن أحضر مجلس أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، وعلى بن المدينى وأبو بكر بن أبى شيبة وأبو خيثمة ، فقالوا له : ان عندنا غلاما يسرد كل ما حدثت به مجلسا مجلسا . قم يا أبا زرعة ، فسرد كل ما حدث به قتيبة فحدثهم به . وعده الحاكم من فقهاء الحديث ، وكان متواضعا ورعا شهد له العلماء بكثرة التواضع ، قال يونس بن عبد الاعلى : « ما رأيت أكثر تواضعا من ابى زرعة » كما كان معروفا بزهده ، قال فيه أبو حاتم « ما خلف أبو زرعة بعده مثله ، ولا أعلم من كان يفهم هذا الشأن مثله وقل من رأيت فى زهده » [٥٢] .

وهكذا يشهد له العلماء والائمة بالنشاة المثالية الراشدة ، التى اتسم فيها بالدرجة العالية فى الحفظ والاتقان ، والزهد والتواضع .

---

(٥١) الرسالة المستطرفة ص ٦٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٨ .
(٥٢) معرفة علوم الحديث ص ٥ ، تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ٥٥٧ .

حياته العلمية :

كان أبو زرعة أحد الأئمة الاعلام ، شهد له العلماء بالصدق والحفظ والضبط ، قيل : كان يحفظ سبعمائة الف حديث ، وقد رحل أبو زرعة وسمع من أبي نعيم والقعنبى وطبقتهما وقال اسحاق بن راهويه : « كل حديث لا يحفظه أبو زرعة ليس له أصل » وهذا القول على ما فيه من المبالغة يعطينا صورة عظيمة على ما كان عليه أبو زرعـة من درجة عظيمة فى الحفظ .

شيوخه وتلاميذه :

سمع أبو زرعة من شيوخ كثيرين ، منهم أبو نعيم وقبيصـة بن عقبة وخـلاد بن يحيى ، ومسلم بن ابراهيم ، والقعنبى وأبو ثابت المدنى وغيرهم .

ورحل الى العراق والشام والجزيرة وخراسان ومصر ، وكان من الحفاظ المتقنـين والمخلصين الزاهدين .

وروى عنـه :

مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه واسحاق بن موسى الانصارى وحرملة بن يحيى والربيع بن سليمان ومحمد بن سعيد الرازى وعمرو بن على ويونس بن عبد الاعلى وهم من شيوخه . وأبو حاتم وأبو زرعة الدمشقى وابراهيم الحربى وهم من اقرانه وسعيد بن عمرو الاوزاعى وصالح بن محمد جزرة وعبد الله بن أحمد وعبد الرحمن بن أبي حاتم وابن أخيه أبو القاسم بن محمد بن عبد الكريم وأبو عوانة الاسفراييني وغيرهم [٥٣] .

حفظه واتقانـه :

ولمكانة أبي زرعة الجليلة فى العلم كان الامام احمد بن حنبل يحرص على مذاكرته أكثر من نوافله قال عبد الله بن أحمد بن حنبل نزل أبو زرعة عندنا ، فقال لى ابى يا بنى قد اعتضت عن نوافلى بمذاكرة هذا الشيخ[٥٤] ومعنى ذلك أنه كان يغتنم مجالس أبي زرعة

(٥٣) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٣١ ، مرآة الجنان جـ ٢ ص ١٧٦ .
(٥٤) مقدمة تحفة الاحوذى جـ ١ ص ٤٦٦ .

لكثرة علمه وثقته فيه ، وهو يعلم أن ثواب مجالس العلم أكثر من النوافل ، وليس معنى هذا تهاون ابن حنبل فى شأن النوافل فان ذلك كان فى بعض الاوقات الخاصة التى يحظى فيها بمجالسة الامام أبى زرعة أما حرص ابن حنبل على النوافل والسنن فكثير كما سبق الحديث عنه فى ترجمته . وقد عرف أبو زرعة بحفظه الشديد وما سمع شيئا الا وعاه ، قال أبو جعفر التسترى : سمعت أبا زرعة يقول : « ما سمعت أدنى شيء من العلم الا وعاه قلبى ، وان كنت لأمشى فى سوق بغداد فأسمع من العزف صوت المغنيات فأضع أصبعى فى أذنى مخافة أن يعيه قلبى » وحسبه دلالة على كثرة حفظه ما رواه صالح جزرة ، قال : سمعت أبا زرعة يقول : « أحفظ فى القراءات عشرة آلاف حديث » واذا كان حفظه لأحاديث القراءات فقط هو هذا العدد الكبير ، فما بالنا بجملة ما حفظه من الأحاديث ، قال محمد بن جعفر ابن حمكويه قال أبو زرعة : « احفظ مائة ألف حديث كما يحفظ الانسان قل هو الله احد » . وعاش أبو زرعة حياته العلمية حافظا ثقة صدوقا وهو أحد الائمة المشهورين الرحالين لطلب الحديث قدم بغداد وحدث بها غير مرة ، وجالس الامام أحمد ابن حنبل وكان يحبه ويثنى عليه وله من المؤلفات : (كتاب المسند) وتوفى سنة أربع وستين ومائتين(٥٥) .

---

(٥٥) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٣٢ ، مقدمة تحفة الاحوذى جـ ١ ص ٤٦٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٦٤ ، الرسالة المستطرفة ص ٦٤ .

٨ - الامام الدارمى

نسبه ونشأته :

هو الامام عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد التميمى ، أبو محمد السمرقندى الحافظ الدارمى . ولد سنة احدى وثمانين ومائة ، وعرف منذ نشأته بالثقة والصدق والورع والذكاء ، كما كان يضرب به المثل فى الديانة والعلم والاجتهاد والعبادة ، قال فيه أبو حاتم :

« ثقة صدوق » وعرف بالزهد ، قال عنه الامام احمد بن حنبل ، عرضت عليه الدنيا فلم يقبل . وهكذا نرى آراء الائمة فيه تشهد بنشأته الطاهرة ، وعلمه الجم ، وزهده وورعه ، قال فيه ابو حاتم بن حيان « كان من الحفاظ المتقنين وأهل الورع فى الدين ، ممن حفظ وجمع وتفقه وصنف وحدث ، وأظهر السنة فى بلده ودعا اليها » . وقال فيه الخطيب : كان احد الحفاظ الرحالين موصوفا بالثقة والورع والزهد استقضى على سمرقند فقضى قضية واحدة ثم استعفى فأعفى . الى أن قال : وكان غاية فى العقل وفى نهاية الفضل ، وقال فيه ابن ابى حاتم عبد الله بن عبد الرحمن امام أهل زمانه [٥٦] وهذا يدل على مكانته الجليلة ، ونشأته العلمية التى اتسمت بعظائم الأمور ومكارم الاخلاق .

حياته العلمية :

ذكر الحافظ الذهبى الدارمى فى تذكرة الحفاظ - من الطبقة التاسعة التى ذكر فيها الائمة وهم : الذهلى ومحمد بن مسلم ، وعبد الرحمن بن حميد والبخارى وابو زرعة وأبو حاتم وابن دارة ويعقوب بن شيبة ومسلم وابو داود وغيرهم . وقد برع الامام الدارمى فى علم الحديث حتى بذ أقرانه ، والف « التفسير » و« الجامع » و« المسند » وهو المسمى بالسنن .

وكان الدارمى أحد الحفاظ الرحالين الذين شهد لهم العلماء بالحفظ والاتقان والدفاع عن السنة النبوية . قال فيه محمد بن ابراهيم بن منصور الشيرازى « كان على غاية

---

(٥٦) تذكرة الحفاظ جـ٢ ص ٥٣٥ مقدمة تحفة الاحوذى جـ ١ ص ٤٥٩ .

من العقل والديانة ، ممن يضرب به المثل فى الحكم والدراية والحفظ والعبادة والزهد أظهر علم الحديث والآثار بسمرقند ، وذب عنها الكذب وكان مفسرا كاملا وفقيها عالما »[٥٧]

شيوخه وتلاميذه :

سمع الدارمى النضر بن شميل ، ويزيد بن هارون ، وسعيد بن عامر الضبعى ، وجعفر بن عون ، ويحيى بن حسان ، وأبا نعيم ووهب بن جرير وطبقتهم بالحرمين وخراسان والشام والعراق ومصر .

ومن تلاميذه : الذين رووا عنه : مسلم وأبو داود والترمذى ، والبخارى فى غير الجامع ، ومطلين وجعفر الفريابى وعبد الله بن أحمد بن حنبل - وعيسى بن عمر العباس السمرقندى وآخرون . وقال أبو حاتم الرازى ، (محمد بن اسماعيل اعلم من دخل العراق ، ومحمد بن يحيى اعلم من بخراسان اليوم ، ومحمد بن اسلم أورعهم وعبد الله بن عبد الرحمن اثبتهم) فهو إمام حافظ متثبت بشهادة كبار الأئمة . ومن اعمال الدارمى العلمية ومصنفاته النفيسة كتابه « السنن » .

سنن الدارمى :

وكتاب السنن للدارمى كتاب جليل القدر ، وله وزنه العلمى بين كتب الحديث المدونة فى القرن الثالث الهجرى . وقد عده ابن الصلاح فى المسانيد ، وانتقد فى ذلك لأنه مرتب على الأبواب لا على المسانيد ، وانما اطلق عليه بعض العلماء اسم المسند لكون احاديثه مسندة كما سمى الامام البخارى كتابه : (المسند الجامع) فتسميتها بالمسند فيه تجوز ، ويرى ابن حجر أن سنن الدارمى ليس دون السنن فى المرتبة ، بل لو ضم الى الخمسة لكان أولى من سنن أبن ماجه ، فانه أمثل منه بكثير . بل ان بعض المحدثين سماه (الصحيح) وهى تسمية فيها تجوز ايضا

وفى سنن الدارمى كثير من الصحيح اتفق عليه الشيخان ، أو البخارى ، أو مسلم أو على شرطهما أو شرط أحدهما .

وفيه كثير من الاحاديث الحسنة ، وتوجد فيه بعض الاحاديث المنكرة أوالشاذة وهى نادرة جدا وكذا الاحاديث المرسلة والموقوفة ، ولكنها تقوى احيانا ايضا لمجيئها من طرق

---

(٥٧) مقدمة تحفة الاحوذى ص ٤٦٠ ، جـ ١ ، مقدمة سنن الدارمى ص ٥

اخرى تعضدها . ومثال الحديث الموقوف فى سنن الدارمى . ولكن جاء من طرق اخرى تعضده حديث :

اخرجه الدارمى فى كتاب فضائل القرآن ، باب فضل من قرأ القرآن : حدثنا أبو عامر بن سفيان عن عطاء بن السائب عن ابى الاحوص ، عن عبد الله قال : « تعلموا هذا القرآن فانكم تؤجرون بتلاوته بكل حرف عشر حسنات أما انى لا أقول بآلم ، ولكن بألف ، ولام وميم بكل حرف عشر حسنات »[٥٨] وهذا الحديث موقوف على عبد الله بن مسعود وقد روى نحوه الترمذى مرفوعا ، وقال : (حسن صحيح غريب) وهو قطعة من حديث طويل رواه الحاكم عن ابراهيم الهجرى عن ابى الاحوص عنه مرفوعا وقال من تفرد به صالح بن عمر عنه ، وهو صحيح .

وكتاب السنن للدارمى يعتبر من كتب السنة القيمة ، اشتمل على الاحاديث الصحيحة الكثيرة ، وهو مرتب على الأبواب وهذا الكتاب يعتبر من أهم اعمال الدارمى فى مجال السنة النبوية مما يشهد له بالفضل . قال ابو حامد الشرقى : (انما خرجت خراسان من أئمة الحديث خمسة رجال : محمد بن يحيى ، ومحمد بن اسماعيل ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، ومسلم بن الحجاج وابراهيم بن ابى طالب) .

وقد عاش الدارمى أربعا وسبعين سنة ٧٤ ، حفلت بعظائم الامور ، وبالاعمال العلمية المباركة وتوفى بعد عصر يوم التروية الثامن من ذى الحجة سنة خمس وخمسين ومائتين ٢٥٥ هـ ، ودفن فى اليوم الثانى يوم عرفة فى بلدة « مرو »[٥٩] .

---

(٥٨) سنن الدارمى جـ ٢ ص ٣٠٨ بتحقيق السيد عبد الله هاشم يمانى

(٥٩) تهذيب جـ ٥ ص ٢٩٥ ، مقدمة تحفة الاحوذى جـ ١ ص ٤٥٩ ، مقدمة ابن الصلاح ص ١٥ ، الكمال فى اسماء الرجال مخطوط بدار الكتب المصرية جـ ٢ ص ١٠٣

مثال لما رواه الدارمي وطعن فيه والدفاع عنه

حدثنا ابراهيم بن المنذر ثنا ابراهيم بن المهاجر بن المسمار ، عن عمر بن حفص ابن ذكوان عن مولى الحرقة عن ابى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ان الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السماوات والأرض بألف عام ، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل هـذا عليها وطـوبى لأجواف تحمـل هذا وطـوبى لألسنة تتكلم بهذا[٦٠] .

وهذا الحديث قال عنه ابن حبان : موضوع وابراهيم بن المهاجر منكـر الحديث متروك وقال السيوطى : وثقه ابن معين ، وقد اخرج هذا الحديث ابن ابى عاصم فى السنة وابن خزيمة فى التوجيه ، والبيهقى فى شعب الايمان . وقال الحافظ بن حجر فى أطراف العشرة : زعم ابن حيان ، وتبعه ابن الجوزى ان هذا المتن موضوع ، وليس كما قالا ، فان مولى الحرقة هو عبد الرحمن بن يعقوب من رجال مسلم والراوى عنه وان كان متروكا عند الأكثر ضعيفا عند البعض فلم ينسب للوضع والراوى عنه لا بأس به ، وابراهيم بن المنذر من شيوخ البخارى وقد اخرجه الطبرانى فى الأوسط ، وقال : لا يروى عن النبى ﷺ الا بهذا الاسناد تفرد به ابراهيم بن المنذر ، وله طريق آخر عن أنس اخرجه الديلمى[٦١] .

---

(٦٠) اخرجه الدارمى جـ ٢ ص ٣٢٧ تحقيق السيد عبد ألله يمانى ورواه الطبرانى فى الاوسط وفيـه ابراهيم بن مهاجر ضعفه البخارى بهذا الحديث . ووثقه ابن معين .

(٦١) اللالىء المصنوعة جـ ١ ص ٦

الامام بقى بن مخلد

ومن أعلام القرن الثالث الهجرى علماء لم يكونوا شيوخا للأئمة الستة ولكنهم اضطلعوا بمهام علمية وجهود ضخمة فى ميدان الحديث ومن أشهر هؤلاء :

الامام الحافظ[٦٢] بقى بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن القرطبى الأندلسى ، صاحب المسند الكبير والتفسير العظيم ولد بقى فى رمضان سنة احدى ومائتين .

نشأته :

ونشأ هذا الامام الجليل ببلاد الاندلس ذات الطبيعة الساحرة والمناظر الخلابة ونشأ بها فى عهودها الزاهرة التى ازدهرت فيها الثقافة والعلوم من تفسير وحديث وفقه وطب وفلسفة وغير ذلك .

وقد رفرفت راية الاسلام على هذه البلاد وازدهرت حضارته بها زهاء ثمانية قرون ظلت الاندلس فيها كعبة القصاد ، وحظى الحديث النبوى بحظ وافر من هذه النهضة العلمية فبرز فيه من العلماء النابغين كثيرون من أشهرهم هذا الامام الجليل الذى نشأ محبا للعلم متواضعا عابدا ، زاهدا خيرا مجاهدا فى سبيل الله ، خرج مع المجاهدين فى غزوات كثيرة فضم الى العلم العمل وشارك فى حياة الوطن الاسلامى والذود عن حياضه وعانى أول أمره فى سبيل طلب العلم كثيرا فتحمل من عناء السفر وشظف العيش ما تحمل قال عنه الامام الذهبى : « كان إماما عابدا متهجدا أواها عديم النظير فى الزمان » .

حياته العلمية :

طوف الامام بقى بن مخلد فى البلاد الاسلامية شرقا وغربا ، وقام بعدة رحلات علمية كان لها أكبر الاثر فى خصوبة حياته العلمية ، فرحل الى مصر وسمع من يحيى بن بكير وزهير بن عباد وطائفة ، ورحل الى دمشق وسمع بها من ابراهيم بن هشام الغسانى ،

---

(٦٢) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب المجلد الثانى ص ٥١٨ للتلمسانى ط بيروت .

وصفوان بن صالح وهشام بن عمار وجماعة ورحل الى بغداد وسمع الامام ابل وطبقته وإلى الكوفة وسمع يحيى بن عبد الحميد بن انس وأبا بكر بن أبى شيبة وطائفة ورحل الى البصرة وسمع اصحاب حماد بن زيد وسمع كثيرا من الشيوخ الذين بلغ عددهم مائتين وثلاثين شيخا .

وأما تلاميذه : فقد سمع منه وروى عنه كثيرون منهم شيخه يحيى بن بكير وهذا ما يشهد له بعلو المكانة فى الحديث ، ورسوخ القدم فى ميدانه ، قال بقى لما رجعت من العراق أجلسنى يحيى بن بكير وسمع منى سبعة احاديث ، ومن تلاميذه ابنه أحمد ، وأحمد ابن عبد الله بن عبد الله الاموى ، وعبد الله بن يونس ، واسلم بن عبد العزيز ، والحسن ابن سعيد . . . وغيرهم .

وكان الى جانب علمه بالحديث عالما بالفقه مجتهدا يستنبط الاحكام ، ولا يقلد احدا ، مما يشهد له بسعة افقه ، وشخصيته العلمية المستقلة .

مؤلفاته :

وللامام بقى بن مخلد مؤلفات من بينها : (كتاب التفسير) وقد أثنى ابن حزم على هذا الكتاب فقال : أقطع أنه لم يؤلف فى الاسلام مثل تفسيره ، ولا تفسير محمد ولا غيره[٦٣] . ومن مؤلفاته « كتاب المسند » وله مصنف فى فتاوى الصحابة والتابعين أربى فيه على مصنف ابن ابى شيبة وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد بن منصور .

---

(٦٣) نفح الطيب جـ ٢ ص ١٥٩ ، مرآة الجنان جـ ٢ ص ١٩٠ .

منهج بقى بن مخلد فى المسند

يقوم منهجه فى المسند على تدوين الاحاديث بطريقة المسانيد وطريقة الابواب فجمع بين الطريقتين وذلك أنه روى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف ورتب أحاديث كل صاحب على أبواب الفقه ومسائل الاحكام فهو مسند ومصنفٌ .

وقد فضله ابن حزم على مسند الامام احمد بن حنبل ولكن ابن كثير عارض فى هذا التفضيل وقال : « الظاهر أن مسند احمد أجود منه واجمع » .

وأرى أن هذه الآراء هى آراء استظهارية لا تقوم على اساس من النقد العلمى الصحيح . . لعدم وجود كتاب الامام بقى بن مخلد .

وعدد احاديث مسند الامام احمد أربعون ألف حديث ، وأما مسند الامام بقى فعدد احاديثه التى نسبها ابن الجوزى للصحابة فيه ٣١٠٦٤ حديثا . قال الاستاذ أحمد شاكر لقد جمعت عدد الاحاديث التى نسبهاابن الجوزى للصحابة فى مسند بقى فكانت ٣١٠٦٤ حديثا وهذا يقل عن مسند أحمد أو يقاربه . وذكر ابن الجوزى ان عدد الأحاديث أبى هريرة ٥٣٧٤ ، وفى مسند أحمد ٣٨٤٨ حديثا وهذا العدد فى مسند احمد يكثر فيه المكرر ، واما العدد الحقيقى بدون المكرر بالنسبة لاحاديث ابى هريرة فى مسند احمد فهو ١٥٧٩ حديثا فقط ، فهل معنى هذا أن الامام أحمد فاته هذا العدد الكبير ؟

والذى ارجحه هو أن الامام بقى بن مخلد كان يجمع الحديث على طريقة المسند بالنسبة لكل صحابى وعلى طريقة التبويب كذلك فلعله كان يقطع الحديث فى ابوابه على نحو ما فعل البخارى فى صحيحه ، وأنه أيضا كان يكرر الاحاديث[٦٤] .

---

(٦٤) البداية والنهاية جـ ١١ ص ٥٦ ، الباعث الحديث ص ١٨٨ .

تعصب بعض حاسديه عليه

كان محمد بن عبد الرحمن الاموى صاحب الاندلس محبا للعلوم عارفا بها فلما دخل بقى بن مخلد الاندلس بمصنف ابن ابى شيبة وقرىء عليه انكر جماعة من بعض حاسديه ما فيه من الخلاف . واستبشعوه وقام جماعة من العامة ومنعوه من قراءته فاستحضره الامير محمد وتصفح الكتاب جزءا جزءا حتى اتى على آخره ثم قال لخازن كتبه هـذا الكتاب لا تستغنى عنه خزانتنا فانظر فى نسخة لنا وقال لبقى انشر علمك وارو ما عندك ونهاهم ان يتعرضوا له . وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ومائتين [٦٥] .

(٦٥) نفح الطيب جـ ٢ ص ٥١٩ ، تاريخ الادب العربى جـ ٣ ، ص ٢٠١ .

محمد بن جرير الطبرى

نسبه ونشأته :

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى . ولد سنة اربع وعشرين ومائتين بطبرستان ، وقيل فى آخر سنة أربع أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين .

وقد تفانى ابن جرير الطبرى فى طلب العلم والتأليف حتى مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة[٦٦] . وكان زاهدا قانعا مترفعا عن الدنيا ، وأعانه على ترفعه ما تركه له أبوه فى طبرستان من ضيعة كان ينفق ما يستغله منها على نفسه واهله وطلابه . وقد روى عنه بعض ابيات انشدها ربما تمثل بعض سمات حياته .

اذا أعسرت لم يعلم رفيقى ... وأستغنى فيستغنى صديقى
حيائى حافظ لى ماء وجهى ... ورفقى فى مطالبتى رفيقى
ولو أنى سمحت ببذل وجهى ... لكنت الى الغنى سهل الطريق

وهذه الابيات تؤيد ما عرف عنه من زهد وقناعة وكرم وحياء وورع ، وعاش الطبرى حياته عفيفا شغل بطلب العلم وهو ابن اثنتى عشرة سنة وظهرت عليه مخايل الذكاء والنبوغ من صغره فعهد به والده الى علماء (آمل) عاصمة اقليم طبرستان .

ومما يدل على قوة حافظته ونبوغه المبكر أنه حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين . . وكتب الحديث وهو فى التاسعة[٦٧] .

محنتـه :

تعرض الامام الطبرى فى حياته الى محنة من عوام الحنابلة والجهلة المنتسبين الى المذهب الحنبلى كذلك بسبب ما قاله الطبرى فى الامام احمد بن حنبل انه رجل حديث لا فقه ، وعندما ألف الطبرى كتابه (اختلاف الفقهاء) ذكر فيه كثيرا من الفقهاء مثل ابى

(٦٦) وفيات الاعيان جـ ١ ص ٥٧٧ تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٦٢ .
(٦٧) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٦٣ ، لسان الميزان جـ ٥ ص ١٠٢ ، معجم الادباء ١٨ / ٤٩ .

حنيفة والشافعى ومالك والاوزاعى وغيرهم ولكنه أغفل ذكر الامام احمد بن حنبل ومن أجل هذا تحرش به بعض الحنابلة فبدأ بعضهم بالتعصب عليه ، كالجصاص والبياض وجعفر بن عرفة ثم قصده بعضهم عندما كان فى المسجد فى يوم الجمعة وسألوه سؤالين :

الاول : عن إمامهم أحمد بن حنبل
والثانى : عن حديث الجلوس على العرش

فقال الطبرى : أما احمد بن حنبل فلا يعد خلافه ، قالوا قد ذكره العلماء فى الاختلاف . قال ما رأيته روى عنه ولا رأيت له اصحابا يعول عليهم ، وأما احاديث الجلوس على العرش فمحال وانشد :

سبحان من ليس له انيس ولا له فى عرشه جليس

فلما سمعوا اجابته غضبوا واتهموه بأنه رافضى ، وآذوه ، وحالوا بين الناس وبين الانتفاع بعلمه . ولعل السبب فيما اثير حول الطبرى بأنه رافضى راجع الى انه الف فى فضائل سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وقالوا عنه انه كان يقول بالمسح على القدمين وهو قول رافضى وقيل انه يقول بالمسح والغسل معا .

والحقيقة أن هذا ناشىء من عدم فهم مراده ، ذلك انه يوجب غسل القدمين ويوجب مع الغسل دلكهما ولكنه عبر عن ذلك بالمسح ، فلم يفهم بعض الناس مراده ومن فهم مراده نقل عنه انه يوجب الغسل والمسح « . . أى الدلك . . » .

وأما كونه قد الف فى فضائل سيدنا على فلا يعنى انه رافضى فشتان بين ذلك وبين ذكره للفضائل ، وهذا الذى أثير حوله راجع الى حقد بعض العوام المقلدين ، وسوء فهم آرائه فلقد كان من أئمة الاسلام والعاملين بالكتاب والسنة .

حياته العلمية :

عاش الطبرى حياة مثمرة ، فكان إماما فى فنون كثيرة : منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك وله مصنفات عديدة تدل على سعة علمه ، فهو إمام مجتهد ثقة فى نقله ذكره الشيخ ابو اسحاق الشيرازى فى طبقات الفقهاء فى جملة المجتهدين .

وقد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه احد من أهل عصره ، وكان حافظا لكتاب الله عارفا بالقراءات بصيرا بالمعانى ، فقيها فى احكام القرآن عالما بالسنن وطرقها ، صحيحها

وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى الاحكام وعارفا بأيام الناس واخبارهم (٦٨) .

شيوخه وتلاميذه :

قام الطبرى برحلات علمية تلقى خلالها العلم والحديث من كبار الشيوخ فبدأ بالرى وما جاورها ليأخذ الحديث عن محمد بن حميدة الرازى والمثنى بن ابراهيم الأيلى كما درس التاريخ فى هذه المنطقة على محمد بن احمد بن حماد الدولابى ، ويقال أنه كتب عن ابن حميد أكثر من مائة الف حديث كما درس عليه التفسير ايضا واتجه الى البصرة وسمع من محمد بن موسى الخرشى ، وعماد بن موسى القزاز ثم اتجه الى واسط والكوفة والشام ومصر حيث درس فقه الشافعى على الربيع بن سليمان المرادى واسماعيل بن ابراهيم المزنى ومحمد بن عبد الله بن الحكم ودرس فقه مالك على تلاميذ ابن وهب كما سمع الطبرى ايضا من محمد بن عبد الملك بن ابى الشوارب واحمد بن منيع البغوى .

ومن تلاميذه الذين رووا عنه : احمد بن كامل القاضى ومحمد بن عبد الله الشافعى وخالد بن جعفر . ومنهم شعيب الحرانى وعبد الغفار الخصيبى وابو عمرو بن حمدان ومنهم ابن الحداد وابو مسلم الكجى وغيرهم ممن تتلمذوا عليهم فى العراق وانتهجوا منهجه (٦٩) .

مؤلفاته :

وقد آتت حياته العلمية كلها فكانت له مؤلفات نفيسة كثيرة منها :

١ ـ كتاب التفسير الكبير : الذى قال فيه الامام ابو حامد الاسفراييني : لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرا . وهو كتاب جليل من أجل كتب التفسير بالمأثور واصحها ، ذكر فيه ما يثبت عن النبى ﷺ ، وما ورد عن الصحابة والتابعين ووجه الاقوال ورجح بعضها على بعض كما ذكر فيه الكثير من وجوه الاستنباط واللغات والاستشهاد بالشعر على بعض ما فى الالفاظ .

---

(٦٨) وفيات الاعيان جـ ١ ص ٥٧٧ ، تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٦٢ .

(٦٩) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ١٣٦ ، تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٦٢ ، الطبرى : للدكتور الحوفى ص ٨٧

٢ - كتاب « تهذيب الاثار » وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ قال فيه الخطيب البغدادى : وله كتاب سماه تهذيب الاثار لم أر سواه فى معناه الا انه لم يتمه . . وقد ابتدأ بما رواه ابو بكر الصديق رضى الله عنه كما صح عنده بسنده وتكلم على كل حديث وعلته وطرقه وما فيه من الفقه والسنن واختلاف العلماء وحججهم فتم به مسند العشرة وأهل البيت والموالى ومن مسند ابن عباس قطعة كبيرة ومات قبل تمامه وهو موجود بمكتبة الآستانة .

٣ - تاريخ الامم والملوك .
٤ - كتاب القراءات .
٥ - تاريخ الرجال .
٦ - التبسيط فى الفقه .
٧ - التبصير فى اصول الدين .
٨ - كتاب اختلاف العلماء .
٩ - الفضائل .
١٠- احكام شرائع الاسلام .

وغير ذلك من المصنفات النفيسة .

وفاتــه :

توفى الطبرى يوم السبت ، ودفن يوم الاحد بالغداة فى داره لأربع بقين من شوال سنة عشر وثلاثمائة ، وقال ابن خلكان : والصحيح انه دفن ببغداد ، وكذلك قال ابن يونس فى تاريخه وهذا هو الرأى الصحيح[٧٠] .

(٧٠) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٦٢ مرآة الجنان جـ ٢ ص ٢٦١ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٣ ص ١٢١ .

محمد بن سعد كاتب الواقدى

نسبه ونشأته[71] :

هو الامام المؤرخ الثقة ابوعبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى الهاشمى ولاء لأن احد اجداده كان مولى للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباسى بن عبد المطلب الهاشمى .

ولد بالبصرة سنة ١٦٨ هـ ، ولهذا نسب اليها فقيل ابن سعد البصرى وكان ابن سعد محل رضا الرواة ، حيث لم يلابس الفتن الهوجاء فى عهد المأمون وبعده ، فأمكنه نشر علمه ، وعلم استاذه ، وبقيت كتبه محفوظة مقبولة عندهم .

وعرف ابن سعد بكاتب الواقدى ، لأنه صحبه زمانا ، وكتب له فعرف به . وتردد المحدثين فى قبول اخبار الواقدى ليس له اثر كبير فيما يتعلق بابن سعد ، فان أكثرهم قالوا : ثقة مع ان استاذه ضعيف واذا كان ابن سعد ألف كتبه من تصنيفات الواقدى ولم ينس ذكر اسم شيخه فى سلسلة الاسناد ، الا انه كان يغربل الرواية التى يرويها له ، او يؤيدها برواية اخرى لغيره .

حياته العلمية :

كان ابن سعد ذا مكانة علمية ، فعرف له العلماء فضله ومنزلته جمع كثيرا من العلم وروى عن كثير من الشيوخ لاسيما الواقدى . يقول احمد بن كامل القاضى : قال لى محمد بن موسى : الذين اجتمعت عندهم كتب الواقدى اربعة انفس : محمد بن سعد كاتب الواقدى اولهم .

شيوخه وتلاميذه :

ومن شيوخه محمد بن عمر بن واقد الواقدى وهو الذى صحبه ولازمه كثيرا ، كما روى ايضا عن سفيان بن عيينة واسماعيل بن علية ، ويزيد بن هارون الواسطى ، وعبيد

---

(٧١) وفيات الاعيان جـ ١ ص ٦٤٢ ، الرسالة المستطرفة ص ١٣٨ ، مرآة الجنان جـ ٢ص ١٠٠ .

الله بن موسى العبسى ، وهيثم والوليد بن مسلم وابى الوليد الطيالسى وغيرهم من شيوخ الرواية بالبصرة والكوفة وواسط وبغداد ومكة المكرمة والمدينة والشام واليمن ومصر وغيرها .

ومن تلاميذه الذين رووا عنه :

ابو بكر بن ابى الدنيا وابو محمد الحارث بن أبى اسامة التميمى ، والحسين بن فهم راوية الطبقات الكبرى عن ابن سعد ، وهو الذى قال عن شيخه كان كثير العلم ، كثير الكتب ، كتب الحديث والفقه والغريب .

منزلته :

وقد جرح بعض العلماء ابن سعد ، وعدله الاكثرون ، قال الحسين بن فهم كنت عند مصعب الزبيرى فمر بنا يحيى بن معين ، فقال له مصعب : يا ابا زكريا حدثنا محمد بن سعد الكاتب بكذا وكذا ، وذكر حديثا ، فقال له يحيى : كذب وقال ابو بكر الخطيب معلقا على ذلك : ومحمد بن سعد عندنا من اهل العدالة وحديثه يدل على صدقه فانه يتحرى فى كثير من رواياته ، ولعل مصعبا الزبيرى ذكر ليحيى عنه حديثا من المناكير التى يرويها الواقدى فنسبه الى الكذب (٧٢) .

وقال ابن ابى حاتم الرازى سألت ابى عن محمد بن سعد ، فقال : « يصدق » جاء الى القواريرى وسأله عن احاديث فحدثه ، وقال ابراهيم الحربى : كان احمد بن حنبل يوجه فى كل جمعة بحنبل بن اسحاق الى ابن سعد يأخذ منه جزءين من حديث الواقدى ينظر فيهما الى الجمعة الاخرى ثم يردهما ويأخذ غيرهما قال ابراهيم ولو ذهب سمعهما كان خيرا له . وقد سبق بيان انه كان يغربل الرواية التى يذكرها عن شيخه الواقدى ويعضدها بغيرها .

ومما سبق يتضح لنا ان المعدلين لابن سعد عدد كثير ، وان له مكانته العلمية التى استحق بها كل اكبار وتعظيم .

وقد رحل ابن سعد رحلات علمية الى المدينة والكوفة وبغداد ، وفى بغداد لزم الواقدى ، ولم ينسب اليه فى كتب التراجم الا ثلاثة مؤلفات .

---

(٧٢) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٩ ، تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٣٢٢ .

١ - الطبقات الكبرى .
٢ - الطبقات الصغرى .
٣ - اخبار النبى ﷺ .

والواقع ان كتاب « الطبقات الكبرى » يحتوى على ما يحتوى عليه الكتابان الآخران ، وحسبه فى التصنيف كتاب « الطبقات الكبرى » الذى يدل على تضلعه فى العلم ، ورسوخ قدمه فى كثير من فنون المعرفة والتاريخ .

كتاب الطبقات الكبرى

وكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد من اوائل ما الف فى هذا الموضوع ولعله لم يسبقه فى هذا المجال الا طبقات الواقدى ، وكان لكتاب ابن سعد أثره فى التآليف التى جاءت بعده .

ومصادر كتابه نوعان : الأول : المشافهة والسماع . والثانى : الكتابة . ولم يقتصر ابن سعد على الافادة من طبقات الواقدى ، وانما استقى معلومات من كتبه الاخرى ، كما استجد بعض فصول لم يجد فيها لشيخه رواية مثل ذكر كنية رسول الله ﷺ ، وما كان رسول الله ﷺ يعوذ به ويعوذه به جبريل ، وإنساب الجاهليين ، وسير الأنبياء والأمم السابقة التى اتضح أن الواقدى لم يحتفل بها كثيرا .

وقد استهدف كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد خدمة السنة النبوية فتحدث فيه عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين الى عصره وجعل الجزءين الاولين لسيرة الرسول ﷺ ، وبعد ان انتهى فى أكثر الجزأين من السيرة النبوية العاطرة ، عقد فصلا للمفتين بالمدينة فى العهد النبوى ، ثم ترجم للصحابة والتابعين فشغل سائر الاجزاء بذلك وخصص اخر جزء للنساء (٧٣) .

---

(٧٣) الطبقات الكبرى لابن سعد تقديم الاستاذ احسان عباس ص ١٢ ط بيروت ، علوم الحديث ومصطلحه الدكتور صبحى الصالحى ص ٣٤٣ ، الحديث والمحدثون ص ٣٥٠ .

منهج ابن سعد فى كتاب الطبقات

لاحظ ابن سعد فى تراجمه عنصرين :

الاول : عنصر الزمان والثانى : عنصر المكان .

اما عن الاول وهو عنصر الزمان ، فقد كان يراعيه فى سائر الطبقات من أولها الى آخرها ، وجعل نقطة البدء فيها يتصل بالزمان هى : (السابقة الى الاسلام) ثم (موقعة بدر) ولذا بدأ بالمهاجرين البدريين ، ثم بالانصار البدريين ثم بمن اسلم قديما ولم يشهد « بدرا » وانما هاجر الى الحبشة أو شهد احدا ثم بمن اسلم قبل فتح مكة ، ثم من اسلم بعد فتح مكة .

واما الثانى : وهو عنصر المكان ، فترجم للصحابة رضوان الله تعالى عليهم على حسب الامصار التى حلوا فيها ، فسمى من كانوا بالمدينة أو مكة ، أو الطائف أو اليمن أو اليمامة ، ومن نزلوا الكوفة ، ومن نزلوا البصرة ، ومن فضلوا المقام بالشام او مصر ، كما لاحظ هذا المنهج كذلك بالنسبة لتراجم التابعين رضى الله عنهم .

والطبقة فى كتاب ابن سعد تساوى عشرين سنة تقريبا ، ولكن هذا التقسيم الذى اتبعه ابن سعد فى منهجه كان له عيب واضح فى الكتاب ، فقد يكون احد الرجال داخلا فى غير موضع واحد فى هذا المنهج ، بمعنى ان يكون مثلا بدريا ممن يفتى ايام الرسول ﷺ ، ثم هاجر الى مصر من الامصار ، وعلى هذا فلابد له من ثلاث تراجم ، الا ان ابن سعد تنبه لهذا العيب الذى لا مناص منه ، فكان يطيل الترجمة فى موضعها الأصلى فى الطبقة الحقيقية بما فيه الكفاية ثم يمر فى الموضع الاخر عليها بايجاز سريع .

وقد وجد من بين رواة ابن سعد رواة قلائل ضعفهم أهل الحديث وهم : هشام ابن محمد بن السائب الكلبى ، والواقدى ، وابو معشر ، والحقيقة : ان هشاما كان أوثق من ابيه ، والواقدى كان محل ثقة عند فريق كبير من المحدثين .

واكبر ما انتقده المحدثون على الواقدى ، واتبعه فى ذلك تلميذه ابن سعد ، هو جمع

الاسانيد الكثيرة وايراد متن واحد لها ، وادخال حديث الرجال بعضهم فى بعض مبتغيا بذلك الايجاز اذا كثرت الروايات وتشابهت .

وأرى ان الطبقات الكبرى لابن سعد فيها الاسانيد المرسلة ، والمقطوعة بجوار الصحيحة الكثيرة ، فهى لم تكن كلها فى درجة واحدة ، ولعل الذى دعاه الى ذلك هو إنه كان يهدف الى استيفاء الموضوع الذى يكتب فيه فدون جميع ما ورد فى ذلك صحيحا او مرسلا او مقطوعا ، وليس يصعب على اهل العلم استخلاص الصحيح فى الكتاب من غيره فذلك امر سهل ، ولئن كانت طبقات ابن سعد خالية من التعقيبات الكثيرة التى تظهر شخصية المؤلف ، الا ان ما يوجد فيها من التوضيحات اليسيرة تطلعنا على نقده العلمى الطيب الذى تميز به ، فمثلا : يورد رواية خلاصتها : ان النبى ﷺ بكى عند قبر امه لما فتح مكة فقال ابن سعد (وهذا غلط ، وليس قبرها بمكة ، وقبرها بالأبواء) .

هاذ وكتاب الطبقات لا يستغنى عنه محدث ولا فقيه ولا مؤرخ ، ومن كتب بعده فى الرجال فقد استفاد الكثير منه وللكتاب روايتان : الأولى ، رواية الحارث بن ابى اسامة لبعضه ، والحسين بن فهم لبعضه الآخر كلاهما يرويه عن ابن سعد .

ولهذا الكتاب منزلة جليلة بين العلماء ، غير انه اكثر فيه من الرواية عن الضعفاء ، قال ابن الصلاح : وكتاب ابن سعد « كتاب الواقدى » كتاب كثير الفوائد ، وهو ثقة غير انه كثير الرواية فيه عن الضعفاء ، وقد تبين ذلك مما سبق .

وتوفى ابن سعد يوم الاحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين ببغداد ، ودفن فى مقبرة باب الشام ، وهو ابن اثنتين وستين سنة رحمه الله تعالى .

وهكذا وقفنا على جانب كبير من النهضة العلمية ، التى فجر ينابيعها الدافقة هؤلاء الاعلام ، وجمع رحيقها الصافى الأئمة الستة الذين اشرقت كتبهم فى سماء الهدى فأوجدت الجو العلمى العاطر والمناخ الصحى للسنة النبوية الشريفة .

وواضح ان هؤلاء الاعلام ، قد حصلوا على ثناء كبير ، وتقدير اى تقدير من الحفاظ المتقنين فى عصرهم فكان هذا الثناء ، وذلك التقدير بمثابة شهادات علمية عظيمة ، فلئن كان فى عصرنا هذا ترتفع مكانة الباحث بمقدار ما حاز من شهادات وما وصل اليه من تفوق فى سلك دراساته حتى اهلته كفاءته ، ورشحته شهاداته الى مكانة مرموقة وعمل عظيم فان

اولئك العلماء فى عصرهم هذا كانت شهاداتهم بقدر كدهم وجدهم ورحلاتهم العلمية ، التى يلتقون فيها مع العلماء اللامعين ، والأئمة المتثبتين متنقلين من قطر الى قطر بهمة قعساء لا تعرف الكلال ، ولا تعوقها مشقة السفر ولا عناء الطريق ، كما اتضح لنا من خلال الحديث عن نشأتهم وحياتهم العلمية فكان ثناء أئمتهم عليهم وأقوال علمائهم فيهم تعتبر اسمى الشهادات الصادقة ، لصدورها من أهل الصدق والتوثيق .

الفصل الثانى

علوم ومصنفات صاحبت تدوين السنة فى القرن الثالث

وفيه بحثان

البحث الأول : العلوم التى صاحبت تدوين السنة فى هذا القرن :

كان القرن الثالث الهجرى ازهى واسعد عصور السنة النبوية ، قائمة المحدثين ومصنفاتهم النفيسة الخالدة ، وقد تمخضت بحوث الائمة وتدوينهم للسنة الى علوم كانت قمة ما وصل اليه الفكر البشرى السوى وأصح ما عرف فى التاريخ من القواعد العلمية السليمة للرواية والاخبار . ليس بعدها مجال للتثبت والتوثيق ، وقد نسج على منوال علماء الحديث كثيرون من علماء السلف فى سائر مجالاتهم العلمية الاخرى كالتاريخ ، والفقه ، والتفسير والأدب وغير ذلك .

وهذه العلوم هى ماتسمى : « بعلم أصول الحديث » أو علم الحديث « دراية » ذلك ان علم الحديث ينقسم الى قسمين :

الأول : علم الحديث رواية ، وهو علم يعرف به ما أضيف الى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ، ونقل ما أضيف من ذلك الى الصحابة والتابعين على الرأى المختار .

الثانى : علم الحديث دراية وهو علم بقوانين يعرف بها احوال السند والمتن ، كما قال الشيخ عز الدين بن جماعة : وقال شيخ الاسلام ابو الفضل ابن حجر ، اولى التعاريف له ان يقال : « معرفة القواعد المعرفة بحال الراوى والمروى » والتعريفان يتفقان فى البحث عن الراوى والمروى من حيث القبول او الرد .

وقد نشأ أصول هذا العلم مع نشأة الحديث ، اذ كانوا يطلبون من الراوى التثبت وينقدون المرويات . وقد ازداد الحرص على هذا منذ وقوع الفتن ، فكانوا يقولون : سموا

---

(١) تدريب الراوى ص ٥ .

لنا رجالكم كما زاد الطلب ايضا عندما قام ابن شهاب الزهرى بجمع الحديث من حامليه فى الدفاتر والصحف ، ثم بعد ذلك كتب الامام الشافعى بعض المسائل فى كتابيه ؛ « الرسالة » و« الأم » وكان اول من الف فى بعض بحوث هذا العلم هو الامام على بن المدينى ، كما تكلم فى مسائله البخارى ومسلم والترمذى من علماء القرن الثالث ، وقام الترمذى فاشاع مسائل هذا العلم وجمع بعضها فى خاتمة جامعه .

فتدوين علوم الحديث إذًا ابتدأ فى ابواب ، وفى بعض انواع منه اثناء المائة الثالثة وكانت مؤلفات علماء القرن الثالث فى هذا العلم غير جامعة لكل انواعه فى كتب خاصة ، ولا مستقلة قائمة بذاتها ، وانما تعرضوا لبحث هذه العلوم اثناء تآليفهم وجمعهم للمرويات ، فمنهم من جعلها مقدمة لمؤلفه كما فعل الامام مسلم ومنهم من جعلها خاتمة تبين مراده من المصطلحات كما صنع الترمذى فى آخر جامعه ، وعنى الامام البخارى فألف كتبه فى التواريخ الثلاثة . الكبير والاوسط والصغير ، كما الف ايضا فى تواريخ الرواة الامام محمد بن سعد (كتاب الطبقات الكبرى) وألف البعض فى الثقات كأبى حاتم بن حيان المتوفى سنة ٣٥٤ (كتاب الطبقات) وخصص البعض مؤلفات فى الضعفاء والعلل ككتاب الضعفاء للبخارى ، وكتاب الضعفاء للنسائى ، ورأى بعض العلماء ان هذه الكتب قد تضمنت اصطلاحات خاصة بأهل الحديث وقواعد كثيرة لهم . يعرف بها المقبول والمردود ، ففكروا فى تخليصها فى هذه الكتب وجمعها فى علم خاص وتدوينها فى كتب مستقلة ، وكان ذلك فى القرن الرابع . . . حيث نضجت العلوم واستقر الاصطلاح ، فألف القاضى ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى المتوفى سنة ٣٦٠ هـ كتاب (المحدث الفاصل بن الراوى والواعى) فجمع كثيرا من انواع هذا العلم ، وكان اول من وضع كتابا مستقلا فى علوم الحديث ، ولكنه لم يستوعب جميع بحوثه ، ثم صنف الحاكم ابو عبد الله النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ كتابه : (معرفة علوم الحديث) ولكنه لم يهذب ولم يرتب ثم الف الحافظ الخطيب ابو بكر البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ كتابا فى اصول الحديث سماه (الجامع لآداب الشيخ والسامع) ثم كثر التصنيف بعد ذلك وتتابع .

وقد تنوعت الدراسة فى هذا الفن الى علوم كثيرة من أهمها :

١ - **علم الجرح والتعديل** : وقد أدى حرص العلماء على معرفة أحوال الرواة لتمييز الصحيح من غيره الى نشأة علم الجرح والتعديل ، أو علم ميزان الرجال ، وهو علم يبحث عن الرواة من حيث ما ورد فى شأنهم من تعديل يزينهم ، أو تجريح يشينهم ، وتكلم فى هذا العلم كثيرون من عهد الصحابة الى المتأخرين من العلماء ، فمن الصحابة : ابن

عباس ٦٨ هـ ، وعبادة بن الصامت ٣٤ هـ ومن التابعين سعيد بن المسيب ٦٣ هـ ، والشعبى ١٠٤ هـ .

اما ابتداء التصنيف ووضع الكتب فى الجرح والتعديل ، فلم يكن الا فى القرن الثالث ، وكان من اوائل الذين ألفوا فى هذا العلم : يحيى بن معين ٢٣٣ هـ ، وأحمد بن حنبل ٢٤١ هـ ومحمد بن سعد كاتب الواقدى . والبخارى ومسلم وأبو داود السجستانى والنسائى ثم تتابع التأليف بعد ذلك . . وألف كذلك أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن عبد الرحيم بن سعد بن البرقى الزهرى مولاهم المصرى الحافظ المتوفى سنة تسع واربعين ومائتين .

وممن كتب فى الثقات والضعفاء : أبو اسحاق ابراهيم بن يعقوب بن اسحاق السعدى الجوزجانى المتوفى سنة تسع وخمسين ومائتين . ومن نماذج التأليف فى هذا النوع كتاب الضعفاء للامام البخارى .

كتاب الضعفاء الصغير للامام البخارى

وقد نهج البخارى فى كتابه على ترتيب الاسماء حسب حروف الهجاء مبتدئا بحرف الالف حتى اذا ما استوعب من اسمه ابراهيم ، جاء بباب من اسمه اسماعيل ثم بباب من اسمه اسحاق ، ثم أيوب ، حتى اذا ما انتهى من حرف الألف ، جاء بباب « الباء » وهكذا الى باء الياء مثال ذلك قوله .

« ابراهيم بن اسماعيل بن مجمع بن جارية الانصارى » يروى عنه وهو كثير الوهم يروى عن الزهرى وعمرو بن دينار يكتب حديثه .

ابراهيم بن اسماعيل بن أبى حبيبة المدنى الانصارى الاشهلى عن داود بن الحصين ـ منكر الحديث . وهكذا الى أن انتهى من الأسماء جاء فى آخر الكتاب بالكنى من الضعفاء مثال ذلك :

أبو الرجال : سمع النضر بن النضر عن أنس عن أبيه عن النبى ﷺ « منكر الحديث عنده عجائب » .

أبو ماجد الحنفى عن ابن مسعود ، ويقال العجلى ، قال الحميدى عن ابن عيينة عن يحيى هو منكر الحديث .

أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة المدنى ، ضعيف . وكان فى غالب الاحيان يراعى الترتيب فى أسماء الآباء .

وقد جعل لكل حرف بابا ، وتحت كل باب أبواب فرعية كل منها خاص بـاسم ومعنون به لكنه لم يلتزم بترتيب ابواب الاسماء على حروف المعجم فقدم من اسمه اسماعيل على من اسمه اسحاق . وطبع الكتاب بالهند سنة ١٣٢٥ هـ .

كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائى

رتب النسائى هذا الكتاب على حروف المعجم ، وقسمه الى ابواب جاعلا كل حرف من الحروف الهجائية بابا ، فبدأ بالالف فالباء . . . الخ .

مثل : باب « ابراهيم » وذكر قائلا :

« ابراهيم بن اسماعيل بن مجمع ضعيف مدنى » ، « ابراهيم بن اسماعيل بن أبى حبيبة ضعيف مدنى » ، « وابراهيم بن عطية متروك الحديث واسطى » ، « ابراهيم بن الفضل متروك الحديث مدنى » ، فاذا ما انتهى ممن اسمه ابراهيم انتقل الى باب من اسمه « أبان » . ثم الى باب من اسمه « أبى » فقال : « أبى بن العباس بن سهل بن سعد الساعدى ليس بالقوى » ثم باب من أسمه « أيوب » ثم باب اسماعيل ثم باب اسحاق ، ثم باب اسامة وغيره ، ثم تتبع الحروف « بابا » « بابا » حسب ترتيبها الهجائى وهكذا .

وبعد حرف الياء وهو الحرف الأخير أتى بباب الكنى فقال : « أبو مطيع الخراسانى ضعيف » . وفى آخر الكتاب ذكر اسم أم الاسود يروى عنها احمد بن يونس غير ثقة . فالامام النسائى حين يقدم فى هذا الكتاب الضعفاء والمتروكين لا يقدمهم اسماء مجردة وإنما يردفها بالرواة الذين أخذوا عنهم حتى يقف الباحث على مصدر الأخذ أثقة هو أم لا امنكر هو ؟ امتروك ؟ وهكذا فيبين من روى عنه ويذكر حكمه عليه بالنكارة أو عدم الثقة وهكذا . . ويلاحظ أنه فى ترتيب الاسماء رتبها حسب الحرف الاول منها فقط دون نظر الى بقية الحروف وجعل لكل اسم بابا كصنيع البخارى ، ولم يراع فى الترتيب اسماء الآباء الا قليلا ومع ذلك فان الباحث لا يلقى صعوبة فى الكشف فيه ، لان اسم الراوى يذكر بخط كبير أول السطر ثم يتبعه ببيان حاله كما فى الطبعة الهندية سنة **١٣٢٥** هـ .

٢ - معرفة الصحابة : وهو من العلوم التى تناولها علماء القرن الثالث الهجرى بالدراسة والتصنيف ، وتعتبر معرفة الصحابة « فنا هاما من أجل فنون علوم الحديث » .

وقد عنى به العلماء ، فى القديم والحديث ، ولهذا العلم ثمرته العظيمة وهى : معرفة الحديث المتصل والمرسل .

قال الحاكم[٢] : ومن تبحر فى معرفة الصحابة فهو حافظ كامل الحفظ فقد رأيت جماعة من مشايخنا يروون الحديث المرسل عن تابعى عن رسول الله ﷺ يتوهمونه صحابيا ، وربما رووا المسند عن صحابى يتوهمونه تابعيا .

وقد ألفت فى معرفة الصحابة كتب ، مرتبة على الحروف أو على القبائل وغير ذلك منها :

١ - كتاب ابى بكر احمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد بن البرقى الحافظ الثقة المتوفى سنة سبعين ومائتين .
٢ - « كتاب المعرفة » لابى محمد عبد الله بن محمد بن عيسى المروزى الشافعى الحافظ المعروف بعبدان المتوفى سنة ثلاث وتسعين ومائتين .
٣ - معرفة الصحابة لابى بكر احمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد بن البرقى الحافظ المتوفى سنة سبعين ومائتين .
٤ - كما الف فى معرفة الصحابة ابو منصور محمد بن سعيد الباروذى المتوفى سنة احدى وثلاثمائة .

ومن اشهر الكتب فى معرفة الصحابة (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب) لابن عبد البر و (أسد الغابة) لابن الاثير و (الاصابة) لابن حجر .

٣ - « **علم الرواة** » وهو علم يعرف به تاريخ رواة الحديث ورحلاتهم ومواطنهم ومواليدهم ووفياتهم وكثير من احوالهم مما له أثر فى توهينهم أو تقويتهم ، وأول من عرف عنه الاشتغال بذلك الامام البخارى ، وابن سعد فى طبقاته[٣] ومن الف فى هذا : أبو الوليد أحمد بن محمد بن الوليد بن عتبة بن الازرق بن عمرو بن الحارث الازرقى المتوفى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وقيل سنة سبع عشرة ومائتين ونقدم هنا كتاب : « التاريخ الكبير » للامام البخارى كنموذج حى ، ومثال صحيح للتصنيف فى هذا القرن بالنسبة لعلم الرواة .

---

(٢) علوم الحديث (٢٥) .
(٣) تدريب الراوى ص ٤٥٠ ، علوم الحديث ومصطلحه ص ٦١٠ .

التاريخ الكبير

حاول الامام البخارى فى هذا الكتاب أن يقدم ما استطاع أن يستوعبه من رواة ـ الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، ومن بعدهم الى طبقة شيوخه ، وقام بترتيب هذا الكتاب على حروف المعجم مبتدئا الكتاب بمن اسمه « محمد » تيمنا وتكريما للنبى عليه الصلاة والسلام ، وأعد البخارى فى هذا الكتاب لكل اسم بابا ، ورتب اسماء كل باب على حروف المعجم ، كما لاحظ هذا الترتيب كذلك فى الحرف الأول من أسماء الآباء ، ولكنه لم يراع ترتيب أبواب الاسماء على حسب حروف المعجم فذكر باب ابراهيم ثم باب اسماعيل ، ثم باب اسحاق ، ثم باب ايوب ثم باب اشعث وهكذا .

وقد ألف البخارى هذا الكتاب فى فجر شبابه ومستهل حياته العلمية ، وكان ذلك قبل أن يؤلف الجامع الصحيح . يقول البخارى فلما طعنت فى ثمانى عشرة سنة صنفت قضايا الصحابة والتابعين ثم صنفت التاريخ الكبير فى المدينة عند قبر النبى ﷺ فى الليالى المقمرة ، وقل اسم فى التاريخ الا وله عندى قصة الا أنى كرهت أن يطول .

وكان تأليفه لهذا الكتاب حول مقام الرسول ﷺ ، مما يزيده يمنا ويمده بالروحانية ، ولهذا فان الكتاب قد حظى بثقة كاملة من شيوخه وبتقدير عظيم . ويدل تصنيفه هذا الكتاب على سعة علمة ونلاحظ على هذا الكتاب ان الامام البخارى كان يذكر اسم من يترجم له وبعض من روى عنهم وبعض الذين رووا عنه ، وقد يذكر حديثا لاحدهم إلا أنه قلما يذكر جرحا وتعديلا . وأرى أن هذا راجع الى انه استغنى عن ذلك بما ذكره فى كتابه الضعفاء .

وكان لهذا الكتاب أثره فيما ألف بعده من كتب ، فكان البخارى بحق باعث نهضة القرن الثالث فى تدوين السنة وفى تاريخ الرجال .

ورواة التاريخ الكبير هم :

١ ـ أبو الحسن محمد بن سهل بن كردى البصرى عنه .

٢ ـ أبو احمد عبد الوهاب بن محمد بن موسى الغندجانى عنه .

٣ ـ ورواية الشيخ الجليل أبى الحسين عبد الحميد بن عبد الخالق بن احمد بن عبد القادر ابن محمد بن يوسف عنه(٤) .

---

(٤) التاريخ الكبير للبخارى ، طبع بمطبعة حيدر أباد الدكن بالهند سنة ١٣٦١ هـ .

كتاب التاريخ الصغير

وأما كتاب التاريخ الصغير للامام البخارى فقد اختصر فيه تاريخ النبى ﷺ والمهاجرين والانصار ، وطبقات التابعين ومن بعدهم ووفاتهم وبعض نسبهم ، وكناهم ومن رغب فى حديثه . والجزء الأول تحدث فيه عن أخبار مهاجرى الحبشة وفى آخره تحدث عن المهاجرين والانصار الذين حدثوا عن الرسول ﷺ ، وتوفوا فى عهده . كما تحدث على من توفوا فى عهد أبى بكر الصديق رضوان الله تعالى عليه ، ومن بعده من الخلفاء .

وأما الجزء الثانى من هذا الكتاب فابتدأه بذكر من مات فى عهد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ثم من بعده الى أن انتهى من الجزء السادس حيث ذكر الذين ماتوا فى سنة ست وخمسين ومائتين .

وقد جاء هذا الكتاب من رواية أبى ذر عبد بن احمد بن محمد بن عبد الله الهروى قال أخبرنا أبو على زاهر بن أحمد الفقيه السرخسى بها قراءة عليه سنة ٣٨٩ تسع وثمانين وثلاثمائة قال : أخبرنا أبو محمد بن محمد النيسابورى قال : حدثنا محمد بن اسماعيل البخارى .

٣ - علم معرفة الأسماء والكنى والألقاب

وهو علم يبحث فى معرفة أسماء من اشتهر بكنيته ، وكنى من اشتهر باسمه ، أو يكون قد اشتهر بلقبه دون اسمه أو العكس ، ومعرفته ضرورية للمشتغل بالحديث ، حتى اذا ذكر الراوى مرة باسمه ، ومرة بكنيته ، لا يظنهما من لا معرفة له أنهما رجلان ، وربما ذكر بهما معا فقد يتوهمهما رجلين .

وممن كتب فى ذلك ابن المدينى ومسلم والنسائى ، والامام أحمد بن حنبل كتاب الاسماء والكنى . وكتاب أبى بشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الانصارى المتوفى سنة عشر وثلاثمائة . وللامام البخارى كتاب الكنى .

كتاب الكنى

ذكر الامام البخارى فى هذا الكتاب كنى من غلبت كنيته على اسمه ، ومن لم يعرف إلا بكنيته ، وابتدأ بحسب ترتيب حروف الهجاء بعد لفظ أب أو أم ، وقد ذكر الامام البخارى فيه أول ما ذكر باب أبو أميمة ابن الأخنس قال قبيصة عن أبى سلمة بن شفيق المخزومى عن أبى أميمة بن الأخنس عن عمر فى الموضحة ، قال : انا لا نتعاقل المضغ بيننا ، ثم ذكر بعد ذلك أبا أميمة المخزومى وهكذا اذا ما انتهى من ذكر حرف الألف انتقل الى حرف الباء الى آخر ما ذكر ، وقد يذكر اسم صاحب الكنية بعد كنيته كأن يقول : أبو ريحانه : اسمه عبد الله ، وذكر فى آخره الكنى من النساء واسم أم هانى بنت أبى طالب « هند » وقال البعض : اسمها فاخته « واسم أم حبيبة رملة » . ويلاحظ أنه فى آخر هذا الكتاب قال (هذا آخر كتاب التاريخ الكبير ، وعلى ذلك فهو جزء منه) .

٤ - علم تأويل مشكل الحديث

ويسمى مختلف الحديث ، وهو التوفيق بين ما ظاهره التعارض من الاحاديث وأول من تكلم فى هذا العلم هو الامام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، صنف فيه كتابه المعروف باختلاف الحديث ولم يقصد استيفاءه ، وانما ذكر جملة منه ينبه بها على طريقة الجمع بين ما ظاهره التناقض ، ثم صنف فيه من علماء القرن الثالث ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ وسمى كتابه « تأويل مختلف الحديث » وقد سبق الحديث عنه فى الباب الأول .

وصنف فيه أيضا ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وابو يحيى زكريا بن يحيى الساجى المتوفى سنة ٣٠٧ هـ .

٥ ـ علم معرفة غريب الحديث

وهو علم يعنى ببيان معانى بعض الكلمات الغامضة ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه أفصح الناس وكان يخاطب الوفود على مختلف ألسنتهم بما يفهمونه ، فلما كانت الفتوحات ، ودخل فى الاسلام كثير من العجم ونشأ جيل تشوب العجمة لسانهم خيف على الحديث النبوى أن يستغلق فهمه على بعض الناس فانبرى جماعة من اتباع التابعين ، فتكلموا فى غريب الحديث أمثال : مالك بن أنس وسفيان الثورى وأول من صنف فى غريب الحديث أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمى المتوفى سنة ٢١٠ هـ وألف فيه من علماء القرن الثالث أيضا : أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ كتابا كان عمدة فى هذا الفن جمعه فى أربعين سنة ، ثم جاء ابن قتيبة الدينورى ، فنهج منهج أبى عبيد ، وصنف كتابه المشهور . وممن صنف فيه أيضا الامام ابراهيم الحربى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، ويقال أن أول من ألف فيه : أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادى الحافظ كتابه « غريب الحديث والآثار » ولعل من ذهب الى ذلك يقصد أول من الف فى غريب الحديث مع الاستقصاء فى الجملة ، والا فأول من ألف فيه على الصحيح النضر بن شميل المازنى ، وكتاب أبى عبيد هذا هو القدوة فى هذا الشأن وقد أفنى فيه عمره حتى لقد قال فيما يروى عنه : جمعت كتابى هذا فى أربعين سنة . وألف فى غريب الحديث كذلك أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى وأبو عمر شمر بن حمدويه ، قيل فيه أنه قدر كتاب أبى عبيد مرارا توفى سنة ست وخمسين ومائتين . وكتاب ذيل كتاب ابن قتيبة لابى محمد قاسم بن ثابت بن حزم العوفى السرقسطى الاندلسى واسم كتابه (الدلائل فى شرح ما أغفله أبو عبيد وابن قتيبة من غريب الحديث) وفيه قال أبو على القالى : ما أعلم أنه وضع بالاندلس مثل كتاب الدلائل ، قال ابن القرضى : ولو قال : ما وضع مثله بالمشرق ما أبعده ، مات ولم يكمله فأتمه أبوه أبو القاسم ، وتوفى أبو محمد سنة اثنتين وثلاثمائة .

كتاب غريب الحديث لابن قتيبة

وكتاب غريب الحديث لابن قتيبة ، حذا فيه حذو أبى عبيد ، ولم يدون فيه شيئا من الاحاديث المودعة فى كتاب أبى عبيد الا ما دعت اليه حاجة من زيادة أو شرح بيان ، ولهذا كان كتاب ابن قتيبة مثل كتاب أبى عبيد أو أكبر منه .

ويعتبر هذا الكتاب من أوائل ما ألف ابن قتيبة ، وأنه قد ألفه قبل تأليف كتاب تأويل مختلف الحديث وقبل كتاب « الاشربة » والشعر والشعراء وقبل أدب الكاتب « وعيون الاخبار » وذلك لأننا نراه فى هذه الكتب يشير الى كتاب « غريب الحديث » .

ويعتبر هذا الكتاب من الكتب النفيسة المفقودة التى لم تقع فى أيدينا . وقد ذكر ابن الاثير أن ابن قتيبة قال فى مقدمة كتابه : « وقد كنت زمانا أرى أن كتاب أبى عبيد قد جمع غريب الحديث ، وأن الناظر فيه مستغن به ، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة فوجدت ما ترك نحوا مما ذكر فتتبعت ما أغفل وفسرته على نحو ما فسر »[٥] أ . هـ .

---

(٥) مقدمة النهاية لابن الاثير ص ٤ .

٦ ـ علم معرفة علل الحديث

والعلة عبارة عن سبب غامض قادح فى الحديث مع أن الظاهر السلامة منه ، ويتطرق ذلك الى الاسناد الجامع شروط الصحة ظاهرا .

وقد تطلق العلة على غير مقتضاها ككذب الراوى ، وغفلته ، وسوء حفظه ونحوها من أسباب ضعف الحديث وقد يطلقها بعضهم على مخالفة لا تقدح كارسال ما وصله الثقة الضابط حتى قال : « من الصحيح صحيح معلل كما قيل منه صحيح شاذ »(٦) .

أما كيفية أدراك العلة ومعرفتها فهو : تفرد الراوى ومخالفة غيره له مع قرائن تضم الى ذلك تنبه العارف بهذا الشأن على وهم وقع بارسال فى الموصول أو وقف فى المرفوع أودخول حديث فى حديث أو غير ذلك بحيث يغلب على ظنه فيحكم بعدم الصحة أو يتردد فيتوقف فيه ، والطريق الى معرفته : جمع طرق الحديث والنظر فى اختلاف رواته وضبطهم وإتقانهم . والتصنيف على العلل هو جمع الاحاديث المعلة وتدوينها مرتبة ترتيبا موضوعيا مبينا فيها مع كل حديث علته ، وقد يلحق بعض المصنفين هذه الطريقة بطريقة المسانيد فيصنف مسنده معلا وممن صنف فى العلل « الامام على بن المدينى ، والامام احمد بن حنبل ، والامام البخارى ، والامام مسلم ، وأبو يحيى بن زكريا بن يحيى الضبى المتوفى سنة ٣٠٧ هـ ، والامام الترمذى ونقدم هنا نموذجا للتأليف على العلل .

---

(٦) تدريب الراوى ص ١٦١ .

العلل الكبير للامام الترمذى

سار الامام الترمذى فى تصنيف العلل على درب الامام البخارى واعتمد عليه وعلى علمه وكتابه ، وكان يروى فيه كثيرا عن البخارى مما يدل على تأثره به وانتفاعه بعلمه . وقد اتقن الامام الترمذى هذا الفن وحذقه كما هو الشأن فى كتابه « الجامع » وغيره حتى قال فيه الحافظ الادريسى : صنف الجامع ، والتواريخ والعلل ، تصنيف رجل عالم متقن كان يضرب به المثل فى الحفظ . وللترمذى كتابان فى العلل :

احدهما : العلل الصغير ، « وهو الكتاب الذى ألحقه بجامعه ، وجعله خاتمة له » .

والثانى هو العلل الكبير ، وهذا هو الكتاب المقصود بقول المحدثين رواه الترمذى فى العلل ، ولكن مما يؤسف له ، ان هذا الكتاب غير موجود بأيدينا ، فهو من الكتب المفقودة ، ولعله يكون مخطوطا ضمن مخطوطات خزانات الكتب الأجنبية أو اندثر ضمن ما اندثر من تراثنا العزيز تحت غبار السنين والقرون .

وهذا هو ما دعا البعض أن يقول : انهما كتاب واحد .

وأرى ان كتاب العلل الكبير ، غير كتاب العلل الصغير ، لما روى من الاحاديث عن (العلل الكبير) وهى غير موجودة فى العلل الصغير .

ومثال ذلك ما رواه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمر عن اخته حفصه قالت : قال رسول الله ﷺ : (من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له) وقد أعل الترمذى وأحمد والنسائى هذا الحديث لمخالفة عبد الله بن أبى بكر بن عمر بن حزم الذى تفرد به من هم أكبر منه قدرا كابن عيينه ويونس الايلى وغيرهما ممن رووه موقوفا على حفصه ، ولما رواه نافع فى رواية مالك موقوفا على ابن عمر ، كما ظهرت بعض القرائن فى ذلك وهى كثرة الاختلاف فى سند الحديث حتى رجحوا رواية الوقف على رواية عبد الله بن أبى بكر قال الترمذى فى العلل : (وهو خطأ ، وهو حديث فيه اضطراب ، والصحيح عن ابن عمر موقوفا) .

٧ ـ المشيخات

ومن الأنواع التى صنفت فى القرن الثالث كذلك « كتب المشيخات » وهى التى تشتمل على ذكر الشيوخ الذين لقيهم المؤلف وأخذ عنهم ، وإجازوه وإن لم يلقهم .

كمشيخة الحافظ أبى يعلى الخليلى ، ومشيخة أبى يوسف يعقوب بن سفيان بن حيان ، المتوفى سنة سبع وسبعين ومائتين ومشيخته فى ستة أجزاء مرتبة على البلاد .

٨ - الطبقات

ومن الأنواع التى صنفت فى هذا القرن أيضا « كتب الطبقات » وهى التى تشتمل على ذكر الشيوخ وأحوالهم ، ورواياتهم طبقة بعد طبقة ، وعصرا بعد عصر الى زمن المؤلف . وتقدم الحديث عن طبقات ابن سعد الكبرى . وممن ألف كذلك فى هذا القرن الثالث أبو عمرو خليفة بن خياط ابن خليفة الشيبانى العصفرى البصرى الحافظ أحد شيوخ البخارى ألف « طبقات الرواة » وتوفى سنة ثلاثين وقيل : سنة أربعين أو ست وأربعين ومائتين .

---

(٧) رواه أبو داود جـ ٢ ص ٣٢٩ ، والنسائى جـ ١ ص ٣٢٠ ، والترمذى . جـ ١ ص ١٤١ ، وابن ماجه جـ ١ ص ٥٢٠ .

٩ - رواية الأكابر عن الاصاغر والآباء عن الابناء

وهو من أهم الأنواع ، ومن فوائده ألا يتوهم أن المروى عنه أفضل وأكبر من الراوى لكونه الأغلب فى ذلك ، ومنها ألا يظن أن فى السند انقلابا . وهو أقسام :

١ - أن يكون الراوى أكبر سنا ، وأقدم طبقة من المروى عنه كالزهرى ويحيى بن سعيد الانصارى فى روايتهما عن مالك بن أنس .

٢ - أن يكون الراوى أكبر قدرا لا سنا كمالك فى روايته عن عبد الله بن دينار ، وأحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه فى روايتهما عن عبيد الله بن موسى العبسى .

٣ - ان يكون الراوى أكبر من المروى عنه من الوجهين معا كعبد الغنى فى روايته عن الخطيب ، وكالخطيب فى روايته عن ابن ماكولا[٨] .

ومن الكتب المصنفة فى هذا النوع فى القرن الثالث : كتاب (ما رواه الكبار عن الصغار والآباء عن الأبناء) .

تأليف الحافظ أبى يعقوب بن ابراهيم ين يونس بن المنجنيقى البغدادى الوراق نزيل مصر المتوفى سنة أربع وثلاثمائة[٩] .

والحق ان أنواع علوم الحديث كثيرة لا تعد . وكما قال الحازمى : علم الحديث يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ مائة كل نوع منها علم مستقل ، لو أنفق الطالب فيه عمره لما أدرك نهايته .

---

(٨) تدريب الراوى ص ٤٢ .

(٩) الرسالة المستطرفة .

البحث الثانى

مصنفات موائمة لنهضة التدوين

فى القرن الثالث الهجرى

أقدم فى هذا البحث المصنفات التى صنفت ، قبل الأئمة الستة ، وفى زمنهم وبعدهم ، تلك المصنفات التى وافقت نهضة التدوين فى القرن الثالث الهجرى وكانت لها مناهج بعضها يعتبر متفرعا من مناهج التدوين الأساسية ، التى سبق ذكرها فى الباب الثانى . وقد أدلى بعض الأئمة الستة بدلوه فى مجال هذه المصنفات .

وفى بحثنا هذا أريد أن أبرز هذه المناهج التى قامت تلك المصنفات على أساسها ، مشيرا الى ما كان موجودا منها فى القرن الثالث وهى :

الأجـزاء

يطلق الجزء عند علماء الحديث على تأليف الأحاديث المروية عن رجل واحد من الصحابة أو من بعدهم ، وقد يختارون من المطالب المذكورة فى صفة الجامع مطلبا جزئيا يصنفون فيه مبسوطا ، وفوائد حديثية ووحدانيات وثنائيات[1] كما صنف أبو بكر بن أبى الدنيا فى باب النية وذم الدنيا كتابين مبسوطين .

معنى الجامع :

ومعنى « الجامع » الذى قد يختار مؤلفوا الأجزاء أحد مطالبه ، فهو فى اصطلاح المحدثين[2] ما وجد فيه جميع أقسام الحديث مثل أحاديث العقائد ، وأحاديث الاحكام ، وأحاديث الرقاق واحاديث آداب الأكل والشرب واحاديث السفر والقيام والقعود

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ٨٦ ط بيروت .

(٢) مقدمة تحفة الاحوذى جـ ١ ص ٦٤ .

والاحاديث المتعلقة بالتفسير والتاريخ والسيرة واحاديث الفتن وأحاديث المناقب والمثالب وقد صنف أهل العلم بالحديث فى كل من هذه الفنون الثمانية تصانيف مفردة .

ومن ألف على طريقة الاجزاء فى القرن الثالث الهجرى :

١ - أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن المثنى بن عبد الله بن أنس بن مالك الانصارى البصرى القاضى الثقة شيخ البخارى ، توفى سنة خمس عشرة ومائتين ، ويعتبر جزؤه من الأجزاء العالية الشهيرة .

٢ - أبو الحسن على بن الجعد بن عبيد الهاشمى مولاهم الجوهرى المتوفى سنة اثنين وثلاثين ومائتين ، وله الأجزاء الجعديات وهى اثنا عشر جزءا .

٣ - جزء لؤين محمد بن سليمان بن حبيب المصيصى المتوفى سنة خمس أو ست وأربعين ومائتين .

٤ - جزء أبى بكر احمد بن عبد الله بن سويد بن منجوف السدوسى ، ويعرف بالمنجوفى نسبة الى جده المذكور ، وهو من مشايخ البخارى فى الصحيح توفى سنة اثنين وخمسين ومائتين .

٥ - جزء أبى الحسن بن عرفة بن يزيد العبدى البغدادى المعمر المتوفى سنة سبع وخمسين ومائتين وقد جاوز المائة .

٦ - وجزء أبى مسعود أحمد بن الفرات بن خالد الرازى نزيل أصبهان ومحدثها ، وصاحب التصانيف ، الحافظ الثقة ، توفى سنة ثمان وخمسين ومائتين ، قال الذهبى : وجزؤه من أعلى ما يسمى اليوم ، ونقل عنه أنه قال : كتبت عن ألف وسبعمائة شيخ ، وكتبت ألف ألف حديث وخمسمائة فعملت من ذلك فى تأليفى خمسمائة ألف حديث .

٧ - وكتب فى الفوائد « مثل فوائد أبى بشر اسماعيل بن عبد الله ابن مسعود العبدى الاصبهانى الملقب بسمويه » وهى فى ثمانية أجزاء قال الذهبى : ومن تأمل فوائده المروية علم اعتناءه بهذا الشأن ، توفى سنة سبع وستين ومائتين .

٨ - وجزء القناعة لابى العباس احمد بن محمد بن مسروق المتوفى سنة تسع وتسعين ومائتين .

٩ - « فوائد » أبى محمد عبد الله بن احمد بن موسى بن زياد العسكرى نسبة الى عسكر الاهوازى الجواليقى المعروف بعبدان المتوفى سنة ست وثلاثمائة .

المستخرجات

ومنهج التصنيف على المستخرجات أن يأتى المصنف الى الكتاب فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب فيجتمع معه فى شيخه أو من فوقه ، وربما أسقط صاحب المستخرج أحاديث من الكتاب الذى يستخرج احاديثه لأنه لم يجد له بها سندا يرتضيه ، وربما ذكرها من طريق الكتاب الأصلى .

وممن ألف على هذه الطريقة من علماء القرن الثالث :

١ - الحافظ ابو بكر محمد بن رجاء النيسابورى الاسفرايينى المتوفى سنة ست وثمانين ومائتين .

٢ - الحافظ ابو الفضل احمد بن سلمة النيسابورى البزار ، قال الذهبى : له مستخرج كهيئة صحيح مسلم توفى سنةست وثمانين ومائتين .

٣ - الحافظ ابو جعفر أحمد بن حمدان بن على بن عبد الله بن سنان الحيرى نسبة الى الحيرة محلة كبيرة مشهورة بنيسابور توفى سنة احدى عشرة وثلاثمائة .

٤ - مستخرج ابى بكر بن منجويه وابى على الحسن بن على بن نصر الخراسانى الطوسى شيخ أبى حاتم الرازى توفى سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة ، كل منهما على الترمذى وقد شارك الثانى منهما الترمذى فى كثير من شيوخه .

الشمائل

ومن طرق التصنيف فى القرن الثالث طريقة تدوين الاحاديث النبوية الخاصة بالشمائل النبوية والسير المصطفوية ويقوم التأليف فى هذه الطريقة على وصف رسول الله ﷺ وهو جانب هام وكريم من جوانب السنة النبوية ، ومعلوم أن الحديث هو ما أضيف الى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة وهذا الاخير هو صفة رسول الله ﷺ وهو المقصود بالتصنيف على هذه الطريقة . ولا شك أن هذا الجانب من السنة يهتدى به عشاق الحضرة ومحبو السنة النبوية ، الذين رأوا فى صاحبها سعادة دنياهم واخراهم ، فساروا على مبادئه وفضائله ، وتعللوا بذكر الحبيب وشمائله ، قال الشيخ محمد بن محمد الجزرى .

اخلاى إن شط الحبيب وربعه   وعز تلاقيه وناءت منازله
وفاتكم أن تبصروه بعينكم   فما فاتكم بالعين هذى شمائله

ومن ألف فى الشمائل من علماء القرن الثالث :

١ - أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى المصرى الذى هذب السيرة لمحمد بن اسحاق ، فصارت تنسب إليه ، رواها عن زياد بن عبد الله البكائى عنه ، توفى سنة ثمان عشرة ومائتين .

٢ - ابو عبد الله احمد بن محمد بن عائذ القرشى الدمشقى الحافظ الثقة توفى سنة ثلاث أو أربع وثلاثين ومائتين .

٣ - المغازى لابى أيوب يحيى بن سعيد بن ابان بن سعيد بن العاص الاموى الكوفى نزيل بغداد الملقب بالجمل توفى سنة أربع وتسعين ومائتين .

ومن أهم ما ألف فى هذا النوع .

كتاب الشمائل للامام الترمذى

وكتاب الشمائل للامام الترمذى من الكتب العظيمة القدر فى هذا الجانب وقد تلقاه العلماء بثناء عاطر وقابلوه بتقدير عظيم ، قال الشيخ ابراهيم الباجورى[٣] ان كتاب الشمائل للامام الترمذى كتاب وحيد فى بابه فريد فى ترتيبه واستيعابه حتى عد ذلك من المواهب وسار فى المشارق والمغارب .

واشتمل كتاب الشمائل على ستة وخمسين بابا ، وضع لكل باب عنوانه المناسب وقام بترتيب الأبواب ، متدرجا من جانب الى آخر ، فابتدأه بما جاء فى خلق الرسول صلوات الله وسلامه عليه متناولا بيان صفاته البدنية الشريفة ، ثم مظهره العام ، ثم الملبس . . . ثم ما يتعلق بحياته اليومية وعاداته الشخصية ثم ما كان عليه من الخلق العظيم ، وهكذا سارت طريقة الكتاب فى هذا التسلسل المنطقى السليم حتى جاء الى باب ما جاء فى وفاته ﷺ ثم ميراثه ، ثم رؤيته ﷺ فى المنام .

وكان يروى الاحاديث الخاصة بكل موضوع فى بابها المناسب الذى اعده لها ولم يتكلم الامام الترمذى على الاحاديث من ناحية تصحيحها أو تضعيفها .

درجة احاديثه :

أما عن درجة احاديث الكتاب فقد حاول الامام أبو عيسى أن يروى أصح الاحاديث واحسنها فى هذا الموضوع ولكنه لم يشترط تخريج الحديث الصحيح فحسب ، ولا بيان درجة كل حديث .

---

(٣) الرسالة المستطرفة للكتانى ، الترمذى للدكتور نور الدين عتر .

مثال ما جاء فى الكتاب :

(حدثنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن ربيعة ابن ابى عبد الرحمن عن انس بن مالك رضى الله عنه أنه سمعه يقول (كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير ولا بالأبيض الأمهق أى شديد البياض ولا بالآدم ولا بالجعد القطط ولا بالسبط (المسترسل) بعثه الله تعالى على رأس أربعين سنة ، فأقام بمكة عشر سنين ، وبالمدينة عشر سنين وتوفاه الله على رأس ستين سنة ، وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء) ولعل المراد بالعشر سنوات فى مكة من ابتداء الجهر بالدعوة وهذا الحديث من أول الكتاب ورواته ثقات .

كتب مفردة فى أبواب مخصوصة

ومن علماء القرن الثالث من ألف فى كتب مفردة فى أبواب مخصوصة كالطهور والصلاة وهكذا . وممن ألف فى ذلك :

١ - أبو نعيم الفضل بن دكين الكوفى مولاهم الحافظ توفى سنة ثمان عشرة أو تسع عشرة ومائتين وهو من كبار شيوخ البخارى ألف كتاب « الصلاة » .

٢ - وممن ألف فى كتب مفردة فى أبواب مخصوصة أيضا : أبو عبيد القاسم بن سلام كان أبوه عبدا روميا لرجل من أهل هراة ، البغدادى اللغوى الشافعى الحافظ ألف « الطهور » توفى بمكة وقيل بالمدينة سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع وعشرين ومائتين .

٣ - أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعى نزيل مصر أول من جمع المسند . ألف « الفتن والملاحم » توفى سنة ثمان وعشرين ومائتين .

٤ - أبو خيثمة زهير بن حرب بن شداد الحربى النسائى البغدادى الحافظ ألف كتاب « العلم » روى عنه مسلم أكثر من الف حديث ، توفى سنة أربع وثلاثين ومائتين .

٥ - أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله النسائى الازدى المعروف بابن زنجويه ، وهو لقب ابيه توفى سنة ثمان وأربعين ، وكتابه كالمستخرج على كتاب « الاموال » لابى عبيد ، وشاركه فى بعض شيوخه وزاد عليه زيادات .

٦ - ومن الكتب المؤلفة فى هذا النوع : « كتاب الايمان » لاحمد بن حنبل ولابى بكر ابن ابى شيبة ، ولابى الفرج عبد الرحمن بن عمر بن يزيد بن كثير الزهدى الاصبهانى الحافظ الملقب برسته توفى سنة خمسين أو ست وأربعين ومائتين .

٧ - كتاب (الاخلاص) لابى بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس المعروف بابن أبى الدنيا الاموى مولاهم البغدادى توفى سنة احدى وثمانين ومائتين .

٨ - كتاب (سجدات القرآن) لابى اسحاق ابراهيم بن اسحاق ابن بشير الحربى البغدادى الشافعى ، وله مصنفات كثيرة ، توفى ببغداد سنة خمس وثمانين ومائتين .

٩ - كتاب (الصلاة) لأبى عبد الله محمد بن نصر المروزى ، توفى بسمرقند سنة أربع وتسعين ومائتين .

١٠ - كتاب (التهجد) لابن أبى الدنيا ، « وكتاب العيدين » له أيضا ولابى بكر جعفر بن محمد بن الحسن الفريابى نسبة الى بلد بالترك يقال لها « فرياب » توفى ببغداد سنة احدى وثلاثمائة .

احاديث بعض شيوخ
مخصوصين من المكثرين

ومن الكتب التى ألفت فى هذا القرن أيضا ، كتب دون فيها مصنفوها أحاديث شيوخ مخصوصين من المكثرين ومن هذه الكتب :

١ - « أحاديث محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى » لابى عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الله بن خالد بن فارس بن ذؤيب الذهلى . توفى سنة ثمان ، وقيل سنة سبع وخمسين ومائتين وهى المسماة (بالزهريات) فى مجلدين ، جمع فيها حديث ابن شهاب الزهرى وجوده وكان قد اعتنى به ، ونقب عليه ، وكان من أعلم الناس بحديثه .

٢ - وممن ألف فى هذا النوع أيضا : أبو بكر محمد بن مهران النيسابورى المعروف بالاسماعيلى جمع حديث الزهرى وجوده ، كما جمع حديث مالك وجوده ، وحديث يحيى ابن سعيد وحديث عبد الله بن دينار ، وحديث موسى بن عقبة ، توفى سنة خمس وتسعين ومائتين .

كتب السنة

ومن أنواع المصنفات فى القرن الثالث كذلك : كتب تعرف بكتب السنة ، وهى الكتب الخاصة على اتباع السنة والعمل بها ، وترك ما حدث بعد الصدر الاول وما بعد ذلك من البدع والاهواء ، منها كتاب « السنة » للامام احمد بن حنبل ، ولابى داود كتاب أيضا فى هذا النوع ومنها كذلك :

١ ـ كتاب « الاستقامة فى الرد عل أهل البدع » لابى عاصم خشيش بن أحرم النسائى الحافظ ، توفى سنة ثلاث وخمسين ومائتين .

٢ ـ كتاب « السنة » لابى على حنبل بن اسحاق بن حنبل بن هلال ابن أسد الشيبانى الحافظ ابن عم الامام أحمد ، وتلميذه ، توفى سنة ثلاث وسبعين ومائتين .

٣ ـ كتاب أبى بكر أحمد بن عمرو بن النبيل (أبى عاصم) الضحاك بن مخلد الشيبانى البصرى قاضى اصبهان ، توفى سنة سبع وثمانين ومائتين .

٤ ـ ولابى بكر احمد بن هارون البغدادى الحنبلى المعروف بالخلال مؤلف علم احمد ابن حنبل وجامعه ومرتبه ، توفى سنة احدى عشرة وثلاثمائة ، وهو فى ثلاثة مجلدات وله أيضا كتاب (العلل) وهو فى عدة مجلدات وغيره من التصانيف .

الكتب المفردة
فى
الآداب والأخلاق والترغيب
والترهيب والفضائل ونحوها

ومن الكتب المؤلفة فى هذا النوع :

١ - « كتاب الزهد » لابى السرى هناد بن السرى بن مصعب التميمى الدارمى الحافظ المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين .

٢ - « كتاب أخبار المدينة » لابى عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب ابن ثابت القرشى الاسدى المدنى القاضى المتوفى سنة ست وخمسن ومائتين .

٣ - وكتاب أبى زيد عمر بن شبة ، واسمه زيد و(شبه) لقبه ، ابن زيد النميرى ، نزيل مصر ، وصاحب تاريخ مصر المتوفى سنة اثنتين أو ثلاث وستين ومائتين .

٤ - كتاب « فضائل القرآن » لابى عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى المعروف بابن (الضريس) المتوفى بالرى سنة أربع وتسعين ومائتين .

٥ - « نوادر الاصول فى احاديث الرسول » ﷺ وهى ثلاثمائة حديث أصل الا تسعة لابى عبد الله محمد بن على بن الحسن بن بشر الملقب بالحكيم الترمذى الصوفى ، وله مختصر قدر ثلثه ، توفى ببلخ سنة خمس وتسعين ومائتين .

٦ - (المجالسة وجواهر العلم) لابى بكر احمد بن مروان بن محمد الدينورى نسبة الى « دينور » بلد بين الموصل واذربيجان ، جمع فى كتابه علوما كثيرة من التفسير ، والاحاديث والآثار ، وغير ذلك ، توفى سنة ثمان وتسعين ومائتين .

٧ - « فضائل المدينة » و « فضائل مكة » كلاهما لابى سعيد المفضل بن محمد بن ابراهيم الجندى نسبة الى « الجند » بلدة باليمن ، توفى سنة ثلاثمائة (٤) .

---

(٤) الرسالة المستطرفة ص ٥٠ .

٨ ـ « الادب المفرد » للامام البخارى .

وهناك سوى هذه الكتب ، فقد أبان عن ذلك ولى الله الدهلوى بقوله : « والطبقة الثالثة مسانيد وجوامع ومصنفات صنفت قبل البخارى ومسلم ، وفى زمانهما ، وبعدهما ، جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف والمعروف والغريب والشاذ والمنكر والخطأ والصواب والثابت والمقلوب ، ولم تشتهر فى العلماء ذلك الاشتهار ، وإن زال عنها اسم النكارة المطلقة ، ولم يتداول ما تفردت به الفقهاء كثير تداول ، ولم يفحص عن صحتها وسقمها المحدثون كثير فحص ... ثم قال : فهى باقية على استتارها واختفائها[٥] أ . هـ . فدرجة تلك الكتب اذا ، تأتى فى الرتبة بعد الكتب الستة ولنتحدث عن واحد من هذه الكتب وهو كتاب « الادب المفرد » للامام البخارى .

---

(٥) حجة الله البالغة جـ ١ ص ٥٧ .

كتاب الأدب المفرد
للامام البخارى

دون الامام البخارى فى كتابه الادب المفرد مجموعة من السنة النبوية التى تدعو الى حسن الخلق وحسن المعـاملة ، و« الادب » هو استعمـال ما يحمـد قولا وفعـلا ، وعبر البعض عنه بأنه الأخذ بمكارم الاخلاق ، وقيل : هو الوقوف مع المستحسنات ، وقيل هو تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك ، وقيل : أنه مأخوذ من المأدبة وهى الدعوة الى الطعام سمى بذلك لانه يدعى اليه « أ . هـ » . وكل الآراء ما عدا الاخير تتفق فى معنى انه الاخذ بمكارم الاخلاق ، وهو المراد بتسمية هذا الكتاب .

« والمفرد » يراد : المفرد عن الجامع الصحيح ، اذ أنه اشتمل على أحاديث زائدة على ما فى الصحيح ومنه قليل من الاثار الموقوفة وهو كثير الفائدة كما قرر الحافظ ابن حجر .

وروى كتاب « الأدب المفرد » عن الامام البخارى : أبو الخير احمد بن محمد بن الجليل البزار[٦] . وقد جاء كتاب الادب المفرد للبخارى جيد التصنيف وافيا فى بابه فطابق اسمه مسماه .

وقد ابتدأ الامام البخارى هذا الكتاب بعد البسملة بباب قوله تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا » أخبرنا أبو نصر أحمد بن محمد بن الحسن بن حامد بن هارون بن عبد الجبار البخارى المعروف بابن النيازكى قرأه عليه فأقر به ، قدم علينا حاجا فى صفر سنة سبعين وثلاثمائة قال : اخبرنا أبو الخير احمد بن محمد بن الجليل بن خالد حريث البخارى الكرمانى البزار سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ابن ابراهيم بن المغيرة بن الاحنف الجعفى البخارى قال : حدثنا أبو الوليـد قال : حدثنا شعبة قال الوليد أو اخبرنى قال سمعت أبا عمر الشيبانى يقـول : حدثنـا صاحب هذه الدار وأومأ بيده الى دار عبد الله قال : سألت النبى ﷺ أى العمل احب الى الله عز وجل ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى قال : بر الوالدين ، قلت ثم أى ؟ قال : ثم الجهاد فى سبيل الله ، قال : حدثنى بهن ولو استزدته لزادنى .

---

(٦) هدى السارى ص ٤٩٣ .

كما ذكر (باب بر الأم) حدثنا أبو عاصم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قلت : يا رسول الله من أبر ؟ قال : أمك قلت : ثم من أبر ؟ قال أمك ، قلت : من أبر ؟ قال أمك ، قلت من أبر ؟ قال : أباك ثم الأقرب فالأقرب .

وذكر (باب بر الاب) حدثنا سليمان بن حرب قال : حدثنا وهيب بن خالد بن شريحة قال : سمعت أبا زرعة عن أبى هريرة قال : قيل يا رسول الله من أبر ؟ قال : أمك ، قال ثم من قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال أباك .

وذكر « باب بر الوالدين وإن ظلما » « وباب لين الكلام لوالديه » « وباب حب الوالدين » « وباب عقوق الوالدين » « وباب لعن الله من لعن والديه » « وباب بر والديه ما لم يكن معصية » وهكذا ، وآخر الكتاب باب « أحبب حبيبك هونا ما » « وباب لا يكن بغضك تلفا » .

وبهذا نكون قد كشفنا القناع عن حقائق هامة فى تاريخ تدوين السنة ، وعن كنوز ثمينة من تراثنا الاسلامى العظيم ، بعضها استطعت الحصول عليه فقدمت عنه من الدراسة ما وفقنى الله اليه ، وما تحتمله طاقة هذا الكتاب وبعضها الآخر غير موجود بأيدينا منه المخطوط فى خزانات المكتبات الاجنبية ومنه المفقود ، ولعلى بهذا أكون قد قدمت دراسة مخلصة وأمينة عن جهود ائمة القرن الثالث ، ومهدت طريق البحث لمحبى السنة النبوية ، وعشاق المعرفة ، حتى ننفض عن تراثنا الخالد غبار عهود طويلة .

الرد على مطاعن بعض المستشرقين واتباعهم

١ - يقول المستشرق المجرى جولد تسيهر : « ان القسم الاكبر من الحديث ليس الا نتيجة للتطور الدينى والسياسى والاجتماعى للاسلام فى القرنين : الاول ، والثانى ، وأنه ليس صحيحا ما يقال من أنه وثيقة للاسلام فى عهده الاول عهد الطفولة ، ولكنه أثر من آثار جهود الاسلام فى عصر النضوج »[٧] .

الرد على ذلك : وهذه الدعوى الزائفة تنهار أمام أدلة النقل من الكتاب والسنة وأمام المنطق العقلى السليم فان رسول الله ﷺ لم يلحق بالرفيق الاعلى الا بعد كمال الدين وتمام نعمة الاسلام ومن أواخر ما نزل عليه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »[٨] .

وقال ﷺ « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى » .

وقد تضاربت المقاييس الثابتة والمناهج الدقيقة التى لم تتوفر لأى ثقافة أخرى ولم تعرف الدنيا أدق من هذه الموازين العلمية التى وضعت لقبول الرواية أو ردها . على هذا الاساس تلقى الخلف عن السلف سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام حتى وصلت إلينا صحيحة ثابتة .

وأما زعم هذا المستشرق أن أغلب الاحاديث من وضع المسلمين نتيجة للتطور ـ فهو كذب وافتراء يدحضه ويرده ما ثبت بالواقع والتاريخ من الاحاديث الصحيحة الوافرة التى نقلت عن النبى ﷺ وحفظها الصحابة وأخذها عنهم ثقات الرواة طبقة بعد طبقة وعصرا بعد عصر حتى وصلت إلينا نقية سليمة وتلقاها الأئمة على مر العصور بجهاد مشكور فنفوا كل كذب وبالغوا فى التثبت والحيطة وسطروها على صفحات قلوبهم الواعية وصدورهم الامينة ، ودونوها فى صحفهم وكتبهم الصحيحة التى التزموا فيها بنقد السند والمتن

---

(٧) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ص ١٢٧ عن كتاب : دراسات اسلامية لجولد تسهير .
(٨) سورة المائدة آية ٣ .

مستجيبين لنبيهم عليه الصلاة والسلام الذى أمرهم بالصدق والمحافظة على حديثه الشريف .

وكما سبق فى بيان حجية السنة يتضح ثبوت الحديث الشريف ، وفساد هذه الدعاوى الزائفة ، وهكذا تنهار هذه الدعوى الباطلة التى لا أساس لها من الصحة .

٢ ـ وهناك دعوى أخرى تحمل قاعدة خطيرة خلاصتها : أن الاعتراف بصحة الحديث أمر شكلى ، يقول جولد تسيهر ، قد شعر المسلمون فى القرن الثانى بأن الاعتراف بصحة الاحاديث يجب أن يرجع الى الشكل فقط ، وانه يوجد بين الاحاديث الجيدة الاسناد كثير من الاحاديث الموضوعة ، وساعدهم على هذا ما ورد من الحديث : « سيكثر الحديث عنى فمن حدثكم بحديث فطبقوه على كتاب الله فما وافقه فهو منى قلت أو لم أقله » هذا هو المبدأ الذى حدث بعد قليل عند انتشار الوضع « أ . هـ » .

والرد على هذه الفرية : انه لم ينقل عن احد من المسلمين أن الاعتراف بصحة الحديث أمر شكلى أو أن من بين الاحاديث الجيدة الاسناد الكثير من الاحاديث الموضوعة وانما كل ما نقل عنهم هو ما رآه البعض بالنسبة لاحاديث الاحاد من أنها تفيد الظن كما سبق بيان ذلك ، وهذا مبالغة فى الحيطة والتثبت .

وأما ما ادعاه هذا المستشرق فى تدعيم دعواه من حديث : « سيكثر الحديث بعدى . . . الخ » فقد نقد الائمة هذا الحديث ، وبينوا أنه موضوع فكيف ينهض دليلا على القاعدة الخطيرة التى وضعها هذا المغرور ؟ وقد قام المحدثون بمناهجهم وشروطهم التى ميزوا بها بين الصحيح وغيره وبين الصالحين للرواية وغير الصالحين كما ردوا بعض الاحاديث التى لم تنطبق على رواتها شروطهم ، وردوا بعض أحاديث الصالحين « ولم يكتفوا فى الرواة بالصلاح وحسن السيرة حتى يجمعوا الى ذلك الحفظ والضبط واليقظة التامة »[٩] « أ . هـ » .

وقال الامام مالك : « لا يؤخذ العلم من أربعة ، ويؤخذ من سواهم لا يؤخذ من سفيه ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الى بدعته ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس وان كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة اذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به »[١٠] .

---

(٩) الحديث والمحدثون الدكتور محمد أبو زهو ص ٣١٢ .

(١٠) مالك حياته وعصره : الاستاذ محمد أبو زهرة .

فهم يشترطون فيمن يأخذون عنهم ألا يكون الواحد منهم سفيها به حمق ، وعدم اتزان ، أو يكون عابدا ولكنه لا يزن الامور بدقة ، ولا صاحب بدعة يدعو إليها ، هذا مع الضبط والفهم .

٣ - وهناك طعن آخر ، وهو ما زعمه هذا المستشرق من أن السنة منقولة عن الأمم الأخرى ، قال جولد تسيهر : « هناك جمل اخذت من العهد القديم والعهد الجديد وأقوال الربانيين أو مأخوذة من الاناجيل الموضوعة ، وتعاليم من الفلسفة اليونانية وأقوال من حكم الفرس والهنود - كل ذلك أخذ مكانه فى الاسلام عن طريق الحديث »[١١] « أ . هـ » .

الرد على ذلك :

فى هذه الشبهة يورد المستشرق أن الاسلام أخذ من اليهودية والنصرانية والفلسفات الأخرى ، وكيف يتأتى هذا والمسافة الزمنية بعيدة جدا بين الاسلام وغيره من الاديان السابقة ؟ والرسول أمى لم يتل كتابا من قبل ولا خط بيمينه قال تعالى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون* بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون »[١٢] .

نعم توجد أشياء من أخبار الرسل السابقين فى الكتاب والسنة ، وهناك تشابه بين الاسلام وغيره فى بعض الامور ، ولكن ليس معنى هذا أن الاسلام أخذ عن السابقين أو قلد سواه ، وانما ذكرت اخبار الرسل لأنهم إخوة اتحدوا فى الهدف وهو التبليغ عن الله الواحد وبعضهم يصدق بعضا .

وقد وجدت محاولات عديدة لتسلل الاسرائيليات وغيرها الى الاسلام ولكن العلماء المجاهدين ، الذين سهروا للدفاع عنه ، ورابطوا حول أصوله حالوا دون هوى المغرضين . وكيف يتصور ان الاسلام نقل عن غيره وهو الدين الشامل الكامل الذى اشتمل على ما لم يشتمل عليه ما سبقه ؟

وأن الناظر الى صحف اليهود الآن لا يرى فيها شيئا عن الجنة والنار ولا الدار الآخرة فكيف يأخذ منها ؟

وواضح مما سبق بيانه من جهود المسلمين سلفا وخلفا أن السنة النبوية حفظت من كل دخيل وموضوع وكيف لا وهى المبينة للقرآن الكريم الذى تكفل الله تعالى بحفظه .

(١١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ٥١ .
(١٢) سورة العنكبوت آية ٤٨ ، ٤٩ .

نتائج هذا الباب

وأستطيع أن اخلص من هذا الباب ببعض النتائج الهامة عن دراسة السنة النبوية رواية ودراية فى القرن الثالث الهجرى الذى اتسم بانه العصر الذهبى لتدوين الحديث من اجلها .

أولا : من ناحية رواية الحديث :

١ - بلغت الرواية الشفاهية فى هذا القرن منتهاها حتى كان الامام الحافظ من أئمة هذا القرن يحفظ الآلاف من الحديث الصحيح والبعض كان يجمع فى حفظه بين الصحيح وغير الصحيح وهذا منتهى الحيطة والتمييز ، وكان من أئمة هذا الشأن أمير المؤمنين فى الحديث أبو عبد الله البخارى الذى قال : « احفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتى حديث غير صحيح ، وكان حفظهم للاحاديث حفظ المتقن المتثبت كما يقول أبو زرعة : « احفظ مائة ألف حديث كما يحفظ الانسان قل هو الله أحد » (١٣) بل انه بلغت درجة الاتقان فى الحفظ بحيث يملى الامام منهم الاحاديث ثم يقرؤها على من معه فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا يقول أبو دأود الخفاف : « أملى علينا اسحاق بن راهويه أحد عشر ألف حديث ثم قرأها علينا فما زاد حرفا ولا نقص حرفا »(١٤) .

٢ - وصل ائمة الحديث فى التصنيف الى اسمى درجات الضبط والاتقان فى مناهجهم المختلفة فمنهم من تخصص لتدوين أكبر عدد من أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه فجمعها على طريقة المسانيد ومنهم من خدم الفقه الاسلامى فقام بتبويب الاحاديث وتصنيفها حسب الابواب الفقهية كما كان من بين مصنفات هذا القرن كتب خصصها أصحابها فى نوع خاص من السنة كالاجزاء والعلل والشمائل والكتب المفردة فى أبواب مخصوصة وما التزم اصحابها فيها الصحة وأحاديث بعض الشيوخ المكثرين والكتب الخاصة على اتباع السنة والكتب المفردة فى الآداب والأخلاق .

---

(١٣) مقدمة تحفة الاحوذى جـ ١ ص ٤٧٦ .

(١٤) تذكرة الحفاظ للذهبى جـ ٢ ص ٤٣٤ .

ثانيا : من ناحية علم دراية :

١ - ابتدأ تدوين مسائل هذا العلم فى أبواب ، وفى بعض أنواع منه أثناء هذا القرن وأول من ألف فيه هو الامام على بن المدينى ، ثم كانت مسائل هذا العلم مبثوثة فيها كتبه البخارى ومسلم ، نعم نشأت أصول هذا العلم قبل ذلك مع نشأة الحديث ، اذ كانوا يتثبتون وينقدون وازداد هذا الحرص منذ وقوع الفتن ، وقالوا سموا لنا رجالكم ، وكتب الامام الشافعى بعد ذلك بعض المسائل فى كتابيه : « الرسالة والأم » وكانت كلها بوادر لهذا العلم أو نواة لأصوله ، أما فى القرن الثالث فقد جمعت بعض هذه المسائل وكان أول من اشاعها وجمعها الامام الترمذى فى خاتمة جامعه فلما كان القرن الرابع ونضجت العلوم ألف القاضى الرامهرمزى ، وتتابع التصنيف بعد ذلك .

٢ - وقد اضطلع علماء هذا القرن فى هذا الفن بمصنفات نفيسة فى معرفة الاسماء والكنى والالقاب وتواريخ الرجال وأحوالهم والمشيخات والطبقات . وعلل الحديث ورواية الاكابر عن الاصاغر والآباء عن الأبناء وكتب فى الضعفاء والمجروحين من الرواة وفى الثقات منهم وكتب فى بيان غريب الحديث ، وفى معرفة الصحابة وهكذا .

ثالثا : من ناحية أئمة الحديث :

وأما عن أئمة الحديث فقد اتسموا بسمات عظيمة ورائعة جعلتهم درة فى جبين الدهر وشموسا خالدة الاشعاع بمصنفاتهم الحديثية العظيمة وكانت هذه السمات بعضها فطرى وبعضها مكتسب .

١ - أما السمات الفطرية فقد منحهم الله حوافظ قوية ، وصدورا أمينة فسطروا على صفحات قلوبهم المشرقة بالإيمان سنة رسولهم صلوات الله وسلامه عليه ، فما نسوا ولا جهلوا بل سلموا السنة إلى من بعدهم من أهل القرن الرابع نقية بيضاء .

٢ - وأما السمات المكتسبة :

(أ) فمنها أنهم أخذوا أنفسهم بالجهاد والورع ورياضة النفس حتى جمعوا بين العلم والعمل .

(ب) وكانت همهم فى تدوين الحديث النبوى وحبهم لرسولهم صلوات الله وسلامه عليه ناشئا معهم منذ صغرهم فترعرعت نفوسهم على حب السنة وعاشوا حياتهم من اجلها رواية وكتابة ومذاكرة .

(ج) وكانت لهم رحلاتهم العلمية التى استهدفوا منها جمع ما فى الاقطار الاسلامية الاخرى من الاحاديث فلم يكتفوا بأخذ العلم من علماء قطرهم فحسب بل كانت الرحلة أهم مطالبهم ، وكان منهم من يشد رحاله الى البلاد النائية سيرا على قدميه ومنهم من ابتدأ رحلته وهو ابن خمس عشرة سنة أو ابن عشرين كأبى يعلى الموصلى الحافظ المتوفى سنة ٣٠٧ هـ (١٥) ومنهم من استمر فى رحلته سنين طويلة .

وهكذا كان القرن الثالث الهجرى أزهى العصور فى تدوين السنة النبوية بأئمته ومصنفاته التى جمعت كل مصنفات ومرويات الأئمة السابقين ، فكان بحق أعظم العصور فى التحصيل والتدوين بأنواعه المختلفة وأغراضه المتنوعة .

---

(١٥) تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ٧٠٨ .

الباب الرابع

أثر علماء القرن الثالث فى العصور المتأخرة

اثر علماء القرن الثالث
فى العصور التالية

كان القرن الثالث الهجرى أزهى عصور السنة ، ظهر فيه الأئمة الأفذاذ من حفاظ الحديث النبوى وظهرت الكتب الستة التى استوعبت معظم الحديث الصحيح وعنى فيه العلماء بدراسة الاسناد وتاريخ الرجال والتمييز بين الصحيح وغيره ، وكان تدوينهم للحديث يعتمد على الرواية الشفاهية اعتمادا كبيرا ، ولذا قاموا برحلاتهم الطويلة للقاء الشيوخ والأخذ عنهم ، ولم يعولوا على الكتب الا اذا نقلوا أحاديث تلك الكتب بطريق السماع من مؤلفيها ، وتميز هذا القرن الثالث بأنه الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين من رواة السنة النبوية وحفاظها .

وبمقابلة مناهج التصنيف فى القرن الثالث ومقارنتها بما بعدها نستطيع أن نستبين أثرها فى مناهج التصنيف بعد ذلك .

وقد أطل القرن الرابع الهجرى ، والدولة فى تقهقر سياسى خطير ، الا أنه لم يمس الحالة العلمية ، بل استمرت على ازدهارها ونموها ، ولا سيما فى عهد السلجوقيين بالمشرق ، وعهد الدولة الفاطمية بمصر ، ونبغ فيها كبار العلماء وأساطين المفكرين[1] .

واستمرت النهضة الفكرية قائمة على قدم وساق ولم يزل العلماء يجوبون البلاد الاسلامية برحلاتهم العلمية من قطر الى قطر ، ويروى بعضهم عن بعض ، ويقومون بعرض الكتب والمرويات على شيوخهم حتى سنة ٣٩٥ هـ[2] حيث توفى أبو عبد الله محمد ابن اسحاق بن محمد بن يحيى بن منده الذى يعتبر خاتمة الرحالين الذين رحلوا لسماع الحديث ، وبرع علماء هذا القرن فى نقد الرجال وتمحيص المرويات ، وكانت لهم مصنفات نفيسة فى علل الحديث ، وتاريخ الرواة ، وعلوم الحديث عامة ، الا أنهم رغم ذلك كله لم يصلوا الى ما وصل اليه المتقدمون ، بل كانوا ينسجون على منوالهم .

---

(١) تاريخ التشريع الاسلامى للشيخ محمد الخضرى ص ٢٧٨ .

(٢) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى : آدم متز ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده جـ ١ ص ٣٣٥ ، الرسالة المستطرفة ص ٣٨ .

منهج التدوين فى القرن الرابع

معلوم كما سبق أن مصنفات القرنين : الثانى والثالث تميزت بدقة التدوين والجمع ولم تدع الكتب الستة من الصحيح سوى القليل حتى جاء القرن الرابع الهجرى فوجد علماء هذا القرن من كتب الحديث التى جمعت فى القرن الثالث الهجرى موضوعا لبحثهم ، بما كان فى هذه الكتب من التبويب الفقهى والترتيب الموضوعى والتدوين السليم للسنة النبوية مما جعل دراسة هذه المصنفات ـ فى بعض الأحيان ـ تحل محل الأسفار والرحلات العلمية التى كان يقوم بها الأئمة من قبل ، فقد وجد من بين علماء هذا القرن من استطاع عن طريق دراسة مصنفات المتقدمين أن يتضلع فى العلم ، ويكون إماما حافظا فى الحديث دون أن يرحل مثل أبو يونس[3] الصفدى المتوفى عام ٣٤٧ هـ ، وقد قام علماء القرن الرابع بتأليف كتب جديدة يقوم منهج التدوين فيها على الطرق الآتية :

١ ـ تخريج الاحاديث الصحيحة على غرار ما كان يصنع البخارى ومسلم .
٢ ـ طريقة المستدركات .
٣ ـ طريقة المستخرجات .
٤ ـ طريقة المعاجم .
٥ ـ التأليف على العلل .
٦ ـ التأليف على الأبواب .
٧ ـ شرح الاحاديث النبوية .

طريقة تخريج الصحيح

التزم بعض علماء القرن الرابع تخريج الاحاديث الصحيحة على نمط صنيع أهل القرن الثالث وإن لم يبلغوا فى ذلك شأن البخارى ومسلم ، فلم يصلوا الى ما وصلا اليه فى شروطهما ، ومن هؤلاء :

ابن حبان البستى (٣٥٤) هـ

وهو الامام أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد أبو حاتم البستى التميمى ومن شيوخه : الحسين بن إدريس الهروى ، وأبو عبد الرحمن النسائى ، وأبو يعلى الموصلى ، وأبو بكر بن خزيمة

ومن تلاميذه : الحاكم أبو عبد الله ، ومنصور بن عبد الله الخالدى وغيرهما .

---

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢ ص ١٦٤ ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع جـ ١ ص ٣٣٥ .

وكان ابن حبان رحالة زمانه ، التقى بكثير من الشيوخ ، ورحل الى كثير من البلاد ، وكان ذا أفق علمي واسع ، قال الحاكم : « كان من أوعية العلم والفقه والحديث واللغة والوعظ من عقلاء الرجال » وكان الى جانب ذلك عالما بالفسلفة والفلك والطب وغيرهما من العلوم ، قال أبو سعيد الادريسى « كان على قضاء سمرقند زمانا ، وكان من فقهاء الدين ، وحفاظ الآثار عالما بالطب والنجوم وفنون العلم » وله مؤلفات كثيرة منها : « التاريخ » و« الضعفاء » و« فقه الناس » و« المسند الصحيح » : وقد قسم مسنده على الأوامر والنواهى والاخبار والاباحات وأفعال النبى ﷺ ونوع كل قسم الى أنواع ، والكشف فيه عسر ، لانه لم يرتبه على الابواب ولا على المسانيد ، وقام بترتيبه على الابواب : علاء الدين على بن بلبان المتوفى سنة ٩٣٧ وسماه « الاحسان فى تقريب صحيح ابن حبان » .

المسند الصحيح لابن حبان :

يرى بعض الائمة أن ابن حبان متساهل فى التصحيح ولكن تساهله أقل من تساهل الحاكم ، قال الحازمى : « ابن حبان أمكن فى الحديث من الحاكم » . ويظهر تساهل ابن حبان فى قاعدته التى قال فيها : العدل من لم يعرف فيه الجرح اذ التجريح ضد التعديل فمن لم يجرح فهو عدل حتى يتبين جرحه . فابن حبان اذا يحكم بالعدالة اذا انتفت جهالة العين ، وجهالة العين عنده ترفع برواية واحد مشهور ، وهذا الذى ذهب اليه ابن حبان يخالف ما عليه الجمهور ، فان جهالة العين عندهم لا تزول الا برواية عدلين فصاعدا عن المجهول وتعيينهما له ومع ذلك فلا تثبت للمجهول العدالة بروايتهما ، ولقد كان اطلاق اسم « الصحيح » على كتابه فيه تجوز .

وممن سار على طريقة تخريج الصحيح أيضا فى القرن الرابع الهجرى .

قاسم بن اصبغ الاندلسى (٣٤٠)

وهو الامام قاسم بن اصبغ بن محمد بن يوسف الاندلسى ابو محمد ، كان عالما بالسنة ورجالها عالما بالحديث والفقه والعربية .

ومن شيوخه : بقى بن مخلد ، وابن أبى الدنيا ، وابن أبى خيثمة وغيرهم .

ومن تلاميذه : قاسم بن محمد تليمذه ، وعبد الله بن محمد الباجى ، وعبد الوارث ابن سليمان وغيرهم . ومن مؤلفاته : كتاب « الصحيح » ، و« بر الوالدين » ، و« المنتقى فى الآثار » و« الانساب » .

ابو على ابن السكن (٣٥٣)

هو أبو على سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن البغدادى ، ولد سنة أربع وتسعين ومائتين ورحل الى بلاد كثيرة ، وتضلع فى الحديث وعلومه .

ومن شيوخه : أبو القاسم البغوى ، ومحمد بن يوسف الفريرى ، وسعيد بن عبد العزيز الحلبى .

ومن تلاميذه : أبو عبد الله بن منده ، وعبد الغنى بن سعيد ، وعبد الله بن محمد ابن أسد القرطبى .

وأجل مصنفاته : كتاب « الصحيح المنتقى » ويسمى بالسنن الصحاح ، ألفه على طريقة الأبواب ، ودون فيه ما صح عنده من السنن مع حذف الاسانيد .

مقارنة بين جهود هؤلاء وجهود أهل القرن الثالث

سار هؤلاء الأئمة من أهل القرن الرابع فى درب بعض علماء القرن الثالث :

(١) فالتزموا تخريج الاحاديث الصحيحة كالبخارى ومسلم ، ولكنهم لم يصلوا الى ما وصل اليه البخارى ومسلم فى تمحيص الرجال ، وتثقيف الشروط : كاشتراط مسلم المعاصرة ، واشتراط البخارى اللقاء مع المعاصرة ، وتخريجها لاهل الطبقة الأولى والثانية .

(ب) كان أهل القرن الثالث يدونون كتبهم من مروياتهم التى حفظوها عن شيوخهم أو من الكتب مع الرجوع الى اصحابها ، اما فى هذا القرن فقد وجد العلماء فى الكتب المدونة فى القرن الثالث موضوع بحثهم ، والمادة العلمية التى صنفها السابقون . وبهذا تتضح لنا جهود علماء القرن الرابع وانها مدينة فى مناهجها للمتقدمين الذين مهدوا الطريق ، ووضعوا الأصول ، ودونوا الصحيح فكان لهم تأثيرهم فى جهود المتأخرين بالنسبة للتدوين والصناعة الحديثية .

طريقة المستدركات

وتقوم طريقة المستدركات على جمع الاحاديث النبوية التى تكون على شرط أحد الائمة ولم يخرجها فى كتابه ، فالشيخان مثلا لم يستوعبا الصحيح فى كتابيها ، ولا التزماه ، وهناك من الاحاديث ما هو على شرطها ، أو على شرط احدهما ولم يخرجاها فى كتابيها ، فيأتى صاحب المستدرك فيحصى هذه الاحاديث المتروكة ويذكرها فى كتابه . وذلك كما فعل « الحاكم أبو عبد الله النيسابورى » المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ، فألف كتابه المستدرك وأودع فيه من الاحاديث ما كان على شرط الشيخين أو شرط احدهما ، ولم يخرجاه ، كما أودع فيه أيضا ما أداه اجتهاده الى تصحيحه وإن لم يكن على شرط واحد منهما ، وربما أودع فيه ما لم يصح منبها على ذلك (٤) . وما ورد فى مستدرك الحاكم على شرط الشيخين يشير اليه بقوله : « هذا الحديث على شرط الشيخين » وما ورد فيه على شرط احدهما يشير اليه كذلك .

---

(٤) تدريب الراوى ص ٥١ .

وان كان من قبيل ما صححه هو فانه يشير اليه بقوله : هذا حديث صحيح الاسناد . واما مالم يصح فانه ينبه عليه .

وقد قام بتلخيص المستدرك الحافظ الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ .

وقد اختلف العلماء فى الاحاديث التى انفرد الحاكم بتصحيحها : فمنهم من قام بقبول تصحيحه مطلقا .

ومنهم من قال : أنه متساهل ، وقال ابن الصلاح انه : « واسع الخطو فى شرط الصحيح متساهل فى القضاء به ، فالاولى ان نتوسط فى أمره فنقول : ما حكم بصحته ولم نجد ذلك فيه لغيره من الائمة ان لم يكن من قبيل الصحيح فهو من قبيل الحسن . يحتج ويعمل به الا ان تظهر فيه علة توجب ضعفه(٥) أ . هـ .

والذى أرجحه هو ما ذهب اليه بدر الدين بن جماعة : وهو أن ما انفرد بتصحيحه نتتبعه ونحكم عليه بما يليق به من الصحة أو الحسن أو الضعف . لما قيل فيه أنه متساهل فى التصحيح .

وممن ألف على هذه الطريقة : « أبو الحسن على بن عمر بن أحمد الدار قطنى » المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ألف كتابه « الالزامات » وجمع فيه من الاحاديث ما كان على شرط الشيخين ، وليس بمذكور فى كتابيهما وألزمهما ذكره ، وهذا غير لازم ، لأنهما لم يلتزما اخراج كل الصحيح كما سبق .

وابو ذر الهروى عبد الله بن احمد بن محمد بن عبد الله الانصارى المتوفى سنة ٤٣٤ هـ فقد ألف كتابه « المستدرك على الصحيحين » .

---

(٥) مقدمة ابن الصلاح ص ٩ .

المقارنة بين هذه الطريقة وبين جهود علماء القرن الثالث

١ - استفاد اصحاب طريقة المستدركات من شرط البخارى ومسلم ، فدونوا على أساسها ما تركاه ، لأنهما لم يلتزما تخريج كل الصحيح ، فكانت اعمالهم اذاً متممة لاعمال سابقيهم ، وليست مبتكرة ولا جديدة . نعم اجتهد بعضهم فى تصحيح بعض الاحاديث وان لم تكن على شرط الشيخين أو احدهما كالحاكم النيسابورى ، الا أنه لم يبلغ شأنهما فى ذلك لما عرف عنه من التساهل فى التصحيح .

٢ - كان من بين علماء القرن الثالث من اشترط على نفسه اذا أورد حديثا به وهن شديد أن يبينه كالامام أبى داود السجستانى ، وقد تأثر بمثل ذلك بعض أصحاب هـذه الطريقة ، كالحاكم حين يورد ما لم يصح عنده ينبه عليه ، وللتنبيه مزية : هى بيان درجة الحديث لمن ليس من أهل الشأن والخبرة ، كما أن التنبيه كذلك يرفع من قيمة الكتاب المصنف (فان ايراد الضعيف مع بيان حاله لا يقدح فى الكتاب)[٦] .

---

(٦) حجة الله البالغة للدهلوى جـ ١ ص ١٠٦ .

طريقة المستخرجات

يقوم منهج التأليف على هذه الطريقة بأن يأتى المصنف الى كتاب من كتب الحديث كصحيح البخارى مثلا فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب فيجتمع معه فى شيخه أو من فوقه ، وشرطه : ألا يصل الى شيخ أبعد حتى يفقد سندا يوصله الى الاقرب إلا لعذر من علو أو زيادة مهمة . وممن ألف على هذه الطريقة :

الامام أبو بكر احمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن العباسى الاسماعيلى الجرجانى المتوفى سنة ٣٧١ هـ الف الصحيح المستخرج على صحيح البخارى .

الامام يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم بن يزيد النيسابورى الاسفرائينى المتوفى سنة ٣١٦ هـ ألف الصحيح المسند المخرج على صحيح مسلم .

الامام ابو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف الشيبانى النيسابورى المعروف بابن الاخرم المتوفى سنة ٣٤٤ هـ الف المستخرج على الصحيحين .

مقارنة بين جهود أصحاب هذه الطريقة
وجهود علماء القرن الثالث

واضح أن معظم المستخرجات قامت على تخريج احاديث الصحيحين : البخارى ومسلم ، منهم من استخرج أحاديث صحيح البخارى ، ومنهم من استخرج احاديث صحيح مسلم ، والبعض استخرج أحاديث الصحيحين ، وجهود صاحبى الصحيحين تذكر فتشكر ، فقد قعد كل واحد منهما القواعد ، واشترط الشروط ، ومن بين ما اشترطوه الضبط ، والاتقان والسلامة من الشذوذ والعلة ، ومن بينها كذلك : المعاصرة ، وزاد البخارى اللقاء كما سبق بيان ذلك ، وخرج البخارى احاديث الطبقة الأولى ، ومسلم خرج احاديث الاولى والثانية ملتزمين تخريج الصحيح فقط .

اما اصحاب المستخرجات : فقد قاموا بتخريج الاحاديث باسانيد لأنفسهم من غير طريق صاحب الكتاب ولهذا فقد تأتى رواياتهم الجديدة بزيادات فى الاحاديث ليست موجودة فى الاصل . وقد تأتى كذلك : مبينة ما اذا كان صاحب الاصل قد روى عمن اختلط قبل اختلاطه أو بعده وقد تأتى رواية صاحب المستخرج « معينة » اسم الراوى اذا كان صاحب الاصل قد أهمل اسمه وقد تأتى « مميزة » للراوى اذا كان صاحب الاصل ذكره ولم يميزه .

وقد تأتى رواية صاحب المستخرج « سالمة » من بعض العلل التى أعلت بها رواية الاصل ، أو تأتى « متمشية » مع قاعدة عربية خالف فيها صاحب الاصل فيعرف بالاستخراج ان ما فى الاصل وهم من الرواة .

وكان من ثمرات هذه الطريقة كذلك : علو الاسناد ، وتقوية الحديث بكثرة طرقه ، وبهذه المقارنة يتضح لنا ان المستخرجات اما أن تأتى بزيادة أو تأتى مبينة وموضحة فمنزلتها من الاصل منزلة المتمم لما سبق والموضح له .

طريقة المعاجم

ويقوم منهج التأليف على المعاجم بترتيب صاحب الكتاب للصحابة أو الشيوخ على حسب حروف المعجم ومنهم من رتب الاحاديث على حروف المعجم ، وممن صنف على هذه الطريقة :

الامام ابو القاسم سليمان بن احمد بن أيوب الشامى اللخمى الطبرانى المتوفى سنة ٣٦٠ هـ الف « المعجم الكبير » فجمع فيه مسانيد الصحابة مرتبين على حروف المعجم ما عدا القسم الثانى منه وهو قسم الأفعال فانه مرتب على المسانيد ذاكرا عقب كل حديث من أخرجه من الائمة واسم الصحابى الذى خرج عنه [٧] والمعجم الأوسط وقد رتب فيه شيوخه على حروف المعجم ، « والمعجم الصغير » وهو عن كل شيخ له حديث واحد والقارىء لهذه الكتب يدرك أنها متأثرة فى منهجها الى حد كبير بطريقة التصنيف على المسانيد التى سلكها الامام احمد بن حنبل وغيره فى القرن الثالث ، وبهذا يتضح أثر المتقدمين فى المتأخرين .

طريقة التصنيف على العلل

وهذه الطريقة تعتبر أدق الطرق فى التأليف ، ولا يقف عليها الا من أوتى حظا وافرا من المعرفة التامة بالرواة ومراتبهم ، وفى هذه الطريقة يقوم المصنف بجمع طرق الحديث ، والنظر الى الرواة ، حتى يتبين اختلاف ضبطهم واتقانهم ، فيستطيع معرفة الحديث المعلول فيحكم بعدم صحته ، أو التوقف فيه . فالعلة كما سبق بيانها فى الباب الثالث : هى سبب خفى غامض يقدح فى صحة الحديث . . . وممن ألف على هذه الطريقة من أهل القرن الرابع : الامام ابو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن إدريس التميمى الحنظلى الرازى المتوفى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، ألف كتاب العلل ورتبه على أبواب الفقه والامام ابو الحسن الدار قطنى المتوفى سنة ٣٨٥ هـ .

---

(٧) الرسالة المستطرفة ص ١٨٣ .

التأليف على الأبواب

وقد ألف على هذه الطريقة الامام الدار قطنى ٣٨٥ كتابه « السنن » الذى جمع فيه بين الصحيح والحسن والضعيف ، بل والموضوع على ندرة ، ومن بين الموضوعات ما نبه عليه الدار قطنى ومنها ما لم ينبه عليه .

الشرح

وقد عنى علماء القرن الرابع بشرح الاحاديث النبوية كالامام احمد بن محمد بن ابراهيم الخطابى البستى المتوفى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ٣٨٨ هـ الف كتاب « معالم السنن » شرح سنن أبى داود ، وكتاب اعلام السنن شرح صحيح البخارى وهكذا . . . .

المقارنة

ونلاحظ على كل من الطريقتين : الخامسة (التصنيف على العلل) والسادسة (التصنيف على الابواب) ان كلا منهما قد طرق التأليف عليها علماء القرن الثالث ، وأنهم كانوا اكثر تصنيفا وأوسع باعا من أهل القرن الرابع الذين ساروا على نهجهم .

أما الطريقة الاخيرة « الشرح » ففيها تتجلى عناية المتأخرين بمصنفات المتقدمين خاصة أهل القرن الثالث ، فتناولوا مصنفاتهم بالشرح والتحليل ، وقد خلفوا فى هذا المضمار من الكنوز والنفائس ما يشهد لهم بجهود مشكورة فى خدمة السنة النبوية ، حيث استنبطوا من مؤلفات أهل القرن الثالث ما تضمنته من احكام وآداب وقواعد بلاغية ونحوية ، وكان للصحيحين من العناية الخاصة ما يدل على منزلتهما السامية فى نفوس المتأخرين .

منهج التصنيف من القرن الخامس
الى سقوط الخلافة العباسية

ومن القرن الخامس حتى نهاية الخلافة العباسية ، عندما سقطت بغداد فى ايدى التتار على يد (هولاكو) سنة ٦٥٦ هـ فى هذه المرحلة اقتصرت أعمال العلماء على الجمع والترتيب أو التهذيب لكتب السابقين .

ويقوم منهج التصنيف فى هذه المرحلة على تدوين ما تفرق فى كتب الاولين بجمع ما اتفق عليه الشيخان ، أو التقريب والاختصار بحذف الاسانيد واقتصارهم أحيانا على المتون واحيانا أخرى على بعضها أو اقتصارهم على جمع أحاديث الاحكام والترغيب والترهيب ومن هؤلاء :

١ - من قام بجمع احاديث كل من صحيح البخارى وصحيح مسلم فى مصنف واحد ، وممن قام بالتصنيف على هذه الطريقة : اسماعيل بن احمد المعروف بابن الفرات المتوفى سنة ٤١٤ هـ ، ومحمد بن نصر الحميدى الاندلسى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ، وربما زاد زيادات ليست فيهما ، وحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٦ هـ .

٢ - ومنهم من قام بالجمع بين احاديث الكتب الستة : الصحيحان ، وموطأ مالك ، وسنن النسائى وسنن ابى داود ، وجامع الترمذى ، وممن صنف على هذه الطريقة : احمد بن رزين بن معاوية العبدى السرمسطى المتوفى سنة ٥٣٥ هـ فى كتابه (تجريد الصحاح) .

٣ - ومنهم من جمع بين احاديث من كتب مختلفة مثل : « مصابيح السنة » للامام حسين بن مسعود البغوى المتوفى سنة ٥١٦ هـ جمع فيه ٤٤٨٤ حديثا من الاحاديث الصحاح ، وهى التى اخرجها الشيخان أو احدهما ، والاحاديث الحسان وهى التى اخرجها أبو داود والترمذى وغيرهما ، وما فيها من ضعف ولم يذكر المنكر ولا الموضوع : ومنها : « جامع المسانيد والالقاب » لابى الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ جمع فيه بين الصحيحين ، ومسند احمد ، وجامع الترمذى وقد رتبه ابو العباس احمد

ابن عبد الله المحب الطبرى المتوفى سنة ٩٦٤ هـ ومنها : « بحر الاسانيد » للامام الحافظ الحسن بن احمد السمرقندى المتوفى سنة ٤٩١ جمع فيه مائة الف حديث .

٤ - ومنهم من دون احاديث منتقاة فى الاحكام والمواعظ مثـل كتاب : « منتقى الاخبار فى الاحكام » للحافظ مجد الدين ابى البركات عبد السـلام بن عبد الله بن ابى القاسم الحرانى المعروف بابن تيمية المتوفى سنة ٦٥٢ هـ انتقاه من صحيحى البخـارى ومسلم ومسند الامام احمد وجامع الترمذى والسنن للنسائى وأبى داود وابن ماجه ، وشرحه محدث اليمن محمد بن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ فى كتابه « نيل الاوطار » ومثل كتاب « السنن الكبرى » للبيهيقى أحمد بن حسين المتوفى سنة ٤٥٨ هـ ، وله ايضا كتاب « السنن الصغرى » ومثل كتاب « الاحكام الصغرى » للحافظ ابى محمد بن عبد الخالق الاشبيلى المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٦٠٠ هـ جمع فيه احاديث الاحكام التى اتفق عليها البخارى ومسلم ، ومثل كتاب « الترغيب والترهيب » للحافظ عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

٥ - ومنهم من صنف على طريقة الاطراف وهى ان يذكروا طرفا من الحديث يدل على بقيته ثم يجمعوا اسانيده إما على وجه الاستيعاب واما مقيدة بكتب مخصوصه مثل : اطراف الصحيحين للحافظ ابراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقى المتوفى سنـة ٤٠٠ هـ واطراف الصحيحين لابى محمد خلف بن محمد الواسطى المتوفى سنة ٤٠١ هـ ومنها اطراف السنن الاربعة لابى القاسم على بن الحسن المعروف بابن عساكر الدمشقى المتوفى سنة ٥٧١ هـ رتبه على حروف المعجم وسماه « الاشراف على معرفة الاطراف » ومنها اطراف الكتب الستة لمحمد بن طاهر المقدسى المتوقى سنة ٥٠٧[٨] .

---

(٨) كشف الظنون جـ ١ ص ٢٨٥ .

المقارنة بين جهود علماء هذه المرحلة

وجهود اهل القرن الثالث الهجرى

واذا اردنا ان نقارن بين جهود اصحاب هذه الطريقة وجهود علماء القرن الثالث نرى أن أعمال هذه المرحلة لا تتسم بشىء من الابتكار مثلما اتسمت به اعمال سابقيهم ، وانما سارت خطوات مشكورة فى التقريب والاختصار ، وجمع ما تفرق فى الكتب المصنفة السابقة ، واعمالهم فى ذلك لا تتعدى المواد العلمية المدونة فى القرن الثالث وقد يكون لسابقيهم من أهل القرن الرابع بعض محاولات جديدة أضافوها الى اعمال سلفهم من محاولة تخريج الصحيح على نمط ما صنع البخارى ومسلم ، أو استدراكهم لبعض احاديث صحيحة لم يخرجاها ، او استخراجهم لبعض الاحاديث باسانيد لانفسهم ، أما أصحاب هذه المرحلة فلم تكن لهم أية اضافات أو زيادات على ما كان موجودا قبلهم سوى التقريب والإختصار والجمع .

وليس معنى هذا ان اصحاب هذه الطريقة لم يكن لهم من جهد مشكور فى خدمة السنة النبوية وتدوينها ، فاننا لا نغمط القوم ، وانما نسجل هنا ما قام به علماء هذه المرحلة من انتقاء احاديث الاحكام من الوف الاحاديث النبوية وجمعها فى مصنف واحد ، فسهلوا للباحثين الطريق ، كما مهدوا السبيل لدعاة الفضائل والاداب والموجهين والوعاظ دون عناء أو مشقة ، كما قاموا بضم احاديث الكتب المختلفة بعضها الى بعض أو اختصارها . وفى كل ذلك تذليل للصعوبات امام الباحثين فى السنة ومحاولة دراستها وتناولها من أقرب طريق .

منهج التصنيف فى الفترة ما بين نهاية الخلافة العباسية الى عصرنا الحاضر

قبل منهج التصنيف فى هذه المرحلة نحب أن نجلى الموقف العلمى بكلمة يسيرة : فى هذه المرحلة ركدت الرحلات العلمية وانقطع الاتصال بين العلماء بعد ان كانت الاقطار الاسلامية حلقات متصلة ، متماسكة الجوانب ، وقد حدث هذا الانفصال بسبب ما قامت به اوربا من بث روح الفرقة والقضاء على شوكة المسلمين ومكنهم من ذلك غفلة المسلمين واختلافهم حتى قضى على الخلافة العثمانية ، ولم يتجاوز المسلمون بلادهم ، فتوقفت الرحلات العلمية ، ولم يعد بعد الرواية الشفاهية من ظهور فكانت « الاجازة والمكاتبة » ، الا ما كان من بعض المخلصين لتراثهم الذين استعذبوا الكد والجد فى سبيل شريعتهم ، فقاموا برحلات كانوا يجلسون فيها للاملاء واثراء الحركة العلمية ، والعمل على نهضة السنة النبوية ، ومن هؤلاء : الحافظ زين الدين العراقى ٨٠٦ هـ ، وشهاب الدين بن حجر ٨٥٢ هـ فكانوا بوارق لامعة فى جو ملبد خانق ، فلم يقدر للاجازة والمكاتبة الذيوع ، وانما عكف العلماء على كتب الاولين اختصارا وتخريجا وشرحا ، وعندما دالت دولة المماليك غربت معها الجهود العلمية لتبزغ فى الهند والحجاز حيث وجدت صدورا أرحب ، وآفاقا أوسع .

واما عن المناهج التى سارت عليها جهودهم العلمية ، فان الناظر الى اعمال العلماء آنئذ يجد أنها كانت مقتصرة على دراسة كتب السابقين ، انتقاء وترتيبا وتخريجا وتهذيبا ، ومن أنواع الكتب المصنفة فى هذه المرحلة .

١ - **كتب الزوائد** : وفيها يقوم العلماء باخراج الاحاديث الزائدة فى كتاب على آخر وتدوينها فى مصنفات خاصة لهم ، وذلك لأن كتب المتقدمين كانت تتفاوت من حيث ما تحتوى عليه قلة وكثرة ، فنهض علماء هذه المرحلة بتمييز الاحاديث الزائدة فى مصنف على آخر ومن هذه الكتب كتاب : « اتحاف المهرة بزوائد العشرة » أى على الكتب الستة ، والمسانيد العشرة هى : مسند ابى الوليد الطيالسى ، والحميدى ، ومسدد وابن أبى عمر ، وابن راهويه ، وابى بكر بن ابى شيبة ، واحمد بن منيع ، وعبد بن حميد ، والحارث بن محمد بن ابى اسامة ، وأبى يعلى الموصلى ومنها كتاب « زوائد مسند احمد على الكتب الستة » .

٢ - **كتب الجوامع العامة** : وفيها جمع العلماء بين جملة من الكتب فى مؤلف واحد ككتاب جامع المسانيد والسنن لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ جمع فيه بين الكتب الستة ومسانيد احمد والبزار وأبى يعلى والمعجم الكبير للطبرانى ، ومنها « جمع الجوامع » للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ جمع فيه بين الكتب الستة وغيرها وكان يقصد جمع السنن بأسرها ، وذلك غير ممكن .

٣ - **كتب جامعة لاحاديث الاحكام** : ككتاب « الالمام فى احاديث الاحكام » لابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ جمع فيه المتون دون أسانيدها ، وكتاب « بلوغ المرام من احاديث الاحكام » لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ واشتمل على الف واربعمائة حديث فى الاحكام .

٤ - **تخريج الاحاديث المذكورة فى مصنفات العلوم المختلفة** ، وهذه الاحاديث أوردها بعض المصنفين فى العلوم المختلفة كالفقه وأصوله والتفسير وشرح الاحاديث والعقائد واللغة وجاءوا بها للاستدلال أو الاستشهاد ، دون بيان لدرجتها من الصحة أو الضعف ، فتصدى بعض الحفاظ لتخريجها . وبينوا مواضعها وجمعوا ذلك فى كتاب على حدة مثل : « تخريج احاديث تفسير الكشاف » للحافظ جمال الدين الزيلعى المتوفى سنة ٧٦٢ هـ « تحفة الراوى فى تخريج احاديث البيضاوى » للشيخ عبد الرؤوف المغاورى والشيخ محمد همات زادة المتوفى سنة ١١٧٥ هـ .

٥ - **تخريج الاحاديث المشتهرة على الالسنة** : وهذا النوع من الاحاديث دار على ألسنة كثير من الناس كحكمة أو مثل ، وراج بين عامتهم ، ومنه الصحيح ومنه الضعيف ومنه الموضوع ومنه الحكمة ومنه المثل ، فانبرى بعض العلماء ليطلعوا المسلمين على حقيقة الامر فألفوا كتبا فى هذا النوع ككتاب « المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الاحاديث المشتهرة على الالسنة » للحافظ السخاوى . وكتاب « كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس » للحافظ اسماعيل ابن محمد العجلونى المتوفى سنة ١١٦٢ هـ .

٦ - **كتب الاطراف** ، وفيها يذكر طرف من الحديث يدل على بقيته ككتاب « أطراف مسند الامام أحمد » و « أطراف مسند الفردوس » لابن حجر و« اطراف صحيح ابن حبان » للعراقى .

هذه هى مناهجهم فى هذا الدور ، وهناك غير ذلك بعض الشروح والمختصرات .

المقارنة بين جهود علماء هذه المرحلة وجهود علماء القرن الثالث الهجرى

واضح من عرض هذه النماذج لجهود علماء هذه المرحلة انها كانت قائمة على الترتيب والتهذيب والانتقاء والتخريج . وانها كمصنفات المرحلة السابقة أفادت من كتب المتقدمين وظهر أثرهم واضحا فى مناهج أصحاب هذه المرحلة ، وهى وإن لم تتسم بالابتكار الا انها كانت محاولات مخلصة وأمينة بذلوها على طول الطريق مستهدفين جمع ما احتوته مصنفات المتقدمين واستيعابه ، بل ان بعضهم كالسيوطى استهدف جمع السنة بأسرها ، وهذا وإن لم يكن ممكنا الا انه كان محاولة ناجحة لتدوين أكبر عدد ممكن من الاحاديث .

كما انهم تناولوا مصنفات سلفهم بالفحص والدراسة ، ومعرفة الزائد على غيره وجمع أحاديث الاحكام لتسهيل مهمة الفقه الاسلامى ، واستخراج ما فى السنة من كنوز ونفائس . كما دفعهم ولاؤهم وحبهم للسنة ان اخلصوا العمل ، وسهروا الليالى فى سبيل بيان درجة كثير من الاحاديث المتناثرة فى كتب العلوم المختلفة والاحاديث الدائرة على كثير من الالسنة فتناولوها بالتخريج رغبة منهم فى توضيح حالها للمسلمين حتى يقفوا على حقيقة أمرها ويتميز للناس الصحيح منها من السقيم .

علوم السنة

سبقت الاشارة الى ما صنف من كتب فى علوم السنة بالنسبة للقرن الثالث الهجرى وان علماء هذا القرن صنفوا فى الجرح والتعديل ، ومعرفة الصحابة ، وتاريخ الرواة ، ومعرفة الاسماء والكنى والالقاب . وتأويل مشكل الحديث ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، ومعرفة غريب الحديث ومعرفة علل الحديث . وكانت مؤلفات القرن الثالث فى علم مصطلح الحديث غير مستقلة ، وإنما تابعة لمؤلفات كبيرة كالامام مسلم فى مقدمة صحيحه ، والامام الترمذى فى خاتمة جامعه ، وهكذا . وأما استقلال هذا العلم والتصنيف فى جميع بحوثه فلم يكن الا فى القرن الرابع على يدى الرامهرمزى ٣٦٠ هـ .

واذا القينا النظر على مؤلفات علوم السنة من لدن القرن الرابع الى آخر العصور المتأخرة نرى انها لم تبلغ نضجها وتمامها فى التصنيف الا بعد القرن الثالث ، بخلاف المصنفات الاخرى فى علم الحديث رواية فانها وصلت الى مرحلة التمام والنضج فى القرن الثالث ، ولم يكن أعمال العلماء بعد هذا الا جمعا وترتيبا وتهذيبا .

وفى رأيى أن هذا راجع الى سببين :

الاول : ان علماء القرن الثالث حملوا على عاتقهم مهمة جليلة وشاقة ، وهى تدوين السنة النبوية وتصنيفها ، فعنى بعضهم بتخليصها من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وعنى الآخرون بتخليص الصحيح من غيره وتمييزه منه وهكذا . وفى سبيل هذا العمل المضنى عاشوا للسنة حراسا ساهرين ، لا ينطبق له جفن ولا تلين لهم عزيمة ، وجابوا الاقطار الاسلامية ، وقطعوا المفاوز النائية ، بل ان بعضهم ربما رحل الرحلات الطويلة لسماع حديث واحد ، فانشغالهم بهذا العمل الضخم لم يكن ليمكن لهم من طول البحث او كثرة التصنيف فى علوم السنة خاصة وانهم ليسوا فى حاجة كبيرة الى مثل هذه التصانيف لانهم حملوا مقاييسهم وشروطهم فى السند والمتن وعلى ضوئها دونوا مادونوا مشافهة .

والثانى : ان علماء القرن الرابع لم ينشغلوا بمثل ما انشغل به أهل القرن الثالث الذين كفوهم عناء البحث فوجدوا فى مصنفاتهم ما يريدون .

ثم ان الرواية الشفاهية فى عهدهم فترت والرحلات العلمية قلت ، فكان لديهم نوع من الاستقرار دعاهم لان يتموا ما بدأه سلفهم بالنسبة لعلوم السنة ، فتوفر لهم الوقت وأنارت لهم السبيل بعض بواكير سلفهم من أهل القرن الثالث فأخذوا فى استكمال هذه العلوم حتى بلغت نضجها وكمالها .

واذا تتبعنا مراحل التصنيف فى هذه العلوم نرى انها تمت ونضجت بعد القرن الثالث .

أولا : بالنسبة « للجرح والتعديل » صنف فيه ابن ابى حاتم ٣٢٧ ، وأحمد بن نصر البغدادى ٣٢٣ هـ ، وابن منده ٣٩٥ هـ ، وهؤلاء من أهل القرن الرابع ، كما صنف فيه من أهل القرن الخامس : أبو بكر البرقانى ٤٢٥ هـ وأبو الفضل الفلكى ٤٣٨ هـ ، وأبو الوليد الباجى ٤٧٤ هـ ، وأبو عبد الله الحميدى ٤٨٨ ، ومن أهل القرن السادس : ابن طاهر المقدسى ٥٠٧ ، وأبو موسى المدينى ٥٨١ ، وأبو القاسم بن عساكر ٥٢٣ ، وأبو بكر الحازمى ٥٨٤ ، وعبد الغنى المقدسى ٦٠٠ ، ومن أهل القرن السابع : ابن الصلاح ٦٤٢ ، والحافظ المنذرى ٦٥٦ هـ ، وأبو شامة ٦٢٥ ، وابن دقيق العبد ٧٠٢ ، ومن أهل القرن الثامن ، ابن تيمية ٧٢٨ ، والحافظ المزى ٧٤٢ هـ وابن سيد الناس ٧٣٤ هـ والعراقى ٨٠٦ وابن حجر ٨٥٢ . وهكذا ظهر فى كل عصر من الأئمة الاعلام من وزنوا الرواة بميزان العدل ، ومنهم من تكلم على الضعفاء ومنهم من اقتصر على الثقات ومنهم من جمع بين النوعين .

ثانيا : بالنسبة لمعرفة الصحابة : وهو فن رفيع من الفنون الحديثة يعرف به الاتصال والارسال الف فيه ابو موسى المدينى ، وابن عبد البر وكتابه « الاستيعاب فى معرفة الاصحاب » يعتبر من أحسن المؤلفات فى هذا الفن ، و« أسد الغابة » لابن الاثير ٦٣٠ ، واختصره الحافظ الذهبى ٧٤٨ فى كتابه « التجريد » وابن حجر العسقلانى ٨٥٢ الف كتابه « الاصابة فى معرفة الصحابة » .

ثالثا : علم تاريخ الرواة : ويبحث فى تاريخ كل راو ورحلاته وتاريخ مولده ، ووفاته وأغلب احواله التى لها دخل فى تعديله أو تجريحه ، ومن ثمرات هذا العلم :

(أ) معرفة السابق واللاحق من الاحاديث ، وبذلك يمكن الوقوف على الناسخ والمنسوخ فلا يكون هناك تعارض .

(ب) معرفة ما يقبل من أحاديث الثقات قبل اختلاطهم .

(جـ) معرفة الموضوع من الاحاديث وذلك عن طريق معرفة ما اذا كان البعض لم يلتق بمن حدث عنه ، ومن المصنفات فى ذلك : « الوفيات » لعبد الله ابن احمد بن ربيعة الربغى الدمشقى ٣٧٣ ، ومن العلماء من الف فى رجال الصحيحين ، كابن طاهر المقدسى ٥٠٧ ، ومنهم من الف فى رجال السنن الاربع كأحمد بن احمد الكردى ٧٦٣ ، « تهذيب التهذيب » وتقريب التهذيب لابن حجر ٨٥٢ .

رابعا : معرفة الاسماء والكنى والألقاب : ومن الكتب المصنفة فى ذلك كتاب « المنى فى الكنى » للسيوطى ، وكتاب « الاسماء والألقاب » لابن الجوزى ٥٩٧ .

ومن هذه الانواع كتب مؤلفة فى المتفق والمفترق للخطيب البغدادى وكتب فى المؤتلف والمختلف للدارقطنى .

خامسا : تأويل مشكل الحديث الف فيه ابن الجوزى ٥٩٧ هـ كتابا سماه : « التحقيق فى احاديث الخلاف » .

سادسا : الناسخ والمنسوخ : وممن الف فيه ابو بكر زين الدين محمد بن ابى عثمان الحازمى المتوفى سنة ٥٨٤ وسمى كتابه : « الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار »

سابعا : معرفة غريب الحديث ، وممن الف فيه ابو سليمان الخطابى ٣٧٨ هـ ، وجار الله ابو القاسم الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ ، وابن الجوزى ، وابن الاثير ٦٠٦ هـ وسمى كتابه : « النهاية فى غريب الحديث والاثر » ولخصه السيوطى المتوفى سنة ٩١١ فى كتاب سماه « الدر النثير تلخيص نهاية ابن الاثير » .

ثامنا : معرفة علل الحديث ، الف فيه الدارقطنى وابن حجر ، واسم كتابه « الزهر المكلول فى الخبر المعلول » .

تاسعا : الموضوعات ، الف فيه بعض العلماء كتبا حصرت الاحاديث المكذوبة ، ومنها « تذكرة الموضوعات » لابن طاهر المقدسى و« الموضوعات الكبرى » لابن الجوزى و« اللآلىء المصنوعة فى الاحاديث الموضوعة » للسيوطى و« تحذير المسلمين من الاحاديث الموضوعة على سيد المرسلين » لمحمد البشير ظافر ابى عبد الله المالكى المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ .

هذه نبذة عن بعض انواع هذه العلوم ، وهى كثيرة لا تحصى ، وكما قال الحازمى : « علم الحديث يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ مائة ، كل نوع منها علم مستقل ، ولو أنفق الطالب فيه عمره لما أدرك نهايته ، وقد ذكر ابن الصلاح منها خمسة وستين »[٩] أ هـ .

وقد سبق الكلام عن تاريخ نشأة هذا العلم ، وأن أول من صنف فيه القاضى ابو محمد الحسين بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى المتوفى سنة ٣٦٠ هـ فى كتابه « المحدث الفاصل بين الراوى والسامع » نعم كانت هناك مصنفات قبله ، ولكنها كانت فى بعض الفنون ، اما كتاب الرامهرمزى فيعتبر أعظم ما ألف فى زمانه جمعا لانواع هذا العلم ، وان لم يستوعب جميع المسائل . ثم تتابع التأليف بعد ذلك ، فظهرت الكتب الكثيرة والمنظومات والمختصرات .

---

(٩) تدريب الراوى ص ١٤ .

اثر رواية الحديث
في
رواية العلوم الأخرى

لم يعن العرب قبل الاسلام بالرواية وتصحيح الاخبار وتمحيص المرويات ، لان مروياتهم لم يكن لها من القداسة ما يدعو الى ذلك ، ففيها الاساطير والاحاديث المختلقة .

أما الرواية فى الاسلام ، وفى الحديث خاصة فقد شدد العلماء فيها ، وقعدوا لها القواعد ، وصاغوا لها الشروط ، وأصلوا لها الاصول بعناية فائقة تعتبر أدق ما وصل اليه النقد فى القديم والحديث وكان من مميزات الرواية فى الاسلام وخصائصها الاسناد الصحيح المتصل برواية العدول الضابطين .

ولقد ظل العلماء يتحرون الدقة ، ويعنون بالتثبت من الاخبار ونقدها سندا ومتنا ، ونظروا للاسناد على انه من الدين ، قال عبد الله بن المبارك : « الاسناد من الدين ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء »[10] وقال صالح ابن أحمد الحافظ : « سمعت ابا بكر محمد ابن أحمد يقول » (بلغنى ان الله حفظ هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها : الاسناد ، والانساب ، والاعراب) ويقول محمد بن حاتم بن المظفر : « ان الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالاسناد ، وليس لاحد من الامم كلها قديمهم وحديثهم اسناد وانما هى صحف فى أيديهم وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم وليس عندهم تمييز بين ما الحقوه من الاخبار التى اخذوا عن غير الثقات ، وهذه الأمة انما تنص الحديث من الثقة المعروف فى زمانه المشهور بالصدق والامانة عن مثله حتى تتناهى اخبارهم ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الاحفظ فالأحفظ ، والأضبط فالأضبط ، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة ثم يكتبون الحديث من عشرين وجها وأكثر حتى يهذبوه من الغلط »[11] .

---

(١٠) مقدمة ابن الصلاح ص ١٠٥ .

(١١) شرف اصحاب الحديث ص ٧٩ مخطوط بدار الكتب المصرية .

ومما سبق يتضح أن الاسناد من خصائص هذه الأمة ، وقد رغب كثير من الائمة الحفاظ فى الرحلة الى الاقطار الاسلامية طلبا لعلو الاسناد ، قال الامام أحمد بن حنبل « الاسناد العالى سنة عمن سلف »[١٢] .

وللرواية فى الاسلام أثرها الكبير فى العلوم الاخرى :

فقد تأثر بعلماء الحديث ومناهجهم وأسانيدهم كثير من العلماء فى كثير من علوم اللغة والاداب والتاريخ والسير ، وقلدوا ائمة السنة فيما يأتى :

١ - كانوا يذكرون السند ، فمثلا يقول[١٣] ثعلب فى أماليه : « حدثنى أبو بكر بن الانبارى عن ابى العباس عن ابن الاعرابى ، قال : يقال : لحن الرجل يلحن لحنا فهو لاحن اذا اخطأ ، ولحن يلحن فهو لحن اذا أصاب وفطن » .

٢ - سار كثير من علماء اللغة على نمط علماء الحديث فى ترتيب كلمات اللغة وأطلقوا اصطلاحات يظهر فيها التأثر الكثير باصطلاحات الحديث ، قالوا : فصيح وأفصح وجيد وأجود ، وقالوا أيضا : ضعيف ومنكر ومتروك ، كما صنع رجال الحديث فى قولهم مثلا صحيح وحسن وضعيف وقالوا : أوفى بالعهد أفصح من وفى بالعهد لان الاولى لغة القرآن .

٣ - قاموا بتجريح بعض الرواة وتعديلهم شأنهم فى ذلك شأن علماء السنة فعدلوا الخليل بن أحمد وأبا عمرو بن العلاء ، وجرحوا قطربا .

٤ - كانت لهم محاولات فى تدوين الكلمات ، وكانت لهم طريقتان الاولى دونوا فيها الكلمات حسبما اتفق دون ترتيب والثانية : وضعوا الكلمات المتعلقة بموضوع واحد فى موضع واحد كما وضع المحدثون بالنسبة لمرحلة التدوين على المسانيد وعلى الأبواب .

٥ - يظهر للناظر فى كتب تراجم الادب صيغة المحدثين واضحة ككتاب الاغانى فاننا نراه يسير على غرار اسناد المحدثين ، كقوله مثلا: أخبرنى الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن ابى عبيدة ، قال : بلغنى أن هذا البيت فى التوراة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لايذهب العرف بين الله والناس

وكانت المؤلفات فى تراجم الشعراء وطبقاتهم على نمط طبقات المحدثين كما صنع ابن سلام حيث وضع طبقات الشعراء ، وابن قتيبة ، كل ذلك على نمط صنيع المحدثين .

---

(١٢) الباعث الحثيث لابن كثير ص ١٦٠ .

(١٣) ضحى الاسلام : احمد أمين جـ ٢ ص ٢٥٨ .

المقارنة بين رواية الحديث
ورواية العلوم الأخرى

لم تبلغ الرواية فى العلوم الاخرى شأن ما بلغته رواية الحديث ، ولم تلق من العناية ما لقيته لدى المحدثين من دقة النقد وتمحيص المرويات ولم يتمسك رواة العلوم الاخرى بالاسناد طويلا كما تمسك به المحدثون ، فلم نر لعلماء اللغة مثلا معجما مسندا كما هو الشأن فى صحيحى البخارى ومسلم ، بل ان ما جمعه علماء اللغة لم يكن كله فى درجة واحدة من الثقة والصحة ، فقد تسلل اليه الوضع والفساد ، وحامت حوله الشكوك والشبهات ويرجع ذلك الى أسباب يمكن اجمالها فيما يأتى :

(ا) ان سائر العلوم واللغات فيما سوى القرآن الكريم والسنة النبوية لم تتمتع بالقداسة والاكبار كما هو الشأن فى هذين الاصلين الشريفين

(ب) ان الالفاظ اللغوية لا تقع تحت حصر ، فلو حاول العلماء تدوين كل كلمة وكل اشتقاق عن طريق الاسناد لوصل بهم الأمر مدى لا يحصى .

(جـ) ان بعض علماء اللغة لم يكونوا على جانب كبير من الثقة فيما يدونونه كما هو الحال بالنسبة للمحدثين .

(د) اخذ بعض علماء اللغة عن الكتب والصحائف فى العصور الاولى ولم تكن يومئذ منقوطة ولا مشكولة ، الا ما كان فى القرآن الكريم فقط . وهكذا نرى أن هذه المحاولات انما كانت خطوات عابرة وأمثلة قاصرة ولم يبلغ هؤلاء ولا غيرهم من المؤرخين وكتاب السير شأن المحدثين لأن النظرة عند كل منهم مختلفة ، فالمحدثون نظروا على انه دين وتشريع له قداسته وصيانته واحترامه ، أما كتاب التاريخ والادب واللغة فلم تصل نظرتهم فيما دونوه الى ما وصلت اليه نظرة أهل الحديث .

ويتضح لنا الفرق بين النظرتين بما صنعه ابن جرير الطبرى فى كتابه التفسير حيث تحرى الدقة فى الرواية أكثر مما صنع فى كتابه التاريخ ، وهذا راجع الى تغاير النظرتين .

وصلى الله على صاحب السنة المطهرة سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المراجع

١ - القرآن الكريم .
٢ - أبو هريرة راوية الاسلام للاستاذ محمد عجاج الخطيب طبع مطبعة مصر « سلسلة أعلام العرب عدد ٢٣ » .
٣ - الاجوبة الفاضلة للاستاذ محمد عبد الحى اللكنوى الهندى طبع مكتب المطبوعات الاسلامية بحلب .
٤ - أحمد بن حنبل للاستاذ احمد عبد الجواد الدومى الطبعة الأولى سنة ١٣٨٠ هـ .
٥ - أحمد بن حنبل امام أهل السنة للاستاذ عبد الحليم الجندى طبع مطابع الاهرام سنة ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .
٦ - اختلاف الحديث للامام الشافعى طبع بولاق سنة ١٣٢٦ هـ .
٧ - الادب المفرد للامام البخارى طبع المطبعة السلفية سنة ١٣٧٩ هـ .
٨ - ارشاد السارى لشهاب الدين القسطلانى طبع بمصر سنة ١٣٢٣ هـ .
٩ - ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول للشوكانى طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٢٧ هـ .
١٠ - الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى طبع بمصر سنة ١٣٢٣ هـ .
١١ - أضواء على السنة المحمدية لمحمود أبى ريه طبع دار المعارف سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م .
١٢ - أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزيه طبع المنيريه .
١٣ - أعلام المحدثين للدكتور محمد محمد أبى شهبة الطبعة الأولى دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٦٣ م .
١٤ - ألفية السيوطى لجلال الدين السيوطى تحقيق الاستاذ محمد يحيى طبع مطبعة مصطفى محمد .
١٥ - الامام البخارى محدثا وفقيها الدكتور الحسينى هاشم طبع الدار القومية .
١٦ - الائمة الأربعة : للدكتور احمد الشرباصى ، مطبوعات دار الهلال سنة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م .

١٧ ـ الامام الترمذى للدكتور نور الدين عتر طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .
١٨ ـ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير تحقيق وتعليق الاستاذ / احمد شاكر طبع مطبعة محمد صبيح سنة ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م .
١٩ ـ البخارى : لجنة احياء كتب السنة بالمجلس الاعلى للشئون الاسلامية طبع مطابع الشعب سنة ١٣٨٧ هـ .
٢٠ ـ البداية والنهاية لابن كثير طبع مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م
٢١ ـ ابن حنبل حياته وعصره وآراؤه وفقهه : الاستاذ محمد أبو زهرة طبع دار الفكر العربى .
٢٢ ـ ابن حنبل : للدكتور محمد رجب البيومى طبع الدار القومية للطباعة والنشر .
٢٣ ـ ابن قتيبة : الدكتور عبد الحميد سند الجندى سلسلة أعلام العرب عدد ٢٢ ـ مطبعة مصر .
٢٤ ـ البيان والتعريف فى أسباب وذود الحديث الشريف للمحدث السيد ابراهيم بابن حمزة الحسينى طبع مطبعة البهاء بحلب سنة ١٣٢٩ هـ .
٢٥ ـ تاج العروس للسيد محمد مرتضى الزبيدى ـ المجلد التاسع ـ طبع بيروت سنة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .
٢٦ ـ تأويل مختلف الحديث لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى طبع مطبعة كردستان العلمية بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .
٢٧ ـ تاريخ الاسلام : للدكتور حسن ابراهيم طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة السادسة سنة ١٩٦٢ م .
٢٨ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادى طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ ١٩٣١ م .
٢٩ ـ تاريخ الامم والملوك لابن جرير الطبرى طبع بمصر سنة ١٣٥٧ هـ ١٩٣٩ م .
٣٠ ـ تاريخ التشريع الاسلامى الشيخ محمد الخضرى طبع مطبعة الاستقامة سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .
٣١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطى طبع مطبعة الفجالة سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م .
٣٢ ـ تاريخ الادب العربى لكارل بروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ م الجزء الثالث .
٣٣ ـ تاريخ فنون الحديث : محمد عبد العزيز الخولى ، مطبعة المنار بمصر سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٢١ .
٣٤ ـ التاريخ الصغير للبخارى طبع الهند سنة ١٣٢٥ هـ .

٣٥ - التاريخ الكبير للبخارى طبع الهند سنة ١٣٦٠ هـ .
٣٦ - تبين الحقائق فى كنز الدقائق تأليف الامام فخر الدين عثمان بن على الزيلعى الحنفى طبع مطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٣١٣ هـ .
٣٧ - تحدير المسلمين من الاحاديث الموضوعة على سيد المرسلين لعبد الله محمد البشير ظافر طبع مصر سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م .
٣٨ - تحفة الاحوذى شرح جامع الترمذى .
٣٩ - تدريب الراوى للسيوطى تحقيق الاستاذ / عبد الوهاب عبد اللطيف مكتبة القاهرة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .
٤٠ - تذكرة الحفاظ للذهبى طبع الهند سنة ١٣٣٣ هـ .
٤١ - ترتيب القاموس المحيط : ظاهر احمد الزاوى الطرابلسى مطبعة الرسالة سنة ١٩٥٩ م .
٤٢ - ترجمة الامام أحمد من تاريخ الاسلام الذهبى تحقيق احمد شاكر طبع دار المعارف . . سنة ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م .
٤٣ - تعليق التعليق لابن حجر ، مخطوط بمكتبة الازهر .
٤٤ - تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن حاتم الرازى طبع الهند سنة ١٩٥٢ م .
٤٥ - تقريب التهذيب تحقيق الاستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف طبع دار الكتب .
٤٦ - تقييد العلم للخطيب البغدادى تحقيق الدكتور يوسف العش طبع دمشق سنة ١٩٤٩ م .
٤٧ - تهذيب التهذيب لابن حجر طبع الهند « سنة ١٣٢٥ هـ » .
٤٨ - تهذيب الاسماء واللغات للنووى طبع المنيريه .
٤٩ - توجيه النظر الى أصول الاثر للشيخ طاهر الجزائرى سنة ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م مطبعة الجمالية للخانجى .
٥٠ - تيسير علوم الحديث للدكتور محمد السيد ندا ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر ١٣٩١ هـ ١٩٧٢ م .
٥١ - جامع بيان العلم وفضله لابى عمر يوسف بن عبد البر طبع المطبعة المنيرية .
٥٢ - جامع الترمذى طبع بولاق سنة ١٢٩٢ هـ .
٥٣ - الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبى حاتم طبع الهند سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م .
٥٤ - حجة الله البالغة للشيخ أحمد المعروف بشاه ولى الله الدهلوى الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ .

٥٥ - الحديث والمحدثون الدكتور محمد محمد ابو زهو طبع مطبعة مصر بالقاهرة سنة ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م .
٥٦ - الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى تأليف آدم متز ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة مطبعة لجنة التأليف والترجمة سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ م .
٥٧ - دفاع عن السنة الدكتور محمد أبو شهبة طبع مطبعة الازهر سنة ١٩٦٧ م .
٥٨ - دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين للشيخ محمد الغزالى طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م .
٥٩ - ذخائر المواريث فى الدلالة على مواضع الاحاديث للشيخ عبد الغنى النابلسى مطبعة جمعية النشر والتأليف الأزهرية الطبعة الاولى سنة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ .
٦٠ - رسالة أبى داود الى أهل مكة طبع القدسى القاهرة .
٦١ - الرسالة للامام الشافعى تحقيق أحمد شاكر مطبعة الحلبى سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٤٠ م .
٦٢ - الرسالة المستطرفة لمحمد بن جعفر الكتانى طبع مطبعة دار الفكر بدمشق الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م .
٦٣ - رسوم التحديث فى علوم الحديث مخطوط بدار الكتب المصرية لابى محمد ابراهيم ابن عمر الربعى الجعفرى .
٦٤ - رفع الملام عن الائمة الاعلام لتقى الدين ابن تيمية طبع الهند سنة ١٣١١ هـ .
٦٥ - زهر الربا بشرح المجتبى للسيوطى طبع المطبعة الميمنية .
٦٦ - سنن أبى داود للامام أبى داود السجستانى طبع مصر ١٣٦٩ هـ .
٦٧ - سنن النسائى لابى عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائى بحاشية السندى المطبعة الميمنة سنة ١٣١٢ هـ .
٦٨ - سنن ابن ماجة لمحمد بن يزيد بن ماجة القزوينى بحاشية السندى المطبعة العلمية سنة ١٣١٣ هـ .
٦٩ - سنن الدارمى لابى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى تحقيق وتخريج السيد عبد الله هاشم يمانى شركة الطباعة الفنية المتحدة سنة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .
٧٠ - السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى للدكتور مصطفى السباعى طبع دار العروبة بالقاهرة سنة ١٣٨٠ هـ ١٩٦٢ م
٧١ - السنة النبوية ومكانتها فى التشريع للاستاذ عباس متولى حمادة الدار القومية للطباعة والنشر .
٧٢ - السنة قبل التدوين للاستاذ محمد عجاج الخطيب ، مطبعة مخيمر سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م .

٧٣ - سنة الرسول ﷺ للشيخ محمد الحافظ التيجانى سلسلة مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م .
٧٤ - أسانيد الكتب الستة للشيخ محمد البابلى مخطوط مكتبة الأزهر .
٧٥ - سير أعلام النبلاء - بعض الأجزاء - طبع دار المعارف سنة ١٩٥٥ م ، ١٩٦٢ م .
٧٦ - الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت مطابع دار القلم بالقاهرة .
٧٧ - سير النبلاء - جزء خاص بترجمة ابن حزم - تحقيق سعيد الافغانى ، دار الفكر ببيروت سنة ١٣٨٩ .
٧٨ - شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادى مخطوط بدار الكتب المصرية .
٧٩ - شروط الائمة الستة لابى طاهر المقدسى ، ومعه شروط الأئمة الخمسة للحازمى طبع القدسى بمصر سنة ١٣٥٧ هـ . تعليق الاستاذ الكوثرى .
٨٠ - صحيح البخارى بحاشية السندى طبع دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .
٨١ - صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى سنة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م طبع دار إحياء الكتب العربية بمصر (بالقاهرة) .
٨٢ - صحيح مسلم بشرح النووى المطبعة المصرية سنة ١٣٤٩ هـ ، ونسخة أخرى تحقيق عبد الله احمد أبو زينه طبع دار الشعب سنة ١٣٩٠ هـ .
٨٣ - ضحى الاسلام لاحمد أمين الطبعة السادسة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٨٤ - الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ثابت بن الواقدى طبع دار بيروت للطباعة والنشر تقديم أحسان عباس .
٨٥ - طبقات الشافعية الكبرى لعبد الوهاب بن تقى الدين السبكى تحقيق عبد الفتاح الحلو طبع مصطفى الحلبى سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م .
٨٦ - أطوار الثقافة والفكر للاستاذ على الجندى وزملائه طبع مصر .
٨٧ - الطبرى : للدكتور احمد محمد الحوفى طبع مطبعة مصر عدد (١٣) من سلسلة أعلام العرب سنة ١٢٨٢ هـ . ١٩٦٣ م .
٨٨ - عصر المأمون للدكتور احمد فريد رفاعى .
٨٩ - العقيدة والشريعة فى الاسلام لجولد تسيهر ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وزملائه طبع دار الكتاب العربى سنة ١٣٧٨ هـ سنة ١٩٥٩ م .
٩٠ - التعقبات على الموضوعات للسيوطى طبع حجر بالهند .
٩١ - علوم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح لابى عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى الشهير بابن الصلاح طبع مطبعة الاستقامة سنة ١٣٢٦ هـ .

٩٢ - علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحى الصالحى الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٨ هـ . سنة ١٩٦٩ .

٩٣ - عمدة القارى شرح صحيح البخارى طبع المنيرية .

٩٤ - عون المعبود لشمس الحق العظيم أبادى طبع الهند سنة ١٣٢٣ هـ .

٩٥ - فتح البارى لشهاب الدين بن حجر العسقلانى الطبعة الاولى بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٢٩ هـ .

٩٦ - فتح المغيث بشرح ألفيه الحديث للحافظ عبد الرحيم العراقى تعليق الاستاذ محمود ربيع الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٠٥ هـ سنة ١٩٣٧ م .

٩٧ - فجر الاسلام لاحمد امين طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثالثة سنة ١٣٥٤ هـ . سنة ١٩٣٥ م .

٩٨ - فى رحاب السنة « للكتب الصحاح السنة » الدكتور محمد محمد أبو شهبة سلسلة مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر سنة ١٣٨٩ هـ . سنة ١٩٦٩ م .

٩٩ - فى رحاب السنة للدكتور عبد الله محمود شحاته مطابع الاهرام سنة ١٣٩١ هـ .

١٠٠ - قواعد التحديث لجمال الدين القاسمى تحقيق وتعليق محمد بهجة البيطار الطبعة الثانية مطبعة عيسى الحلبى سنة ١٣٨٠ هـ .

١٠١ - القرآن والنبى للدكتور عبد الحليم محمود الطبعة الاولى طبع دار النصر للطباعة .

١٠٢ - القول المسدد فى الذب عن المسند للامام احمد تأليف أبى الفضل بن حجر العسقلانى طبع الهند الطبعة الأولى .

١٠٣ - كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة مصطفى عبد الله طبع استانبول سنة ١٣٦٦ هـ . سنة ١٩٤٢ م .

١٠٤ - كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائى طبع الهند .

١٠٥ - كتاب السنة للامام أحمد بن حنبل مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٧٤٧ .

١٠٦ - الكامل فى التاريخ لابن الاثير : مطبع المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ .

١٠٧ - الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى تقديم الشيخ محمد الحافظ التيجانى طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٩٢ هـ . سنة ١٩٧٢ م .

١٠٨ - الكمال فى أسماء الرجال للحافظ أبى محمد عبد الغنى بن سرور المقدسى مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٦ مصطلح .

١٠٩ - اللآلىء المصنوعة فى الاحاديث الموضوعة للسيوطى الطبعة الأولى بالمطبعة الادبية سنة ١٣١٧ هـ .

١١٠ ـ لسان العرب لابن منظور الافريقى المصرى « المجلد الثالث عشر » طبع ببيروت سنة ١٣٧٥ هـ . سنة .
١١١ ـ لسان الميزان لابن حجر طبع الهند سنة ١٣٣١ هـ .
١١٢ ـ مالك حياته وعصره وآراؤه وفقهه : الشيخ محمد أبو زهرة ، دار الثقافة القومية للطباعة . الطبعة الثانية .
١١٣ ـ مالك تجارب حياة : للاستاذ أمين الخولى طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر مطبعة مصر عدد (١١) .
١١٤ ـ المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الاسلامية سنة ١٣٨٦ هـ . طبع الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية بالقاهرة .
١١٥ ـ المبرد حياته وآثاره : للاستاذ احمد حسنين القرنى والاستاذ عبد الحفيظ فرغلى المطبعة الثقافية سنة ١٩٧١ م . أعلام العرب عدد (٩٤) .
١١٦ ـ المبشرون والمستشرقون فى موقفهم من الاسلام الدكتور محمد البهى مطبعة الازهر .
١١٧ ـ محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية للاستاذ محمد الخضرى طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة .
١١٨ ـ المدخل الى مذهب الامام احمد بن حنبل للعلامة ابن بدران الدمشقى طبع المنيرية .
١١٩ ـ المدخل لدراسة الفقه الاسلامى للاستاذ محمد مصطفى شلبى الطبعة الأولى سنة ١٣٨٦ هـ . مطبعة دار التأليف .
١٢٠ ـ مرآن الجنان لليافعى طبع الهند سنة ١٣٣٨ هـ .
١٢١ ـ المستدرك على الصحيحين لابى عبد الله النيسابورى الحاكم طبع حيدر اباد بالهند سنة ١٣٤٢ هـ .
١٢٢ ـ المسند للامام احمد بن حنبل تحقيق الاستاذ احمد محمد شاكر طبع دار المعارف سنة ١٣٦٥ هـ .
١٢٣ ـ مسند ابن راهويه مخطوط بدار الكتب المصرية « المجلد الرابع » رقم ٤٥٤ حديث .
١٢٤ ـ مصنف ابن أبى شيبه « بعض أجزاء منه » مخطوط بدار الكتب المصرية جـ ١ ، جـ ٣ رقم ٨٠٢ .
١٢٥ ـ مقدمة تحفة الاحوذى للامام أبى يعلى محمد بن عبد الرحيم المبارك كفورى تحقيق الاستاذ عبد الرحمن عثمان طبع مطبعة الفجالة .

١٢٦ - مكانة السنة فى الاسلام للدكتور محمد محمد أبو زهرة طبع مطبعة قاصد خير سنة ١٣٩١ هـ الطبعة الأولى .

١٢٧ - المنتخب من السنة النبوية الشريفة مطابع الاهرام التجارية إصدار المجلس الاعلى للشئون الاسلامية سنة ١٩٣٠ هـ .

١٢٨ - مناقب الامام احمد لابن الجوزى .

١٢٩ - المنطق الحديث ومناهج البحث : الدكتور محمود قاسم الطبعة الثالثة مطبعة احمد مخيمر .

١٣٠ - من فلسفة التشريع الاسلامى للاستاذ فتحى رضوان طبع دار الكاتب العربى بالقاهرة .

١٣١ - المنهل العذب المورود شرح سنن أبى داود للشيخ محمود محمد خطاب السبكى طبع مطبعة السعادة الطبعة الاولى سنة ١٣٥١ هـ .

١٣٢ - المنهج الحديث فى علوم الحديث للدكتور محمد محمد السماحى طبع دار الأنوار سنة ١٣٨٢ هـ .

١٣٣ - الموطأ للامام مالك بن أنس تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى طبع الحلبى سنة ١٣٧٠ هـ .

١٣٤ - الموطأ للامام مالك - نسخة أخرى - تحقيق الاستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف طبع دار التحرير نشر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية سنة ١٣٨٧ هـ .

١٣٥ - ميزان الاعتدال للذهبى طبع مطبعة السعادة الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ هـ .

١٣٦ - النبأ العظيم للدكتور محمد عبدالله دراز طبع مطبعة الاستقامة سنة ١٣٨٩ هـ .

١٣٧ - النجوم الزاهرة : يوسف بن تغرى بردى الطبعة الأولى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ .

١٣٨ - نزهة النظر شرح نخبة الفكر طبع الاستقامة بمصر سنة ١٣٦٨ هـ .

١٣٩ - نظرة عامة فى تاريخ الفقة الاسلامى للدكتور على حسن عبد القادر الطبعة الثالثة مطبعة السعادة سنة ١٩٦٥ .

١٤٠ - النكت لابن حجر مخطوط بمكتبة الازهر .

١٤١ - النكت الطريفة فى التحدث عن ردود ابن أبى شيبه على أبى حنيفة للاستاذ محمد زاهد الكوثرى مطبعة الانوار سنة ١٣٦٥ هـ .

١٤٢ - هدى السارى لابن حجر العسقلانى طبع بولاق سنة ١٣٠١ هـ .

١٤٣ - وفيات الاعيان لابن خلكان طبع المطبعة اليمنية سنة ١٣١٠ هـ .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب الأول

الحالة السياسية والفكرية فى القرن الثالث الهجرى :

الفصل الأول

ويشتمل على ثلاثة بحوث :

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثانى

وفيه ثلاثة بحوث :

الموضوع | الصفحة

الباب الثانى

تدوين الحديث فى القرن الثالث الهجرى :
ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول

وفيه بحثان :

الفصل الثانى

ويشتمل على بحثين :

الأول : الصحيحان والثانى السنة الأربعة :

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث

الفصل الأول

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الفصل الثانى

علوم ومصنفات صاحبت تدوين السنة فى القرن الثالث وفيه بحثان :

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ٢٥٠٦ / ٨٩
الترقيم الدولى ٨ - ٢٣٢ - ١٧٢ - ٩٧٧

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩